المركز القومى للترجمة

المشروع القومى للترجمة

أحمد كسروى تبريزى

تاريخ الحكم النيابى فى إيران

الجزء الأول

ترجمة وتقديم: هويدا عزت محمد أحمد
مراجعة: بديع محمد جمعة



1351



من الأسباب التى حثت السيد أحمد كسروى على القيام بالتأريخ لهذه الفترة ضرورة الوقوف على حقيقة الثورة الدستورية (1906م) وكنهها، والثناء على أولئك الذين حملوا على عاتقهم مسئولية القيام بها وتحملوا الكثير من أجلها، غير أن التاريخ بخسهم حقهم، فقدمهم كسروى إلى قرائه بالصورة التى تليق ومكانتهم والدور الذى قاموا به. وقد أمدنا كسروى من خلال مؤلفه هذا بمعلومات مهمة فى جميع النواحى السياسية والاجتماعية والاقتصادية فى الفترة التى أرخ لها، كما أنه بسط كلامه فى دقة ملحوظة؛ حيث تعرض لذكر ما وقع من أحداث كأنه كان شاهد عيان عليها جميعًا، وقد ساعده على ذلك تقربه بمن أسهموا فى هذه الأحداث وعلاقاته بهم، وهذا ما يضيف إلى الكتاب قيمة وأهمية. كما أنه لم يقف موقفًا سلبيًا من الأحداث التى ذكرها، بل كان يحكم فكره فيما يدور من أحداث، وهذا ما يجعله المؤرخ الذى يعول على كلامه لأنه يتحرى الدقة فى إيراد الأحداث، وجاء تاريخه فى معظمه مما لا يتطرق إليه الشك، حيث اعتمد فيه على مصادر تاريخية موثوق فيها، فجعل أصحاب المصادر اللاحقة يأخذون عنه عن ثقة ويجعلون كتابه فى صدر مراجعهم ومصادرهم، وهذا ما يدل على المكانة العلمية والتاريخية التى حظى بها الكتاب الذى بين أيدينا الآن.

تصميم الغلاف: نادية كشك

تاريخ الحكم النيابى فى إيران
(الجزء الأول)

المركز القومى للترجمة
إشراف: جابر عصفور

- العدد: ١٣٥١
- تاريخ الحكم النيابى فى إيران (ج١)
- أحمد كسروى تبريزى
- هويدا عزت محمد أحمد
- بديع محمد جمعة
- الطبعة الأولى ٢٠٠٩

هذه ترجمة الجزء الأول من كتاب:

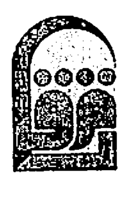
تاريخ مشروطه ايران

تأليف: احمد كسروى تبريزى

شارع الجبلاية بالأوبرا – الجزيرة – القاهرة. ت: ٢٧٣٥٤٥٢٤ – ٢٧٣٥٤٥٢٦ فاكس: ٢٧٣٥٤٥٥٤
El Gabalaya st. Opera House, El Gezira, Cairo.
E-mail: egyptcouncil@yahoo.com Tel: 27354524-2735426 Fax: 27354554

تاريخ الحكم النيابى فى إيران
(الجزء الأول)

تأليـــــف: أحمد كسروى تبريزى
ترجمة وتقديم: هويدا عزت محمد أحمد
مراجعة: بديع محمد جمعة



٢٠٠٩

بطاقة الفهرسة
إعداد الهيئة العامة لدار الكتب والوثائق القومية
إدارة الشئون الفنية

تبريزى، أحمد كسروى.
تاريخ الحكم النيابى فى إيران (ج١) / تأليف: أحمد كسروى تبريزى؛
ترجمة وتقديم: هويدا عزت محمد أحمد؛ مراجعة: بديع محمد جمعة
ط١ ـ القاهرة: المركز القومى للترجمة، ٢٠٠٩.
٣٨٥ ص ؛ ٢٤ سم.
١- الحكم النيابى
٢- إيران - تاريخ
أ- أحمد، هويدا عزت محمد (مترجم ومقدم)
ب- جمعة، بديع محمد (مراجع)
ج- العنوان
٣٢١،٢

رقم الإيداع: ٢٠٠٩/٩٦٧٦
الترقيم الدولى: 9 - 206 - 479 - 977 - 978
طبع بالهيئة العامة لشئون المطابع الأميرية

المحتويات

تقديم

يسعدنى أن أقدم للمكتبة العربية الترجمة الكاملة لكتاب " تاريخ الحكم النيابى فى إيران" تأليف المؤرخ الكبير أحمد كسروى تبريزى. وترجمة الأستاذة الدكتورة هويدا عزت، رئيس قسم اللغات الشرقية بكلية الآداب – جامعة المنوفية. والكتاب سفر ضخم يقع فى ثلاثة أجزاء كبيرة الحجم على الرغم من أنه يتعرض لأحداث فترة تاريخية قصيرة نسبيًا، طولها ثمانى عشرة سنة فقط تبدأ من عام ١٩٠٦م حيث ثار الشعب الإيرانى مطالبًا بحكم دستورى نيابى ينهى الحكم المطلق الجاثم على صدور الإيرانيين لعدة قرون، وكون الحاكم ظل الله فى الأرض، أو أنه يحكم بتفويض إلهى لا يقبل من الشعب غير الخضوع والخنوع لرغباته مهما تجاوزت أخطاؤه كل الشرائع والقوانين.

ولكون الكاتب آذربايجانيًا (آذريا) ولد وعاش فى تبريز عاصمة إقليم آذربايجان، فقد ركز معظم صفحات الكتاب على ما بذله هذا الإقليم قوادًا وشعبًا من تضحيات فى سبيل إرساء دعائم الحكم النيابى فى إيران كلها. وصدور الأمر الملكى بإنشاء المجلس النيابى عام ١٩٠٦م، وعندما حدث عدوان على المجلس وتم ضربه بالمدافع عام ١٩٠٧م. فإذا بأحرار تبريز وغيرها من مدن آذربايجان يشعلون ثورة عارمة ضد الشاه وأعوانه المناوئين للحركة النيابية، ولم تهدأ ثورتهم إلا بعد أن أرغم الشاه على إعادة فتح المجلس النيابى مرة ثانية.

ويحق للقارئ أن يتساءل: لماذا قادت تبريز هذه الثورة، ولم تكن طهران؟ لقد كانت تبريز خلال الفترة الممتدة منذ أواخر القرن التاسع عشر وحتى الربع الأول من القرن العشرين هى النافذة الإيرانية المطلة على العالم الخارجى وبخاصة أوربا. وفيها أنشئت أول مطبعة حديثة، ومنها صدرت أول صحيفة إيرانية، وبها

أنشئت أول مدرسة أمريكية لتدريس اللغة الإنجليزية والعلوم الحديثة، وهذا التحديث هو ما أهلها لأن تحمل لواء المطالبة بالتحديث العام فى إيران، وبضرورة تغيير نظام الحكم من فردى إلى دستورى نيابى. ولاشك أن هذه الدعوة التحديثية قد اصطدمت بعراقيل كثيرة وواجهت تحديات كبيرة، وتحمل زعماؤها تضحيات تفوق الحصر .

ولما كان المؤلف آذريًا ومن سكان تبريز ومواطنيها، فقد حرص على أن يقدم لإيران والعالم تاريخ هذه الثورة موثقًا، وذلك برجوعه إلى جميع المؤلفات السابقة التى تناولت أحداث هذه الثورة، كما استمع إلى كل الذين شاركوا فيها، وما زالوا على قيد الحياة عند تأليفه هذا الكتاب والذى أنهاه عام ١٩٤٠ م، كما رجع إلى جميع الصحف التى واكبت فى صدورها هذه الأحداث، إلى جانب ما رآه بعينيه من أحداث فى فترة شبابه حيث كان يعيش داخل تبريز، وكان هدفه من ذلك أن يقدم للقراء الصورة الحقيقية لهذه الثورة بعد أن شوهها بعض من كتبوا عنها ولم يتحروا الصدق والحيدة فيما كتبوا .

وعلى الرغم من أن بعض قادة الثورة الدستورية كانوا من رجال الدين المستنيرين إلا أن المؤلف قد صب جام غضبه على أكثرهم، حيث كانوا متعاونين مع الشاه ضد الحركة النيابية، وقد رموا زعماء الحركة بالبابية أو البهائية، أى بالشرك كما يفهم العامة فى ذلك الوقت، حيث كان هؤلاء المشايخ يطالبون بالشرعية التى تطلق أيديهم فى الحكم لا بالمشروعية التى تنادى بها الحركة النيابية، ومما قاله كسروى فى ذلك: "ما كان يستدعى الخزى فى هذا الموقف أكثر من أى شىء آخر هو موقف رجال الدين المتعاونين مع البلاط فى العداء للحكم

النيابى، وهم الذين آثروا الجلوس مع الأوباش والقحباء..." لدرجة أن أحدهم أفتى بما يلى:

" لتفعل الفاحشة، ولتسرق، ولتقتل، ولكن لا تقترب من هذا المجلس ..... إن الله يغفر الذنوب جميعًا " !

كما سجل فى كتابه بعض الأشعار التى نشرتها صحف ذلك الزمان منددة بهؤلاء المتاجرين بالدين، ومنها ما ترجمته:

- أشكو إليك يا إلهى من الزاهدين المرائين الذين يخادعون العالم بالعباءة والعمامة.
- يتحدثون عن حرمانية الخمر للخلق، إلا أنهم ثمالى بدماء الأبرياء صباح مساء.
- يقدمون الشعب المسكين إلى قبضة الجلاد، دون خجل من الرسول أو خشية من الله.
- النجدة يا إلهى، فقد جرت الدماء فى تبريز بدلاً من الماء بحكم الشاه وفتوى بعض المشايخ .

ومن العلامات البارزة – أيضًا – فى هذه الثورة الدستورية دور رجال "البازار" فى مساندة الثوار والأحرار وتدعيمهم بالأموال وبانخراطهم فى التدريبات العسكرية وحمل السلاح والمشاركة فى المعارك التى دارت بين الثوار ورجال الحكومة. وهكذا نرى أن البازار الذى لعب دورًا بارزًا فى مساندة الخمينى ضد الشاه محمد رضا پهلوى هو نفسه البازار الذى ساند القائد ستارخان التبريزى فى تصديه لمحمد على شاه وللمناوئين للحركة الدستورية إلى أن تكللت ثورة ستارخان بالنجاح وإجبار الشاه على إعادة فتح المجلس وعودة الحياة النيابية فى إيران مرة ثانية.

ولاشك فى أن الكتاب بأجزائه الثلاثة يعد وثيقة تاريخية مهمة لأحداث الفترة الزمنية التى حددها المؤلف، بل يعد وثيقة كذلك لأحوال الشرق كله ونضاله للقضاء على نظم الحكم الاستبدادية، والوصول إلى أن تحكم الشعوب بنفسها عن طريق المجالس النيابية. ولهذا فإن الكتاب لا يهم الإيرانيين وحدهم بل يهم كل المشرق الإسلامى المناضل والمستمر نضاله حتى اليوم.

* * *

ونتيجة لأهمية الكتاب وكبر حجمه ؛ فقد بذلت الأستاذة الدكتورة هويدا عزت عدة سنوات لإنجاز هذه الترجمة الدقيقة، وقدمت معها دراسة موجزة عن المؤلف وطبيعة هذا الكتاب، مما يعد إضافة جيدة للمكتبة العربية .

ولم يكن بمقدور المترجمة نشر هذا العمل إلا بمساعدة المركز القومى للترجمة، ولذا فإننى أقدم جزيل شكرى وشكر كل المهتمين بدراسة تاريخ الشرق الإسلامى الحديث إلى المركز القومى للترجمة برئاسة الأستاذ الدكتور جابر عصفور، وإلى كل العاملين بهذا الصرح الثقافى الكبير.

والله ولى التوفيق ،،،

أ.د. بديع محمد جمعة

مقدمة المترجم

عنوان الكتاب الذى بين أيدينا الآن هو كتاب "تاريخ الحكم النيابى فى إيران " للسيد أحمد كسروى تبريزى، وقد وقع اختيارى على ترجمة هذا الكتاب لأنه يعد من المصادر المهمة التى أرخت لهذه الفترة من تاريخ إيران الحديث، ولا يمكن لأى باحث فى تاريخ الثورة الدستورية أن يغفل الإشارة إليه أو الاعتماد عليه. وسوف أبدأ هذه الترجمة بالتعريف بالكاتب ثم أتبع ذلك بعرض يتضمن الناحية الشكلية للكتاب ثم الناحية الموضوعية له، موضحة من خلالها الرؤية الخاصة لدى كاتبنا تجاه أحداث الثورة الدستورية وزعمائها، ثم أشير إلى أهم المصادر التى اعتمد عليها المؤلف، وكذلك إلى المنهج التاريخى الذى اتبعه، ومواقفه الخاصة تجاه العلماء والمجاهدين، ثم أعرض وجهة نظره الخاصة حول أسباب فشل الحياة النيابية فى إيران.

السيرة الذاتية للمؤلف :

ولد أحمد كسروى عام ١٨٩٠م فى محلة حكماوار بمدينة تبريز من أسرة شيعية المذهب، كان رجالها من مشاهير علماء الدين، والتحق وهو فى سن مبكرة بمدرسة " ملا بخش على "، وحصل مبادئ التعليم الأولى بَيْد أن الظروف لم تسمح له باستكمال دراسته نظرًا لوفاة والده، فعمل لمدة ثلاثة أعوام فى مصنع لنسج السجاد، ثم التحق بعدها بمدرسة "طالبيه" بتبريز ودرس العلوم الدينية والأدب العربى والمنطق، ومكنته هذه الدراسات من القيام بالإرشاد والإمامة فى أحد المساجد وكان واعظًا متفتحًا غير أنه لم يستطع مواصلة عمله هذا نظرًا لاستياء بعض علماء الدين فى تبريز من آرائه الدينية الخاصة، فنحى هذا العمل جانبًا والتحق بمدرسة "مموريال الأمريكية" عام ١٩١١م، وقام فيها بتدريس الأدب

العربى والفارسى لمدة خمسة أعوام تمكن خلالها من تعلم اللغة الإنجليزية ودراسة التاريخ والجغرافيا والرياضة وعلم الفلك.

وفى صيف عام ١٩١٦م سافر كسروى إلى القوقاز وعاش فترة فى مدينة تفليس والتقى هناك ببعض الأحرار وتأثر بأفكارهم الثورية، وبعد عودته انضم إلى الحزب الديمقراطى، وبعد فشل الديمقراطيين وقتل مؤسس الحزب - السيد محمد خيابانى - عاد كسروى إلى تبريز وعين عضوًا فى محكمة الاستئناف، وهناك تصدى للظلم بشتى صوره، إلا أنه عاد ثانية إلى طهران بعد سقوط حكومة السيد ضياء الدين طباطبائى عام ١٩٢١م، ثم توجه إلى مازندران حيث تم انتخابه عضوًا فى محكمة الاستئناف وهناك اصطدم كسروى - أيضًا - بكل مظاهر الابتزاز وحارب الرشوة وشغل نفسه لفترة بكتابة المقالات المؤيدة لثورة آذربايجان، وكان ينشرها فى جريدة "العرفان" الثورية.

وفى عام ١٩٢٢م توجه كسروى فى مهمة رسمية إلى دماوند ثم إلى زنجان حيث تولى رئاسة المحكمة بها، وفى زنجان كان نفوذ رجال الدين على أشده، فوضعوا العراقيل فى سبيله حيث كان جهاد كسروى منصبًا على إقصائهم عن القضاء وهذا ما أثار عليه حقدهم، وتشكلت جبهة من رجال الدين ضده، بَيْد أنه لم يتراجع عن موقفه؛ مما أفضى إلى قيام ثورة عارمة فى زنجان من قبل المجتهدين ضد رجال القضاء فى ربيع عام ١٩٢٢م واستدعى كسروى إلى طهران ثم أرسل إلى قزوين فى مهمة رسمية.

بعد ذلك أسندت إليه رئاسة محكمة خوزستان، وعندما أصدر رضا شاه أوامره فى نوفمبر عام ١٩٢٤م بتوجيه جيش إلى خوزستان، لقمع فتنة الشيخ خزعل، تم نقل المحاكم إلى الأهواز، وأقام الحاكم العسكرى لخوزستان محكمة عسكرية فى الأهواز، مما دفع كسروى إلى نشر المقالات فى صحيفة الحبل المتين بكلكتا، وشدد النكير فيها على عدم شرعية تصرف العسكريين، كما انتقد خلالها كذلك ديكتاتورية رضا شاه وعدم احترامه للدستور والبرلمان، لذا تغيرت الدوائر

الحكومية على كسروى واضطهده الحاكم العسكرى لخوزستان وعزله فعاد إلى طهران فى ربيع عام ١٩٢٥م وبدأت علاقته منذ ذلك الحين بالمؤسسات العلمية العالمية، حيث انتخب عضوًا فى الجمعية الملكية الآسيوية، والجمعية الآسيوية الجغرافية والأكاديمية الأمريكية، وبعد فترة تمكن من العودة إلى العمل فى محكمة طهران، وبلغ منصب المدعى العام لطهران.

فى تلك الفترة حاولت بعض الشخصيات المرموقة فى وزارة العدل وبعض كبار موظفى الدولة إرغامه على القيام بأعمال تتعارض والقانون بيد أنه رفض، ونتيجة لمسلكه هذا كان لابد من إقصائه بعيدًا، فأوفده وزير العدل مفتشًا على المحاكم فى خراسان، وهناك أمر كسروى بإعادة فتح المحاكم والبت فى المظالم، غير أنه ضاق ذرعًا بالمفاسد من حوله فرجع إلى طهران دون إذن، وتنحى عن العمل القضائى واشتغل بالمحاماة، كما عمل فترة بالتدريس فى كلية التربية والكلية العسكرية.

وبهذه الكيفية تشكلت ضد كسروى جبهتان، إحداهما تتكون من كبار رجال الدولة الذين اتهمهم دومًا بالفساد، وسعت قدر طاقتها للإطاحة به. والثانية تألفت من بعض كبار رجال الدين الشيعى الذين ناصبهم العداء وعمل على إقصائهم من العمل القضائى. وبسبب جرأته فى عرض آرائه وانتقاداته لبعض المعتقدات المذهبية الخاطئة وإحراقه للكتب قام رجال الدين فى طهران بتكفيره ردًا على ما كتبه ضد التشيع والشيعة، وأدى الأمر فى النهاية إلى اغتياله على يد أحد قادة منظمة "فدائيان إسلام" عام ١٩٤٦م.

هذا وقد خلف لنا كسروى العديد من المؤلفات العربية والفارسية، منها على سبيل المثال :

١- النجمة الدرية (١٩١٨م) : وهو كتاب فى النحو والصرف العربى.

٢- تاريخ آذربايجان (١٩٢١/١٩٣٤م) : ألفه باللغة العربية، وتم طبعه فى صيدا بلبنان، ويتناول فيه تاريخ الثورة الدستورية فى آذربايجان حتى بداية الحرب العالمية الأولى.

٣- تاريخ طبرستان (١٩٢٢م) : ألفه باللغة الفارسية وفيه دون كسروى ملاحظاته حول طبرستان.

٤- تاريخ پانصد ساله ى خوزستان (١٩٢٥م) : أى تاريخ خوزستان فى خمسمائة عام، وفيه يتصدى لمسألة زحف القبائل العربية إلى منطقة خوزستان وظهور القبائل الأفشارية التركية فى تلك المنطقة، ويسوق الدليل على أن خوزستان جزء من إيران.

٥- آذرى يا زبان باستان آذربايگان (١٩٢٦م) : أى الآذرية أو لغة آذربايجان القديمة ألفه بالفارسية للتحقيق فى لغة آذربايجان القديمة.

٦- نامه هاى شهرها وديه هاى إيران (١٩٢٩م) : أى أسماء مدن إيران وقراها، ألفه بالفارسية فى مجلدين، وهو دراسة فى أسماء المدن الإيرانية من الناحية اللغوية والتاريخية.

٧- الطريقة (١٩٣٥م) : ألفه بداية باللغة الفارسية تحت عنوان "آيين" ثم قام بترجمته إلى اللغة العربية، وفيه يتصدى لدعاة التفرنج وينتقد مظاهر التقدم الغربى.

٨- التشيع والشيعة : ألفه باللغة العربية، وفيه يعرض آراءه الخاصة فيما يتعلق بالدين الإسلامى، وسرد تاريخ التشيع، وانتقد ما اشتمل عليه المذهب الشيعى من دعاوى كاذبة.

الناحية الشكلية للكتاب :

قام السيد أحمد كسروى تبريزى بتأليف كتابه "تاريخ مشروطة ى إيران" – أى تاريخ الحكم النيابى فى إيران – فى غضون عام ١٩٤٠م، ويقع الكتاب فى

ست وتسعمائة صفحة، ويتألف من مقدمة وثلاثة أجزاء. أوضح كسروى فى المقدمة السبب الأساسى وراء تأليفه لهذا الكتاب وهو عرض أحداث آذربايجان منذ بداية الثورة الدستورية عام ١٩٠٦م وحتى عام ١٩١٨، بيد أنه رأى مس الحاجة إلى ذكر أحداث أخرى وقعت فى طهران وغيرها من المدن الإيرانية لا تقل قيمة عن أحداث آذربايجان، فأضاف ذلك إلى مؤلفه ليخرج لنا كتابه موضع الدراسة فى أجزائه الثلاثة.

ويصرح كسروى بأن من أهم الأسباب التى حثته على القيام بالتأريخ لهذه الفترة هو ضرورة الوقوف على حقيقة الثورة وكنهها، والثناء على أولئك الذين حملوا على عاتقهم مسئولية القيام بها وتحملوا الكثير من أجلها غير أن التاريخ قد بخسهم حقهم، فقدمهم إلى قرائه بالصورة التى تليق ومكانتهم والدور الذى قاموا به. أما الأجزاء الثلاثة فقد اشتمل كل منها على خمس مقالات تتضمن تاريخ الثورة الدستورية فى إيران على نحو ما سنشاهده فى المحاور التالية.

الناحية الموضوعية للكتاب :

١- مقدمات الثورة :

من خلال تتبعنا لأهم البواعث التى أفضت إلى قيام الثورة الدستورية فى إيران فى الكتاب الذى بين أيدينا الآن نرى كسروى يلقى مزيدًا من الضوء حول الضغوط السياسية الاستعمارية لكل من روسيا وإنجلترا وفرنسا، فأشار إلى الحروب غير المتكافئة بين إيران وروسيا والهزائم المتوالية التى منيت بها الجيوش الإيرانية على يد الروس الذين كانوا يحاولون جاهدين الوصول إلى نهر ارس تمهيدًا للاستيلاء على خليج فارس، مما دعا الملك الإيرانى فتح على شاه للتقرب من فرنسا التى وجدت طريقها إلى إيران بعد عقد اتفاقية "فينكشتاين" عام ١٨٠٧م لينفتح الطريق أمامها للوصول إلى ممتلكات إنجلترا فى الهند. ومع تعاون فرنسا وروسيا بعقدهما اتفاقية "تيليست" فى يوليو من نفس العام تقربت الحكومة

الإنجليزية من إيران، وأبرمت معها اتفاقية جونز عام ١٨٠٩م بغية عدم سماح إيران لأية قوة أجنبية بالمرور فى أراضيها للوصول إلى الهند .

من البواعث التى أشار إليها كسروى كذلك ازدياد النفوذ الأجنبى ومنح الامتيازات والاستدانة من الخارج، فمع الهزائم المتكررة للجيش الإيرانى على يد الروس، وإبرام الاتفاقيات المخزية مع الدول الأجنبية صارت إيران ميدانًا فسيحًا للنزاع السياسى لعدة دول أوربية انتهجت بعضها الوسائل السياسية لتحقيق أهدافها، وتبلور ذلك فى ترويج الفساد فى البلاد، ووضع أشخاص عديمى الكفاءة فى المناصب المهمة، وجعل البلاط والحكومة الإيرانية تحت تصرفها بالرشاوى والتهديد والوعيد، والعمل على تخريب البنية المالية لإيران فى محاولة لإجبارها على مد يد الحاجة إليها، واستغلال ذلك فى الحصول على مزيد من الامتيازات فى شكل رقابة مالية واستغلال للثروات المعدنية وتنفيذ مشروعات اقتصادية. هذا وقد أشار كسروى إلى أهم هذه الامتيازات، منها على سبيل المثال : امتياز البارون الإنجليزى دى رويتر عام ١٨٧٢م، وامتياز حق الملاحة للبواخر الإنجليزية فى نهر كارون عام ١٨٨٨م، وامتياز الدخانيات عام ١٨٩٠م إلى تالبوت الإنجليزى، وأشار كذلك إلى محاولات إيران الاستدانة من بلجيكا ثم روسيا ومن بعدهما إنجلترا. وبدا واضحًا أن هذه القروض ما كانت تحصل عليها الحكومة الإيرانية إلا لسد حاجة البلاط، وعملت على مزيد من سيطرة القوى الأجنبية على منابع الثروة فى الدولة حتى أصبحت إيران شبه مستعمرة، وتدهور الوضع المالى للبلاد، ووقعت أزمّة الأمور فى يد الأجانب مما زاد من استياء الشعب وإثارة المشاعر الوطنية.

وباعث ثالث أشار إليه كسروى فى ثنايا كتابه أسهم بدوره فى قيام ثورة الشعب ألا وهو جور الحكام واستبداد المسئولين، فيذكرنا بأفدح أخطاء الشاه محمد ميرزا (١٨٣٤ : ١٨٤٧م) حين أمر بقتل واحد من أفضل المصلحين السياسيين وهو ميرزا أبو القاسم خان قائم مقام الذى تمتع بالوطنية والإخلاص والحنكة السياسية، كما أشار كذلك إلى موقف ناصر الدين شاه (١٨٤٧ : ١٨٩٦م) تجاه كل

من ميرزا تقى خان أمير كبير وميرزا حسين خان سپهسالار وكلاهما كان من المصلحين السياسيين وتمتعا بحنكة سياسية ورغبة فى الإصلاح.

وثمة باعث أخير تطرق إليه كسروى كان له أثره البالغ فى ظهور الانتفاضة المطالبة بالدستور فى إيران، وتمثل فى بعض الأحداث التى تمت على المستوى العالمى مثل قيام الثورة الفرنسية والحرب بين روسيا واليابان وهزيمة روسيا فيها مما أدى إلى سقوط هيبتها فى نظر الفرس.

٢- الحركات الوطنية وإعلان الدستور :

عملت البواعث السابقة على توالى الانتفاضات والحركات الشعبية التى رصدها السيد كسروى فى كتابه بما يوضح نضال الشعب وكفاحه للحصول على حياة أفضل، من هذه الحركات كانت انتفاضة جميع طوائف الشعب ضد امتياز رويتر والمطالبة بعزل الصدر الأعظم. وكانت الانتفاضة الثانية ضد امتياز الدخانيات حيث امتنع التجار عن التعاون مع الشركة الإنجليزية المحتكرة وأغلقوا أسواقهم وتوالت الاعتراضات فى كافة الأرجاء، وشارك رجال الدين فى كل من أصفهان وتبريز وطهران فى الثورة وأمروا الأهالى بمنع ابتياع التبغ وأعلن ميرزا الشيرازى – مرجع الشيعة – فتوى تحريم استخدام التبغ وتصاعدت الثورة حتى أذعن الشاه فى النهاية لإرادة الجماهير واضطر لإلغاء الامتياز.

كما توالت الاعتراضات من بعد خاصة فى عهد مظفر الدين شاه (١٨٩٦-١٩٠٧م) حيث مالت الحكومة الإيرانية إلى الاستدانة من الخارج، وبلغ سخط الشعب مداه من تصرفات الأجانب داخل إيران خاصة البلجيك الذين استهانوا برجال الدين، ويورد كسروى اعتراضات الشعب المتتالية على مظاهر النفوذ الأجنبى وخور عزم الملوك القا... ومطالبة الشعب بإنشاء دار للعدالة فى البلاد لرفع الظلم وتحقيق العدل، ورحيل رجال الدين عن طهران واعتصام بعضهم فى السفارة الإنجليزية التى كانت تمد المعتصمين بالأموال اللازمة لهم، رغبة منها فى

إضعاف آل قاجار الذين كانوا يعملون على ازدياد النفوذ الروسى فى إيران، ويشير كسروى فى هذا الموضع إلى تأثير السفارة الإنجليزية على المعتصمين وتغيير مسار ثورة الشعب المطالبة بإقرار العدل وإقامة المحكمة، إذ تحولت المطالب بعد ذلك إلى إقامة مجلس شورى وطنى وتوالت البرقيات بين الحكومة والعلماء حتى رضخ الشاه للمطالب وأصدر فرمان الحكم النيابى فى الخامس من أغسطس عام ١٩٠٦م وتم إعلان العفو العام عن الثائرين.

وبعد الاحتفاء بإعلان الحكم النيابى اجتمع العلماء والأحرار وجمع من الوزراء ورجال البلاط، للتباحث حول افتتاح المجلس المؤقت وإعداد لائحة الانتخابات، وما أن بدأ المجلس الوطنى مهامه حتى طالب الدولة بتدوين الدستور، الذى تم توقيع الشاه عليه فى يناير عام ١٩٠٧م لكن مع تولى محمد على ميرزا عرش إيران بعد أيام قليلة من التوقيع على الدستور تتعرض الحياة النيابية إلى انتكاسة شديدة، حيث تنكر الشاه الجديد للوطنيين منذ اليوم الأول له فى الحكم، كما توالت انتقادات المجلس على القروض الأجنبية وطالب بالبتّ فى ميزانية الدولة واستجواب المسئولين، فتشدد الشاه مع الوطنيين وخطط بمهارة فائقة للقضاء على الحياة النيابية فأوقع الفُرقة بداية بين العلماء، ثم حرض لواء القوزاق الروسى على إغلاق المجلس الوطنى. وما زاد من حدة التوتر بين الشاه والمجلس ما ذاع حول عقد اتفاقية بين روسيا وإنجلترا فى أغسطس ١٩٠٧م يتم بمقتضاها تقسيم إيران بينهما إلى منطقتى نفوذ. ومنذ ذلك الحين ازداد تعاون الروس مع الشاه وقاموا بتشجيعه على الإطاحة بالحكم النيابى والقضاء على زعماء الحرية. وما تم من أحداث لاحقة كحادث قصف المجلس وتقدم الجيوش الروسية إلى إيران والإنذار الروسى بشأن طرد المستشارين الأمريكيين، وغير ذلك - كانت جميعها من نتائج إبرام هذه الاتفاقية...

وبعد أن رفض المجلس تلبية مطالب الشاه التى تمثلت فى : عدم أحقية المجلس فى استجواب الوزراء أو تعيينهم أو عزلهم، وتشكيل قوة مسلحة من عشرة آلاف جندى فى طهران تحت إمرة الشاه وإشراف الشاه المطلق على شئون الجيش

- صب الشاه جل تفكيره على استخدام العنف والإطاحة بالمجلس بالقوة العسكرية، وفى يوليو من عام ١٩٠٨م انتشرت كتائب القوزاق والجند حول المجلس ومنعت الدخول إليه أو الخروج منه، وتم تبادل إطلاق النار بينهم وبين المجاهدين، وتحقق هدف الشاه وأحكم قبضته على مقاليد الأمور فى الدولة دون رقيب. وعلى هذا النحو سحب بساط الحرية من تحت أقدام الشعب الإيرانى وأعلنت الحكومة العسكرية فى طهران.

٣- المقاومة الوطنية واستعادة الحياة النيابية :

نلاحظ أن السيد كسروى قد وضع جل اهتمامه على ذكر أحداث ثورة الأهالى فى تبريز، غافلاً ذكر الثورات التى تمت فى مناطق أخرى من إيران، وهذا من تصرفه إما عن نزعة داخلية لديه ورغبة فى أن ينسب الفضل فى إحياء الحياة النيابية إلى أهل تبريز دون سواهم، وإما عن عدم معرفة بالأحداث التى وقعت فى مناطق أخرى من إيران فى هذا العهد نتيجة لبعده عنها، وأيًا ما كانت الدوافع وراء ذلك فسوف نشير فى هذا المقام إلى ما أورده بشأن ثورة تبريز التى تزعَّمها القائد الوطنى ستارخان حيث تمكن من جمع شمل المجاهدين لمجابهة قوات الدولة وأعوان الاستبداد، وكان النصر حليفا دوما للأحرار فاختار الشاه عين الدولة واليًا على آذربايجان وقائدا عامًا لها، وحاول عين الدولة إنهاء أحداث تبريز بالطرق السلمية غير أن ستارخان اشترط قيام الشاه بافتتاح المجلس، ومعاقبة القادة الذين هاجموا تبريز، وأن يحل مجلس تبريز محل مجلس الشورى الوطنى لحين افتتاحه، وأن تقوم الحكومة باستدعاء الأحرار الذين تم طردهم من إيران.

وإزاء هذه المطالب لزم عين الدولة الصمت وأصبحت الحجة حاضرة فى يده ليظهر بمظهر المضطر لخوض الحرب. وانتفض الإيرانيون فى كل من الهند وتركيا ومدن القوقاز وأوربا، وهبوا لتأييد انتفاضة تبريز. وكانت إسطنبول

والقوقاز من أكثر الأماكن نشاطًا لكثرة عدد المناضلين الإيرانيين فيهما، وتشكلت فى إسطنبول جمعية باسم "إنجمن سعادت إيران" وعدُّوها نائبا عن مجلس تبريز خارج الحدود الإيرانية، ولعبت هذه الجمعية دورا بارزا فى دعم ثورة تبريز ومساندتها، حيث قامت بدور الوساطة بين تبريز وبين النجف الأشرف والدول الأوربية، كما قامت بتحصيل الإعانات من الإيرانيين المقيمين فى تركيا وأوربا والهند وإرسالها إلى أحرار تبريز.

ويشير كسروى كذلك إلى مساندة أحرار تبريز من قبل الأحرار فى القوقاز وطهران وجيلان، وكذلك العلماء المقيمين فى النجف الأشرف الذين قاموا بإصدار الفتاوى للحث على مؤازرة الأحرار والوقوف فى وجه الاستبداد. وبعد أن أعد عين الدولة عدته نشبت الحرب بين الجانبين وكانت الغلبة للمجاهدين الأحرار. وبلغت أنباء ثورة تبريز مدن إيران الأخرى وثار تبعا لها أهالى رشت وأصفهان وطهران، وتمكن المجاهدون فى كافة الأرجاء الإيرانية من دخول العاصمة فى يوليو ١٩٠٩م وأعلنوا عزل محمد على شاه وتعيين ولى العهد أحمد ميرزا ملكًا على إيران تحت الوصاية نظرًا لصغر سنه، وبدأ نواب المجلس الوطنى يتوافدون من كل صوب وحدب على طهران. وفى الخامس عشر من نوفمبر من نفس العام افتتحت الدورة الثانية لمجلس الشورى الوطنى دون وجود الشاه.

بعد ذلك يستطرد كسروى فى الحديث حول تنظيم الأمور المالية فى الدولة بوساطة الاستشاريين الأمريكيين برئاسة مورجان شوستر ومعارضة روسيا لذلك الأمر، مما دفعها أكثر من مرة إلى تقديم الإنذارات إلى الحكومة الإيرانية لعزل الخبير الأمريكى من خزانة الدولة وعدم استقدام أى خبير أجنبى دون موافقتها، وتعويض الحكومة الروسية عما أنفقته على تجهيز جيوشها وإرسالها إلى إيران. ومع رفض المجلس لهذه المطالب زحفت القوات الروسية وسيطرت على تبريز، ولجأ الأحرار فيها إلى القنصلية العثمانية خوفًا من الأسر على يد الروس. وتقدمت الجيوش الروسية حتى طهران مما اضطر الحكومة إلى إغلاق المجلس وإعلان

قبول الإنذار الروسى. وحاول المجاهدون والأهالى إعادة فتح المجلس لكن ذلك لم يتم إلا بعد ما يقرب من ثلاثة أعوام وتحديدًا فى عام ١٩١٤م عندما اضطرت الحكومة الإيرانية لإجراء الانتخابات وافتتاح المجلس لتنصيب أحمد ميرزا ملكًا على البلاد بعد بلوغه سن الرشد. وفى الجلسة الافتتاحية للمجلس أعلن الشاه عدم انحياز إيران فى الحرب العالمية الأولى، بَيْد أن الدول المتحاربة لم تحترم موقف الحكومة الإيرانية وجعلت من أراضيها ميدانًا للتطاحن الدموى، فعندما وجد الروس ميل القوى الوطنية فى إيران إلى الألمان والعثمانيين أعلنوا عن زحف قواتهم إلى طهران، فهجر زعماء الحركة الوطنية العاصمة، وأخل ذلك بالنصاب القانونى للمجلس وتعطلت الحياة الدستورية من جديد بعد أقل من سنة على افتتاح المجلس.

بعد ذلك بعامين، أى فى غضون عام ١٩١٧م، اندلعت الثورة الروسية، ووضعت علاقات روسيا بالشرق على قاعدة جديدة، وقامت بسحب جيوشها من إيران وأعلنت إلغاء جميع الامتيازات الروسية، وانتهز الإنجليز الفرصة واستولت جيوشهم على المواقع التى تركتها الجيوش الروسية. وعند هذا الحد تنتهى أحداث الكتاب موضع الترجمة.

مصادر الكتاب :

(أ) المؤلفات السابقة :

تُعد المؤلفات السابقة حول الحياة الدستورية فى إيران هى البنية الأساسية لكتابنا، وحرص المؤلف أن يكون أصحاب تلك المصادر ممن هم موضع ثقة ومن المعاصرين للأحداث التاريخية التى يتعرض لها فى كتابه. ومن الكتب التى اعتمد عليها كسروى اعتمادًا كبيرًا كتاب "تاريخ بيدارى إيرانيان" لناظم الإسلام كرمانى والذى طبع فى طهران عام ١٩١٠م ويعد هذا الكتاب من أهم المؤلفات التى أرخت لتلك الفترة نظرا لمعاصرة المؤلف للأحداث، بل واشتراكه فى بعض الأحيان فى هذه الأحداث خاصة بعد انضمامه إلى محافل الأحرار السرية فى طهران.

كما حرص كسروى على الاطلاع على كتب المستشرقين الأجانب والنقل عنهم، وكان من بينها كتاب "انقلاب إيران"– أى ثورة إيران – لإدوارد براون. ويلاحظ عند الإشارة إلى المصادر أن كسروى قد اعتنى بذكر مصادره لكنه فى معظم الأحيان كان يسند المنقول إلى المؤلف مع إغفال ذكر الكتاب، وأحيانًا أخرى كان يشير إلى اسم الكتاب دون الإشارة إلى اسم المؤلف. كما عالج ما نقله عن مصادره بطرق شتى، فحينًا نراه يلتزم حرفيًا بنقل مادة مصادره، وحينًا يتصرف فى النص المنقول بالاختصار رغبة منه فى عدم الإطالة، كما أنه لم يتقبل كل ما أمدته به المصادر من معلومات على أنها من قبيل المسلمات التى لا يمكن ردها أو مناقشتها، وإنما كان يستخدم حسّه التاريخى فى ردها.

(ب) الصحف :

حرص كسروى على الاطلاع على الصحف الصادرة فى طهران أو تبريز أو إسطنبول آنذاك وصارت مصدرًا مهمًا لنقل العديد من الأحداث والروايات فى كتابه، حيث رأى فيها مادة ثرية تعينه على توضيح الأحداث، من هذه الصحف : روح القدس، وحبل المتين، ونداى وطن، وصور إسرافيل، ومساوات، وناله ى ملت، وتربيت، وتمدن وانجمن تبريز.

(ج) الرسائل :

كانت الرسائل أحد المصادر التى اعتمد كسروى عليها كثيرا فى تدوينه للتاريخ، ومما يعطى الأهمية والقيمة إلى هذا النوع من المصادر أن أصحابها كانوا ممن اشتركوا فى الأحداث المواكبة للثورة، فكان استناده إليها مما أضفى الصدق على ما تحدث به.

(د) الوثائق والمخطوطات :

تعد دراسة الوثائق والمخطوطات من الوسائل التى تساعد المؤرخ وتعينه فى بحثه، وهى من الأدوات اللازمة فى عمل المؤرخ، لذا حرص كسروى كل الحرص على إدماج الوثائق والمستندات المهمة فى كتابه موضع الدراسة، فيكاد لا يخلو حدث من الأحداث التاريخية التى ذكرها إلا وذَكَر الوثيقة المرتبطة به، وتضمن كتابه ما يقرب من مائة وثمان وخمسين وثيقة تنوعت بين برقيات ومعاهدات ولوائح وتقارير ومخطوطات، وهذا ما يزيد من قيمة الكتاب ويجعله مستندا مهمًا لتاريخ إيران خلال تلك الفترة.

(هـ) المشاهدة والمشافهة :

كان الأخذ عن عدد لا بأس به ممن عاصروا تلك الفترة التى أرخ لها كسروى له أثره فى مادة الكتاب، حيث أتيحت له الفرصة لجمع مادة واسعة النطاق محتوية على روايات لا يستهان بها على اعتبار أن عنصر المشاهدة من خلالها واضح فيها بيِّن للعيان. ونلاحظ أن عنصر المشاهدة كان غالبا فى الجزء الثالث من الكتاب، فقد قصر حديثه فيه على أحداث تبريز حيث كان هو نفسه شاهد عيان على تلك الوقائع التاريخية. لكن ما يؤخذ على كسروى فى اعتماده على عنصر المشافهة أنه كان يأخذ هذا الحديث كأنه الحجة التى لا يتطرق إليها الشك، وكان من نقل عنهم دومًا موضع ثقة بالنسبة له، وتقبل حديثهم دون تفنيد أو مناقشة وتناسى فى هذا الموضع وجوب استقلاله كمؤرخ.

موقف كسروى من رجال الدين الشيعى :

ثمة مسألة تلفت انتباهنا فى الكتاب موضع الترجمة وهى مناهضة كسروى لتسلط بعض رجال الدين، حيث راح ينتقد العادات المذهبية ورجال الدين فى إيران، فنبذه للمذهب الشيعى ورجاله جعله يرى أن علماء الشيعة معارضون دائما

لأى نوع من المفاهيم الحديثة عن الدولة والنظام السياسى بسبب حصرهم الشرعية على حكومة الأئمة، وهذا يتعارض إلى حد كبير مع ما كتبه كسروى نفسه عن مجهودات كثير من العلماء لقيام نظام دستورى فى البلاد، ومنهم السيدان (طباطبائى وبهبهانى) حيث نسب إليهما كل الفضل لإرساء قواعد الحياة النيابية فى إيران، رغم ذلك لم يسلما من نقده لهما فى بعض المواضع حيث اتهمهما بأنهما على علاقة بالبلاط، وذلك حينما رفضا النزاع المسلح والاستعداد العسكرى لمجابهة الشاه. كما يشاهد هجومه الشديد على الشيخ فضل الله النورى خاصة بعد أن طالب بوجوب إشراف نخبة من المجتهدين على قوانين المجلس لمطابقتها بمبادئ الدين الإسلامى، وعد ذلك سببا لانقسام الزعامة الدينية بين مؤيد للمشروطة ومعارض لها، واتهمه فى بعض المواضع بأنه لم يسْعَ إلا لتحقيق النفوذ والجاه.

ولم يكْتفِ كسروى عند حد التطاول على علماء الدين بل راح ينتقد المذهب الشيعى وأئمته، ويسخر من العادات التى جرت بين الشيعة، فدوما ما كان يطلق على رجال الدين اسم "ملايان" بدلاً من "علما"، وذكره كذلك اسم "عبد العظيم" – وهو شيخ شيعى كبير يقع ضريحه فى مدينة طهران – بدلاً مما تعود عليه الجميع "حضرة الشاه عبد العظيم"، وليس هذا منه إلا من قبيل تحقيره لهم والاستهانة بهم.

كما تحدث كسروى باستفاضة عن الصراعات المذهبية الموجودة فى إيران – خاصة فى آذربايجان – وأشار إلى مسألة التسنن والتشيع التى اتخذت لها طابعا سياسيًا منذ عهد الشاه إسماعيل الصفوى والسلطان سليم، وكانت سببا جوهريًا لظهور الضغائن بين الشعبين الإيرانى والتركى، ولعله فى هذا المقام يحاول أن يطلعنا على ثقافته التاريخية الواسعة.

وسخر كسروى كذلك من أعمال الشيعة أيام عاشوراء، من قبيل : دق الصدور، والنواح، والبكاء، وقيامهم بأعمال التبرى، واعتقادهم بمحو ذنوبهم فى مثل هذه الأيام ومذمتهم للخلفاء الثلاثة (أبو بكر، وعمر، وعثمان) وينهى حديثه

قائلاً : "وقوم لهم مثل هذه العقيدة يبدو الحال التى هم عليها وإلى أى حد كانوا فى منأى عن أمور الحياة والدولة".

وهكذا يفصح كسروى خلال سرده للأحداث التاريخية عن آرائه ومعتقداته تجاه المذهب الشيعى، وكان بإمكانه أن يكون على وعى تام بفلسفته وقيمه الأخلاقية الخاصة حتى يتجنب التعسف فى سرد التاريخ على ضوء هذه الفلسفة وتلك القيم، وتتسم أحكامه التاريخية بالصبغة الموضوعية إلى حد ما، حيث يجب على المؤرخ ألا يرى نفسه عند تدوين التاريخ، وأن ينحى عقائده الخاصة ومشاعره جانبًا كى يتمكن من إطلاع القراء على الأحداث التاريخية كما كانت وإلا فقد التاريخ جانبه العلمى.

موقف كسروى من مجاهدى تبريز :

كان لانتماء كسروى إلى مدينة تبريز – حيث مسقط رأسه – أثره الواضح على ذكره لأحداث تبريز ومجلسها والمجاهدين من آذربايجان والقوقاز، وبلغ الأمر مداه حين أشاد بأعمال بعض المجاهدين المتشددين وتغافل عن دورهم غير المباشر فى القضاء على المشروطة.

لقد كان هؤلاء المجاهدون على طائفتين : الأولى كانت مجهزة بالأسلحة والمعدات الحربية، وقد دفعت بها جمعية باكو إلى إيران فى مستهل الثورة الدستورية وكانت تتألف من الإيرانيين المقيمين فى القوقاز. والثانية تألفت من بعض الأحرار فى مدينة تبريز، وقد شكلوا جمعية باسم "المركز الغيبى" وكانت مهمتها تدريب المتطوعين عسكريًا. واتفقت الطائفتان على وجوب التسليح العسكرى لمجابهة الشاه ونواياه السيئة ضد المشروطة، وشكلوا جماعات مسلحة باسم "مجاهد"، وبعد صدور الأمر بالحكم النيابى شكل المجاهدون مجلسًا ليتولى أزمّة الأمور فى تبريز، ونال التأييد والحماية من قبل العلماء، بيد أن هذا التعاون بين المجاهدين والعلماء لم يدم طويلاً. ويرى كسروى أن السبب وراء ذلك يرجع

إلى أيديولوجية طائفة المجاهدين، خاصة القوقازيين الذين لم يكن لهم الاهتمام بالملالى والدين، خاصة وأن هؤلاء الملالى كانوا يتشددون فى ملاحظاتهم الشرعية مما أفضى إلى تبرم المجاهدين وترويجهم الشائعات وهذا ما أوجد فجوة عميقة فى صفوف المطالبين بالمشروطة. وأدى الصراع بين الطائفتين فى تبريز إلى أن ينفضَّ العلماء عن تأييد المجاهدين، ومال بعضهم إلى الشاه وأعوانه رغبة منهم فى القضاء على تسلط المجاهدين الذى فاق الحد.

موقف كسروى من الصحافة :

من النقاط المهمة التى أشار إليها كسروى فى أعقاب إعلان الدستور وضع الصحافة فى التسعة أشهر الأولى التى أعقبت صدور فرمان الحكم النيابى وهو موقف يدعو إلى الدهشة والعجب حيث لا يخلو من مس بالصحافة الوطنية وانتقاص لمكانتها.

وبالنظر إلى موقف كسروى تجاه الصحافة عندئذ نجده يتسم بالتذبذب، فهو تارة يطعن بها فيقول :

" كان أنصار الدستور مقلدين للأوروبيين تقليدا أعمى، ولو كان هذا يتم عن علم ومعرفة ودراية لهان الأمر، ولكان خطره أقل، ولكن المؤسف أن الأمر لم يكن كذلك، فقد كانت بعض الصحف تنقل بعض الأشياء نقلاً عن كتب الأوروبيين وصحفهم وتسود بها صفحاتها سواء فهمته أو لم تفهمه". وتارة أخرى يقول :

" إن الصحافة قد تقدمت بعد إقرار الدستور وظهرت بعض الصحف الجيدة فى هذا العهد ". ثم يستطرد فى حديثه عن الصحف الصادرة خلال الشهور التسعة الأولى التالية على إعلان الدستور، فيمتدح صحيفة "إنجمن" فى تبريز، ويثنى على محررها ميرزا على أكبر خان. كما يثنى على صحيفة "آذربايجان" ويشبهها بصحيفة "ملا نصر الدين"، ويشير فى عجالة إلى ظهور بعض الصحف الجيدة الأخرى التى ظهرت فى تبريز وأرومية وطهران، ثم يعقب على ذلك قائلاً :

" إننا نعرف أسماء بعض محرري هذه الصحف، فكان محرر صحيفة "نداى وطن" سيئ السمعة ويعد من المرتزقة الذين يتعيشون من صحفهم. وكان محرر صحيفة "تمدن" من مؤيدى ظل السلطان ومن عملائه ولم تكن صحيفته ذات نفع عام. أما محرر صحيفة "العراق العجمي" فميزته الوحيدة هى البراعة فى الحديث. وكان محرر جريدة "تدين" من الأشوريين فى أرومية، وقد اعتنق الإسلام واهتمت صحيفته أكثر من غيرها بالحركات المذهبية ".

وعلى هذا النحو سعى كسروى كى يلصق بكل صحفى فى تلك الحقبة نقيصة يقلل بها من شأنه ويستهين بمقامه، والواقع أنه بخس بهذا الحديث الشيء الكثير مما كان للصحافة الإيرانية آنذاك، فنحن لا نذكر ظهور بعض الصحف البدائية بَيْد أنها لم تستمر وسرعان ما كانت تندثر، ولا يمكنا أن نقبل حديث كسروى هذا فى عموم، فصحافة طهران على سَبَيل المثال هى التى كانت تقود الرأى العام وتوجهه فى صراعه ضد الطغيان وكان لها أثرها الواضح فى تنوير أفكار الأهالى، فقد ألصق هذه التهم على الصحافة الإيرانية وقلل من شأنها، دون أن يأخذ فى الاعتبار الأسباب الموضوعية والظروف الاجتماعية التى طرأت على البلاد، فجاء متحاملاً عليها غير موضوعى فى معالجته لهذا الموضوع.

موقف كسروى من نواب تبريز :

أشاد كسروى عند حديثه عن نواب آذربايجان بدورهم البارز فى تدوين المتمم للدستور، فبعد تشكيل المجلس الوطنى وجه مجلس تبريز بنوابه إلى طهران، وكان الدستور قد دون إلا أنه لم يرق لهم، وطالبوا بتصويبه نظرًا لاحتوائه على بعض أوجه القصور، وشارك اثنان منهم فى إنجاز هذه المهمة، وتشكلت لجنة من العلماء يرأسها الشيخ النورى لمطابقة بنود الدستور بالمبادئ الإسلامية. ويرى كسروى أن الموافقة على تشكيل مثل هذه اللجنة دليل على وجود بعض البنود التى تتنافى والأحكام الشرعية، وخلال أعمال اللجنة عارض نواب آذربايجان تسلط

العلماء، وانتقدوا البند الثانى من المتمم المقترح من قِبل الشيخ النورى، وعد نواب آذربايجان أن لجنة المطابقة ما هى إلا حيلة من حيل البلاط لتحقيق مقاصد الشاه، وكانوا يحثون أهالى آذربايجان على المطالبة بوجوب التصديق على المتمم فى أقرب وقت. ويفسر كسروى الهدف من وراء ذلك فيقول:

" إنهم كانوا يخشون من وقوع الدستور فى قبضة العلماء لأن ذلك سيفضى إلى إفساد الدستور وصدور آخر لا قيمة له أو إلى وقوع الفُرقة والانقسام، وهذا ما تتمناه الدولة؛ لذا أعربوا عن عدم رضاهم " .

ويستطرد فى حديثه قائلاً :

" حقًا إن أحرار تبريز كانوا يطلبون فى شجاعةٍ دستورا أوربيًا، واعترفوا بذلك علانية، لكن واقع الحال أن هذا الحديث لم يبدر إلا من الرواد، وكما أسلفنا، لم يفهم غيرهم ذلك، وقاموا بترديده على الألسنة متابعة للآخرين ".

وعلى ما تقدم وجدنا أن ثورة تبريز – كما صورها كسروى – لم تكن إلا لإحداث العراقيل أمام لجنة المطابقة التى تشكلت بتحريض من الشاه. وقد اتفقت وجهتا النظر بين كسروى ونواب آذربايجان فيما يتعلق بالمجلس والشاه والبلاط فى وجوب الاستعداد المسلح لمجابهة الشاه وحكومته، ولم يكن هذا الإصرار من قبل مجلس آذربايجان إلا للإطاحة بمحمد على شاه وليس لتهدئة الأوضاع كما رأى كسروى. واتخذ الشاه هذا السلوك المتشدد من قبل مجاهدى تبريز ذريعة له وقام بإعداد جيوشه لردع المجاهدين، وأفضى الأمر إلى قصف المجلس الوطنى بالمدافع.

وقد سرد كسروى باستفاضة أحداث ثورة تبريز بعد قصف المجلس، ويرجع ذلك إلى تواجده آنذاك فى مدينة تبريز، ومشاهدته الأحداث عن كثب، ولقائه بالعديد من الأحرار الثوريين فى آذربايجان، وأبرز دور كل منهم فى أحداث الثورة. ومن الأمور التى قلما نجدها فى مرجع آخر إيراد كسروى أسماء الأماكن التى أقام فيها الأحرار استحكاماتهم بدقة متناهية، وتعرضه بالوصف الدقيق لموقع تبريز الجغرافى، وتعريفه لانتماءات كل طبقة وعشيرة وميلها للمشروطة أو عدائها

لها. وأهم ما يميز سرد كسروى للأحداث فى تبريز عن غيره من المؤرخين كذلك أنه تعرض لذكر هذه الأحداث يومًا بيوم بل ساعة بساعة. ومن الملاحظ كذلك أنه رغم اعترافه بفضل أهالى تبريز ونضالهم من أجل استعادة المشروطة وثنائه على دورهم الهام فى كثير من المواضع إلا أنه لزم الحياد التام فى مواضع أخرى، فيقول على سبيل المثال :

" ينبغى أن نعلم جيدًا أن الحياة النيابية قد قُضى عليها فى أرجاء إيران قاطبة، وخضع الإيرانيون للاستبداد ثانية، ولم تصمد سوى تبريز، إلا أنَّ نصْف سكان هذه المدينة كانوا يميلون إلى الحكومة، ويجابهون الأحرار ولم يقدروا الحياة النيابية حق قدرها ولم يفهموا معنى لصمود المجاهدين، وأفضى ذلك إلى عدم معرفتهم طريقًا آخر سوى إفشاء الرعب وعدم الأمان فى المدينة، وزاد ضغطهم على المجاهدين ولم يتأثموا من مذمتهم والسخرية منهم ".

وعلى هذا النحو لم يطلق كسروى العنان لتعصبه هذه المرة، وحكم حكما منصفا بشأن أهالى تبريز وتعلقهم بالمشروطة ومدى إيمانهم بها. ونظرًا لدقته المتناهية فى عرض أحداث تبريز وتركيزه على إبراز دور آذربايجان فى أحداث الثورة أكثر من غيرها، رأى المؤرخ الكبير مهدى ملك زاده أن يطلق اسم "تاريخ الثورات الدستورية فى آذربايجان"؛ ليكون عنوانا للمؤلف موضع الترجمة .

أسباب فشل الحياة النيابية من وجهة نظر كسروى :

(١) يرى كسروى أن أول هذه الأسباب هو عدم الإلمام بمفهوم النظام النيابى الصحيح فى بداية الحركة، فيرى أن رواد الثورة لم يكونوا على ذكر جيد بهذا المفهوم، وأنهم لم يفعلوا شيئا لإطلاع الناس عليه، وأفضى ذلك إلى ظهور صورة مبهمة عنه بين الناس، وعندما منحت لهم الحياة النيابية وأقيم المجلس الوطنى وتم تدوين الدستور لم يعدوا دار الشورى سوى دار للعدالة، وعدوا

الدستور حلاً لجميع مشاكلهم، وظلوا لفترة طويلة يحملون تظلماتهم إلى المجلس يطالبون بالإنصاف. أى أن الشعب كان ينظر إلى المجلس نظرته إلى المحكمة، ولم يطرأ أى تغيير فى نمط أفكاره، ولم يدرك أن الفرق بين الاستبداد والمشروطة ليس فى عدم وجود القانون أو فى وجوده، إنما هو فى مدى الاستعداد لديه لإدارة شئون الدولة وجدارته فى التعهد بهذه المسئولية والقيام بها على الوجه الأكمل.

(٢) وثمة سبب آخر كان عقبة فى سبيل تقدم المشروطة من وجهة نظر كسروى وهو المعتقدات المذهبية الرائجة فى إيران، فهو يراها لا تتفق وحكومة المشروطة، لذا قام بنقد المذهب الشيعى وسخر من العادات المذهبية فى المناسبات الدينية الخاصة. كما تطرق بالحديث عن الشيخية والمتشرعة والكريم خانيين ووصفهم بأنهم كانوا وبالاً على الناس، حيث لم يدر بخلدهم سوى فكرة الخلافة والإمامة، وشغلوا أنفسهم بجمع المال وتحقيق النفوذ، وحثوا الأهالى على القيام بأعمال لا طائل منها وزادوا نيران الحقد المذهبى اشتعالاً فى القلوب.

(٣) عد كسروى التدخل الأجنبى سببا آخر من أسباب فشل المشروطة، حيث وقعت إيران بين قبضتى روسيا وإنجلترا، وقامت الأولى تعارض الأحرار وتحمى الاستبداد علانية، وأسهمت فى إثارة القلاقل والفتن فى البلاد للقضاء على المشروطة. وفى المقابل كانت سياسة إنجلترا تتأرجح بين التأييد والمعارضة لأحرار إيران وفقا لما تقتضيه مصلحتها حتى أعلنت فى النهاية تأييدها التام للسياسة الروسية طمعًا فى جذب تأييدها للوقوف فى وجه النفوذ الألمانى المتصاعد، وقامت كلتا الدولتين بمعاضدة محمد على شاه علانية وتقديم العون المادى والعسكرى له.

(٤) وسبب آخر أورده كسروى أفضى إلى وهن الجبهة المؤيدة للمشروطة، وهو انضمام طائفة من رجال البلاط والمنافقين إلى المطالبين بالدستور ودخولهم فى زمرة الأحرار، وكان هؤلاء من حاشية الشاه قد وجدوا أن تأييدهم له سيمنحهم القوة والنفوذ، وبذلوا كل جهدهم للإطاحة بالحياة النيابية وحث الشاه على عدم التوقيع على الدستور، وحينما خضع الشاه لمطالب الأحرار وأقيم المجلس الوطنى

واعترفت الدول الأجنبية بالنظام الجديد فى إيران أيقنوا أن بنيان الاستبداد سوف ينهار لا محال، وأن تلك الحكومة الجديدة التى تستند على دعائم الحرية سيكون لها الغلبة من بعد، لذا جعلوا يتقربون من الأحرار، وأرسلوا إلى المجلس الوطنى يعربون عن تأييدهم للمشروطة واستعدادهم لأداء القسم فى حضرة المجلس.

ومما سبق يتضح لنا ما يلى :

(١) من خلال دراسة المنهج الفكرى لدى كسروى وجدناه شديد العداء للمتاجرين بالمذهب الشيعى، شديد الحرص على التمسك بالدين الصحيح ونبذ البدع والخرافات الدخيلة على الإسلام، وكان هجومه على بعض رجال المذهب الشيعى لأنه رفض الانصياع وراء بعض أعمال الشيعة التى لم ير طائلاً من ورائها ولا تمتُ للدين الحقيقى بصلة.

(٢) لمسنا إيمان كسروى الراسخ بوجوب قيام الحكم النيابى فى الدولة، فكان هذا النظام من وجهة نظره أفضل نظم الحكم على الإطلاق إذا ما تحققت فيه الديمقراطية والحرية. كما عرفناه شديد العداء للنظام المستبد، وقد أفضت وطنيته الصادقة إلى مطالبته بنبذ كل ما هو أجنبى سوى ما يعود بالنفع على أفراد المجتمع.

(٣) استطاع كسروى أن يمدنا من خلال مؤلفه بمعلومات مهمة فى كل النواحى السياسية والاجتماعية والاقتصادية فى الفترة التى أرخ لها، كما أنه بسط كلامه فى دقة ملحوظة حيث تعرض لذكر ما وقع من أحداث كأنه كان شاهد عيان عليها جميعا، وقد ساعده على ذلك تقربه بمن أسهموا فى هذه الأحداث، وعلاقاته بهم، وهذا ما يضيف إلى الكتاب قيمة وأهمية. كما أنه لم يقف موقفا سلبيًا من الأحداث التى ذكرها، بل كان يُحكّم فكره فيما يدور من أحداث، وهذا ما يجعله المؤرخ الذى يعول على كلامه لأنه يتحرى الدقة فى إيراد الأحداث.

(٤) اتصف مؤرخنا بالتواضع العلمى حين أقر فى مقدمة الكتاب بأنه ليس مؤرخا، بل قام بمحاولة جادة لتدوين فترة خاصة من تاريخ إيران. وقد تبين من

دراسة المنهج التاريخى الذى انتهجه كسروى عند كتابته للتاريخ أنه حرص فى الغالب الأعم على تتبع الأسلوب العلمى للتأريخ، بيد أنه دوَّن التاريخ تحت تأثير نزعتين لم تفارقاه خلال سرده للتاريخ، وهما النزعة القومية ونزعته المناهضة لتسلط بعض رجال الدين. وهذا مما لا يغض من شأنه ككاتب ومؤرخ، ويمكن تفسير انحيازه لبعض الآراء دون غيرها إلى أنه كان شاهد عيان على كثير من الأحداث التى تناولها فى تاريخه، لذا كان من المتوقع أن نرى ردود أفعاله وميوله أو نفوره من بعض الأحداث أو الشخصيات خلال سرده للتاريخ.

(٥) نستطيع فى النهاية القول إن كسروى قد أنجز عملاً مهما بتأليفه مثل هذا الكتاب القيم الذى تناول فيه فترة مهمة من تاريخ إيران الحديث، وقد شاركنا فى هذا الرأى العديد من المؤرخين الإيرانيين والأوربيين، وهو بذلك قدم فائدة جليلة لإيران، وجاء تاريخه فى معظمه مما لا يتطرق إليه الشك، حيث اعتمد فيه على مصادر تاريخية موثوق بها، فجعل أصحاب المصادر اللاحقة يأخذون عنه عن ثقة، ويجعلون كتابه فى صدر مراجعهم ومصادرهم، وهذا ما يدل على المكانة العلمية والتاريخية التى حظى بها الكتاب؛ مما شجعنا على ترجمته إلى اللغة العربية؛ ليكون فى متناول المؤرخين العرب فى مصر وفى جميع الأقطار العربية، وذلك بعد موافقة المركز القومى للترجمة على طبع ترجمته ونشرها.

والله الموفق،،،

هويدا عزت محمد

القاهرة – ٢٠٠٨م

مقدمة المؤلف

بسم الطاهر الخالق

حمدا لله الذى وفقنا، وها نحن نبدأ الطبعة الثانية لهذا التاريخ، قد انتهت الطبعة الأولى منه وكانت باسم "تاريخ آذربايجان خلال ثمانية عشر عاما"، ذلك أنه عندما شرعنا فى طبعها كنا نريد أن ندون أحداث آذربايجان منذ بداية الثورة الدستورية وحتى انقضاء ثمانية عشر عاما أخرى، ولكن عندما أتممنا هذا العمل، رأينا أن التفرقة بين أحداث طهران وآذربايجان وبعض المدن الأخرى ليست في الإمكان.

ومن هذا المنطلق فعندما بدأنا نشر التاريخ تدريجيًا في مجلة پيمان الشهرية وصدور بعض الأعداد من هذه المجلة، فإن كثيرين من القراء شغفوا بهذا التاريخ، وكتبوا إلينا بالمعلومات التى فى حوزتهم، وأرسلوا كذلك بالمذكرات التى كانت لديهم أو لدى الآخرين. وهكذا قدموا العون العظيم بإرسالهم الجرائد اليومية والكتب والمستندات والصور إلينا.

ويمكن القول بأنه ظهرت دفعة جديدة لدى مجموعة كاملة، وبهذا التعاون كان لابد لنا أن نتصدى للأحداث فى كل مكان، من طهران وآذربايجان وجيلان وغيرها من الدوائر والمنتديات المطالبة بالحرية.

مما سبق تولد لدينا الحماس بكتابة تاريخ الحكم النيابى فى إيران، وهكذا تحول كتاب "تاريخ آذربايجان خلال ثمانية عشر عاما" لكى يصبح "تاريخ الحكم النيابى فى إيران". والآن نبدأ الطبعة الثانية بهذا الاسم، وهو الأفضل والأصح، وينبغى أن ندرك أنه تم إضافة العديد من القصص والصور (وبخاصة فى الجزء الأول) فى هذه الطبعة، وهكذا أصبح كتابا جديدا.

أما البواعث التى ذكرت أنها حثتنى على تدوين تـاريخ الحكـم النيـابى فأذكرها كالتالى :

١- لقد مضت ثلاثون سنة ولم يقم أحد ممن كان لهم ضلع فى الثـورة، أو ممـن استطاعوا جمع المعلومات بأنفسهم بتدوين تلك الأحداث، ورأيت أن الأحـداث تضيع، ولن يستطيع أحد أن يجمعها من بعد. إن أية ثـورة قـد وقعـت فـى عصرنا، إن لم ندون نحن قصتها فكيف يستطيع الآخرون تدوينها ؟!

٢- إن الحركة المطالبة بالدستور بدأت بمن سلمت نيتهم، ولكنها انتهت بمن خبثت طويتهم، فقد امتدت إليها الأيدى من الداخل والخارج فهدمتها وقضت عليهـا، وانتهى الأمر باضطراب الدولة وضعف الحكومة والانحلال ولم يعلـم النـاس كيف وقع ذلك وكيف انقضى، وما السبب فى تلاشيها، ولم يكن مـن الـسهل الوقوف على هذه الأسرار، ولو أن البعض أقدموا على جمع هذه الحكايات، لما توصلوا إلى معرفة هذه الأسرار، ولوقعوا فى الحيرة.

٣- إن أسلوب ذوى التفكير السطحى ماثل فى أنهم يذكرون دومًا فى مثـل هـذه الأحداث أولئك الأشخاص المشاهير ذوى القوة والنفوذ، وينسبون إليهم الأعمال العظيمة، وينسون الآخرين الذين أنجزوا هذه الأعمال. ولهذا الأسلوب ذيـوع واسع فى إيران، وقد وردت نماذج كثيرة لهذا فى أحداث الثـورة الدسـتورية. ومثال على ذلك أن من أظهر الثورة الدستورية فى إيـران همـا طباطبـائى وبهبهانى وغيرهما. ولكن نجدهم على صفحات الجرائـد والكتـب يمتـدحون ميرزا نصر الله مشير الدولة على أنه مؤسسها، فى حين أن مشير الدولة لـيس له أى مجهود فى هذا المجال، بل إننا سوف نرى أنه كان يبذل قصارى جهـده للقضاء على الحياة النيابية بمعاونة محمد علي ميرزا. والعمل الوحيـد الـذى أنجزه أنه حل محل عين الدولة بعد عزله. فأصدر مظفر الدين شـاه فرمـان الدستور فى عهد وزارته هذه.

ونجد كتاب "تاريخ بيدارى إيرانيان" يعد الأمير الأعظم – نفاقا ورياء – من قادة الحرية مع أنه لم يصنع شيئًا. وكذلك عد علاء الملك – الذى كان من أعداء الثورة – من الأحرار، فقد توجه فى عهد "الاستبداد" إلى لننجراد من قبل محمد علي ميرزا حتى يخرس ألسنة الجرائد الروسية المطالبة بالحرية والتى نددت بمظالم لياخوف، ويسترضى الإمبراطور بإعادة لياخوف إلى إيران، فإذا به يذكره من بين الأحرار ويكتب موجزا عن تاريخ حياته.

وقد بلغ بالإيرانيين ضعف الإدراك وعدم القدرة على معرفة الضار والنافع إلى حد أنهم جهلوا شرور أناس كثيرين من الوزراء وغيرهم من المرائين، والذين وفدوا من باغشاه وأخذوا مكانهم فى بهارستان وإذا كانوا لم يدركوا سوء تفكيرهم ولماذا هبوا وكيف؟ فإنهم لم يعرفوا سوء هؤلاء إلا بما نكتب عنهم.

وهناك طائفتان كان لهما عظيم الأثر فى الثورة الدستورية :

الأولى: تتكون من الوزراء ورجال البلاط وبعض الشخصيات البارزة والمشهورة.

والأخرى: تتكون من العوام وأشخاص مغمورين. الأولى قلما صدر منها أمر صائب، والأخرى قلما وقع منها خطأ.

وأيًا ما كانت الأعمال التى قامت بها هذه الطائفة المجهولة، فمن الواجب أن يُدوِّن التاريخ بأسمائهم.

ولكن لما كانوا من ضعف إدراكهم وفساد طبائعهم معارضين لهذا، فلم يكفوا عن العمل واجتهدوا فى قلب الحقائق، ووضعوا النقاب عليها. وإذا ما عهد بكتابة التاريخ إلى هؤلاء الذين ضعف إدراكهم، فمما لا شك فيه أن كل الروايات سوف تنعكس وسيجعلون التاريخ باسم طائفة أخرى سيئة.

٤- إن شعب إيران أسير التشتت الفكرى، مما يجعلك لا تستطيع أن تجد بينهم عشرة أشخاص لهم طريق واحد أو منهج فكرى واحد، لذا كانت حادثة الحكم النيابى مجالاً آخر لتشتت هذا الفكر، ولطالما تحدثوا فى المجالس، ولطالما سمع هراء وكلام لا طائل منه ولا فائدة.

فى حركة واحدة جاهد فيها آلاف الرجال المبجلون الكرام، وضحى فى سبيلها آلاف الشباب بأرواحهم، أشاروا إليها بحماقة نابعة عن جهل على أنها حادثة غاية فى الضآلة، وكانوا يقولون : "كانت شيئًا جلبه الآخرون، وهم أنفسهم من قضوا عليها ".

وقد تضافر على هؤلاء العديد من الآلام والشدائد: فمن ناحية كان الجهل وعدم المعرفة حيث كانوا لا يعلمون شيئًا عن مغزى الثورة وأسرارها. ومن ناحية أخرى كان الحقد والأنانية، وبهما عميت بصائرهم عن رؤية محاسن الآخرين وفضلهم. ومن جانب ثالث نجد العداء الذى كان لهم أو لآبائهم تجاه حركة الحرية. ومع أنهم ينتفعون اليوم ويجنون ثمار الحكم النيابى ونتيجته إلا أنهم إلى الآن لم يدفعوا الحقد عن قلوبهم. وقد تضافر هؤلاء وأصروا على هرائهم، ولما كتب تاريخ الحركة ولم يعرف أحد حقيقة ذلك، لم يكن هناك من جواب.

٥- كما قلنا من قبل، إن هناك رجالاً مغمورين بسطاء قد أسهموا فى الثورة الدستورية، ولكن لما شاعوا أن تظل الحركة بلا نهاية نحَّوا هؤلاء الرجال الغيورين، وسلكوا معهم سلوكًا سيئًا بقدر استطاعتهم، وكدروا عليهم حياتهم، وتلك حكاية أخرى مفجعة، ومما يؤسف له أن تم نسيان أسماء كثيرة من هؤلاء، ولم يقدروا حق قدرهم فى التاريخ، ولم تُتَحرَّ الحقائق، وهذا أمر لا يرضى الله، ولا يتفق مع الصدق وصفاء الضمير، ونتيجة لهذا ظهر شر مستطير سواء من حيث تقدم الدولة والمجتمع، وسواء من حيث حسن الخلق.

٦- لقد تم نشر العديد من أحداث إيران فى عهد الثورة المطالبة بالحرية على صفحات الجرائد والكتب الأوربية، ولكن كان واضحا أن محررى تلك المقالات لم يسعوا إلا لمنفعة دولهم، وأخفوا الوجه الآخر للأحداث وإن لم نكتب نحن هذا التاريخ، لكانوا هم السند والساعين على الدوام فى إلحاق الأذى بإيران.

٧- إن أحد متاعب الشعب الإيرانى أن أفراده سريعًا ما ينسون الحوادث، ونحن نرى أن هناك طوائف نسيت أحداث هذه الأزمنة الحالكة الماضية، وهم لا يرتضون مع ما هم فيه من راحة ورخاء، وينبغى أن يكون ثمة شيء من شدائد الزمن الماضى هو ما يجعل الدنيا مظلمة فى وجوههم.

وقد فكرنا من كل ناحية أنه ينبغى أن يدون هذا التاريخ، ورأيت نفسى مضطرًا، وعزمت على ذلك، هذا وقد وصلنا إلى هذه النتيجة بعد العديد من المتاعب حتى نخرج طبعة صحيحة لهذا التاريخ. ولما شاركنى فى ذلك جماعة من الفضلاء الذين أخذوا على عاتقهم مسئولية إخراج هذه الطبعة بالرغم من ارتفاع أسعار الورق والطباعة، لذا فأنا أتقدم إليهم بالشكر فى هذا الموضع، وسوف أذكر كيفية هذه المشاركة وأسماء هؤلاء الذين أخرجوا هذه الطبعة فى الجزء الأخير من الكتاب.

وينبغى هنا أن أذكر عدة أشياء :

أولاً : لما كان من الناس من يتخيلون أنفسهم من المؤرخين، ويعدوننى كذلك من زمرتهم، يجب أن أذكّرهم بأننى لست مؤرخا، ولست من زمرتهم. فكثيرون يقومون بعملٍ ما لكنهم ليسوا فى عداد المتخصصين فى هذا العمل.

ثانيًا : إن ما ذكرته هنا فى هذا التاريخ، قائم معظمه على المعلومات المتوفرة التى لدىَّ، أو تلك التى بحثت عنها وحصلت عليها، كما أخذت بعض المعلومات

من الكتب والجرائد والمذكرات التى سوف أذكر فهارسها فى الجزء الأخير.

وعلى أية حال، فكل ما كتب فى هذا المؤلف جاء بناء على فهم وبحث وتفكير؛ لذا فهو جدير بأن يعد ضمن وثائق تاريخ إيران. ولو شاء الآخرون أن ينقلوا عنا، فعليهم أن يذكروا اسم الكتاب (وليس اسمى أنا) بين مؤلفاتهم. إنها سنة قد جرت لدى بعض الأشخاص فى إيران، وهى إصدارهم (مقالات) وكتبا يأخذونها عن الآخرين، وينشرونها خلسة بأسمائهم وهذا أسلوب بذىء ولا بد أن يحقر هؤلاء على الدوام.

ثالثًا : لن نستخدم كلمة "آقا" – بمعنى السيد – قدر استطاعتنا فى بداية الأسماء لأن هذا لا يعنى شيئًا، ولا يُعرِّف مجهولاً، فالناس حينما يلتقون يقولون "آقا" كنوع من المجاملة فيما بينهم، ولكن لا مكان لمثل هذا فى التاريخ، باستثناء أولئك الأشخاص الذين تلحق بأسمائهم كلمة "آقا" على الدوام، ولا نجد مفرًّا من ذكرهم.

أما الألقاب فقد حبذنا ألا نذكرها، لكننا قد نضطر إلى ذلك لعدة بواعث أو أسباب :

السبب الأول : أن كثيرًا من الناس يعرفون بألقابهم ولا نعرف أسماءهم.

والسبب الثانى : فى المراسلات والبرقيات التى سوف نذكرها، ذكرت الأسماء فى الغالب بالألقاب، ولم يكن هذا أمرًا مستحبًا لأنه يجعل التاريخ فى صورتين، وسوف نذكر الأسماء فقط فى المواضع التى ذكرت فيها الألقاب.

والسبب الثالث : ينبغى أن نجتهد فى كتابة التاريخ، ونشير إلى الأحداث كما وقعت، ونقربها إلى الحقيقة قدر المستطاع، ورفع الألقاب أحياناً قد لا يتفق مع هذا، ولا يوضح الأحداث على النحو الذى جرت عليه.

نحن الذين نكشف عن الشر والنقائص فى هذا الزمان، نعتبر الألقاب أحد هذه العيوب وينبغى بأية طريقة ألا نشير إليها.

الحقيقة أن الألقاب قد ألغيت، ولكن ينبغى أن نعلم كذلك أن القلانس والثياب المختلفة لهذا الزمان قد اندثرت. وفى المواضع التى نشير فيها إلى تلك القلانس والثياب فى الصور والتى نعتبرها عوناً على توضيح التاريخ، لا يكون هناك داعٍ لأن نتجنب الألقاب.

وسوف نقول هذا الكلام – أيضا – بخصوص كلمتى "خان" و "ميرزا" وكذلك أسماء المدن التى تبدلت أسماؤها، ونذكرها بتلك الأسماء على النحو التى كانت فيه على عهدها؛ حتى نصل إلى هذا الزمان الذى ألغيت فيه أو تبدلت.

طهران، شهر بهمن، عام ١٣١٩ هـ.ش/ ١٩٤٠م

أحمد كسروى

الجـزء الأول

« المقال الأول »

كيف كانت يقظة الإيرانيين

يشمل الحديث فى هذا المقال أحداث إيران منذ عهد حـاجى ميـرزا حـسين خـان سپهسالار حتى بدايـة الثـورة المطالبـة بالحكم النيابى.

إيران قبل الثورة الدستورية :

من المعلوم لدينا أنه عندما قتل نادر شاه فإن تلك العظمة التى ظهرت لإيران نتيجة لمجهوداته ومساعيه قد تبددت، ومع هذا فإن إيران كانت ولاتزال واحدة من الأقطار الشهيرة فى آسيا، فكريم خان وخلفاؤه إن لم يضيفوا شيئًا للبلاد، فإنهم لم ينقصوها شيئا، ولكن حدث فى عهد القاجاريين أن دب الضعف فى إيران، وقلت عظمتها ومكانتها ونقص صيتها، والسبب فى هذا - أكثر من أى شىء آخر - ماثل فى أن الدنيا قد تبدلت، وانتفضت الدول، لكن إيران بقيت على نفس حالها السابق.

إن الفترة من عام ١٧٧٩م - وهو العام الذى توفى فيه كريم خان زند - وحتى عام ١٨٣٤م - وهو العام الذى توفى فيه فتح علي شاه - وهى فترة مقدارها خمسون عامًا، قد ظهر خلالها العديد من الانتفاضات القوية فى أوربا، ووقعت أحداث تاريخية لا نظير لها من قبيل : الثورة الفرنسية، وظهور نابليون وحروبه المتتالية، وثورات الشعوب، وتقدم فنون الحرب وظهور الآلات الحديثة، وما شابه

ذلك، ونتيجة لذلك كله ظهرت دول عظيمة وقوية، إلا أن إيران ظلت بلا نصيب من هذه الانتفاضات وعلى غير وعى منها، والحقيقة أنه لا الملوك القاجاريون ولا رواد النهضة قد انتبهوا إلى هذه الثورات والتغيرات وداوموا على العيش على النحو الذى يعيشون فيه من قبل. نتيجة لذلك ظهرت دولتان عظيمتان، قويتان، متيقظتان إحداهما فى شمال إيران والأخرى فى جنوبها، وبقيت إيران عاجزة غافلة بينهما. والحقيقة أن ملوك الدولة القاجاريين ساقطى الهمة لم يكونوا أهلاً للحكم فى مثل هذه الفترة.

فهؤلاء لم يتخذوا عبرة من تلك الأحداث التى وقعت، وقد ألحقت هزائم فتح علي شاه المتوالية أمام الروس، وكذلك هزائم محمد شاه وناصر الدين شاه أمام الإنجليز بإيران ضررًا بليغًا، وغضت من هيبتها، بيد أن الملوك القاجاريين والشعب الإيرانى لم يفيقوا من سباتهم.

إن فتح علي شاه ومحمد شاه وناصر الدين شاه قد جاء كل منهم فى أعقاب الآخر ثم رحلوا دون أن يغيروا من مسلكهم، كما أغمض أفراد الشعب – الذى عاش فى كنفهم – أعينهم ولم يشعروا بشىء مما حولهم، عدا تلك الأعوام الأخيرة من حكم ناصر الدين، حيث ظهر قدر من الحركة واليقظة بين أفراد الشعب.

فهم لم يفعلوا شيئًا، ولم يتركوا الآخرين ليعملوا. وفى عهد محمد شاه ميرزا كان أبو القاسم قائم مقام وزيرًا محنكًا، وكان ينجز الأعمال بجدارة، لكن محمد شاه قتله وأسند مكانه إلى حاجى ميرزا آقاسى.

وفى عهد ناصر الدين شاه كان ميرزا تقى خان أمير كبير يبذل جهدا لإصلاح الأمور فى إيران وتدبيرها، وأظهر قدرته وجدارته سواء فى السياسة أو فى تدبير شئون الدولة، فقتله ناصر الدين شاه وعين مكانه ميرزا آقاخان نورى، وبعد ذلك تولى حاجى ميرزا حسين خان سپهسالار زمام الأمور وقد أثبت أنه عليم

محنك. لكن ناصر الدين شاه لم يحتفظ به، وكذلك الناس لم يقدروا قيمته ولا قيمة ما قام به من أعمال.

حاجى ميرزا حسين خان سپهسالار :

استدعاه ناصر الدين شاه من إسطنبول عام ١٨٧١م (١٢٥٠هـ.ش – ١٢٨٨ هـ.ق)، وجعله فى البداية وزيرا للعدل، وبعد ذلك أسند إليه منصب الصدر الأعظم. ولما كان سپهسالار رجلاً محنكا وفاضلاً وعاش طويلاً فى إسطنبول وبعض البلاد الأخرى، وكان على دراية بأحوال البلاد الأوربية، فقد أراد أن يحدث نهضة كذلك فى إيران، وأن يحقق لها الرخاء ويوقف استهتار حكام المدن، ويقضى على الرشوة.

ومن أعماله الحسنة أنه سير الوزارات ونظام البلاط وفق النظم الأوربية، حقيقة وجدت الوزارات قبل ذلك، لكن لم يكن لها حدود ولا قيود فيما بينها. وكان الشاه أو الصدر الأعظم هو الذى يقوم بكل الأعمال ويصدر الأوامر. وهكذا اقترح سپهسالار وجود صدر أعظم وتسع وزارات على النحو التالى :

وزارة الداخلية، وزارة الخارجية، وزارة الحربية، وزارة المالية، وزارة العدل، وزارة العلوم، وزارة المالية، وزارة التجارة والزراعة ووزارة البلاط. ثم وزع الأعمال فيما بينها جميعا حيث تقوم كل وزارة بأعمالها باستقلال وحرية ولكنها مسئولة أمام الصدر الأعظم.

وهذه الوزارات التى كانت تحت إدارة الصدر الأعظم عرفت باسم "البلاط الأعظم"، وفى مجلس الوزراء تتم مناقشة الأعمال الهامة للدولة بحضور الصدر الأعظم، وينعقد هذا المجلس يومين كل أسبوع.

وبين أيدينا اللائحة التى كتبت فى هذا الشأن فى الثالث والعشرين من نوفمبر عام ١٨٧٢م- الثانى عشر من شعبان عام ١٢٨٩ هـ.ق والمذيلة بتوقيع الشاه، ويتبين من قراءتها مدى ما كان يتمتع به السپهسالار من فهم وحنكة. [١]

وفى عهده تم التشاور فى مد خط السكة الحديد، ومنح هذا الامتياز إلى الإنجليز، إلا أننا لم نعلم حتى الآن كيف تم ذلك.

كان هذا الرجل الفاضل يريد إحاطة الشاه علما بأحوال الدول الأوربية وكيفية تعاون الملوك مع الشعب، وإلى أى حد تقدمت هذه الدول، وحاول إقناعه بتطبيق ذلك فى إيران؛ لذا رأى أنه من الأفضل أن يحثه على زيارة أوربا ومشاهدة ذلك هناك، ونتيجة لتشجيعه هذا توجه الشاه مع السپهسالار إلى أوربا عام ١٨٧٣م (١٢٩٠ هـ.ق - ١٢٥٢ هـ.ش).

إلا أن هذه الرحلة أعقبت أضرارا، وذلك لأن الأشخاص الذين لم يرضوا عن أعمال السپهسالار انتهزوا فرصة عدم وجوده، وأوعزوا إلى رجال الدين : - "بأن السپهسالار يريد أن يلقى بإيران فى خضم الفرنجة، ومنح امتياز مد السكك الحديدية إلى الإنجليز". فتأثر رجال الدين من أمثال سيد صالح عرب وحاجى ملا على وغيرهما من هذا الكلام، وأظهروا العداء للسپهسالار وعدوه ملحدًا، وكتبوا رسالة إلى ناصر الدين شاه بألا يحضر معه السپهسالار إلى طهران. ووصلت هذه الرسالة إلى الشاه وهو فى الرشت، ولما كان رجال الدين يتمتعون بالقوة والنفوذ فى تلك الآونة، اضطر الشاه أن يسند حكم جيلان إلى السپهسالار، وتركه هناك، وعاد إلى طهران بدونه. لكنه استدعاه ثانية إلى طهران فى العام التالى وجعله وزيرا للخارجية، واسترضى حاجى ميرزا حسين خان بعض رجال الدين وقام بجلائل الأعمال مرة أخرى.

---

[١] جاء مطلع هذه اللائحة فى مقدمة كتاب "تاريخ بيدارى ايران".

وفى عام ١٨٧٨م حث الشاه مرة أخرى على زيارة أوربا وكان يوحى إليه بأفكاره، ولكن لما كان الشاه فى خبيئة نفسه غير متفق معه، كما كان بعض من رجال الدين يظهرون له العداء، وكذلك فإن إحدى الدول المجاورة لم تكف عن محاولات الإحباط، لذا لم تحقق أفكار سپهسالار أية نتيجة، وعزله الشاه وأرسله حاكما على خراسان حيث توفى هناك عام ١٨٨٠م.

ميرزا ملكم خان والسيد جمال الدين :

سافر ناصر الدين شاه مرة ثالثة إلى أوربا فى عام ١٨٨٨م، واصطحب هذه المرة ميرزا على أصغر خان أمين السلطان الذى حل محل سپهسالار فى منصب الصدر الأعظم، ولكن هذه الأسفار لم تثمر شيئا، إلا أن الشاه شغف بالقانون بعد العودة من هذه الرحلة، وأمر ميرزا على خان أمين الدولة بأن يسن قانوناً لإيران، وكتبت جريدة أختر مقالاً تزف فيه البشرى بازدهار الأمور فى إيران، ولكن كل ما كتبوه كان عبثا. وبدلاً من أن يدرك الشاه أن عظمة أوربا وقوتها جاءت نتيجة لتعاون الدول مع شعوبها، وأن من واجبه تشجيع الشعب على القيام بالأعمال النافعة، فإنه توجس خيفة من هذه العظمة ونظر إليها بعين اليأس، وأظهر استسلاما أكبر أمام جيرانه. وخاصة أن من كان يتكلم بلسانه ويعرب عن فكره هو أمين السلطان، وكان هدف هذا الرجل الغريب ورغبته فى أن يظل المسيطر وفتحت يده للأخذ والعطاء، وكان يستخدم كل ما لديه من دهاء وفطنة فى هذا السبيل، ولكى يحافظ على بقائه فى السلطة كان يطأطئ الرأس أمام مطالب الأجانب.

ونتيجة لخبث الشاه وضعفه وسوء نية أمين السلطان حدث فى الأعوام الأواخر لملك ناصر الدين شاه أن منحت الامتيازات إلى الأجانب، وبخاصة إلى الإنجليز ومن أشهر تلك الامتيازات، امتياز الدخانيات (التوتون والتنباكو)، وهذا كله مما أثار الشعب كما سنرى من بعد.

ومن الأشخاص الذين رثوا لحال الشعب وتملكهم الحزن عليه، وجاهدوا لأن يوقظوا الناس فى عهد ناصر الدين شاه اثنان، أحدهما ميرزا ملكم خان الأصفهانى، والثانى السيد جمال الدين الأسد آبادى، وكان ملكم من جلفا بأصفهان ومن أرمن تلك الضاحية، ولكنه ثبت أقدامه فى تصريف شئون الدولة، ونال منزلة عظيمة، وكان قد سافر إلى أوربا، كما يقال إنه اعتنق الإسلام، ولما كان رجلاً حصيفا ومستنيرا، ومطلعا على سياسة الدول الأوربية فيما يختص بآسيا، كان قلبه يحترق على أحوال إيران، ولذلك اجتهد فى إيقاظ الشعب، لذا كان فى عهد الصدارة العظمى لحاجى ميرزا حسين خان صفيه وخليله.

ولميرزا ملكم كتابات جميعها تدل على علمه وحكمته، ومما لا شك فيه أن هذا أثار العداء بينه وبين ناصر الدين شاه الذى اتسم بالأنانية، وأمين السلطان الذى اتسم بخبثه. وبخاصة أنه كان ينتقد الامتيازات التى منحت إلى الأجانب ويبين ما يعود على البلاد من ضررها. والحقيقة أن ملكم كان عضوا بالماسونية، وكان لكتاباته هذا الطابع، ولما كنا لا نعرف أفكار هذه الجماعة وأهدافها فلن نستطيع أن نحكم على ملكم.

كما أصدر ميرزا ملكم جريدة رسمية يومية باللغة الفارسية فى لندن، وكانت نسخها فى متناول الأيدى. وقد ظل ملكم على قيد الحياة مدة عامين بعد ظهور الحكم النيابى، حيث كان يعيش فى أوربا.

أما السيد جمال الدين فقد جاء إلى إيران مرتين، ولكنه طُرد فى المرة الثانية التى كانت فى غضون عام ١٨٨٩م من إيران بأمر من الشاه، وكان السيد رجلاً شجاعًا، حيث كان يعيب وينتقد على الدوام أنانية الشاه وجشع أمين السلطان، كما كان ينبه الناس دومًا ويثير ثائرتهم، فاجتمع حوله جمع منهم. وواقع الأمر أن ما

قام به السيد جمال الدين فى إيران ومصر وتركيا لم يثمر عن نتيجة محددة، أما تلاميذه فقالوا هراء فيما يتعلق به [1].

وقد قام السيد بعمل عظيم إلا أنه لم يعرف السبيل إلى تحقيقه، ولم ينسه أحد فى أى وقت. ففى مثل هذه الجهود كان النسيان لخطوته الأولى فلو أن السيد عمل على إيقاظ الشعوب وإصلاح الأفكار بدلاً من أن يمضى إلى هذا البلاط وإلى ذلك، لوصل إلى نتيجة أفضل.

وفى المرة الثانية رأى ناصر الدين شاه السيد فى ميونخ، واستدعاه إلى إيران، ولكننا لا نعرف لماذا استدعاه وأى وعد وعده إياه، ويقول تلاميذه : "بشره بمنصب الصدر الأعظم". ولكن هذا أمر لا يصدق، ففى بلد مثل إيران وفى ذلك العصر، لم يكن منصب الصدر الأعظم أو منصب رئيس الوزراء مما يحصل عليه بمثل هذه السهولة والبساطة.

وفضلاً عن هذا فإن دعوة جمال الدين إلى إيران كانت بعلم من الأتابك، وواضح أنه لم يدعه ليحل محله. نعم يمكن القول إن السيد كان يأمل شيئا من الشاه !!

رسالة السيد جمال الدين إلى ناصر الدين شاه :

بين يدينا رسالة باللغة الفارسية من السيد يقال إنه كتبها إلى ناصر الدين شاه حين كان لاجئًا فى (ضريح) عبد العظيم، ولما كانت تلك الرسالة سببًا فى مقدم

---

[1] على سبيل المثال فإن محمد باشا المخزومى الذى كتب مؤلفا بعنوان : "ذكريات جمال الدين الأفغانى". كتب بخصوص خروج السيد من إيران يقول : "عندما انتشر هذا الخبر. ثار أنصار جمال الدين على الدولة وكاد الأمر أن يفضى إلى جريان أنهار من الدماء". وهذا كله محض افتراء !!

السيد إلى إيران، لذا يجب أن نلقى بعض الضوء عليها ونوردها على الرغم من طولها [1].

" أعرض على السدة السنية العالية والعتبة الرفيعة السامية حضرة صاحب الجلالة الإمبراطور حامى حمى الإسلام، فى مدينة ميونخ حين كنت ضيفًا فى رحابكم الكريمة أحظى بالتكريم والتشريف، وأفخر بملازمة ركابكم الميمون الخطوات، وصدر لى الأمر من قِبل جناب أمين السلطان الوزير الأعظم بأن أرحل أولاً إلى مدينة بطرسبرج للقيام بمهمة جليلة هى معالجة بعض الأمور على أن أعود بعدها إلى إيران، وقد استحسن ذلك صاحب الجلالة الإمبراطور أقام الله به دعامة المدن، وقد تحدث جناب الوزير الأعظم معى خمس ساعات فى مساء نفس اليوم الذى تشرفت فيه باللقاء، ويتخلص الحديث فيما يلى :

أولاً : أن الحكومة الروسية وأصحاب الصحف والصحفيين فى روسيا ليس لهم الحق فى أن يغضبوا أو يتناولوا إيران بالنقد، لأن جناب الوزير الأعظم ليس ملكا ولا صاحب ملك ولا يستطيع فتقا ولا رتقا للأمور. كذلك فإن مسألة نهر كارون وإنشاء المصرف وشراء المعادن قد تم التفاوض بشأنها قبل أن يتبوأ منصب الوزارة العظمى، ومن سوء الطالع أن القيام بهذا العمل قد تم فى وقت وزارته، وينبغى أن أبرئ ذمته وساحته لدى الحكومة الروسية بعد الوصول إلى مدينة بطرسبرج، وأن أعمل على تهدئة خواطر المسئولين الروس، وأن أوضح حسن نياته وأهدافه تجاه دولة روسيا.

ثانياً : طلبوا منى أنا العاجز أن أبلغ شفاهة "مسيو كيرس" – رئيس الوزراء ووزير الخارجية – ومستشاريه "ويلنكالى" و "زينوويب" بأن جناب الوزير الأعظم مستعد فى كل حال لإثبات حسن نياته، وإذا ما بدا خلال عدة أيام حل أسهل من جانب الروس فمن الممكن تسوية مسألة نهر كارون والمصرف

---

[1] وردت هذه الرسالة فى مقدمة كتاب "تاريخ بيدارى إيران" وقد أخذناها عنه على تلك الصورة التى بها ومع ما تحويه من أغلاط.

والمعادن، وأن يتم إعادتها إلى ما كانت عليه، ولما كنت أعلم – أنا العاجز – أن نجاح أهداف الوزير الأعظم وهو ما يرتضيه الملك ويعـود بـالخير على المسلمين عزمت على الرحيل إلـى بطرسـبرج واسـتعنت بـبعض الشخصيات التي تسهم في توجيه دفة السياسة في الشرق والغرب كالجنرال "إيروتشيف" في وزارة الحربية والجنـرال "ريختـر" فـي وزارة الـبلاط والجنرال "إخناتيف" سفير روسيا السابق في إسطنبول ومدام "توديكف" وهي من السيدات نافذات الكلمة، وكثيرًا ما كانت تسعى فـي تـسوية المـسائل السياسية بين روسيا وإنجلترا. وقد قابلت مسيو كيرس ومستشاريه عشرين مرة خلال شهرين. وقبل أن أبدأ في الحديث عن أهـداف جنـاب الـوزير الأعظم سعيت أولاً – مستعينا بالأدلة والبراهين وآراء من يتفقون معي في الرأي – أن أثبت أن صلاح أمر دولة روسيا في الشرق وهـو أن تـدخل دوما مع إيران من باب المودة والسلام وحسن العلاقات، وألا تدخل معهـا في قتال وخصام، وفي الوقت نفسه أذكرهم بعفو وسـماحة جلالـة الملـك حامي حمى الإسلام، في بلاد الترك والجهات الأخرى. ولمـا أدركـت أن مطلبي هذا قد سجل وقبل، وأن رأيهم اختلف بعـد ذلـك، وخمـدت نـار غضبهم، في ذلك الوقت عرضت آراء جناب الوزير الأعظم، فقـد ذكـر الوزير الأعظم بنفسه لي في ميونيخ " إني أبلغكم أنهم على اسـتعداد لحـل مسألة نهر كارون والمصرف والمعادن إذا ما تم اقتراح الحل الأمثل الـذي لا يؤدي إلى الخصام والقتال على أن تقر حكومة إيران إيجاد توازن بـين إنجلترا وروسيا في إيران " .

وبعد هذا المطلب حاولت قدر الإمكان أن أبرئ ساحة جناب الوزير الأعظم وأبين حسن نواياه في موقفه من روسيا. فكتبت ثانية إليه من بطرسبرج بهذه المطالب. وبعد التكرار لإثبات حسن نوايا الوزير الأعظم فقد رد مسيو "كيرس" ومستشاروه بأنه ينبغي أولاً أن نتشاور مع وزيري الحربية والمالية في هذه

المسألة، وأن يتم عرض نتيجة المشاورة على القيصر، وبعد ذلك إذا ما وجد طريق سياسى يمكن أن يتم به حل المسألة سنرد عليكم به لتبلغوه إلى الوزير الأعظم، ومما لا شك فيه أن هذه المسألة إذا ما حُلّت على نحو لا يثير العداء والخصام بيننا وبين دولة إيران، فمن الأفضل تعيين مندوبَيْن دبلوماسيين أحدهما لنا والآخر لجناب الوزير الأعظم، وقالوا لى إذا ما شاء جناب الوزير الأعظم أن يوصد أبواب الخطر فى المستقبل فبلغه أننا قد حددنا مندوبين من روسيا للتفاوض معه لحل الخلافات الحالية الموجودة بين الدولتين بالوسائل السلمية، حتى تسير الأمور إلى أفضل، وقد صِرت - أنا العاجز - مسرورا غاية السرور لأنى استطعت بمفردى بتوفيق الله عز وجل أن أؤدى هذه الخدمة إلى دولة الإسلام بعد أن وقفت على نيات الروس وخططهم الخفية فى الشرق. ولعلى أكون قد أرضيت الوزير الأعظم. ولما وصلت إلى طهران، توقفت خارج المدينة وأطلعت جناب الوزير الأعظم على ما قمت به وخصص لى دار حاجى محمد حسن أمين الضرب لأنزل فيها وجعل نجله مضيفى، ولم أغادر مكانى ثلاثة أشهر إلا مرة واحدة بعد ذلك بشهر، حين دعيت للمثول فى حضرة جلالة الإمبراطور، وكان تشرفى بمقابلته من دواعى فخرى، وخلال هذه الفترة لم يسألنى جناب الوزير الأعظم أى سؤال عما حدث فى بطرسبرج أو عن نتيجة هذه المهمة التى قمت بها فى بطرسبرج وصحيح أنه أرسل خلال هذه الفترة بعض أعوانه عدة مرات للسؤال ووعدونى بمقابلته، ولما طالت المدة سألت عن حقيقة الأمر، وعندما علم المسئولون الروس بعدم اهتمام الوزير الأعظم ورغم كل هذه المشاورات والمناقشات والمجادلات التى قمت بها - أنا العاجز- فى بطرسبرج، فقد فسروا ذلك على أنه نوع من المخادعة وحيلة من الحيل التى يراد بها تخدير الخصم والكشف عن أغراض الطرف المقابل (فياليت الأسئلة طرحت وكشفت أفكار الطرف المقابل) فكتبوا إلى سفارتهم بدار الخلافة فى طهران أن السيد جمال الدين تباحث معنا على لسان جناب الوزير الأعظم، وإذا ما شاء الوزير الأعظم أن يجعل لهذه المباحثات صفة رسمية وأن تتم بطريقة مباشرة فعليه أن يتصل بالسفارة الروسية فى طهران، أو بالسفارة الإيرانية

فى بطرسبرج. أما ما دار من مباحثات بيننا وبين السيد جمال الدين الذى تباحث معنا بطريقة غير رسمية فيعد لاغيًا (لا حول ولا قوة إلا بالله) فقد سافر وتحمل المشقة وعاد إلى النقطة الأولى (فيا للعجب). فإن جلالة الملك يعرف بحكمته الدبلوماسية التى وهبه الله إياها كيف يحكم ثانية عقد تلك العقدة التى حلت، ويعرف نتائجها أفضل من سواه. ولما اطلع الوزير الأعظم على مضمون هذه البرقية – التى أرسلتها وزارة الخارجية الروسية إلى السفارة الروسية فى طهران – فعلى غير عادة سياسيى العالم بدلاً من أن يظهر أسفه لم يكترث كثيرًا، ولم يبادر بإبلاغ الروس برغبته فى التفاوض معهم بالوسائل السلمية، وصرح قائلاً :

" أنا لم أقل شيئًا للسيد جمال الدين حتى يبلغه للروس ولم أرسله إلى بطرسبرج (إنا لله وإنا إليه راجعون). وهذا هو اللعب المعكوس، وهذا هو الفكر العقيم، وهذه نتيجة فاسدة، فكيف يمكن إيصاد باب الخطورة مع هذا المسلك والابتعاد عن المهالك (إلقاء الشبهة فى القلوب دون سبب، وإيقاع النفور فيها، حفظنا الله بقدرته من آثارها الوخيمة).

والأعجب من هذا كله أننى سمعت بعد ذلك من اللسان المبارك صاحب الجلالة الإمبراطور ما يدل على احترامه لى ومدحه إياى، ومن بَعْد بلغوا الحاج محمد حسن أمين الضرب أن ما يرضى صاحب الجلالة الإمبراطور هو أن يغادر هذا العاجز طهران وأن أجاور قبور مدينة قم. ومهما بحثت فى حفيظتى لم أهتد إلى سبب يستوجب هذا. فهل كان ذلك بسبب أنى دعوت دولة الروس إلى عقد صلات المودة مع إيران بالبراهين والأدلة ؟ أم كان من أجل أنى مضيت إلى بطرسبرج بناء على رغبة الوزير، واجتهدت فى تبرئة ذمته وحسن نياته مع حكومة روسيا ؟ أم كان بسبب أننى حصلت على طرق لتسوية الخلافات بكدى وجدى كما شاء الوزير الأعظم ؟ وإذا جاز للمجرب أن يندم فكان يكفينى ما كوفئت به من ضيافة حتى لا أفكر فى إيران ثانية. إلا أننى احترمت كلام الملك، ومن

المعروف أن هدفى كان خلاف ما قيل، فأنا أريد الخير وأنا المطيع، أما غير ذلك فهو هراء مما يقال من كلام المرجفين الميالين إلى المزاح والتهكم.

بالله عليكم، إذا ما ظهر أن مسلكى لا قدر الله ينحرف عن طلب الخير، فأى لوم يقع علىّ، سبحان الله، إنهم توهموا أنى أزاحمهم على تبوء المناصب وهذا ما يجعل أصحاب العقول الصغيرة والنفوس الحقيرة يفسدون قلب صاحب الجلالة الإمبراطور علىّ أنا العاجز، وها أنا ذا ألازم حضرة عبد العظيم حتى يصدر الأمر من صاحب العزة.

أسأل الله تعالى أن يمدكم بالعدل والحق، وينصركم بالحكمة، ويشيد حكمكم بقدرته، ويحرسكم من كيد الخائنين. آمين. العاجز/ جمال الدين الحسينى".

بداية اليقظة لدى الشعب الإيرانى :

سبق أن ذكرنا أنه فى الأعوام الأخيرة لحكم ناصر الدين شاه أن منحت الامتيازات للأجانب، وفى البداية منح للإنجليز امتياز مد خط السكك الحديدية من بوشهر وحتى جيلان، وكان ذلك فى عهد السپهسالار، وينبغى أن يعد هذا من أخطاء سپهسالار، إلا أن هذا الامتياز لم يعمل به وسحب بعد عشرة أعوام وانتهى أمره، ولكن حدث فى عام ١٨٨٩م – ١٢٦٨ هـ.ش أن منح ناصر الدين شاه بعض الامتيازات الأخرى وكان من أشهرها امتياز التبغ، ولم يدرك الناس ضرر هذا، ولم يكونوا حتى ذلك الوقت يفطنون إلى ما يعود به على البلاد من ضرر أو منفعة، ولم يتساءلوا عن كيفية ما وقع فى أمور الدولة، ولكن لما كان ما حدث سيؤدى إلى تواجد الأجانب فى إيران وكثرة عدد الأوربيين فيها، فإن الشعب لم يقبل. وبخاصة رجال الدين، وأعلنوا عن استيائهم وجأروا بالشكوى، وفتحوا جميعا عين اليقظة، وهكذا ألغى امتياز التبغ أمام هذه الثورة وذلك الصمود.

وكان هذا الامتياز يعد ضررا بالغا بالنسبة لإيران، لأن بيع جميع أصناف التبغ فى البلاد سواء فى الداخل أو فى الخارج كان يعهد به لفرد إنجليزى واحد، ويدفع مقابل ذلك خمسة عشر ألف ليرة سنويًا إلى الدولة، وتنال الدولة الربع من الربح الصافى، فى حين أنه فى تركيا – وإنتاجها من التبغ أقل من إيران – كانت تعهد بعملية البيع لشركة واحدة داخل البلاد، وفى المقابل كانت الشركة تدفع إلى الحكومة التركية سبعمائة ألف ليرة سنويًا، وكان نصيب الدولة الخمس من الربح الصافى، أرأيتم إلى أى مدى وصل الفرق بينهما ؟

ولم يكن الناس على علم بهذه الحسابات ولكنهم كانوا يخشون من تدخل الأجانب فى البلاد، وصعب عليهم بعد ذلك أن يبيعوا التبغ الذى يزرعونه إلى أجنبى بثمن بخس، ويبيعه بعد ذلك بأثمان باهظة.

كان الحاصل على هذا الامتياز شخص واحد، ثم أسست له شركة فى لندن بتكاليف ٦٥٠،٠٠٠ ليرة، وفى ربيع عام ١٨٩٠م بدأ عمل عمال هذه الشركة فى إيران.

ومن الوهلة الأولى أظهر الناس عدم رضاهم، وأرسل التجار رسالة إلى الشاه بوساطة أمين الدولة وطالبوه بالإنصاف، ولما كان الشاه وأمين السلطان هما اللذان منحا الامتياز وكانا من مؤيديه، كانت النتيجة عدم النظر فى مظلمتهم. لذلك عندما ذهب موظفو الشركة إلى جميع المدن وزاولوا أعمالهم، ازداد سخط أفراد الشعب، ورويدًا رويدًا سلكوا طريق الانتفاضة والثورة.

وكان أهل تبريز أول من ثاروا، ومزق الناس إعلانات الشركة الملصقة على الجدران وألصقوا موضعها عبارات ثائرة. وكان أمير نظام جروسى عامل مظفر الدين ووالى المدينة، فطلب ولى العهد منه أن يتخذ موقفا عنيفا مع الشعب وأن يأخذ الثائرين بالعقاب، فلم يقبل أمير نظام وتنحى عن منصبه.

وبعد تبريز ثارت أصفهان، وبعد ذلك ظهرت الانتفاضة فى طهران، وكان العلماء فى طليعة الثائرين فى كل مكان، فكان لحاجى ميرزا فى تبريز، ولآقا نجفى فى أصفهان، ولميرزا ممد حسن آشتيانى فى طهران ولغيرهم ضلع فى هذه الثورات، ومن سامراء أرسل المجتهد العظيم ميرزا محمد حسن الشيرازى برقية إلى الشاه، وبيّن أضرار الامتياز وطالب بإلغائه[1].

وكانت مشكلة غاية فى الصعوبة، ولم يعرف الشاه كيف يتصرف، فطالب فى البداية أن يسحب من الشركة امتياز البيع داخل البلاد، وأن يكون لها الحق فقط للبيع فى الدول الأجنبية، إلا أن الشعب والعلماء لم يرتضوا هذا، ولم يكفوا عن الجهاد. وفكر العلماء فى حل آخر وهو ألا يكون لهم صلة بالشركة، وأن يمنعوا الناس من تدخين النرجيلة والغليون. وبذلك أصدر ميرزا الشيرازى فتوى بتحريم التدخين، وبمجرد أن وصلت هذه الفتوى إلى المدن عن طريق البرقيات فما كان من الناس جميعا فى كل مكان صغارا كانوا أو كبارا، نساء أو رجالاً، أثرياء أو فقراء إلا الامتثال لهذه الفتوى، فأغلقت جميع حوانيت التبغ دفعة واحدة، ونحى الناس الأرجيلة والغليون جانبا.

وهكذا بلغ هذا الأمر منتهاه، وذلك مما أثار تعجب جميع الأجانب، واضطرت الشركة لأن ترفع الشكوى إلى الشاه تطلب الحل، فشاء الشاه أن يواجه هذا بعنف، فأرسل إلى ميرزا آشتيانى برسالة يقول له فيها إما أن تدخن الغليون علانية بين الناس وأن تنقض تلك الفتوى، وإما أن تخرج من طهران. فقبل الخروج واستعد للرحيل، إلا أن الناس ثاروا ولم يتركوه. ولما تجمع جمع منهم وتزاحموا حول مقر الحكومة وشاءوا أن يدخلوه، أطلق الجنود عليهم الرصاص بأمر من آقا بالاخان – الذى أصبح بعد ذلك القائد الأعظم – وقتل منهم سبعة أشخاص بينما أصيب أكثر من عشرين شخصا. وعندما اشتدت الثورة شيئًا فشيئًا،

---

[1] وردت تلك البرقية وغيرها من البرقيات التى كانت بين الحكومة والعلماء فى كتاب "تاريخ بيدارى إيرانيان".

وتملك الخوف الأجانب الذين كانوا يعيشون فى طهران وفى بعض الأماكن الأخرى، اضطر الشاه لأن يتباحث مع الشركة وتعهد بقبول دفع غرامة الامتياز وقدرها خمسمائة ألف ليرة، وكان هذا الأمر فى شهر دى عام ١٢٧٠ هـ.ش (يناير ١٨٩٢ – جمادى الأول ١٣٠٩ هـ.ق) وسحب هذا المبلغ من البنك الملكى الذى كان قد بنى حديثًا، وسلموه للشركة. وكان هذا أول قرض للحكومة الإيرانية. وبعد مُضى ستة أشهر من تأرجح الانتفاضة بين شدة وضعف انتهت القصة، ويمكن اعتبار هذا الحدث هو أول انتفاضة للشعب الإيرانى، ومع أنها كانت بتحريك من العلماء، ولم تكن المنافسة بين الجارتين بلا أثر، إلا أنها تعد أعظم حادثة وينبغى أن يبقى ذكرها فى التاريخ.

ولكى يعلم السبب فى خوف الناس، ولكى نحصل على نموذج من فكر الناس واتجاهاتهم فى تلك الأيام، سوف نورد مثالاً من مقالٍ أغلبُ الظن أنه كتب بقلم أحد العلماء وألصق حينها على الجدران :

مقالة وطنية

بسم الله الرحمن الرحيم

فيما يختص بمشكلة التبغ والشخص المستأجر الإنجليزى وقصة منع استعماله التى تنسب إلى رؤساء الأمة، نقول على سبيل التقدمة إنه من الأصول الموضوعة ومن مسلمات جميع أرباب العقول، أنه ينبغى على من يملك بقعة من البقاع أن يقيم سدًا ليحول دون دخول الأجانب تلك البقعة، حتى أنه يحتمل عند العاقل دوما أن أقرب الناس إليه إذا ما أقام فترة فى داره فسوف يعلن عن ملكيته لها ولا يستطيع إخراجه إلا بصعوبة. أما فى البداية فسوف يكون ممنوعًا من الدخول. فما الذى سوف يحدث إذا ما كان الدخيل عدوًا شديد البطش ويحتمل أن يغير على منزله ليلاً أو يقتله، فلا ينبغى أن يكون مطمئنًا لهذا، وينبغى عليه أن

يحرس مداخل هذه الدار، كما أن الملك عقيم وهذا من شيم نفوس الملوك، فكم عقدت عهود واتفاقات وكانت فى المحافظة على السلطنة، إلا أنها نقضت، وطمأنوا الأعداء بالأيمان المغلظة، وبعد أن تم التسلط نقضت هذه العهود، والنتيجة الأخرى من التجربة هو تكرار مشاهدتها، وهذا من أصول البرهان، ومن الأمور التى ترسو على أساس متين، وبتكرار المشاهدة عند الإنجليز، وفى كيدهم ومكرهم فيما يختص بأهل الهند ومصر وسائر البلدان - أصبح كل هذا واضحا وضوح الشمس فى وضح النهار. فمعاهداتهم ليس لها مبدأ ولا أساس، ففى بداية استيلائهم على الهند جعلوا أفراد الشعب هناك تبعًا لهم باسم التجارة، وضموا إليهم جماعة منهم، وفى النهاية كان يسيرا عليهم أن يستولوا على المملكة بتمامها دون مشقة، ولم يوفوا بعهودهم الأولى، وقد قهروا مصر على هذا النحو. وهم الآن بصدد الاستيلاء على مملكة إيران أعاذنا الله تعالى من ذلك، ومهدوا طريقا لهم من إقليم فارس - وهو أول ثغر من ثغور الإسلام - وحتى حدود إقليم خراسان - وهو من الموقوفات القديمة لثامن الأئمة - وذلك لغرض خاص، حيث جمعوا أسباب القتال فى تلك البقعة على نحو أتم وأكمل.

وما صنعه مستأجر التبغ أنه أقام بناء عظيمًا بعنوان حانوت التبغ فى بقعة أباغ إيلخان التى تشرف على جميع أنحاء المدينة وكذلك على مقر الحكومة، وكان عرض الجدار ما يقرب من أربعة أذرع، ومصنوعًا من الجص والآجر وصار كسفينة مدرعة عليها المدافع، مع أنه كان فى الإمكان تأجير قصر الأمين خاليًا، ألم يكن هذا بناء على أمر الدولة ؟ بل إن أغلب الظن أن كل هذه المصروفات الباهظة من مالك مملكتهم، وإلا ما شأن التاجر بأن يدفع إيجارا قدره ثلاثة ملايين ونصف أو ستة ملايين ؟ وكيف يستطيع أن يحصل أصل رأس ماله من أهل إيران الفقراء؟ وكيف يستطيع أن يطمئن على إتمام تحصيله ؟ ولمَ يحمل المدافع والبنادق مع أحمال القماش والتبغ وغيرها إلى هذا المكان إلا لكى يستخدموها وقت الحاجة، ويدكوا بها جميع البلاد ويخربوها فى آن واحد، ويصرفوا باسم المفتش ثلاثين

طومانا لرؤساء العمل، ويهيئوا الغلمان فى أطراف البلاد. وهذا دليل واضح على طول آمالهم وخيالهم ودفع الضرر المتوقع، بل إنه من المحتمل عقلاً أنه من الضرورى .... " [١].

الجرائد والمدارس :

حكم ناصر الدين شاه مدة خمسين عاما، وفى عهده - طواعية أو قسرًا - ازداد توثيق الصلات بين إيران وأوربا، وتم أخذ الكثير من مظاهر المدنية من الأوربيين كالتلغراف والتليفون والبريد ودار سك النقود والكهرباء وإدارة الشرطة وما أشبه، وأقيمت الوزارات على النمط الأوربى، وأسست داران للفنون إحداهما فى طهران والأخرى فى تبريز وذلك لتعليم اللغة الفرنسية وبعض العلوم. كذلك ظهرت الصحف وأنشئت المدارس، ولما كانت الصحف والمدارس على صلة دائمة بمسألة ثورة الجماهير، فسنسوق الحديث عنهما فى هذا الموضع :

إن الدولة فى بادئ الأمر هى التى أنشأت الصحافة فى إيران، وكانت الصحف الأولى رسمية، وقلما نعرف جريدة ظهرت باللغة الفارسية على عهد ناصر الدين شاه لم تكن رسمية، ولكننا نذكر هنا جريدة واحدة فقط وهى جريدة "اختر" التى كانت تصدر فى إسطنبول.

كانت هذه الجريدة ذات قيمة، كما كان كاتبها من الوطنيين الغيورين ومن الأخيار، وكما قلنا فقد كتبت مقالات لها أهميتها وقيمتها فى مسألة امتياز التبغ، وكانت تلك المقالات هى أحد البواعث التى نبهت الشعب إلى هذا الأمر.

أما المدارس، فينبغى أن نعتبر مؤسسها هو حاجى ميرزا حسن رشديه وحتى يعرف هذا الأمر حق المعرفة ينبغى أن نكتب أولاً عن كيفية حال المدارس:

---

[١] هذه المقالة - أيضا - مستمدة من كتاب "تاريخ بيدارى" ونقلت بالأخطاء التى وردت فيها، ولم نذكر بقيتها لكثرة أخطائها. (المؤلف).

يجب أن نعلم أن التعليم فى إيران كان ينقسم إلى قسمين وذلك قبل الحكم النيابى فى إيران : القسم الأول هو المدارس التى كان يتعلم فيها من يريد أن يصبح عالمًا من علماء الدين. والقسم الثانى الكتاتيب التى يتعلم فيها الأطفال القراءة والكتابة.

وكانت المدارس كثيرة فى إيران، ووجدت عدة مدارس فى كل مدينة، وكان الطلاب [1] الذين يختارون السكنى فيها يتعلمون بها علوم الصرف والنحو العربى والمنطق والأصول والحكمة والفقه وما أشبه. عندما بدأت حركة المطالبة بالحكم النيابى فى إيران كان لهذه المدارس رونقها وازدهارها وكما سنرى فيما بعد أن طلاب تلك المدارس قد أسهموا فى هذه الانتفاضة.

أما الكتاتيب فيجب أن نعلم أنه لم يكن يرسل إليها إلا أبناء الأعيان[2] والأثرياء والتجار للتعلم فيها، ولم يكن هؤلاء يبغون سوى تعلم القراءة والكتابة كى تعينهم على أعمالهم فى البلاط والسوق. ولم تكن هناك العلوم المتعارف عليها اليوم، ولم ير كثير من الناس أنهم فى حاجة إلى التعليم [3]، لذلك انتشر ذلك الأسلوب العقيم والضعيف فى الكتاتيب لتعليم الأبجدية، وكان التلميذ يحتاج إلى عام، يزيد أو يقل، حتى يحسن معرفة الأبجدية، ويستطيع قراءة الكلمات وكتابتها. فحينما يصل الطفل إلى الكُتَّاب يتعلم الأبجدية فى البداية، ثم يبدأ فى جزء عم (الجزء الأخير من القرآن) مبتدئًا بسورة "قل أعوذ"، وبعدها يتعلم بقية القرآن (بالعكس، ومن البداية إلى النهاية) وبعدها يدرس كتب "جلستان"، و "جامع عباس"،

---

[1] إن كلمة "طلبة فى العربية بمعنى "الطلاب" ولا تطلق على المفرد، ولكن لما كانوا فى إيران يطلقونها على المفرد فنحن نتبع ذلك. (المؤلف).

[2] لا تطلق هذه الكلمة فى العربية – أيضًا - على المفرد، ولكن فى إيران وتركيا تطلق على الفرد الذى ينتمى لطبقة رجال البلاط والأثرياء وذوى النفوذ. (المؤلف).

[3] فى الأزمنة البعيدة كان لا يجوز فى إيران الكتابة والقراءة إلا للسادة (الأمراء)، لذا ظهر لكلمة "ميرزا" معنيان : الأول بمعنى "الأمير" والثانى بمعنى "الكاتب" أو "القارئ" وما زالوا يستخدمون المعنى الثانى حتى وقتنا هذا. (المؤلف).

و "تصاب"، و "ترسل"، و "أبواب جنان" و "تاريخ نادر" و "تاريخ معجم" الواحد تلو الآخر، وبهذه الطريقة يكون قد درس اللغة، وبعد بضعة أعوام يصل إلى هذه النتيجة وهى تمكنه من القراءة والكتابة باللغة الفارسية.

من هذا المنطلق، فإن تأخر التلاميذ فى الكتاب، وسلوك بعضهم مع البعض الآخر، وطريقة المعلم صاحب المكتب، كل هذا لم يكن مجديًا، وكان التلاميذ يبسطون سجادتين على الأرض، ويجلسون بجوار بعضهم البعض، وكان المعلم يتخذ له مقعدًا مرتفعًا بجوار النافذة ويدرس للتلاميذ الواحد تلو الآخر بمفرده، ويعيد الدرس، ويعلم الكتابة. وكان بعضهم يعلم للآخرين كتابة الرسائل نظير أجر، وكان التلاميذ يتمازحون ويلاعب بعضهم البعض، وكل من لم يستوعب الدرس جيدًا أو لم يكتب بخط جيد كان يضرب بالعصى على يديه أو على قدميه.

هذا هو مفهوم الكتاب ومنهج التعليم فيه، ولما كان معظم من يملكون الكتاتيب يختارون المساجد، ويحولونها إلى كتاتيب - فإنهم كانوا يطلقون عليها اسم "مسجد". إلا أن حاجى ميرزا حسن الذى كان من أبناء أحد رجال الدين فى تبريز وسافر فى شبابه إلى بيروت، ورأى المدارس هناك وعرف أسلوب التعليم فيها، حينما عاد إلى تبريز عقد العزم على أن يؤسس مدرسة [١] على هذا النحو الذى شاهده. وفى عام ١٨٨٧م (١٣٠٥ هـ.ق - ١٢٦٧ هـ.ش) أقدم على إنجاز هذا العمل على النحو الذى كان يتبعه أصحاب الكتاتيب المسجدية فى شتشكلان حيث أجلس التلاميذ على الأرض مثلهم ووضع أمامهم سبورة وعلم الأبجدية بأسلوب سهل وجديد (بالأسلوب المتعارف لدينا الآن)، وألقى دروسًا فى الفارسية من الكتب السهلة البسيطة، وكان يحافظ على نظافة التلاميذ، وكان يضبط الحضور والانصراف، بعد ذلك علق لوحة أعلى الباب كتب عليها اسم "المدرسة الرشدية"

---

[٢] يطلقون عليها كذلك اسم "مدرسة" ولكن لما كان اسمها فى الفارسية "دبستان" لذا نذكرها بهذا الاسم فى كل موضع. (المؤلف).

[1] ومع أنه لم يعلم العلوم الحديثة ولم يهتم كثيرًا بذلك، إلا أن رجال الدين لم يرضوا عنه بحجة تغيير الأبجدية والأسلوب الجديد الذى أحدثه، وفى النهاية طردوه من المسجد. وظل عدة أعوام على هذا النحو يتنقل من مكان إلى آخر، حيث يقابل بالصد والعبوس من الناس، حتى اتخذ فناء مسجد شيخ الإسلام الذى كان نفسه مدرسة قديمة، وأنفق عليه من ماله الخاص لإنشاء غرف نظيفة وجعله مدرسة زودها بأريكة وسبورة وبعض الأدوات الصغيرة، واجتمع التلاميذ حوله، وسار الحال على هذا المنوال فترة طويلة، ولكن عندما أعلن رجال الدين عدم رضاهم عن هذا الأمر اندفع الطلبة ذات يوم إلى هناك وحطموا جميع الأرائك والسبورات وكذلك المدرسة.

بعد ذلك، لم يبق حاجى ميرزا حسن خان فى تبريز ورحل إلى بلاد القوقاز ومصر، وظل حتى جاء أمين الدولة واليًا على آذربايجان، وعندما سمع قصة المدرسة والتطور الذى ظهر بها فى التعليم، استدعى رشديه إلى تبريز تلغرافيًا، وأرسى معه للمرة الثانية أساس مدرسة عظيمة فى ششكلان، وكانت هذه المدرسة تمنح الطلاب الثياب والطعام، وكان أمين الدولة يتكفل بكل نفقاتها. وظلت حتى عام ١٨٩٦م (أواخر عام ١٣١٤ هـ.ق - ١٢٧٦ هـ.ش) حيث استُدعى أمين الدولة إلى طهران واصطحب معه حاجى ميرزا حسن حتى يرسى هناك أساس مدرسة. وعهد بمدرسة تبريز هذه إلى الأخ الأكبر لرشديه.

أمين الدولة وأعماله :

بعد وفاة ناصر الدين شاه فى عام ١٨٩٦م (١٣١٣ هـ.ق - ١٢٧٥هـ.ش) أسند المُلك إلى ابنه مظفر الدين شاه، ولم يكن لهذا الشاه ما كان لأبيه من ذكاء ودهاء، كما لم تتحقق آمال إيران ورخائها على يديه، إلا أنه كان يواسى إيران فى

---

[1] يعتبر السيد صبرى (آقاى صبرى) الذى يعيش الآن فى طهران أحد هؤلاء الذين تلقوا تعليمهم الأول فى تلك المدرسة، وأخذت معظم هذه المعلومات عنه .(المؤلف).

محنتها ويطلب الخير لها وكان يتحدث عن ضعف إيران واضطراب الأمور فيها وَيعِدُ خيرًا، وقد أعجب بحديثه هذا أولئك الذين قاموا بالانتفاضة بعد حادثة التبغ والذين كانوا يهتمون بما يعود على البلاد من الضرر والنفع.

وكان أمين السلطان قد استولى على أزمَّة الأمور، لكن الشاه عزله بعد عام واحد، واستدعى ميرزا عليخان أمين الدولة من تبريز إلى طهران، وسلمه أزمَّة الأمور، وقيل إنه لم يكن يخشى أحدًا ويسعى إلى ازدهار الدولة وتقدمها. وقد عرف أمين الدولة بالطيبة، وحينما وصل إلى طهران، وكان الشاه كذلك يريد تحسين الأوضاع، لذا سعى في الأمر، وكما أسلفنا الذكر أنه أرسى أساس مدرسة هناك بمساعدة رشديه وقام بمساندتها.

ومن هذا المنطلق، وبما أنه كان يعتبر أن اضطراب الأمور نابع من عدم وجود قانون، عزم على أن يسن قانونًا للبلاد، وجعل الشاه يوافق عليه. كذلك سعى لمنع الرشوة وظلم الحكام ورجال البلاط، وفكر فى إصلاح إيرادات الدولة، وتقدم حال المدرسة، ومضى أمين الدولة مع الشاه إلى هناك وجمع من نفسه ومن الملك وآخرين مبلغ ستة وثلاثين ألف طومان (٣٦٠٠٠ ريال) حيث يمنح ريعها لصالح المدرسة. كما أقام مجمعًا للمعارف للارتقاء بالمدرسة وازدهار مختلف العلوم فيها.

وعندما شاهد الناس عناية الشاه وأمين الدولة بالمدرسة، وأدركوا الفرق الذى كان بينها وبين الكتاتيب، اهتموا بها، وأرسلوا أبناءهم إليها عن طيب خاطر.

ولكن لم تظهر أى نتيجة لأفكار أمين الدولة الأخرى، وينبغى علينا فى هذا المقام إيراد الحديث الذى دار بين مظفر الدين وأمين الدولة والذى جاء فى جريدة الحبل المتين :

يقول له الشاه ": إن سلطنة إيران تخلفت كثيرًا بمقتضى الوقت والزمان على حسب الشأن والمقام، وينبغى الجد وبذل الجهد حتى نلحق بجيراننا والدول المحيطة بنا، لذا فإن التراخى فى تنفيذ الإصلاحات والإهمال فى الأعمال أمر غير

جائز مطلقًا، وعلينا أن نبادر بالإصلاح قدر المستطاع وأن نمضى قدمًا بلا إحجام حتى نصل إلى غايتنا. "، "جناب أمين الدولة نحن نعتبرك سبب التراخى والإهمال فى الإصلاح وهذا بملاحظاتنا واختياراتنا المطلقة، وقد عرفنا هذه الحقيقة حق المعرفة بناء على ما لاحظناه، ولم نكن فى أى وقت راضين عن سلبيتك، ولم نكلفكم بمثل هذا ". " إننى آمركم بكل ثقة أن تبادروا بالإصلاحات اللازمة بقوة القلب واستقامة الرأى ولو كان ذلك يتنافى مع اختياراتنا المطلقة، على أن يتم ذلك فى العاجل، ومن الآن فصاعدا لن نقبل لكم أى عذر قط، فحددوا ما تريدون له إصلاحًا، وأطلعونا عليه لنوقعه ".

ويرد أمين الدولة عليه قائلاً : "مولاى، إن أفكاركم الملكية العالية لا شك تدفع إلى رُقى الأمة والدولة، وهى تهدينا، ولكن ثمة عائقا أمامنا ما لم نتداركه لن تقوم أعمالنا على أساس متين، ألا وهو إصلاح مالية الدولة، ومالية الدولة لا تصلح بدون مصروفات، ولا بد لنا أن نقترض للحصول على هذه المصروفات الزائدة، وليس فى الإمكان اليوم أن يكون قرضنا من داخل البلاد، وأنا الآن فى صدد أن أقترض مبلغًا ضئيلاً من بلد محايد مثل بلجيكا أو مثيلاتها، حتى أقوم بالإصلاحات اللازمة على أساس صحيح ودعامة قوية، وقد بدأت منذ اليوم بهذا الأمر طبقًا لأمركم الملكى، فنحن نضع كل أمر فى نصابه بناء على أمركم العالى".

ومن الواضح أن هذا الحديث لم يكن فى بداية تربع الشاه علـــى العـــرش (كما جاء فى جريدة الحبل المتين)، وفى هذا أمران يثيران العجب كثيرًا :

أولهما : مع تعطش الشاه هذا لسريان القانون وإصلاح الأمور، فلأى ســـبب كـــان تقاعس أمين الدولة ؟

والآخر : لمَ عزل الشاه أمين الدولة مع كل ماله من نيات وأمانى حسنة وأحضر أمين السلطان ثانية ؟ ومن الواضح أن ثمة أيادى قوية كانت تعمل فى

الخفاء، وحقيقة أنه فى ذلك الوقت كان الجار الشمالى يبذل المساعى، وكانت له محاولات كثيرة للتسلط على أمور إيران.

وأيًا ما كان فإن أمين الدولة لم يكن رجلاً شجاعًا أو قويًا مع ما له من فضائل وإلا لتغلب مع تأييد الشاه له على كل ما واجهه من شدائد .

وجاء فى كتاب "تاريخ بيدارى" : " إن من ساءت نيتهم قاموا من كل ناحية لإفساد الأمور، وأذاعوا الأكاذيب الملفقة، وزرعوا العداء فى قلوب الجميع. كما أضمر المقربون إلى الملك وأخصُّ خواصه الحقدَ فى قلوبهم وشاعوا عدم تحقيق المقاصد، وكانت لهم مطامع مغرضة من قبيل زيادة المرتبات والمنح والإقطاعات وغير ذلك. وجماعة أخرى خدعوا بوعود خائن الدولة والأمة ووعيده، وأرادوا هدم بطانة أمين السلطان، فقالوا لمظفر الدين شاه كل ما تبادر إلى أذهانهم دون خجل أو حياء ".

وجاء فيه كذلك : " إن الحاج الشيخ محسن خان مشير الدولة [1] – الذى كان على عداء مع أمين الدولة – قال للشاه : " لو بقى أمين الدولة فى منصبه شهرًا آخر، لقوض دعائم الدولة القاجارية ". وكانت مقولته هذه فى ذلك الوقت الذى قدم فيه أمين الدولة اللائحة إلى الشاه، وفيها : ينبغى فى البداية أن يحدد راتب الشاه حتى يستطيع أن يحدد رواتب الغير.

فى هذا الوقت قال خواص الشاه بأن ملك إيران كان على الدوام هو من يقدم المرتبات، وكان الرعايا ينعمون من مائدته وعطائه، والآن ينبغى على الشعب أن يقدم الراتب إلى الشاه، وأن يكون الملك هو الذى يتلقى الراتب من الشعب. وليس هذا إلا لأن أمين الدولة قد تخيل أن السلطنة يجب أن تتقلص.

وكتب كذلك : "إن تصريح الحاج الشيخ محسن خان هذا ومسعاه جاءنا فى وقت اشتدت معاداة وخصومة بعض العلماء، وزاد العداء بين الطرفين ".

---

[1] هو نفسه معين الملك. (المؤلف).

وجاء كذلك : " إن جماعة من رجال البلاط والخاصة حملوا المصحف أمام الشاه وجعلوا يجأرون بالشكوى من أمين الدولة، وينتحبون، وطالبوا بعزله من منصبه ".

هذا ما وقع، ولكن كما أسلفنا كان هناك باعث قوى آخر فى الأمر غير هذا وغير جهودهم فى هدم ما قام به أمين السلطان وأعوانه. كما أن أمين الدولة نفسه لم يكن واسع الحيلة قويًا.

ومن إنجازات هذه الفترة من الزمان استدعاء ثلاثة من بلجيكا، وهم (نوس وشخصان آخران) وإسناد الشئون الجمركية إليهم، ولم يكن الجمرك حتى ذلك الوقت على ما ينبغى وكانت الدولة تؤجره إلى بعض الأفراد. ولكن عندما قدموا وضعوا أساسًا لإدارته تبعًا للمنهج الأوربى. وكان هذا العمل جيدًا. لكننا سوف نرى كم أظهر هؤلاء البلجيكيون العداء لإيران، وكم ألحقوا بها الأذى، حتى وجب أن يعد اسم نوس من الأسماء الشؤم فى تاريخ إيران.

ديون إيران :

فى ربيع عام ١٩٠٠م (١٣١٧ هـ.ق – ١٢٧٨ هـ.ش) تنحى أمين الدولة عن منصبه، ولم يبق فى طهران وتوجه إلى جيلان، وعلى ذلك قدم أمين السلطان من قم إلى طهران وصار الصدر الأعظم كما كان من قبل (ويقال إنه نال لقب أتابك فى ذلك الوقت). وفى تلك الفترة دار الحديث حول الحصول على قرض، فقد أفلس الشاه، حتى أنه حينما مرض، واقترح عليه الأطباء السفر إلى أوربا والاستحمام بالمياه المعدنية هناك، كان فى مسيس الحاجة إلى المال للذهاب إلى أوربا. وكما رأينا فإن هذا الاتجاه بدأ فى الظهور منذ عهد أمين الدولة وكان يريد أن يحصل على القرض من بلجيكا أو من أى دولة أخرى. ولكن ربما لم يستطع، وفى النهاية تباحث فى هذا الأمر مع دولة إنجلترا لكى يقرضوا إيران مليونًا ومائتى ألف ليرة على أن تكون جمارك إيران الجنوبية رهنًا لديهم. إلا أنهم تأخروا عليه فى الرد.

وأثناء ذلك كان الأتابك قد تولى منصبه فولى وجهه شطر الروس، وأتم الأمر بوساطة ميرزا رضا خان أرفع الدولة الذى كان سفيرًا لإيران فى بطرسبرج. وأخذ الروس جمارك إيران الشمالية رهنًا لديهم، وأقرضوا إيران اثنين وعشرين مليونًا ونصف من المئات بفائدة قدرها ٥% لمدة خمس وسبعين سنة. بشريطة أن يدفع منه قرض البنك الملكى وقيمته خمسمائة ألف ليرة غرامة امتياز التبغ، ولا تقترض إيران من أية دولة أخرى طالما لم تسدد هذا القرض الروسى. كان هذا فى عام ١٩٠٠م (١٢٧٨ هـ.ش، ١٣١٧ هـ.ق)، وكتبت إحدى الصحف التى أعلنت عن هذا أنه سوف يدفع قرض البنك الملكى من هذا القرض، وسوف يقام سد الأهواز – يقال إن الحديث عن إقامته كان دائرًا منذ عهد ناصر الدين شاه – وسوف يتم توصيل المياه إلى مدينة قزوين الشحيحة الماء، وسوف تعمر كذلك بعض المناطق الأخرى.

ولكن سدد فقط قرض البنك الملكى، ولم تنفذ بقية المشروعات. وفى صيف نفس العام مضى الشاه والأتابك وآخرون إلى أوربا وتجولوا وتنزهوا طويلاً فى كل من روسيا وفرنسا وتركيا وبعض البلاد الأخرى، وبددوا كل ما كان لديهم من مال، ثم عادوا إلى إيران خالي الوفاض.

وقد اشتد تصرفهم هذا كثيرًا على الشعب، وأظهر أفراد الشعب سخطهم، ونسبوا كل السوء إلى الأتابك، واعتبروه الآلة السياسية للجار الشمالى، وظنوه من الأرمن مع أنه كان من أصل كرجى، وجعلوا هذا دليلاً آخر على سوء نيته تجاه إيران.

ومما زاد من سخطهم ما قام به الأتابك بالنسبة للمدارس، فبعد إقصاء أمين الدولة ألغى الإشراف على المدرسة الرشدية من قبل مجمع المعارف وأوقف إمدادها بالأموال، ثم قام بتأسيس مدارس أخرى قائلاً بأن يدًا غير أمينة تمتد إلى المال. عرف الناس كل هذا عن الأتابك واعتبروه مانعًا ليقظة الجماهير وحائلاً دون تقدم الوطن، وإذا بجماعة كبيرة من رجال البلاط ينعتونه بالسوء، كما جارت

جماعة أخرى بمعاداته. وسجل فى كتاب "تاريخ بيدارى" : "إن الشيخ يحيى الكاشانى كتب مقالاً بخصوص مساوئ مجمع المعارف وسوء نيات الأتابك وأرسلها لتنشر فى جريدة الحبل المتين، وحينما طبع هذا المقال، ودخل إيران، استدعت إحدى الجماعات السرية – التى كانت تكن العداء للأتابك وأسست للإطاحة به – كاتبَ هذا الحديث، الشيخَ يحيى، إلى جمعيتهم. واستكتبوه عدة مقالات أخرى وأرسلوها إلى جريدة "الحبل المتين"، وشيئًا فشيئًا تحدثت كذلك جريدة "الثريا" فى هذا الصدد. ونتيجة لذلك صادر الأتابك وصول الجرائد الفارسية إلى إيران. لكن الساعين فى هذا الأمر لم يخلدوا إلى السكون، وفى هذه المرة كتبوا رسائل سرية، وكانوا يلقونها داخل مظاريف هنا وهناك.

ولما كان بعض هؤلاء من المقربين للشاه، فقد وضعوا هذه الرسائل على مائدة الشاه، فكان يرفعها ويقرؤها دون أن يعلم من كتبها أو من وضعها على مائدته.

ومن هذا المنطلق فإن المدرسة الرشدية – التى كانت تحت إشراف أمين الدولة والتى ناضل الشيخ هادى نجم آبادى لبقائها – اضطرت للانخراط فى ذم الأتابك وانتقاد أفعاله وذلك نتيجة للغضب الذى اجتاح موظفيها تجاه هذا الأتابك. ونتيجة لحرمان الطلاب والمدرسين من وجبة الغذاء التى كانت تقدم لهم، وكذلك مجيء السيد حسن شقيق صاحب جريدة "الحبل المتين " إلى المدرسة وكذلك منتمر الملك – أحد رؤساء الجماعة السرية – فضلاً عن أن الشيخ يحيى كان من معلمى هذه المدرسة. فإنهم أمعنوا فى ذم الأتابك وأوعزوا إلى المعلمين أن يذموه أثناء إلقائهم الدروس. وهذا ما اشتد وقعه على الأتابك، وكان يبحث عن هؤلاء الساخطين بمساعدة آقا بالاخان رئيس الشرطة. وعندما ازداد الشك فى المدرسة الرشدية، وكان محمد أمين ناظر المدرسة قد أمد موظفى الأتابك ببعض المعلومات، فاستدعى عن طريقه ميرزا حسن الشقيق الأصغر لرشديه إلى قلهك بحجة النزهة والضيافة، ومضوا به إلى الأتابك، واطلعوا على الأحوال فى

المدرسة، ومن هذا المنطلق وفى نفس هذه الأيام كشف الستار عن حقيقة تلك الأحوال دفعة واحدة. وعن الكيفية التى كتبوا بها الرسائل المسائية (المنشورات) فقد ضمنوها نقدًا عنيفًا لمسألة الاقتراض من الروس، وكذلك قصيدة نظمها فخر الواعظين الكاشانى عن الأتابك والتى يقول فيها :

أيها الأرمــنى الأصــل، لا تـؤذ المسلمــين

ولا تمـــح ســـلطنة الإيمـــان بيـد الكفـــر

وفى النهاية فإن دار ظلمك ستقضى على الشـــاه

وبعد ذلك فأى حاجة بك لترفع الإيوان إلى الأفلاك

إذا ما ظهر منجل الحماسة فى يد الشعب

فإنـــه يطهر البســتان مـــن دنـــس وجـــودك

لا جدوى من لعقك كأس الروس

ففى النهايـــة ستقتل هذه الكأس السوداء الضيف

وكان الشاه فى نياوران، وتصادف أنه عندما كان موقر السلطنة يضع مظروف الرسالة السرية على المائدة، أن كان الشاه واقفًا أمام المرآة، فرأى ما صنعه، وبذلك عرف أن من يحضر هذه الرسائل ويضعها على المنضدة هو موقر السلطنة، وعندما ضيقوا عليه الخناق، وضربوه بالعصى على قدميه، اضطر إلى الإفصاح عن أعضاء الجمعية فردًا فردًا، فما كان من آقا بالاخان إلا أن اعتقلهم بأمر من الشاه، وهم :

- الشيخ يحيى الكاشانى كاتب الأحاديث.

- ميرزا مهدي خان الوزير الملكى الذى كان وزيرًا للبريد ومن ملازمى الشاه فى رحلاته إلى أوربا.

- ميرزا محمد على خان قوام الدولة أحد رجال البلاط، وكان رجلاً ثريًا ويعادى الأتابك عداء شديدًا.

- ناصر خاقان خادم الشاه، ومن ملازميه فى أسفاره إلى أوربا.

- موقر السلطنة صهر الشاه.

- مثمر الملك الذى كان من أهالى القوقاز وقدم إلى طهران، ولما كان يصنع عصائر الفاكهة نال هذا اللقب من الشاه، كما كان يتلقى منه راتبًا شهريًا.

- ميرزا سيد محمد مؤتمن لشكر النورى.

- ميرزا محمد على خان النورى.

وقد كان اعتقال محمد علي خان ليلاً، ووقتها كان ينام فوق السقف. فسقط من على السلم وتوفى بعد عدة ساعات فى إدارة الشرطة. كما أركبوا الشيخ يحيى جوادًا وهو مقيد اليدين وأرسلوه إلى أردبيل، وأرسلوا السيد حسن إلى قريته مبارك آباد تحت حراسة أخيه وبوساطة عين الدولة الذى كان فى ذلك الوقت حاكمًا على طهران. كذلك أرسلوا الآخرين واحدًا واحدًا إلى أماكن أخرى، ولجأ الحاج ميرزا حسن رشديه إلى دار الشيخ هادى نجم آبادى وهكذا نجا من الأذى، ولو لم يَرِقَّ قلب مظفر الدين، لما بقى منهم أحد على قيد الحياة.

وقد نشر هذا الحدث فى الجرائد الروسية وكتبوه تحت عنوان "إظهار العداء للشاه". وكانت هذه الحادثة فى شهر مهر من عام ١٢٨٠هـ.ش (سبتمبر ١٩٠١م – جمادى الآخر ١٣١٩ هـ.ق). ولم تؤثر هذه الأحداث على الشاه ولا على الأتابك، وحدث بعد فترة قصيرة أن ذهبا ثانية إلى أوربا بغرض الحصول على قرض وكذلك للنزهة، واقترضا ثانية مبلغ عشرة ملايين منات من روسيا، وفى هذه المرة

مُنحت روسيا امتيازًا بمد طريق مرصوف من جلفا وتبريز حتى قزوين وطهران فضلاً عن بعض الامتيازات الأخرى.

وفى صيف عام ١٩٠٢م (١٣٢٠ هـ.ق- ١٢٨١ هـ.ش) مضى الشاه والوزير والمرافقون لهما مرة أخرى إلى أوربا، وذهبوا هذه المرة إلى لندن، وبعد بضعة أشهر عادوا ثانية إلى إيران وهم خاليو الوفاض.

استياء الشعب من البلجيكيين:

إن ما زاد من استياء الناس وسخطهم على هذه الأسفار هو تلك القصص التى تناقلتها الألسنة عن إهدار الشاه للأموال وجهالة بعض رفاقه والمبالغة فى ذكرها، فعلى سبيل المثال قيل إن الشاه أوصى بأن يرسلوا من أوربا ترابًا لحديقته، وأن ميرزا على محمد خان الكاشانى كاتب جريدة "الثريا" والذى تربى فى مصر، رافق الشاه وأتباعه فى سفره الأول إلى أوربا، وكان يرسل تقاريره إلى جريدته يبثها شكواه من غفلة واستهتار المحيطين بالشاه، وقد قال على لسان أحد الإيرانيين [١]:

" طاف بسمعى فى بطرسبرج أن دولة روسيا استعرضت أمام صاحب الجلالة الملك عشرين ألف جندى من صفوة جنود الروس رغبة فى تكريم صاحب الجلالة الملك. فإذا أحد الملتزمين – وقد كان قريبًا – يقول باللغة التركية إننى أهزم هؤلاء العشرين ألف بخمسمائة فارس من فرسانى". وكان المتحدث هو قائد سلاح الفرسان، كما نقلت عنه كذلك أقوال مضحكة.

كانت رحلة الشاه والصدر الأعظم والوزراء والعظماء تستغرق فى أوربا عدة أشهر، وكانوا ينفقون بسخاء تلك الأموال التى حصلوا عليها مقابل رهن

---

[١] هو ميرزا حسن بن ميرزا نصر الله خان مشير الدولة الذى سحب منه هذا اللقب فيما بعد. (المؤلف).

بلادهم، ومع هذا كله لم يأتوا بأى عمل يعود على الدولة بالنفع، وكانوا يعودون خائبين مطأطئى الرؤوس.

والأسوأ من هذا كله أن ظهرت بينهم طائفتان مواليتان للدول الأجنبية، طائفة موالية للإنجليز وهى بزعامة ميرزا محمود خان حكيم الملك، وطائفة أخرى موالية للروس بريادة الأتابك. وعلى هذا النحو أطلعوا الأجانب على غفلتهم وتفاهتهم حتى أنهم كتبوا فى الصحف يسخرون منهم.

ونتيجة هذا أن قلَّت هيبة الحكومة ومكانتها لدى الجماهير، وتملك الناس اليأس من الشاه والبلاط. وفى هذه الفترة كانت مسألة الجمرك وإسناد أمره إلى البلجيك باعثًا لاستياء الشعب أكثر من ذى قبل.

وكما أسلفنا القول إنهم استقدموا ثلاثة من البلجيك فى عام ١٩٠٠م – ١٢٨٧ هـ.ش فى عهد أمين الدولة. ووكلوا إليهم شئون جمرك إيران، وكان رئيسهم يدعى نوس الذى أسندوا إليه فى البداية منصب المدير العام للجمارك، وكان ينبغى أن يصرف شئون الجمرك تحت رئاسة الصدر الأعظم، ولكن فى العام التالى عندما توجه الشاه إلى أوربا وبصحبته الصدر الأعظم عينوا نوس وزيرًا للجمارك، وهكذا جعلوه صاحب الكلمة فى كل أعماله. وهكذا سار العمل، وجعلوا إدارة الجمارك تتبع الأسلوب الأوربى، وغيروا كذلك التعريفة الجمركية، وأصدر الشاه أمره برفع الضرائب المختلفة الخاصة بالطرق والأوزان والخانات وما شابه ذلك، والتى كانت تحصل من أصحاب القوافل والتجار الإيرانيين فى حين يتم تحصيل الجمارك فقط من التجار الأجانب عند الحدود [١].

لم يكن فى الحسبان كم الضرر من هذا الإجراء، كما لم يدرك الشعب ما كان يخفيه هؤلاء البلجيك وسوء نواياهم التى لم تكن قد ظهرت بعد حتى ذلك

---

[١] نقلاً عن كتاب "استقلال گمركى إيران"، (المؤلف).

الوقت، وبالرغم من ذلك كله أظهر التجار ورجال الدين سخطهم وذلك فى كل من بوشهر وشيراز ويزد واصفهان وطهران، وكان المحرك لهم أمران :

الأول : أنهم لم يرضوا بوجود أجنبى يرأس شئون إدارة ما، وأيدهم فى ذلك رجال الدين الذين كانوا يجفلون من كل جديد.

الأمر الآخر : أنهم اعتبروا التعريفة الجمركية التى فرضها البلجيك خسارة لهم.

وحدث فى عام ١٩٠٢م – ١٢٨٩ هـ.ش – حيث كان مظفر الدين شاه فى أوربا– أن ثارت ثائرة التجار فى جميع أرجاء البلاد، ودخلوا فى جدال مع الحكومة، إلا أنهم لم يصلوا إلى نتيجة، وطال حديثهم فى هذا حتى بعد عودة الشاه. لم تعر الحكومة سمعًا لهذه المطالب، لذا زاد البلجيك من سلوكهم السيئ كما بدت التفرقة فى المعاملة بين التجار الإيرانيين والأجانب بل بين مسيحيى إيران ومسلميها واشتدوا فى وطأتهم على المسلمين، وعندما اقترن هذا الاستياء العام بالسخط على القروض والسياحة فى أوربا ثارت الثائرة وأدرك الناس أن مظفر الدين شاه رجل ساذج خائر العزم، واعتبروا أن كل سوء حاق بهم إنما جره عليهم ميرزا على أصغر خان الأتابك.

وكان زمام الأمور فى إيران حتى هذا العهد فى يد طائفتين، إحداهما طائفة رجال البلاط والمقربين من الشاه وأولئك هم الذين كانوا يستطيعون مخاطبته. والأخرى طائفة العلماء الذين كانوا يستطيعون إثارة الشعب. وكان الأتابك يكن العداء لهاتين الطائفتين.

وجاء فى تاريخ بيدارى : عندما كان الشاه فى أوربا(فى المرة الثانية)، اجتمع كل من السيد على أكبر مجتهد تفريشى والسيد محمد طباطبائى وإمام الجمعة وغيرهم فى طهران مع بعض رجال البلاط، وتعاهدوا فيما بينهم على أن يسعوا فى إسقاط الأتابك وكتبوا هذا التعهد، وأقسموا عليه. ولكن عندما عاد الأتابك من سفره أطلعه إقبال الدولة الكاشانى على صورة من هذا التعهد كانت لديه، وأوقفه

على جلية الأمر، واعتذر للآخرين، قائلاً : لقد فقد حافظته ووجدها شخص آخر وأوصلها إلى الأتابك. وعندما وقف الأتابك على جلية الأمر أرسل فى التو خمسمائة طومان إلى السيد على أكبر واسترضاه، كما أثار الفرقة بين الآخرين إلى جانب إبعاده لكل من كان يكن له العداء من رجال البلاط. ومثال ذلك أنه أسند ولاية جيلان لحكيم الملك الذى كان يعده منافسًا له وعدوًا وبهذا أبعده عن طهران، وعندما وصل إلى جيلان لم يمض زمن طويل حتى وافاه الأجل، وظن الناس أن الأتابك دس له السم، وعدوا هذا ذنبًا آخر له.

وهكذا بدأ السخط يزداد على مر الأيام، ويقول براون إنه فى ربيع عام ١٩٠٣م (١٣٢١ هـ.ق – ١٢٨١ هـ.ش) ظهرت ثورة فى طهران ويزد، وازداد الأمر سوءًا فى يزد وانتهى بمذبحة البهائيين. وكان هذا فى شهر خرداد (يونيه)، وبعد ذلك تمت مذبحتان للبهائيين فى مدينتى يزد وأصفهان، وذلك فى شهرى مرداد وشهريور.

ومما يثير العجب أن الناس كانوا يشتكون من التعريفة الجمركية وكذلك من إسناد مهام الجمرك إلى البلجيكيين، كما كان يشق عليهم ما يقوم به الأتابك وميله إلى جيرانه الأجانب، وبعد ذلك ينتقمون من البهائيين. وما العلاقة بين البهائيين وبين هذه الأمور؟... وهذا سر فى حاجة إلى حديث طويل، وينبغى العروج إليه ومناقشته فى هذا المقام.

فى تلك الأثناء وقع فى تبريز حادث عجيب، ذلك أن رجلا من رجال الدين يدعى ميرزا على أكبر (الذى اتخذ منذ تلك الفترة اسم "مجاهد" لقبًا له، وهو يعيش فى مدينة تبريز إلى الآن، ومعروف بهذا الاسم) عندما كان يمر ذات يوم أمام حانة فى أرمينيا، خرج أحد السكارى من الحانة وقدم كأس المدام لميرزا (على سبيل التعارف كما يقول العامة) فثارت ثائرة ميرزا، ولما كان رجلا حاد المزاج سريع الغضب استاء كثيرًا من هذا الأمر، وعندما عاد إلى المدرسة غاضبًا أطلع الطلبة على ما وقع فثارت ثائرتهم، ومضوا إلى دار الحاج ميرزا حسن المجتهد

بحجة أن هذا العمل إهانة للعلماء، وجاءوا به إلى المسجد (مسجد شاهزاده)، وأثناء ذلك، ولما كان التجار فى استياء بسبب مسألة الجمرك والبلجيك، كما أن تجار جميع المناطق الأخرى كانوا ساخطين، لذا اتخذوا هذا الحادث ذريعة لهم، وأغلقوا السوق وحضروا أيضًا إلى المسجد. ومن ناحية أخرى فإن رجال الدين لم يكونوا قد نسوا موضوع المدارس حتى ذلك الوقت وازدادوا سخطًا على سخط، وقالوا : "ينبغى أن يرحل مسيو بريم وتغلق الحانات والفنادق والمدارس ".

وكان مسيو بريم هذا أحد البلجيكيين، ورئيسا لجمرك آذربايجان، ولما كانت الفنادق تعد شيئًا مستحدثًا، وقد أقامها الأرمن والقوقازيون، وكانوا يبيعون فيها الخمر، فقد ناصبها رجال الدين العداء، وكذلك كانت هذه المدارس هى نفس المدارس التى أنشئ عدد منها فى تبريز.

ونذلك كله أغلقت الأسواق لمدة يومين، وانتشرت الفوضى والغوغاء، واضطر محمد علي ميرزا – الذى كان وليًا للعهد وفى يده زمام الأمور فى آذربايجان – لأن يرسل بيانا على هذا النحو : "أيها المجتمعون فى مسجد شاهزاده، لقد رحَّلْتُ فى التَّو مسيو بريم، وأمرت بأن تغلق الحانات والفنادق والمدارس، فتفرقوا". وما أن قرأ هذا البيان حتى اندفع الطلبة ونهبوا الحانات والفنادق والمدارس، ونشروا الشغب والفوضى. وكانت مدرسة الكمال إحدى المدارس التى تعرضت للنهب فى هذا الحادث، وكان مديرها ميرزا حسين خان يصدر جريدة أيضًا بنفس الاسم، وبعد هذا الحادث لم يبق فى تبريز ورحل إلى القوقاز ومصر.

أما مسيو بريم الذى طرده محمد علي ميرزا فقد أقام فى باسمنج، وبعد عشرة أيام أو عشرين يومًا – حيث خمدت الفوضى وهدأ الطلبة وانتهت غارات السلب والنهب وعادوا جميعًا إلى مزاولة أعمالهم – أرسل محمد علي ميرزا عربة إليه وأعاده إلى المدينة، وأرغم ميرزا حسن المجتهد أن يحل محله ويغادر المدينة، حيث أبعده إلى طهران.

وقد وقعت هذه الأحداث في شهر يوليه ١٩٠٣م (ربيع الثاني ١٣٢١ هـ.ق – ١٢٨٢ هـ.ش). [1]

سقوط الأتابك وتعيين عين الدولة في منصب الوزير الأعظم :

إن هذا السخط جعل بقاء الأتابك في منصبه أمرًا صعبًا، وكانت وسيلة هذا الرجل ماثلة في مقابلة الناس بوجه طلق واسترضاء مؤيديه، ودفع الأموال إلى رجال الدين وغيرهم، وكان يواصل مسيرته دومًا بهذه الطريقة، ولكن لقد ضعف زمان هذه الطريقة وجاهر الناس بالعداء، ولم يقبلوا الرشوة منه، كما لم ينطل عليهم خداعه. وقد ظهر في هذه الفترة من بين رجال الدين من كانوا على علم بأحوال الدنيا، وكانوا يعرفون حق المعرفة مبلغ الضرر الذي يعود على البلاد من أعمال الأتابك وما كانوا يكفون عن حزنهم وعن حماسهم. وكان طباطبايي – الذي كان يعيش في طهران – ممن يكنون العداء للأتابك، واتفق أن انضم إليه في هذا العداء حاجي شيخ فضل الله نوري الذي يعد من أبرز وأعظم المجتهدين وكان قد عاد حديثًا من مكة. كما كان آخوند ملا محمد كاظم الخرساني المقيم بالنجف، والحاج ميرزا حسين الطهراني (نجل الخليل) ممن ذاع صيتهم وقد أبدوا اهتمامًا وتعلقًا بأحوال إيران، وأعلنوا سخطهم على أعمال الأتابك، وكانوا يراسلون بعض الشخصيات في إيران. أضف إلى ذلك أن جريدة الحبل المتين – التي أصابها الضرر من الأتابك وكانت تعاديه – قد سعت بمساعدة من يقومون على تحريرها سواء في النجف أو في الأماكن الأخرى للإضرار بالأتابك.

وفي النهاية ظهر أثر سخط علماء النجف، وذاع في كل الأرجاء أن علماء النجف كفروا ميرزا علي أصغر خان، مما ضاعف من جرأة أفراد الشعب، ومن هذا المنطلق تشاور بعض رجال البلاط مع الشاه وأطلعوه على جلية الأمر، وركزوا على سوء الأتابك.

---

[1] كتب براون هذه القصة باختصار، ولكننا أوردناها بهذا الإسهاب نقلاً عن آقاي جواد ناطق. (المؤلف).

جاء فى تاريخ بيدارى : إن مظفر الدين شاه تشاور مع رجال البلاط، وقال لهم : " لست فى خشية من عزل أمين السلطان، إلا أننى أخشى أن تفسد الأمور بسبب هذه الحادثة ". فقال له عين الدولة وأخوه السپهسالار ستسير الأمور فى سيرها الطبيعى، ولن يتركا الأمور تتدهور. والخلاصة : أنه فى أواخر شهر يور عام ١٢٨١ هـ.ش (سبتمبر ١٩٠٣م- ٣٠ جمادى الآخر ١٣٢١ هـ.ق) عُزل الأتابك وحل محله عين الدولة فى منصب الوزير الأعظم، ولم يبق الأتابك فى إيران ومضى إلى أوربا. وفى نفس هذه الأيام وزع منشور مختوم وموقع باسم علماء النجف وفيه تكفير الأتابك، وقالوا : إن الذى أعد هذا المنشور هو سيد محمد على شقيق صاحب جريدة الحبل المتين والذى كان يعيش فى النجف، وواضح من المنشور نفسه من الذى أعده، هذا ونحن الآن بصدد ذكره فى هذا المقام :

باسمه تبارك وتعالى

" ليس بخافٍ على أهل الإسلام جميعًا وخصوصًا أهل إيـران أن تـسلط الكفر واستحواذ الأجانب على النفوس الإسلامية الموقرة، ومنح الحرية لفرقة البابية الضالة خذلهم الله، وإشاعة المنكرات وإباحة بيع المسكرات فى إيران – وصل إلى حد أنه لم يبق مجالٌ ولا مكانٌ للسكوت عليه والنظر فيه، وهو فى ازدياد يومًا بعد يوم، ولم نر أثرًا للسعى إلى وقف ودفع هذا الأمر، وقد ثبت لنا على وجه اليقين أن جميع هذه المفاسد من جراء المسئول الأول فى الدولة الذى هو ضد إيران، وهـو ميرزا على أصغر خان الصدر الأعظم. وملك الإسلام صاحب الجلالة مظفر الدين شاه خلد الله ملكه وهو من هو فى تقواه ورعايته للرعية واهتمامه بحفـظ حـدود المسلمين، إلا أنه غفل عن جميع هذه المفاسد التى تسبب فيها خائن الدولة والأمـة الإسلامية، ولم نجد بدًا من الإعلان عما فى ضمائرنا لهذا فنحن نحكم عليـه بأنـه خبيث النفس وكافر مرتد عن الأمة وذلك طبقًا للتكليف الشرعى وحفظًا للنـواميس الإسلامية المفروضة على كافة المسلمين فرض عين، حتى يعلم المسلمون قاطبـة والمؤمنون جميعًا أنه من الآن فصاعدًا لا يجوز التعامل مع ميرزا علـى أصـغر

خان، وأن أوامره ونواهيه كأوامر الجبت والطاغوت، وسوف يحشر في زمرة أنصار يزيد بن معاوية، ويقول تعالى : ﴿ لن يجعل الله للكافرين على المسلمين سبيلاً ﴾. اللهم إنا نشكو إليك فقد نبينا وغيبة ولينا.

بتاريخ ٢١ جمادى الثانى عام ١٣٢١ هـ.ق (سبتمبر ١٩٠٣م) – الأحقر محمد الشربيانى (خاتم) – الأحقر محمد كاظم الخرسانى (خاتم) محمد حسن الماماقانى (خاتم) نجل المرحوم ميرزا خليل (خاتم). [١]

اعتقال الطلبة :

شرع عين الدولة فى عمله، ولما كان أحد أعماله المرذولة فى عهد الأتابك وعده للناس بتحسين الأوضاع، لذا اجتهد وحاول استرضاء البعض، مثلما حدث عندما أعطى تصريح العودة إلى طهران للشيخ يحيى الذى كان فى أردبيل حتى ذلك الوقت، وكان يعيش فى كنف ورعاية الأمير إمام قلى ميرزا حاكم تلك الناحية، كذلك سمح بدخول جريدة الحبل المتين وغيرها من الجرائد الفارسية إلى إيران وكانت قد منعت من دخول إيران منذ أربعة أعوام، وعلى حد قولهم إنه أراد أن ينقل إدارة جريدة الحبل المتين إلى طهران، إلا أن صاحبها لم يقتنع بذلك. وبسبب هذا الاهتمام وذلك التأييد أصبحت جريدة الحبل المتين فجأة مساندة لعين الدولة، بل ينبغى القول إنها باعت نفسها إليه (كما سنرى فيما بعد).

---

[١] استخرجوا عدة صور من هذا المقال (يقال فى إسطنبول) وبعثوا بها إلى جميع الأرجاء، وتوجد نسخة منها لدى السيد ضياء الدين نورى وقد أوردناها بالنحو التى كانت عليه. وقد جاء فى كتاب تاريخ بيدارى إن هذا المقال كان أحد الأسباب التى ساعدت على سقوط الأتابك، ولكن تاريخ هذا المقال كان قبل سقوط الأتابك بعدة أيام، وهذا ما لا يمكن وقوعه أن يكتب مقالاً فى عدة أيام فى النجف ويستخرج منه صور فى إسطنبول أو فى أية مدينة أخرى ويصل إلى طهران ويقع فى أيدى الناس ويكون له هذه النتيجة. ومما لا شك فيه أنه وصل إيران بعد سقوط الأتابك. ولكن الحديث عن كفر الأتابك الذى أشاعه عنه أعداؤه كان ذائعًا قبل هذا، كما أبدى علماء النجف أيضًا استياءهم، لذا اختاروا أن يلزموا الصمت إزاء هذا المقال. (المؤلف).

وفى نفس هذه الأيام وقع حادث عجيب فى طهران، وكما أسلفنا الذكر كانت مدن إيران تموج بمدارس عظيمة لتعليم الطلبة، وكان معظم هؤلاء الطلاب يأتون من القرى أو من المدن المجاورة، وكانت مساكنهم هى نفس المدارس، كما كانوا يعيشون على الرواتب الشهرية التى تصرف لهم من دخل أوقاف المدارس. وكان منهجهم فى التعليم هو أن تمضى كل جماعة منهم إلى دار مجتهد ويتلقون عنه دروس الفقه والأصول والمنطق وما شابه. وأحيانًا كانوا يتحلقون حوله تدعيمًا للصلات وتلقى الأموال من المجتهد أو من إمام الجمعة. وأيًّا ما كان فقد كانوا فى يد هؤلاء العلماء، أو بعبارة أصح كانوا يؤلفون جيشًا للشريعة.

وكان يوجد أيضًا فى طهران العديد من المدارس العظيمة التى لها أوقاف، واتفق فى هذه الآونة أن وقع شغب وعراك بين طلاب المدرسة المحمدية (فى السوق) وطلاب مدرسة الصدر (الواقعة أمام مسجد الشاه). ولما كانت المدرسة المحمدية أكثر أوقافًا لذا سعى طلاب المدرسة الصدرية للاستيلاء عليها والاستقرار فيها، وقد أيدهم بعض رجال الدين. وعلى أية حال لما كانت هذه الحادثة غير ذات أهمية لم يكترث بها عين الدولة، ولكن أنصار الأتابك الذين كانوا ميالين إلى الشغب، كذلك بعض رجال الدين المغرضين الطامعين فى الشهرة الباحثين عن السلطة، تحينوا الفرصة، وزادوا النار لهيبًا.

وقد ذكر فى كتاب "تاريخ بيدارى" أسماء كل من السيد على أكبر تفريشى وابنه، والحاج ميرزا أبى القاسم إمام الجمعة، وأمير خان سردار، وسالار الدولة، وشعاع السلطنة وغيرهم ممن ساندوا هذا الجانب أو ذاك.

والخلاصة أن الشغب والعراك أستأنف ثانية بين الطلاب حتى تضاربوا بالعصِى وتطاعنوا بالخناجر وقتل بعضهم أو جرحوا وسقطوا على الأرض .

وقام حاكم طهران باعتقال زعماء الطلبة، لكن أحدهم ويدعى معتمد الإسلام لجأ إلى دار السيد عبد الله بهبهانى الذى كان من عداد المجتهدين المشاهير، وقام المرحوم بهبهانى بحمايته.

ونتيجة لهذا السلوك استاء طلاب المدرسة الصدرية من بهبهانى، ولما كان إمام الجمعة يؤيدهم بشدة، اعتزموا فى جرأة أن ينتقموا من بهبهانى وذلك بأن يخرج جمع من الطلاب ليلاً ومعهم العصى والمسدسات وحين يمر بهبهانى أمام مسجد الشاه يهجمون عليه هو ورفاقه. وقد جاء فى كتاب "تاريخ بيدارى" أن جفلت بغلة السيد وأوصلته إلى داره دون أن يصيبه أذى، إلا أن هناك من قال : إنهم ضربوا الشيخ.

لما كان عين الدولة يعلم أن بهبهانى من مؤيدى الأتابك، وكان مستاءً منه، وأنه ربما كانت له يد فى الخفاء وراء الحادث فلم يلق بالاً إلى هذا، ولكن عندما أبدت جماعة من رجال الدين بهبهانى، وأصروا على هذا، اضطر عين الدولة أن يقدم على عمل وطلب من رجال الدين أن يتعهدوا بعدم الوساطة. وحينئذ أصدر أمرًا باعتقال الطلاب ولكى يظهر للشعب تشدده فى الأمر ولكى يرعبهم أصبح أكثر شدة فاعتقل أربعة عشر طالبًا، هم : الشيخ أحمد الخراسانى، الشيخ على أكبر الاشتهاردى، الشيخ بابا الاشتهاردى، الشيخ اسماعيل رشتى، حاجى ميرزا آقا الهمدانى، الشيخ جعفر تنكابنى، السيد حسين القمى، يد الله القمى، الشيخ عبد الحسين الهمدانى، السيد تقى القمى، الشيخ على حمامى، السيد عزيز الله القمى، السيد على القمى، الشيخ أبو طالب القمى.

ثم أجلس هؤلاء فى عربة وفى حراستهم خمسمائة من الفرسان ومروا بهم فى شوارع إيران، وحملوهم إلى المعسكر القائم خارج المدينة، وهناك ضربوهم جميعًا بالعصى، وبعد مرور يوم أو يومين أجلسوهم على البغال وقيدوا كل سبعة أشخاص بسلسلة وبعثوا بهم إلى أردبيل.

وقد اشتد سلوك عين الدولة هذا على الجميع، فما شوهد مثل هذا السلوك مع الطلبة حتى هذا اليوم، ومنذ ذلك اليوم زاد تقدير الشعب لرجال الدين والطلبة خصوصًا إذا كانوا من السادة، حتى ظن العديد منهم أنه إذا ما وصف شخص حذاء الآخوند بأنه حذاء حقير، لصار كافرًا.

وزاد السخط كثيرا فى طهران وفى بعض المناطق الأخرى، وفى زنجان أغلق الناس الأسواق وعزموا على أن يهجموا ويطلقوا سراح المعتقلين من يد فرسان الدولة، واضطر الفرسان للمضى خارج المدينة.[1]

وفى طهران أرسل بهبهانى رسالة إلى عين الدولة يقول فيها : "كم أشكرك وأسترحمك بشأن الطلبة فلتطلق سراحهم ". فأجاب عليه عين الدولة بلا اكتراث قائلاً: "إننى لم أقبض عليهم إرضاء للسيد حتى يشكرنى، وعندما أشاء أطلق سراحهم". وهذا الرد ضاعف من استياء بهبهانى من عين الدولة.

وكان هذا الحادث فى شهر مهر عام ١٢٨٢ هـ.ش (ديسمبر ١٩٠٣م – رجب ١٣٢١ هـ.ق) وكان أول حادث أظهر كيفية سلوك عين الدولة ومدى أنانيته .

الاتفاق الجمركى مع الروس والتعريفة الجديدة :

مضى أمين السلطان إلا أن نتائج نيته ظلت باقية، وفى شتاء نفس العام ظهر الاتفاق الجمركى الذى عقد مع الروس وكذلك التعريفة الجمركية الجديدة التى شكلت بناء على ذلك. وقد تم الاتفاق على يد نوس. وفى عام ١٩٠١م (١٣١٩ هـ.ق– ١٢٨٠ هـ.ش) وقّع الشاه عليه بعد عودته من رحلته الثانية إلى أوربا، وفى عام ١٩٠٢م (١٣٢٠ هـ.ق – ١٢٨١هـ.ش) تم تبادل الوثائق، إلا أنه لم يعمل بها حيث تم نقضها فى شهر بهمن سنة ١٢٨١ هـ.ش (١٩٠٢م) وألحق هذا الاتفاق

---

[1] فى النهاية وبعد شهرين أطلق عين الدولة سراحهم فى ظل إصرار أهل زنجان. (المؤلف).

وتلك التعريفة ضررًا على إيران وكان من المتوقع نتيجة لهذا الاتفاق أن يضيع قدر من صناعة الآلات والنسيج وما شابه ذلك ممن كان يملكه الإيرانيون وساءت أحوال التجارة، كذلك لحق الضرر بالزراعة والرعى، وتفشت البطالة بين شعب إيران وهاجر العديدون إلى مدن القوقاز وغيرها من المناطق كما حلت بهم الشدائد فى دولتهم ومالوا مضطرين إلى جيرانهم الأجانب.

ولو يرغب شخص فى أن يحيط علمًا بطبيعة هذا الاتفاق وتلك التعريفة، وكذلك بأهداف الجار الشمالى من عقد هذا الاتفاق والمضار التى لحقت بإيران من جراء ذلك،

فليطلع على كتاب استقلال گمركى إيران [1].

وفى هذا الكتاب يتضح ما كان خفيًا، وهو أن هذا الاتفاق وتلك التعريفة كان متفقًا عليهما قبل ذلك بأعوام عدة، ومن هنا نطلع على أسرار أخرى، وندرك أن هذا الأمر قد بدأ منذ عهد المرحوم أمين الدولة، ويمكننا القول بأن أحد أسباب سقوط أمين الدولة هو عدم موافقته على هذا الاتفاق وتلك التعريفة. وندرك كذلك أن ترقى نوس العاجل ووصوله إلى منصب وزير الجمارك هيأ المجال أمامه لإتمام مثل هذا الاتفاق. وبصفة عامة ينبغى القول إن الجار الشمالى تحين فرصة خور عزم الشاه وعدم نزاهة أمين السلطان وعدم وعى الشعب وشاء أن ينجز الاتفاق بمساعدة البلجيك أو غيرهم.

فلم يكن من فراغ أن يعد شوستر نوس أداة فى يد الروس وموضعًا لرعايتهم، وأيضًا لم يكن من فراغ أن يكتب صفى نيا قائلاً : "إن توقيع هذا الاتفاق كان أعنف لطمة أصابت استقلال إيران بعد عقد معاهدة تركمان چاى".

---

[1] بقلم آقاى رضاى صفى نيا، طهران، ١٣٠٧. (المؤلف).

ومن العار أن يمنح ملك أو صدر أعظم مثل هذا الأمر الهام والذى يفضى إلى عمران الدولة أو خرابها لأجنبى غير محنك، ولو قدر أن نوس كان يعقد اتفاقًا لمصلحة إيران، فإن ذنب مظفر الدين شاه والأتابك للسماح بمثل هذا العمل لا يمكن أن يغتفر.

إن هذه التعريفة قد فرضت رسومًا منخفضة بالنسبة للبضائع التى تأتى من روسيا إلى إيران، فى حين فرضت رسومًا مرتفعة على البضائع التى تصدر من إيران إلى روسيا أو التى تأتى من الهند أو فرنسا وغيرها من الأماكن إلى إيران، لذا فهى لم تكن خسارة على إيران فقط، بل كانت ضررًا لحق بكل البلاد الأخرى كذلك. لذلك استاء الإنجليز استياء شديدًا واضطرت الدولة بعد مضى أقل من عدة شهور لأن تعقد معهم اتفاقية، وتقرر تعريفة جديدة وأن تحول دون إلحاق الأذى بتجارهم. ولكن ظل الضرر يحيق بأهل إيران، فهل كتب عليهم أن يكابدوا ما يكابدون ؟، وصارت هذه التعريفة سببًا آخر لسخط الناس وعدم رضاهم، وخاصة بعدما أظهر نوس وغيره من البلجيك من سلوكيات حمقاء ساعدت على إثارة الناس أكثر من ذى قبل.

ومر عام ١٩٠٤م (١٣٢٢ هـ.ق- ١٢٨٣هـ.ش) بهدوء فى ظل غلبة عين الدولة، ولكن اتفق أن وقع حادث فى طهران فى نهاية ذلك العام حيث وقعت فى الأيدى صورة لنوس وبعض البلجيكيين وقد أقاموا حفلاً راقصًا وكان كل رجل منهم يرتدى زيًّا إيرانيًّا وقد ارتدى نوس نفسه عمامة على رأسه وعباءة على كتفه متمثلاً برجال الدين.

كان هذا الحفل قبل ذلك بعامين ولكن ظهرت هذه الصورة فى الفترة التى كان الناس مستاءين فيها إلى أبعد حد من الجمرك وموظفيه البلجيك من ناحية،

ومن ناحية أخرى كان استياء بهبهانى من عين الدولة، ومن ناحية ثالثة كان أعوان الأتابك يتكاسلون ويسعون للقضاء على عين الدولة، وعندما حل شهر محرم حيث تروج سوق رجال الدين، قدموها لهم، وبدأوا ينوحون ويذمون نوس بحجة أنه استهزأ بالإسلام وأهان العلماء. وفى البداية صعد المرحوم بهبهانى نفسه أعلى المنبر فى منزله وذكر بمساوئ نوس، وفى النهاية عرض هذا الحادث وقال : إنه يطلب من مظفر الدين شاه عزل نوس. بعد ذلك تبعه آخرون من علماء الدين من أمثال صدر العلماء (ص٣٨) وحاجى شيخ مرتضى (ابن ميرزا آشتيانى) والشيخ محمد رضاى القمى وسيد أحمد طباطبايى (أخو المرحوم طباطبايى)، وصعد كل منهم فوق المنبر ليذكر مساوئ نوس. وظلت هذه الضجة قائمة حتى انتهت مجالس شهر محرم، ووسط ذلك حل عام ١٩٠٥م (١٣٢٣ هـ.ق - ١٢٨٤ هـ.ش) حيث بدأت الحركة المطالبة بالحرية.

لم يعط عين الدولة لهذه الضجة أية أهمية لما كان يتمتع به من عدم اكتراث واستكبار، كذلك لم يأبه الشاه لذلك، ولم تشاهد أية نتيجة لهذا الاستياء والسخط، وعندما بلغ شهر محرم نهايته هدأت الضجة، ولكننا سوف نرى أن نتائجها لم تقف عند حد. وسوف نسوق الحديث فى المقال الثانى عن هذه الفترة التى تم فيها التعاون بين طباطبايى والمرحوم بهبهانى، والتى انبثقت إلى الوجود خلالها الحركة المطالبة بالحرية.

لكننا سنورد فى نهاية هذا المقال بعض الأحداث الأخرى التى تعين على توضيح التاريخ.

تطور المدارس :

كما سبق ورأينا أن التفكير في وجوب قانون فى البلاد تستقيم به الحياة بدأ منذ عهد الحاج ميرزا حسين خان سپهسالار، وقبل هذا لم يكن لنا علم بوجود مثل هذه الأفكار بين الإيرانيين، فأول انتفاضة شعبية وبداية اليقظة بين الناس كانت منذ حادث امتياز الدخان. ويجب القول إن هذه الانتفاضة لم تهدأ بين شعب إيران، ومنذ ذلك الوقت كانت يقظة الناس واهتمامهم بأمور المجتمع والبلاد قد أخذت تواصل مسيرتها وتنمو وتقوى بسرعة غير متوقعة.

والمظهر الأول للانتفاضة هو انتشار المدارس، لأنه كما قلنا سالفًا بدأ ظهور المدارس (الحديثة) فى إيران منذ عام ١٨٩٦م (١٣١٤هـ.ق) وهى المدرسة التى فتحها أمين الدولة بمساعدة رشديه فى تبريز أولاً ثم فى طهران بعد ذلك. وكان يوجد فى طهران مدرسة واحدة حتى زمن متأخر وهى المدرسة الرشديه، ولكن بعد فترة من الزمن، وفى ظل اهتمام الناس أسست مدارس أخرى. وفى البداية أبدى بعض رجال الدين عداءهم لها وحث بعضهم على تعلم الأبجدية من خلال الكتب القديمة، ومع هذا فقد ظهر اثنان من رجال الدين المشاهير أيدا إنشاء المدارس، أحدهما هو المرحوم الشيخ هادى نجم آبادى ذلك الرجل العالم المتحرر الفكر والذى أخذ على عاتقه مناصرة المدرسة الرشدية ورعايتها بعد سقوط أمين الدولة. أما الآخر فهو المرحوم السيد محمد طباطبايى الذى أنشأ مدرسة باسم "إسلام" ولم يدخر وسعًا فى تدعيمها وحث الناس على ذلك. واهتمام هذين الشخصين بأمر المدارس كف ألسنة الآخرين، ومع كل ما كان للأتابك من نفور تجاه هذا الأمر وعدم إخفائه سخطه واستياءه إلا أن المدارس كانت تزداد عامًا بعد عام، ونحن نرى أنه فى عام ١٩٠٠م (١٣١٨هـ.ق-١٢٧٩هـ.ش) وبعد مرور أربعة أو خمسة أعوام على بداية ظهور المدارس - تم إنشاء إحدى وعشرين مدرسة (سبع عشرة فى العاصمة، وواحدة فى كل من تبريز وبوشهر والرشت ومشهد) وكانت على نفقة الناس أنفسهم، وكانوا يديرونها ولم يكن للدولة أى دور فى هذا.

أدركت طائفة من الناس أضرار الأمية، ومن هذه الناحية كانوا يرون بأعينهم الفرق بين المدرسة والكتاب، لذا اتجهوا إليها طواعية وعن طيب خاطر. ومما يذكر بالخير أنه في نهاية العام وقت امتحان التلاميذ، كانوا يقيمون حفلة في فناء المدرسة، ويدعون فيها الآباء والتلاميذ وغيرهم، وكانوا يسرون كل السرور من رؤية طفل صغير يقرأ الأبجدية في شهرين أو ثلاثة أشهر، وتعلم الكتابة، ويكتب على السبورة كل كلمة تملى عليه دون خطأ، والتلاميذ الأكبر سنًا يحصون دول أوربا وأمريكا بأسمائها، ويقدمون معلومات عن كل مكان وفي النهاية يتسابقون في تقديم التبرعات عن طيب خاطر، وكثيرًا ما كان يحتفل بعد مضى عام بذكرى افتتاح المدرسة [١].

وقد انتشر وجود المدارس انتشارًا عظيمًا حتى عام ١٩٠٦م (١٣٢٤هـ.ق - ١٢٨٥هـ.ش) حيث أصدر مظفر الدين شاه فرمان الحكم النيابى، وقلما وجدت مدينة لم يكن فيها مدرسة أو مدرستان أو أكثر، ووصل شغف الناس إلى حد أنهم بالغوا في اهتمامهم بالمدارس، وظن كثير منهم أن المدرسة هي الدواء الوحيد للبلاد، عندما يتخرج فيها الشباب سيزيلون كل مظاهر التخلف والركود، وكلما أقاموا حفلاً أعلنوا عنه في الجرائد اليومية، وكانوا يعربون عن فرط سرورهم ويمنون أنفسهم. إلى حد أن أحمد بيك آقايوف (محرر) جريدة "حيات" القوقازية - وقد كان رجلاً عالمًا ومهتمًا بأحوال إيران - قد تحدث عن تخلف هذه الفكرة لدى الإيرانيين [٢].

وجدير بنا عند الحديث عن المدارس أن نذكر حاجي زين العابدين تقيوف، وكان هذا الرجل أحد أثرياء العالم المشاهير، كما كان رجلاً كريمًا يبذل العطاء في وجوهه المشروعة. وفي عام ١٩٠٠م (١٣١٨هـ.ق-١٢٧٩هـ.ش) أرسل هدية

---

[١] كان هذا النوع من الحفلات الفاخرة والحصول على الأموال من الناس ذائعًا بعد عدة أعوام من بداية الحكم النيابى.(المؤلف).

[٢] ترجم مقال جريدة حيات هذا عن التركية آقا جعفر خامنه اى، وطبع في أحد أعداد جريدة الحبل المتين الصادرة في كلكتا. (المؤلف).

فاخرة إلى مدارس إيران التى أنشئت حديثًا وذلك عن طريق مجمع المعارف على النحو التالى : مجموعة من الصور التى تعلق فى الجدران، ودفاتر خاصة ليكتب التلاميذ فيها، ومجموعة من الكتب فى واحد وعشرين طردًا أرسلها هدية لإحدى وعشرين مدرسة فى إيران، كما أرسل هدايا نقدية عبارة عن أربعة آلاف منات للمدرسة الرشدية وخمسمائة منات لمدرسة السادات.

زيادة الجرائد اليومية :

المظهر الثانى لذلك التقدم والتطور تمثل فى زيادة الصحف اليومية وإقبال الناس على مطالعتها، وكما قلنا سالفًا إن معظم الصحف كانت حكومية قبل تلك الفترة، وما عدا ذلك كانت جريدة "اختر" الصادرة فى إسطنبول، وجريدة "حكمت" الصادرة فى مصر، وجريدة "القانون" الصادرة فى لندن، ولكن بعد تلك الانتفاضة وذلك التقدم ظهرت عدة صحف أخرى، وكان أشهرها جريدة "الحبل المتين" فى كلكتا، وجريدة "تربيت" فى طهران و " الثريا " و "پرورش" فى مصر، وجريدة "الحديد" أو "العدالة" فى تبريز.

وإذا ما تحدثنا عن محررى هذه الجرائد فكان البعض منهم مجيدًا والبعض الآخر غير مجيد، وقد ذكرنا فضل محررى جريدة "اختر"، فكانت مقالات هذه الجريدة أساسًا ليقظة عدد كبير من أفراد الشعب. يقول حاجى ميرزا حسن رشديه مؤسس المدارس : "إن ما حثنى على الذهاب إلى بيروت وتعلم أسلوب التعليم الجديد هو مقال فى جريدة "اختر"، فكنت أنا وأبى نقرؤها ذات يوم، ورأينا مقالاً فحواه : " يوجد فى أوربا عشرة أشخاص أميون من بين ألف شخص، وفى إيران يوجد عشرة أشخاص فقط متعلمون من بين ألف شخص، ويرجع هذا إلى سوء أسلوب التعليم وصعوبة تدريس الأبجدية. فيجب أن تقام فى إيران مدارس تتبع الأسلوب الأوربى ". وأثرت هذه المقالة فىّ وفى والدى تأثيرًا عميقًا، ومع أننى كنت ابنًا لأحد رجال الدين، وكان ينبغى أن أمضى إلى النجف وأتعلم العلوم الدينية

إلا أننى توجهت إلى إسطنبول ومصر وبيروت بتشجيع من والدى وتعلمت أسلوب التعليم الجديد فى تلك المدينة الأخيرة (بيروت)".

وهذا نموذج يوضح كيف أن كلمة مخلصة صادقة تدفع الإنسان إلى عمل ما.

وكان ميرزا مهدى خان تبريزى محرر جريدة "حكمت" من الأفاضل، وقلما اطلعت على جريدته، بيد أننى أعرف فضلها. وكان هذا الرجل عالمًا كما ألف كذلك العديد من الكتب، كما كان ينظم الأشعار الوطنية. ويقال إنه قدم إلى طهران عام ١٩٠٠م (١٣١٨هـ.ق- ١٢٧٩هـ.ش) ولم يضن عليه الأتابك بالاستقبال والضيافة، ونال من الشاه لقب زعيم الدولة وكذلك مبلغ ثلاثمائة طومان سنويًا، ولكن على مبلغ علمنا أن هذا لم يفده ! أما جريدة "القانون" فقد تحدثنا عنها سالفًا وعن محررها ميرزا ملكم خان.

أما جريدة "تربيت" فكان محررها شاعرًا من شعراء البلاط كما كانت جريدته كديوان شاعر من شعراء البلاط مفعمة بالمدائح. على سبيل المثال، فقد ذهب إلى شعاع السلطنة وكتب مقالاً مطولاً فى مدحه، يقول فيه :

" بعد الاستئناس مع الحضرة التى أساسها الفلك، تذكرت مرة ورأيت أننى التقيت مع الحكمة الدقيقة، وأنى أتحدث مع العقل الملهم. ولا أشك فى أن سن حضرة الأمير يتجاوز ست عشرة أو سبع عشرة سنة، ولكن قسمًا بخالق السنين والشهور، مانح الضوء للقمر والشمس لا أذكر أننى رأيت خلال عمرى وهو ستون عامًا شخصًا صغيرًا أو كبيرًا بمثل هذا الذكاء والفطنة. قسمًا بالله أننى لم أر نقادًا للكلام وكشافًا للسر وعالمًا بجوهر الأمر متفرسًا فى الجواهر من له ضمير منير كالشمس وخاطر أجود من السحاب بالغيث، له علم بدقائق أمور المملكة والدولة وحقائقها وبلطائف وظرائف الأدب شعره ونثره، ما من فكرة دقيقة إلا ويعلمها، وما من شىء كتب لا يقرؤه ... ".

أما جريدة "الثريا" فكان أول من كتبها ميرزا علي محمد خان الكاشانى، وكانت شهرة مقالاتها القوية تصل إلى جميع الأرجاء، لكنه انفصل عنها فيما بعد، وأسس جريدة "پرورش" وضاعت قيمة جريدة "الثريا"، وفى عامها السادس صدرت فى طهران عام ١٩٠٤م (١٣٢٢هـ.ق- ١٢٨٣هـ.ش)، وكان محررها آنذاك سيد فرج الله الكاشانى فرأيتها جريدة غاية فى الحقارة.

ومن مساوئ هذه الجريدة ذلك الصراع الذى مارسته ضد جريدة "الحبل المتين" وما جاء فيها من فحش فى حق صاحب جريدة "الحبل المتين". وكانت جريدة "الحبل المتين" تورد أحيانًا كلامًا عن القانون والحكمة الشرعية، فكتبت هذه الجريدة ردًّا عليها تقول فيه: " لماذا تنسج خرافات ومهاترات عن السلطة الشرعية وغير الشرعية فى عهد ملك أسخى من جميع ملوك السلف وأعدل من ملوك العالم العدول، وتَعُدُّ كل حداد وعامل وبقال له الحق فى دقائق أمور الدولة .... وهذا الكلام الذى يشبه كلام من تخبطه مس من الشيطان أى جدوى منه ؟ ... إن هذا الفضول المردود من السيد جمال معهود، وأنت السيد جلال بلا جمال، فأى شىء تقول ؟ ".

والأتابك الذى كان قد ولى عهده كانت تذمه جريدة "الحبل المتين" ولكن هذه الجريدة كانت تمتدحه وتؤيده (ومما لا شك فيه أنها كانت تتلقى الأموال من أنصار الأتابك) فقد ردت قائلة : " إن تخطئة أعمال كل خادم من خدام العتبة الملكية يرجع إلى الساحة المقدسة، فما بال ما يترتب على تخطئة من دام قرنًا من الزمان فى الدولة صاحب حكم وقلم، ومختارًا من ملكين ذوَىْ جاه وصفوة العالم ... بعد ذلك ينبغى قول العياذ بالله أن هذين الملكين لم يكونا على تلك الدراية التى كانت للحبل المتين وليس الأمر كذلك، فالملك له عقل أربعين وزيرًا وللوزير عقل أربعين حكيمًا. ونحن عامة الشعب ماذا نعرف عن أسرار الدولة والحكمة العملية للسلطنة" !

أما جريدة "پرورش" فكانت من أفضل الجرائد فى العام الأول لها والذى شاهدتها فيه. وكان محررها ميرزا علي محمد خان رجلاً غيورًا عالمًا، وكان يكتب مقالات مثيرة عنيفة. وفى عام ١٩١٠م (١٢٨٩هـ.ش) حيث مضى مظفر الدين شاه إلى أوربا للمرة الثانية، توجه هذا الرجل أيضًا إليها من مصر، وفى أوربا شاهد وزراء الشاه ورفاقه وغيرهم. وكتب لجريدته مقالات عامرة بالأفكار الجيدة.

أما جريدة "الحديد" فكان محررها سيد حسين خان من الفضلاء، وكان فى جريدته هذه والتى أطلق عليها بعد ذلك اسم "العدالة". يكتب عن النفاق والأنانية، وقد كتب عدة مقالات جيدة.

الحبل المتين :

أما جريدة الحبل المتين فينبغى أن نسوق الحديث عنها فى تفصيل. وكانت هذه الجريدة الأسبوعية من أكبر جرائد تلك الفترة وأوسعها شهرة، وكانت تصدر فى الهند وكانت تتمتع بالكلمة الحرة. ومن الأسباب التى ساعدت على رواجها أن حاجى زين العابدين تقيوف أرسل أموالاً وفيرة حتى ترسل الجريدة إلى علماء النجف وغيرها من المدن مجانًا.

ومن هنا انعقدت الصلة بين الجريدة والعلماء، وكان المرحوم الشيخ حسن ممقانى– الذى كان فى تلك الفترة مع فاضل خوبيانى مرجع تقليد الشيعة – يمتدح جريدة الحبل المتين وقد حث الناس على مطالعتها.

كانت هذه الجريدة تكتب مقالات تتعلق بأزمات إيران السياسية، وكانت تقدم المواساة والإرشادات العديدة، ونشرت مقالات عنيفة فيما يتعلق بموضوع الاقتراض من الروس، (ولهذا السبب منعت من دخول إيران لمدة أربعة أعوام)، واقترحت مرارًا وجود قانون أو حكومة دستورية (أو شرعية)، وتعلق الناس تعلقًا شديدًا بها، وكان محررها سيد جلال الدين الكاشانى (مؤيد الإسلام) يعرف

بالفضل، ولكنه فى الحقيقة كان يبحث عن المنفعة الشخصية، وحيثما برزت المنفعة الشخصية فلابد من نسيان الأمانى الطيبة للشعب والدولة.

ونحن نجد فى جريدته العديد من مواضع التملق. فكل من يتبوأ منصبًا، وقبل أن ينجز أى عمل ولم يختبر بعد، كان يمدحه كالشعراء، فعندما أصبح نوس وزيرًا للجمارك يقول : " إن جناب مسيو نوس حقًا من نجباء البلجيك، وهو شخصيًا رجل كفء جدير بالعمل، وكان مديرًا وموظفًا فى إدارة جمارك ممالك إيران المحروسة لمدة عام من قبل الدولة، وهو جدير باستقلاله بمسئولية الوزارة العامة لجمارك إيران". هذا نموذج لمدائحه ومبالغاته. وها هو يعلى من شأن أجنبى نكرة على هذا النحو.

كذلك امتدح كثيرًا كلاً من محمد علي ميرزا ولى العهد، وأرفع الدولة، وعين الدولة، وغيرهم، وبالغ فى مدحهم، وكما ذكرنا سالفًا إنه حينما تبوأ عين الدولة منصب الوزير الأعظم باع نفسه له. ومنذ ذلك الوقت لا يمكن أن تسمى جريدة الحبل المتين إلا جريدة عين الدولة، وسوف نكتب عن سلوكه الشائن وعن مساعى المرحوم طباطبايي وبهبهانى.

لم تكن الصحف فى إيران - سواء فى فترة ما قبل الثورة أو ما بعدها- تسلك طريقًا واحدًا محددًا، بل كانت تتسم بالتقلب دائمًا، وكانت جريدة الحبل المتين مصابة بهذا العيب أيضًا، وأنتم ترون فى هذا العدد مدائح كثيرة كتبت فى عدل مظفر الدين شاه أو مساعى ويقظة ولى عهده محمد علي ميرزا، وفى عدد آخر نجد الشكوى والعويل من المصائب التى مُنِىَ بها شعب إيران، وظلم الحكام، وخراب الدولة وبؤسها.

حقيقة أنهم كانوا يبغون التظاهر ببذل الجهد فى سبيل إيران، ولكنهم كانوا يرتزقون أثناء ذلك ويكنزون الأموال، وكان هذا أسلوب طائفة كبيرة من المجاهدين، وقد رأيت فى أحد أعداد جريدة "الحبل المتين" مقالتين لكاتب واحد هو

يوسف زاده الهمدانى إحداهما فى مدح اتحاد الإسلام وترغيب الناس فيه، والأخرى فى مدح الاشتراكية وإحصاء منافع مثل هذه الحياة، فلم يدرك الكاتب التضارب وعدم التواؤم بين هذين المسلكين، كما لم يدرك الناشر ذلك.

ولم يصب أحد غير أمين السلطان بأذى الحبل المتين، ولكن أى وزير حظى بمنصب الوزارة سواء فى الفترة التى سبقت الحكم النيابى وسواء فى عهد تحقيق المطامع أو فى عهد الإنذار الروسى وإغلاق دار الشورى إلا ومدحته هذه الجريدة وتملقته.

• كان هذا حال الجرائد فى ذلك العهد. فكانت تجمع بين الصالح والطالح، وإذا نظرنا إليها نظرة كلية، فقد قامت بعمل مفيد، ويمكن أن نعدها أحد بواعث الانتفاضة الشعبية، لأنه فضلاً عما سبق كان بعض منها له التوجيه الرشيد. ومع هذه المساوئ كان لها أيضًا محاسن، فكانت تتحدث عن دول أوربا، وعن تقدمها وقوتها، وعلومها واختراعاتها وما شابه، وأحاطوا الناس علمًا بكل ذلك، مما كان سببًا فى انتفاضة الشعب وحدوث اليقظة.

وحدث فى تلك الفترة أن اندلعت الحرب الأولى بين جنوب أفريقيا والإنجليز، وبعد ذلك وقعت الحرب بين اليابان والروس، وقد دامت هذه الحروب أعوامًا عدة، وكانت الجرائد تروى أخبارها، وكان دعاة النهضة يقرءونها بكل الرضا والابتهاج، وازدادوا حماسًا. وكان لهذه الأحداث عميق الأثر فى إيران، فشجاعة فئة قليلة من مناضلى جنوب أفريقيا وصمودها البطولى أمام دولة عظيمة كإنجلترا، والهزائم المتوالية التى ألحقتها بجيش هذه الدولة، كذلك فإن جيوش اليابان المجهزة وقوادها المحنكين والانتصارات المتوالية التى حققوها، كل هذا منح الإيرانيين انتفاضة قوية. فاليابان التى كانت مجهولة قبل بضعة أعوام ووصلت إلى هذه المكانة بفضل الحكم النيابى وانتفاضة الشعب، لقنت الإيرانيين درسًا عظيمًا وألهبت حماسهم. وقد ذاعت أخبار هذه الحرب طويلاً، وترددت أسماء بورت آتور ومارشال أوياما وجنرال كرويا تكين وغيرهم على ألسنة الناس. وعلى سبيل المثال

لو أن شخصًا استعلى أو افتخر بنفسه، فكانوا يقولون : " لعله فتح ميناء آتور ليفخر إلى هذا الحد ؟!".

وكان العديد من الكتاب يبالغون فى وطنية اليابانيين ودماثة خلقهم وحكمتهم. ومن فوائد هذه الجرائد على ما أسلفنا أنها أوقفت الناس على هذه الأحداث العظيمة فى العالم، لذا فإن اهتمام الناس بها كان علامة لتقدم الانتفاضة واليقظة.

كتب طالبوف وسياحتنامة إبراهيم بيك :

هناك شيء آخر يجب أن يعد من أسباب يقظة الإيرانيين، وهو كتب طالبوف وسياحتنامه إبراهيم بيك .. فقد كان لهما عظيم الأثر .

أما عبد الرحيم طالبوف فهو من أهالى تبريز، وهو – كما كتب عن نفسه – ابن أحد التجار، مضى إلى القوقاز فى فترة شبابه، وهناك جمع ثروة بكده وكدحه، وبعد ذلك آثر الانزواء فى ضاحية ببلاد القوقاز.

وكان هذا الرجل من العلماء، وكان على علم واسع فى علوم الفيزياء والكيمياء والفلك وما شابه ذلك، وله كتب عديدة. ولكن هدفنا فى هذا المقام كتابان له، أحدهما باسم "كتاب أحمد" والآخر باسم "مسالك المحسنين".

فى كتاب أحمد – الواقع فى جزأين، والذى طبع طبعة فاخرة – يتحدث طالبوف مع ابنه المتخيل أحمد، ويعلمه العلوم بلغة سهلة ميسرة، وفيه بسط الحديث عن تقدم الأوربيين وتخلف الإيرانيين، وهو كتاب شيق ومفيد للغاية.

وفى "مسالك المحسنين" قام بعض الأشخاص من طهران بجولة علمية، واتجهوا إلى قمة دماوند ومعهم معداتهم، وهو كتاب يحكى أخبار هذه الجولة، ولكن الكاتب ساق الحديث أثناء ذلك عن أحوال الناس ومشاكل الدولة، وهو أيضًا كتاب شيق مفيد. ومن الأخطاء التى وردت فى هذا الكتاب أن طالبوف تحدث عن قمم جبال البرز وكأنها مثل قمم غيره من الجبال مملوءة بالغابات الكثيفة، والأمر ليس

كذلك. وقد رماه بعض رجال الدين كعادتهم بالكفر، وصدوا الناس عن مطالعة كتبه، ولا يمكن أن يعد هذا إلا دليلاً على جهلهم.

أما سياحتنامهء إبراهيم بيك، فكثير من الناس يعرفون قيمته، حيث اطلعوا عليه فى تلك الأيام، ويتذكرون الأثر العميق الذى أظهره فى القارئ. ويروى هذا الكتاب قصة شاب من أبناء التجار الإيرانيين المقيمين فى مصر، حيث قدم إيران رغبة منه فى رؤية الوطن برفقة مربيه يوسف عمو وكتب بقلمه ما شاهده فى العاصمة وفى غيرها من المدن من عدم وعى الناس وانشغالهم بأعمال تافهة، وخداع رجال الدين، وظلم الحكام، وعدم مبالاة الدولة، وما شابه ذلك، بلغة يسيرة جميلة وبإيقاع مؤثر.

إن معظم الإيرانيين الذين جبلوا وتطبعوا على هذه الآثام والمساوئ لم يكن لهم دراية أو معرفة بحياة أخرى سوى حياتهم التعسة، ويمكنك القول إنهم استيقظوا من سبات غفلتهم وقاموا بانتفاضة نتيجة لقراءة هذا الكتاب. ومن السهل أن نجد كثيرًا ممن تنبهوا نتيجة لقراءة هذا الكتاب وتهيئوا للسعى من أجل خير البلاد، وانضموا إلى غيرهم من المجاهدين، ونتيجة لتأثيره هذا فى القراء، لم يسمح بتداوله بين الإيرانيين، وكان الناس يقرءونه خفية حتى وقت قريب. ويقع هذا الكتاب فى ثلاثة أجزاء، وحديثنا هنا متعلق بالجزء الأول، أما الجزآن الآخران لا صلة لهما بهذه الفترة حيث كتبا فى فترة لاحقة، ولم تكن لهما نفس النتيجة التى كانت للجزء الأول.

أما كاتبه فلم يكن معروفًا آنذاك، ولكن بعد أن صدر الدستور، وتحققت الحرية، ظهر فى جزئه الثالث اسم حاجى زين العابدين المراغى من تجار إسطنبول، ولم يصدق بعض الناس أن مثل هذا الكتاب المفعم بالأفكار المفيدة يصدر من قلم أحد التجار البسطاء، وقال بعض الأعداء إن ميرزا مهدي خان (أحد محررى جريدة اختر) كتب الجزء الأول وطبعه، وبعد وفاته كتب حاجى زين العابدين الجزأين الثانى والثالث، وأطلق اسمه عليها جميعًا. وذكروا دليلاً على

قولهم هذا بأن أسلوب كتابة الجزء الأول يتشابه كثيرًا مع أسلوب مقالات جريدة "اختر"، ومن هذا المنطلق فإن الجزأين الثانى والثالث منفصلان تمامًا عن الجزء الأول، ولكن هذه الأقوال لا تستحق التصديق، ومما لا شك فيه أن الجزءين الثانى والثالث ينسبان إلى حاجى زين العابدين وهما يشيران إلى غزارة ما لدى كاتبها من علم، وإن وجد فارق ضئيل بينهما وبين الجزء الأول فهذا يحدث فى كثير من المؤلفات، حيث لا ترد جميع أجزائها على وتيرة واحدة. والذى يمكن تخمينه هو أن ميرزا مهدي خان أو أى كاتب آخر قد عاون حاجى زين العابدين، وهو ما لا يقلل من قيمة واجتهادات حاجى.

وإن علمنا أن طبع وتوزيع هذا الكتاب كان بفضل حاجى زين العابدين فقط، فينبغى أن نقدره حق قدره، ونفسح له مكانًا فى التاريخ. ولكن طبع مثل هذا الكتاب فى تلك الفترة كان بسبب عدم وجود طابع قادر للكتاب، فلا يحسن بنا أن نحقد على فضل الغير، ومما يؤخذ على كتاب إبراهيم بيك هو تلك الأشعار والأقوال التافهة التى أضيفت إلى نهاية الجزء الثالث، بالإضافة إلى ذلك فلدينا لوم على حاجى المراغى سوف نذكره فى موضعه.

الأشعار الوطنية :

إذا ما شئنا ذكر كل ما يتعلق بيقظة الإيرانيين فينبغى أن نذكر القصائد الوطنية التى نظمها بعض الشعراء فى تلك الآونة. فالإيرانيون كانوا متعلقين بالشعر منذ سنوات طوال وتضرروا بسبب هذا كثيرًا، لكنهم أحيانًا ينظمون أشعارًا لا ضرر منها، ونحن نعتبرها قصائد وطنية.

حدث أثناء الاطلاع على الأفكار الأوربية وعلى كيفية حياة الأوربيين أن أدركوا أيضًا معنى الوطن والوطنية، ولهذا شاء البعض نظم قصائد فى ذلك

الغرض ونشرها فى الجرائد اليومية، وكان أحد محاسن هذه الجرائد طبع هذا النوع من القصائد والعمل على رواجها.

إذا كان ناظمو القصائد فى إيران من أنصار الالتزام بالقافية، فإن عددًا كبيرًا كان ينظم الشعر من أجل ضبط القوافى وحدها، ولنكن أكثر وضوحًا ونقول : إنهم كانوا يضحون بالمعنى فداء للفظ، وها هم يسلكون نفس هذا المسلك فى هذه القصائد، حتى أنكم تجدون أكثر من أربعة أو خمسة معان غير صحيحة فى قصيدة نظمت فى ثلاثين بيتًا، وعلى كل حال فهذا صنيع جيد وأفضل كثيرًا من نظم غزل لا معنى له، وسوف نذكر نماذج منها فى هذا الموضع.

كان من هؤلاء الشعراء حاجى محمد إسماعيل منير المازندرانى، (يقال إنه كان يعيش فى تجن وما حولها)، وله قصائد عديدة، يقول فى إحداها :

إن كان للعنكبوت بيت فالإنسان وطن

فانسج كالعنكبوت خيوطًا حول الوطن

العنكبوت تنسج خيوطًا لحفظ جحرها

ولست أدنى من العنكبوت يا غافلاً عن حفظ الوطن

إن العقل الكلى يعد حب الوطن إيمانًا

فإن حب الوطن هو معنى الإيمان بلا ريب

إذا لم يدرك الشيخ معنى الوطن فالتمس له العذر

فاسم هذا الوطن إيران، فتعال وألق السمع إلىّ

ويقول فى قصيدة أخرى :

لقد استولى العدو على دياركم الواحدة تلو الأخرى..

فمن أى شىء أيها القوم لا يعتريكم العار والخزى ؟

تذكروا همة أولئك الرقود تحت الثرى

فأنتم أسلاف من لهم الشرف العالى

....

مادام شغلكم الشراب وعملكم القمار

صار صغاركم وكباركم لا مبالاة لديهم ولا حياء عندهم

لأهل الشرق والغرب فى مملكتكم تجوال

ولملككم فى ممالك الغرب تجوال

وهناك شاعر آخر من أولئك الشعراء يدعى ميرزا حسن خان بديع[1]، كان يعيش فى البصرة وخوزستان، وله أيضًا قصائد كثيرة، يقول فى إحداها :

لمَ تنظر إلى سوء حال الوطن ؟!

لمَ لا تنصت إلى نواح ونحيب الوطن ؟!

ولميرزا مهدى خان حكمت وطالبوف قصائد من هذا القبيل، ولكن بما أنه ليس فى نيتنا ذكرها جميعًا، لذا نكتفى بهذا القدر من النماذج.

---

[1] توفى فى طهران منذ عامين. (المؤلف).

«المقال الثانى»

كيف بدأت الحركة المطالبة بالحكم النيابى ؟

يدور الحديث فى هذا المقال عن أحداث إيران منذ بداية الحركة المطالبة بالحكم النيابى وحتى إصدار فرمان الحياة النيابية.

تعاون السيدين :

فى نهاية عام ١٩٠٤م – ١٢٨٣هـ.ش (النصف الثانى من شهر اسفند)، وقد حل شهر محرم من عام ١٣٢٢ هـ.ق، كانت الشكوى من نوس، وذمه، تتردد على العديد من المنابر فى مدينة طهران. وبدلاً من أن يؤخذ نوس بالعقاب ويطرد من البلاد بعد إبرام ذلك الاتفاق وتحديد التعريفة، كان يزداد جاهًا على جاه يومًا بعد يوم، وكما حدث فى هذه الفترة فإنه فضلاً على حصوله على وزارة الجمارك فقد رأس وزارة البريد والبرق، وكان يؤيده أيضًا أعضاء من مجلس الشورى الحكومى، وكان يسلك سلوكًا مشينًا مع الناس، ولم يكن يعهد بالأمور فى إدارته – ما أمكنه ذلك – سوى للأرمن. وقيل إنه من أصل يهودى، لذا كان الناس مستائين إلى حد بعيد، وتحين بهبهانى وأتباعه الفرصة، واتخذوا تلك الصورة التى ذكرناها – التى تظهر نوس بالعمامة والعباءة – ذريعة لذمه، واستخرج بعض الأشخاص نسخًا كثيرة منها ووزعوها بين الناس.

كان يبدو فى الظاهر أن الهدف سقوط نوس، ولكن فى الباطن كان بهبهانى يسعى للإطاحة بعين الدولة. وكما أسقط رجال الدين أمين السلطان منذ بضعة أعوام، فقد أرادوا الآن إسقاط خليفته.

وكما ذكرنا سالفًا لم يكترث الشاه ولا عين الدولة بهذه الضجة، ولا ريب أن نوس أبدى الاستخفاف بها، وعندما انتهت أيام شهر محرم، انتهت الضجة أيضًا، ولكن بهبهانى ظل يسعى لتحقيق مراميه خفية، وكان يأمل معاونة أحد العلماء الكبار فى طهران لتعزيز جهوده، وتصادف فى نفس هذه الأيام أن تم التضامن بينه وبين المرحوم سيد محمد طباطبايي.

وقد جاء فى تاريخ بيدارى : " إن معتمد الإسلام الرشتى قدم من قبل السيد بهبهانى إلى السيد طباطبايي كى يسمع رأيه فى التضامن، إلا أنه فى أول الأمر كان يائسًا، ولكن فى النهاية قال إذا ما غير آقاسيد عبد الله الغاية ولم يكن له فى الأمر أى غرض شخصى سأكون متضامنًا معه. ومضى من هناك إلى دار حاجى شيخ فضل الله، إلا أنه قطع الرجاء تمامًا. بل إنه هدد الشيخ معتمد الإسلام قائلاً : " ما شأنك بهذه الرسالة؟! إن السيد لا يتعرض لعين الدولة ولكنه سوف يمحوك تمامًا ويقضى عليك ". ومضى من هناك إلى دار حاجى ميرزا أبى طالب الزنجانى، وفى أول الأمر بث الرعب فى قلب معتمد الإسلام، ولكنه فى النهاية وعده بأن يكون محايدًا لا يحالفه ولا يخالفه. بعد ذلك قابل حاجى شيخ عبد النبى، وقال المشار إليه: يجب أن ألتقى بنفسى مع آقاسيد عبد الله. قال معتمد الإسلام : عين مكان اللقاء وزمانه. فأجاب: إننى لن أذهب إلى منزل آقاسيد عبد الله، أما إذا شاء فليأت إلى منزلى، حتى لا يبلغ الخبر إلى عين الدولة ويغضب منى. وفى النهاية تم الاتفاق على أن يتقابلا خارج طهران فى بابويه.

وبعد الاطلاع على ذلك، قال جناب آقاسيد عبد الله: حسبى أن يكون معى آقاى طباطبايي، فإن الشيخ عبد النبى رجل تافه، وإذا كان حاجى ميرزا أبو طالب لا يخالفنى فحسبى هذا، وإذا كان حاجى شيخ فضل الله متحمسًا لعين الدولة فى هذه الأيام، فسوف ييأس منه قريبًا.

وهذا التضامن تم بين السيدين فى الأيام الأولى لعام ١٢٨٤هـ.ش (١٩٠٥م – ١٣٢٣هـ.ق) ويجب أن يعد ذلك اليوم هو بداية الحركة المطالبة بالدستور.

وينبغى التفكير جيدًا فى رد طباطبايى: " لو أن آقاسيد عبد الله غير غايته، ويخلو الأمر من الغرض الشخصى، سأكون معاونًا له".

يتضح من هذا القول أن ذلك الرجل الفاضل كان يرغب تخليص إيران من يد الظالمين والأنانيين. وكان يعد أمر عزل عين الدولة أمرًا يسيرًا، لذا كان الإعجاب بقول بهبهانى : " حسبى وجود طباطبايى معى". ويتضح من هذا القول أنه قبل اقتراح طباطبايى وتغاضى عن عداء عين الدولة فقط. وتعد أقوال كل منهما دلالة على فضلهما وحكمتهما.

وكان لكل منهما أقارب وأتباع، كما اتصل بهما جماعة من صغار رجال الدين، وحينما انضما سويًّا قِوى أمرهما، وسوف نرى أن قوتهما ازدادت يومًا بعد يوم. ولم يوضح مؤلف "تاريخ بيدارى" - الذى كان هو نفسه من المتصلين بطباطبايى، وكان له ضلع فى هذه الأحداث، ومعظم هذه المعلومات واردة من كتابه - لِم تآزر هذان السيدان، وفى أى شىء كانا يفكران، وما نتيجة أقوالهما، ولكن يبدو من الأمور أن هذين الشخصين كانا من البداية يتفاوضان حول الحكم النيابى والدستور ودار الشورى، ولكن الحكمة أملت عليهما أن يتقدما رويدًا رويدًا حتى يحققا بغيتهما.

وكما ذكرنا سالفًا، ظهرت الانتفاضة منذ عشرة أعوام ونيف فى إيران بفضل جهود بعض الأشخاص وكانت تواصل تقدمها على الدوام إلى أن تقدمت كثيرًا فى هذه الفترة، إلا أن الحاجة مست إلى اتباع عقلاء حتى يصلوا بها إلى النتيجة المرجوة. وكان روادها هذين السيدين.

وقد قيل إن هذين السيدين وغيرهما لم يكونوا على دراية بالحكم النيابى، ولكن تحدث عنه من كانوا فى "مسجد الشاه" عبد العظيم أو فى السفارة، فهم إناس لم يتخلوا عن طهارة القلب والإيمان. وكثيرًا ما يوجد فى إيران خلق كثيرون ليست لديهم القدرة على التصدى للأعمال الكبيرة بأنفسهم، بل يلقون بها على كاهل

الآخرين كى ينهضوا بها ويحسنوا الحديث عنها بحكمة ولسان فصيح. وقيـل إنـه قبل عشرين أو ثلاثين عامًا وجد فى إيران من كانوا على وعـى بمعنـى الحكـم النيابى، وكيفية حياة الشعوب الأوربية، كما كان بعض الأشخاص يسافرون سـنويًا إلى أوربا ويعودون، محملين بأفكار كثيرة عن هذه الديار. ومنـذ بـضعة أعـوام اهتمت المقالات بالقانون والحكم النيابى فى الجرائد الفارسية ومع هذا فـإن عـددًا كبيرًا من الناس ومن عامة الشعب لم يكن لهم علم بذلك، وكذلك لم يكـن لهـذين السيدين دراية بهذا الأمر! هذا ما قيل !! ولكن لو أنهما لم يكونا على دراية بمفهوم الحكم النيابى، ولم يرغبا فيه، فلمَ كان سعيهما بعد ذلك؟ ولِم أبْدَيا ذلك الصمود فـى سبيله؟ وأملاً فى أى نتيجة كبرى كانا يجابهان مئات المضار والكـوارث؟ ممـا لا شك فيه أنهما اجتهدا فى معرفة الأمر وحقيقته، وسندرك أن هذين الشخـصين قـد استفادا من كل حادثة بمجرد أن اتفقا على التعاون فيما بينهمـا، واسـتثمراها فـى سبيل إحراز التقدم.

تبرم تجار طهران من البلجيك :

أثناء ذلك كان الحديث عن سفر الشاه وأعوانه إلى أوربا للمـرة الثالثـة، حيث تطلعت قلوبهم إلى مشاهدة أوربا، وكان الشاه والوزير والأتباع قد اسـتعدوا للسفر فى الوقت الذى كانت الشكوى ترتفع فيه والعويل يعلو من كل ضاحية فـى الدولة، إلا أنهم كانوا يستعدون للسفر بنفوس مطمئنة، ولكن قامت فى طهران ثورة صغيرة قبل أن يمضوا، حيث ضاق التجار ذرعًا مـن سـوء معاملـة مـوظفى الجمرك، وأغلقوا المحال، والنزل ولجأوا إلى مسجد الشاه عبد العظيم.

وكان نوس وأتباعه يجاهرون الناس بالعداء، ولم يكتفـوا بالعمـل بتلـك التعريفة التى أقرت، بل كانوا يطلبونها مضاعفة عن كل سلعة ويحصلونها بـالقوة، فكتب التجار رسالة إلى عين الدولة لكنه لم يلق إليها بالاً، وفى النهاية وبناء علـى

رغبة سعد الدولة اقترح أن يتم التشاور فى جلسة يحضرها زعماء التجار ونوس وعندما تمت تلك الجلسة فى البلاط، بيَّن التجار أنهم يحصلون منهم أضعاف التعريفة المقررة على البضائع، ولما لم يستطع نوس الرد، سب التجار فى حضور عين الدولة وسعد الدولة وغيرهما، واستاء الجميع من سلوكه هذا، وفض المجلس دون نتيجة، وكان هذا فى يوم الجمعة الخامس من شهر أردى بهشت (١٩صفر) وأغلقت المحال والأسواق ومتاجر الحرير، ولجأ التجار والبزازون وغيرهم إلى مسجد الشاه عبد العظيم، وكان من زعمائهم حاجى محمد إسماعيل المغبازى وحاجى على شالفروش وكانا على صلة ببهبهانى وطباطبايى، وقد جاء فى "تاريخ بيدارى" : "إنهما قدما إلى منزل طباطبايى قبل الذهاب إلى عبد العظيم، وأوقفاه على جلية الأمر، وأخذا منه إذنًا بما يقومان به أو يسلكانه.

وذهب مندوب جريدة "الحبل المتين" إليهما، وسألهما عن مطلبهما، وكتب مقالاً مطولاً لجريدته، وقالا له ثلاثة أمور: (١) أنهما اشتكيا من التعريفة الجمركية الجديدة وأحصيا أضرارها على الدولة والتجار. (٢) أنهما اشتكيا من ظلم موظفى الجمرك ومن المبالغ الباهظة التى كانت تحصل من تجار إيران. (٣) أنهما بينا سوء نيات نوس وعداءه للإيرانيين وطالبا بعزله. وكانا يقولان إن نوس يهودى ويمارس مع الإيرانيين عداء خاصًا.

مضت خمسة أو ستة أيام على هذا النحو، وأثناء ذلك قدم محمد على ميرزا من تبريز إلى طهران، وفى غياب والده استدعى نائب السلطنة، وأرسل بعض الأشخاص إلى التجار واسترضاهم وبشرهم بأنه بعد سفر الشاه إلى أوربا وعودته منها سوف يطلب منه عزل نوس وطرده من إيران، ولما كان يعلم مدى تأييد التجار لبهبهانى مضى إلى داره واسترضاه. وعلى هذا النحو خمدت الثورة،

وحينما توجه الشاه إلى باغشاه واستعد للرحيل فإن زعماء الحركة لـم يريـدوا أن يواصلوا الأمر أكثر من هذا.

وقضى الشاه ورفاقه فى أوربا ما يقرب من أربعة أشهر فى تنزه وتجوال حتى عادوا ثانية إلى طهران. وقيل إنه كان يرافقه فى هذه الرحلة ثمانية وستون شخصًا، وفى عدم وجوده لم يقع أى حادث فى طهران سوى أن بهبهـانى سـعى لزيادة قوته وجمع حوله بعض الأشخاص ليؤازروه. وحادثة أخـرى وقعـت فـى فارس وهى أن الناس ضاقوا ذرعًا من ظلم شعاع السلطنة ابن الـشاه، وضـجوا بالشكوى وطالبوا بالإنصاف. فقد ابتاع شعاع السلطنة قرى بتمامها مـن الدولـة، وبحجة ذلك استولى على تلك القرى - التى اشتراها بعض الأشخاص من الدولـة وسددوا أثمانها فى عهد ناصر الدين شاه - وسلب ثروات الشعب عنوة، ولذا هـب الناس بالشكوى وطالبوا بالإنصاف حيث كانوا يرسلون البرقيات تباعًا إلى العلمـاء والحكومة.

فتنة كرمان :

أثناء ذلك وقعت بعض الأحداث فى كرمان على هذا النحو، حيـث كـان الناس فى تلك المدينة على طائفتين، إحداهما طائفة الكريمخانيين (أو الـشيخيين)، والأخرى طائفة المتشرعين (أو البلاساريين)، وكانت هاتان الطائفتان تعـيش كـل منهما منعزلة عن الأخرى، وكان بينهما التنافس والحقد، وفى بعض الأحايين كـان بعض الأشخاص يشعلون نار الصراع بينهما، واتفق فى هذه الفترة أن قـدم مـن يدعى الشيخ بريني إلى كرمان، وصعد المنابر باسطا لـسانه بـذم الكريمخـانيين، ومثيرًا عليهم المتشرعين، فما كان من ركن الدولة - أحد الأمراء والحاكم هناك - إلا أن طرد الشيخ من المدينة، فقام الناس بالشغب، وطـالبوا بعودتـه، وانـصاع

الحاكم لمطالبهم بسبب ضعفه وقلة حيلته، وأعاد الشيخ، إلا أنه عاود إشعال نار حقد المتشرعين وعدائهم.

أثناء ذلك عاد من يدعى حاجي ميرزا محمد رضا – من علماء كرمان – إلى المدينة وتلقى العلم لسنوات فى النجف وصار من المجتهدين، لقد عاد وهو يتطلع إلى الزعامة، لذا انتهز الفرصة وانضم إلى الشيخ بريني فى إضرام نار الفتنة والشغب، وعندما ضعف الكريمخانيون عزم على الاستيلاء على المسجد الذى كان فى حوزتهم وكانت تتبعه أوقاف كثيرة، فأراد الاستيلاء عليه لكى يعهد به إلى أحد أتباعه، لذا ذهب مع جمع من الأهالى للاستيلاء على المسجد، ولما أبدى الكريمخانيون الصمود، وأوقف الحاكم بعض الأفراد من الخدم وحاملى البنادق على باب المسجد وأطلقوا البنادق على الناس، فقد قتل بعض الأشخاص وجُرح بعض منهم.

وصلت هذه المعلومات إلى طهران فى الفترة التى لم يكن مظفر الدين شاه قد عاد خلالها من أوربا، وكان محمد على ميرزا نائبًا للسلطنة، فعزل ركن الدولة من الحكم وعين ظفر السلطنة – أحد الأمراء أيضًا – بدلاً منه، فأسرع فى المضى إلى كرمان. ومع هذا، فإن حاجى ميرزا محمد رضا لم يكف عن مواصلة أفعاله، ولم يعمد إلى إخماد الأهالى. وبعد قدوم ظفر السلطنة وقع حادث آخر غير مرغوب فيه، وهو أن أنصار هذا السيد اندفعوا إلى منازل اليهود، وحطموا دنانهم، وأراقوا الخمر على الأرض. وأراد الحاكم أن يحول دون وقوع الشغب وكف أيدى الناس عنه، ومضى الناس إلى متابعة أعمالهم فأرسل بعض الأشخاص إلى حاجى ميرزا محمد رضا للتشاور معه، ولكن هذا الشيخ الأرعن بدلاً من أن يفرق الناس ويخمد الثورة فإنه – لكى يزيد من نار الأهالى اشتعالاً – تظاهر بأنه عازم على الزيارة وأنه فى طريقه إلى مشهد، وذات يوم خرج من المنزل على هذه النية،

ولكن الناس تدفقوا ومنعوه وأعادوه إلى منزله، واضطر الحاكم إلى أن يفرق الأهالى فأرسل مجموعة من الجنود وحملة البنادق إلى دار حاجى ميرزا محمد رضا فمضوا وهم يطلقون الرصاص من بنادقهم حتى قُتل اثنان. وأخلى الثائرون منزل حاجى ميرزا محمد رضا وما حوله، وفر كل شخص إلى جهة ما، بينما بقيت النساء وحدهن. واقتحم حملة البنادق الدار وألقوا القبض على حاجى ميرزا محمد رضا وبعض أقاربه ودفعوهم فى مهانة، وأرسلوهم بمصاحبة الموسيقى، وتعلق الرجال جميعهم بأذيال الفرار، وتواروا، وكانت النساء يتابعن السيد المجتهد فى الطريق وهن باكيات مولولات وأحضر المعتقلون إلى مقر الحاكم، وقيدت أقدام حاجى ميرزا محمد رضا وثلاثة من الملالى بالفلقة وضربوا على أقدامهم بالعصى، ثم أخرجوهم من المدينة، وأرسلوهم إلى رفسنجان، واشتد الكرب على أتباع هذا السيد إلى حد أنهم احتشدوا فى داره وأخذوا يقرعون روضة الشهداء ويبكون ويضربون رءوسهم. وداوموا على هذا الأمر عدة أيام، وامتنع الأئمة عن الذهاب إلى المساجد وإقامة الصلاة.

وقد عد تصرف ظفر السلطنة – الذى كان فى موضعه – إثمًا عظيمًا فى ذلك اليوم، فإن الضرب بالعصى على أقدام المجاهدين لم يكن متوقعًا من الناس، لذا فهذا الحادث لم يصل خبره إلى طهران على نحو ما حدث، وقد كتب بعض أقارب حاجى ميرزا محمد رضا وأنصاره رسالة، وبينوا فيها الحادث وفقًا لما يشتهون. وكان وقع هذا الأمر على السيدين شديدًا وعدوه مثالاً آخر لأنانية عين الدولة وعدم اكتراثه بالعلماء، ولما قوى أمرهما بفضل تضامنهما، وكان لهما ما يبرر مواجهتهما للدولة بدأا يعددان مساوئها ويثيران الناس ضدها.

وأثناء ذلك حل شهر رمضان، وأصبح المجال مهيًا، فاغتنما الفرصة. وفى غداة يوم الأربعاء ٢٤ آبان (السابع عشر من رمضان) كان الحديث على معظم

منابر طهران عن حادثة كرمان وشاعت مذمة عين الدولة والحكام الذين أرسلهم إلى المدن، واعتلى المرحوم طباطبايي المنبر وخطب في الناس وأبكاهم، وقام صدر العلماء أيضًا بما قام به طباطبايي، وفي مسجد سپهسالار القديم الذي يوجد به البهبهاني، قام أحد الوعاظ - في وجود البهبهاني وبإذن منه - بالحديث في هذا الأمر .

وكان حاجي شيخ فضل الله النوري وبعض العلماء الآخرين - الذين لم يكونوا متضامنين معهما ويؤيدون عين الدولة خفية - قد أظهروا عدم اكتراثهم بهذا الأمر، ولكن الدولة اضطرت أن تستدعي ظفر السلطنة من كرمان.

وفي هذه الأيام قدم بهبهاني إلى دار طباطبايي ذات ليلة (ليلة الخامس والعشرين من رمضان) وتحادثا سرًّا، ومنذ هذه الليلة فإن الاتفاق فيما بينهما على التضامن ازداد قوة.

تخريب مبنى البنك :

أثناء ذلك كانت هناك حادثة أخرى على وشك الوقوع، وهي أن البنك الروسي اشترى مقر مدرسة خربة ومقبرة قديمة وسط المدينة، وأنشأ هناك مبنى شامخًا ضخمًا له، وأظهر طباطبايي وأتباعه سخطهم على هذا وسرت أحاديث حول هذا الموضوع. ومن يعرفون أزقة طهران القديمة يعلمون بوجود أحد المساجد خلف سوق صانعي الأحذية باسم مسجد خازن الملك وضريح خرب باسم سيد ولي، وأن بينهما وبين سوق صانعي الأحذية مكانًا خاليًا. وكانت توجد هناك مدرسة منذ ستين أو سبعين عامًا باسم مدرسة جال ومقبرة، ورويدًا رويدًا تخربت المدرسة وخلت من الطلاب. وفي النهاية صار المكان سوقًا لبائعي الفحم، كما أن المقبرة لم تعد تستخدم لأن الدولة كانت تمنع دفن الموتى داخل المدينة، وكان بعض

الناس قد ذهبوا؟ إلى العلماء واشتروا مساحات من هذه المناطق حتى يقيموا منـــازل لهم، وكان العلماء يبيعون الأوقاف التى لم تعد تستخدم في شراء أوقـــاف جديـــدة مربحة بثمنها، ولم يكف العلماء عن البيع والشراء على هذا النحو.

أثناء ذلك كان بنك الإقراض الروسى يريد موضعًا وسط المدينة لبناء مقـــر له، فقال بعض الأشخاص إنه فى الإمكان شراء قطعة الأرض الخلاء هـــذه مـــن العلماء بالمال، فاستدعى البنك من يسمى مستشار التجار كـــى يـــشترى لـــه هـــذه الأرض. ويذهبون فى البداية إلى طباطبايى، فيجيبهم قائلاً: " إن هذا المكان وقـــف للمسلمين ومقبرة، فليس فى الإمكان شراؤه، ولا يمكن إخراج الموتى مـــن تحـــت الثرى لإقامة مبنى محل المقبرة ". ولما يئسوا منه، مضوا إلى الحاج الشيخ فـــضل الله الذى لم يمتنع عن البيع، وقد باع المدرسة والمقبرة لمستـــشار التجـــار بمبلـــغ سبعمائة وخمسين طومان، الذى أحالها بدوره إلى البنك، كما تم شراء المنازل التى بناها بعض الأفراد حول ذلك المكان، ثم بدءوا الحفر وهدم الأساس، وإنشاء أبنيـــة جديدة.

ويبدى طباطبايى وأتباعه استياءهم لهذا، كما اشـــتد علـــى النـــاس نـــبش المقابر، وقد جاء فى تاريخ بيدارى : " أرسل طباطبايى رسالة إلى مـــدير البنـــك يقول فيها : إن تخريب المقبرة والمدرسة أمر غير مشروع فى أى قـــانون، ولـــن أسمح بأن تكون تلك الأرض فى حوزتكم، وإقامة بناء فى هذا المكان هـــو إتـــلاف لأموالكم". فرد عليه المدير قائلاً : اشتريتها من مستشار التجار، وهو يملك أوراقـــا موثقة ومعتمدة ".

بعد ذلك كتب طباطبايى رسائل إلى وزير الخارجية مشير الدولة، ووزير الداخلية مشير السلطنة، وأظهر استياءه هو والشعب من هذه الحادثة وأضـــرارها،

وأجابا كل منهما عليه : هذه الأرض ملك لجماعة من الأجانب، اشتروها عن طريق أحد كبار العلماء، ووافقت وزارة الخارجية على ذلك، ولم يبق لا للدولة ولا لغيرها مجال للكلام، وأرسلوا نسخة من العقد الذى أخذوه من الحاج الشيخ فضل الله إلى طباطبايي. فرد عليهم ثانية : إن عملية البيع والشراء هذه مخالفة للشرع، وقد سبق لنا أن أحطنا البنك علمًا بذلك.

ومضى الحديث على هذا النحو، وبلغ هذا الخبر النجف، وهناك أبدى بعض العلماء استياءهم، لكن البنك لم يلق بالاً، وكان ما يقرب من مائتى شخص من العمال والبنائين يواصلون العمل ويرفعون البناء.

وقد ردد طباطبايي هذا الحديث عدة مرات وأبدى شكواه وتذمره، حقيقة أنه كان يتحين الفرصة من تلك الحادثة حتى يدفع بالناس ثانية إلى انتفاضة، ويتقدم خطوة فى طريق تحقيق بغيته، ويمكن الظن بأن قدوم بهبهانى إلى دار طباطبايى (فى ليلة الخامس والعشرين من شهر رمضان)، وذلك الحديث السرى الذى دار بينهما، كان بخصوص هذا الموضوع.

كان البنك منهمكًا فى رفع هذا البناء، وهما مشغولان برسم خطة لهدمه، وكان المرحوم ميرزا مصطفى آشتيانى (الابن الأصغر لميرزا آشتيانى أحد المجاهدين الذين قدموا لتنفيذ أعمال بهبهانى وطباطبايى)، حاد الذكاء، عاقلاً محنكًا، كما كان كريمًا، وكان يظهر مهارة فائقة فى إثارة الشعب وحثهم على القيام بمثل هذا العمل. ولما كان مسجد خازن الملك والمدرسة التابعة له – وهما يقعان بجوار مبنى البنك المنشأ حديثًا– وكذا الطلاب هناك وكذلك سكان المناطق المحيطة بهما فى حوزة أسرته، لذا كان لهذا الشاب، اهتمام بهذه الحادثة أكثر من أى شخص آخر، وكان يقوم بمعظم الجهود فى هذا العمل.

فى العشرة الأواخر من شهر رمضان، وذات ليلة، قدم حارس سيدولى (متولى) إلى دار طباطبايى وأخبره بأنهم يحفرون المقبرة اليوم، وظهرت عظام امرأة من تحت الثرى، وقد علم أنها أودعت الثرى منذ عام، ولم يكترث الحفارون، وألقوا بعظامها فى البئر التى حفروها لإلقاء عظام الموتى فيها، فقام خدام الضريح وطلبة المدارس بثورة، واندفعوا إلى هناك، وأبعدوا العمال عن عملهم، وفى الغد أيضًا تأجج الصراع وكادت أن تحدث الفتنة. فأجاب المرحوم طباطبايى : الزموا الصمت، ولا تقدموا على أى عمل، حتى نجد حلاً، ونمنع وقوع تلك الفتنة.

وفى غد ذلك اليوم حيث كان الخوف من الفتنة ساريًا، فإذا بحاكم طهران وإدارة الشرطة يرسلون بعضًا من السعاة ورجال الشرطة إلى هناك، كما أرسل ميرزا مصطفى رسالة إلى مدير البنك يقول فيها إن حل هذا الأمر ليس فى يد السعاة ولا الشرطة، وأن العنف لا يجدى.

وفى الثالث من شهر آذر (السادس والعشرين من شهر رمضان) حيث كانت الجمعة الأخيرة من شهر رمضان، وفى مثل ذلك اليوم تكون المساجد مزدحمة بالمصلين- صعد حاجى شيخ مرتضى آشتيانى على المنبر فى مسجد خازن الملك وأعاد الحديث عن حفر المقبرة وإقامة المبنى، وانخرط فى الشكوى والعويل طويلاً. ومع ما للمسلمين من ارتباط بالمقبرة، وما يكنونه للعلماء من تقدير، كان لهذه الشكوى ولذلك النواح عظيم الأثر فى القلوب، وتهيأ الناس للانتفاضة. وفى ليلة ذلك اليوم، انعقد مجلس فى دار الأشتيانيين فى حضور السيدين وغيرهما، ودبرت الخطة، وأخذ ميرزا مصطفى على عاتقه مهمة هدم مبنى البنك الذى كان قد تم بناء نصفه.

وفى الغد، السبت الرابع من شهر آذر (السابع والعشرين من شهر رمضان) رأت طهران نفسها فى وضع عجيب قل نظيره، وهو أنه فى اللحظات الأخيرة صعد حاجى الشيخ محمد واعظ المنبر فى حضور حاجى الشيخ مرتضى ودار حديثه ثانية حول مسألة البنك. ولكن فى البداية، وطبقًا لأسلوب رجال الدين ساق الحديث عن تحريم الربا وتحريم الإعانة على الكفر وما أشبه ذلك، وتحدث بعد ذلك عن حفر المقبرة وإنشاء مبنى البنك، وقال فى نبرة أهل العلم : إن السادة العلماء قدموا شكواهم وأعلنوا سخطهم على الدولة فيما يختص بهذا الأمر دون جدوى، لكننا نأمل أن يكتبوا عريضة لصاحب الجلالة مظفر الدين شاه فربما تحرز نفعًا. وعلى هذا النحو تهيأ المجال، وقال : فعلاً إن ما عزمنا عليه من عمل هو أن تتعبوا أنفسكم بأن تخطوا خطوتين لزيارة أمواتكم وأجدادكم، وأن تودعوا قبورهم وعظامهم الوداع الأخير، وتقرأوا الفاتحة عليهم لتسعدوا أرواحهم. قال لهم هذا، وهبط من على المنبر، ووقف أمام الناس، وولى وجهه ناحية مبنى البنك الذى تم بناء نصفه. وما أن رأى ما يقرب من مائتى عامل وبناء – وقد كانوا منهمكين فى عملهم – قدوم الناس، حتى كفوا عن العمل وولوا هاربين، ولم يمنعهم أحد.

وعندما وصل هذا الجمع من الناس فإن الطلبة وأتباع السادة وغيرهم – الذين حشدوا لهذا العمل – مدوا أيديهم وقاموا بحفر المبنى وهدمه. وعندما رأى الناس مثل هذا الأمر لم يتوقفوا واتجهوا جميعًا لتدمير المبنى رجالاً ونساء، صغارًا وكبارًا وثارت الفتنة وارتفعت الضجة على نحو عجيب. وخلاصة الحديث: لم تمض ساعتان حتى كانوا قد هدموا ذلك البناء عن آخره ولم يتركوا أثرًا له فيما عدا الآجر والشدات الخشبية والمعدات المبعثرة.

وقال بعض الناس : إن ميرزا مصطفى أعطى لأربعين رجلاً وعشرين امرأة ثلاثة طومانات كأجر لكل منهم، وأعدهم لإنجاز هذه المهمة.

على هذا النحو نفذ السيدان ومعاونوهما ما اتفقوا عليه بقوة الموازرة وطهر النيات. إن منع العمران وتدمير مبنى تم بناء نصفه ليس شيئًا نحبذه، ولكن في هذه الواقعة، وفى طريق الجهاد الذى سلكه السيدان باسم شعب إيران ما يستحق المدح والثناء. وقد زاد هذا العمل من قيمتهما وقوتهما وأعطى للناس دفعة أخرى. ولكن من ناحية أخرى نجد أن وقعه اشتد على حاجى شيخ فضل الله الذى باع الأرض إلى البنك وكان يعد منافسًا وخصمًا للسيدين وسقطت هيبته كثيرًا عند الناس، كما سقط بعض رجال الدين من أنظار العامة أيضًا.

كتب البنك يشكو إلى الدولة وطلب الإنصاف، وقيل إن الإنفاق على المبنى بلغ عشرين ألف طومان، فأصدر الشاه أوامره بأن يعوضوا البنك عن خسارته، ولا شأن للعلماء بهذا. ولم يتخل المجاهدون عن جهادهم، وبسطوا ألسنتهم في تلك الأيام التى بقيت من شهر رمضان بذم أنانية عين الدولة وسوء نياته وعدم مبالاته وظلم حكام المدن.

إن سلوك نوس الشائن وسوء نيته هو وغيره من البلجيك، وظلم شعاع السلطنة فى فارس، وضرب ظفر السلطنة أقدام حاجى وميرزا محمد رضا بالعصى فى كرمان؛ كل هذا كان يأتى متواليًا. وأثناء ذلك وقع فى قزوين حدث آخر وهو أن الحاكم سلك سلوكًا سيئًا مع أحد رجال الدين، ووقع مثل هذا الحادث فى سبزوار كذلك، وزيدت هاتان الحادثتان على ما سبق ذكره.

ضرب علاء الدولة أقدام التجار:

انتهى شهر رمضان، وخلت المساجد، ومال العلماء للصمت طوعًا أو كرهًا، ولكن أثناء ذلك حدث تصرف أحمق صدر من علاء الدولة حاكم طهران، شجعهم – أى رجال الدين – على العمل ثانية، وفتح أمامهم الطريق مجددًا للجهاد.

وكيفية ذلك أنه فى هذه الأيام ارتفع سعر السكر فى طهران وغيرها من المدن، ووصل سعره من خمسة قرانات إلى سبعة قرانات، وكان يقال إن السبب فى هذا هو نشوب الحرب بين الروس واليابان، وظهور الفتنة، وعدم الاستقرار فى روسيا، وكان السكر يرسل من روسيا إلى إيران. وأراد علاء الدولة حاكم طهران – الذى كان رجلاً متكبرًا شديدًا – أن يجبر بائعى السكر على تخفيض ثمنه، وأنجز هذا الأمر بالعنف والسلوك الشائن.

حقيقة أن عين الدولة عندما استاء من قصة لجوء التجار إلى عبد العظيم ومن تلك الأحداث، كان يريد أن يقتص منهم، ويخيف العلماء، فما كان إلا أن قام علاء الدولة بهذا العمل بأمر منه. وفى يوم الاثنين العشرين من شهر آذر (الرابع عشر من شوال) استدعى سبعة عشر تاجرًا إلى مقر الحاكم، وبالرغم من أن بعضهم لم يكونوا من تجار السكر، وبينوا هذا فى الرد على علاء الدولة، إلا أنه لم يلق إليهم سمعًا، وأمر أن يقيد بعضهم بعضًا وأن يضربوا أقدامهم بالعصى .

أثناء ذلك أحضروا حاجى السيد هاشم قندى أحد تجار السكر، وكان رجلاً طاعنًا فى السن خيرًا ومهابًا، أقام ثلاثة مساجد فى طهران وبعض الأبنية الأخرى فى وجوه الخير. فسأله علاء الدولة بحدة : لمَ رفعت ثمن السكر ؟ ... فقال حاجى السيد هاشم : إن السكر يقل بسبب نشوب الحرب بين الروس واليابان، ومع ذلك فهو فى طهران أرخص منه فى المدن الأخرى. فقال له : يقولون إنك احتكرت السكر. قال إننى لم أحتكر السكر، بل أشتريه من تاجر آخر. وإذا ما كنت قد تعاقدت عليه فى فترة الحرب والفتنة هذه، لما أمكن إنجاز أى شىء. فقال : فلتكتب إقرارًا تنص فيه أن تبيع السكر بأثمانه السابقة. قال : لا يمكننى أن أكتب مثل هذا الإقرار، ولكنى أمتلك مائة صندوق من السكر، أهديها إليكم، ولا أشتغل بعد ذلك بالتجارة. أثناء ذلك، دخل سكرتير سعد الدولة وزير التجارة، وهمس فى أذن علاء

الدولة قائلاً : إن حاجى السيد هاشم من التجار الشرفاء الفضلاء، وقد أرسلنى وزير التجارة حتى أطلب أن يعامل معاملة لائقة.

اضطرب علاء الدولة من هذه الرسالة، وتملكه غضب شديد عندما علم أن حاجى مير على تقى ابن حاجى السيد هاشم مضى إلى وزير التجارة. وفى هذا الوقت، أحضروا حاجى السيد إسماعيل خان الذى كان قائدًا للمدفعية ومن تجار السكر أيضًا، ولم ينحنِ (لم يُعظّم) تبعًا لأسلوب رجال البلاط عند دخوله الحجرة واكتفى بالسلام كالآخرين. وزاد سلوكه هذا من حنق عين الدولة، وأمر أن يقيدوه هو وحاجى السيد هاشم ويقوموا بضرب أقدامهما بالعصى، ولما لم يتحمل ابن حاجى السيد هاشم هذا الموقف ألقى بنفسه تحت قدمى أبيه، فأمر علاء الدولة أن تفك أقدام هذين الشخصين ويقيدوا قدميه فى هذه المرة، ويضربوه على قدميه خمسمائة ضربة بالعصى.

ولما بسطت مائدة الطعام فى ذلك الوقت، حيث كان الإعداد لوجبة الغداء، جلس علاء الدولة على رأس المائدة، وأجلس من ضربوا على أقدامهم على نفس المائدة، وبعد تناول الغداء قام باحتجازهم رغبة منه فى أن ينال منهم إقرارًا بالقوة بخصوص تخفيض أسعار السكر.

ولكن أثناء ذلك، وفى خارج المقر، عم الاضطراب المدينة، وأغلق الناس الأسواق تأييدًا للتجار. وحينما وقف مشير الدولة وزير الخارجية على جلية الأمر، أراد أن يحول دون ذلك، وأرسل شخصًا واستدعى حاجى السيد هاشم وغيره، واسترضاهم وأظهر تعاطفه معهم، واعترف بسوء سلوك عين الدولة، ولكن هذا الحل جاء متأخرًا، وعم الاضطراب المدينة حتى ذلك الوقت، وحدث ما لا ينبغى حدوثه.

وأبدى عين الدولة عدم اكتراثه، وكان واضحًا أن ما حدث كان بأمر منه، فمضى إليه سعد الدولة وزير التجارة وأبدى استياءه الشديد لأن علاء الدولة حاكم طهران تدخل فى أمور التجارة. فأجاب عين الدولة قائلاً: لقد كان بإذن منى.

حادث مسجد الشاه :

سبق أن ذكرنا أن تجار طهران كانوا على صلة بالسيدين وأتباعهما، وتضامنوا معهما فى جهادهما، وكان كل منهم متحمسًا لبذل العون للآخر. وعندما سمعوا بسوء سلوك علاء الدولة، وضرب أقدام حاجى السيد هاشم وغيره بالعصى، أغلقوا الأسواق فى اللحظات الأخيرة، واتجهوا إلى مسجد الشاه، وقاموا هناك بالشغب والضجيج، وما من شك أن هذا التصرف كان بعلم من السيدين.

مر ذلك اليوم على هذا النحو، وليلاً استدعى إمام الجمعة بعض رؤسائهم إلى داره، وأظهر تعاطفه معهم، وبين لهم أنه فى معيتهم، وقال: " إذا كان اليوم هو الأخير لإغلاقكم الأسواق فإن كثيرين من الناس لم يعرفوا حقيقة الأمر. لذا وجب العودة إلى إغلاق الأسواق غدًا، ودعوة العلماء إلى المسجد حتى ينجح هذا المسعى بالتضامن ".

كان التجار يريدون القيام بمثل هذا العمل، فزادتهم أقوال إمام الجمعة حماسًا، وفى الغد لم يفتحوا الأسواق، واحتشد جمع عظيم فى مسجد الشاه، وفى اللحظات الأخيرة أرسلوا فى دعوة العلماء، فجاءوا جميعًا عدا حاجى شيخ فضل الله الذى لم يتوجه معهم، وكان إمام الجمعة حاضرًا يرحب بالجميع.

ومن الواضح أن الهدف من هذا كله هو أن يفضح السيدين، وأن يقطع خيط جهادهما، وكان هذا التصرف بعلم عين الدولة، وقد كتب هذا، واتضح أمر

هذه القصة، وكان إمام الجمعة والحاج الشيخ فضل الله وغيرهما يحاولان منع تقدم السيدين، والحيلولة دون تجمع الناس حولهما، وفى عالم المنافسة التى كانت بين أفراد هذه الطائفة، كان إحراز التقدم لأحدهم ذا وقع شديد على الآخرين، وهكذا لم يستطيعوا منع أنفسهم عن الحقد والضغينة فضلاً عن هذا فقد كان بين إمام الجمعة وبهبهانى أحقاد وضغائن، وقد ورد خبر هذا فى تاريخ بيدارى.

بعد هذا كله فقد كان يدرك أن التعاون مع صدر الدولة الأعظم ومودته معه سيجنى من ورائه فوائد كبرى، وسوف نشاهد ما جناه إمام الجمعة من نفع بسلوكه هذا الطريق. وفى الخفاء كان حاجى الشيخ فضل الله على علم بالأمر وإن تظاهر بعدم علمه، لذا لم يأت إلى المسجد، ولكن قدم الآخرون، وجلسوا وتباحثوا فيما بينهم، واقترحوا أن يكون جزاء السلوك السيئ لعلاء الدولة أن يطلبوا عزله من حكومة طهران ويطلبوا كذلك من الشاه أن يعقد مجلسًا للتحقيق فى مظالم الشعب. وكان السيدان وأتباعهما يعلمان جيدًا أن عين الدولة لن يقبل هذا، ولم تكن رغبتهم سوى إعلان الحرب عليه وإثارة الناس ضده.

وحينما قرروا هذا شاعوا أن يعتلى أى واعظ المنبر وينقل للناس هذا الحديث. وكان السيد جمال الدين الإسپهانى قد عاد إلى طهران منذ بضعة أسابيع، وكان يعتلى المنبر فى مسجد الشاه، وكان هو الآخر يبدى تعاطفه مع الشعب، ويلقى خطبًا متميزة ويبدى استياءه من عين الدولة وغيره. لذا اختاروه لاعتلاء المنبر. ولم يقبل السيد جمال الدين. فأصر إمام الجمعة لافتًا نظره بكيفية بدء الحديث، وما يقوله، وإلى أية غاية يهدف الكلام.

وتوجس البعض شرًا من تعاون إمام الجمعة مع هذين السيدين، واهتمامه بشئون الناس، وبتعاطفه على هذا النحو الذى أبداه، وقالوا لبهبهانى : " إن هذا يدل

على أنه له مأرب آخر، وينبغى التيقظ ". إلا أن بهبهانى لم يأبه بهذا وقـال : "ما شاء الله يكون".

وقبل دخول الليل اعتلى السيد جمال الدين المنبر، وجريًا على عادة الوعظ استهل الحديث بآية من القرآن، ثم قال : " إن السادة الحضور هنا هم مشايخ الدين وخلفاء الأئمة، قد أصبحوا جميعًا يدًا واحدة، ويريدون اقـتلاع شـأفة الجـور. إن جماعة المسلمين والعلماء كافة فى معيتهم، وكل عالم من العلماء ليس هنا مـا لـم يكن متعاونًا معهم، فلن يعود عدم تعاونه بضرر عليهم (يقصد حاجى الشيخ فـضل الله) ". بعد ذلك ذكر سلوك علاء الدولة الشائن مع التجار، وامتد به الحديث إلى أن قال : " إذا ما كان صاحب الجلالة ملك الملوك مسلمًا فليعلن أنـه متـضامن مـع العلماء، وسوف يلقى السمع إلى ما يقدم إليه من مطالب العلماء النزيهة .. وإلا لـو .. " [1].

لم يسمح له إمام الجمعة أن يواصل كلامه وصاح قـائلاً : " أيهـا الـسيد المارق، يا عديم الدين، لقد أهنت الشاه. أيها الكافر، أيها البابى، لمَ تذم الشاه " ؟

وظل السيد جمال الدين أعلى المنبر فى حيرة من تصرفه على هذا النحو، وأخذ العجب من الحضور كل مأخذ. وتمالك السيد جمال الدين نفسه وقال : " إننى لم أنل الشاه بمهانة. وقلت : وإلا إذا كانت الكلمة واضحة فأى معنى لها ؟ " ولكـن لأن إمام الجمعة كان يبغى شيئًا آخر، فلم يلق إليه سمعًا، وصاح قائلاً : " أنزلـوا هذا البابى، اضربوه .. أين أنتم أيها الأولاد؟.." وما أن تفوه بهذه الجملة حتى اندفع

---

[1] هذا نص "تاريخ بيدارى"، وهؤلاء الذين كانوا من مؤيدى إمام الجمعة كتبوا أنه قال: " إذا كان رجال الدولة يرتضون ارتكاب مثل هذا النوع من الأعمال، ويعاونون فى تأسيس صرح الظلم، ويعلمون أن هذا الأمر منوط ومربوط برضى ملك الإسلام. ومثل هذا الملك لا لزوم له على أى وجه كان ". (المؤلف).

خدامه وخدام الدولة – الذين كانوا قد احتشدوا من قبل – بين الناس ومعهم العصى والمسدسات، كما كانت البنادق مع بعضهم، فى نفس الوقت حرك بعض الأشخاص عربات [٢] فى رواق المسجد، وظن الناس من قعقعة عجلاتها أنهم يأتون بالمدافع. وحينما دخل الظلام لم يكونوا قد أشعلوا مصابيح المسجد، وفى جوف هذا الظلام فإن ضجيج الخدام وكذلك قعقعة العربات مما أوقع الناس فى الحيرة والاضطراب، وهرب جمع منهم فزعًا، واضطرب الحال فى المسجد دفعة واحدة. ولزم السيدان وغيرهما المكان، وصاحا فى أنصارهما : "لاتمدوا أيديكم إلى شيء ". أثناء ذلك قال البعض لطباطبايى : " لعل إمام الجمعة يريد أن يلحق الأذى بالسيد بهبهانى ". فأمر طباطبايى المحيطين به أن يلتفوا حول بهبهانى ودفعوا به إلى الخارج. ولما كان من يحمل حذاء طباطبايى قد ولى هاربًا، فقد مضى إلى داره حافى القدمين بصحبة بعض الأشخاص. أما السيد جمال الدين الذى نزل من المنبر فقد انزوى فى ركن من المسجد خوفًا على حياته، ولكن أولاد طباطبايى أدركوه وحملوه إلى دارهم.

وبهذه الكيفية أحكم إمام الجمعة خطته، وصنع صنيعًا فى مصلحة الدولة وعين الدولة. حيث فرق أتباعه كى يضربوا السيدين وغيرهما. وقد رأيت رسالة كتبها أحد المحيطين بحاجى الشيخ فضل الله إلى شخص آخر معتبرًا هذا الحدث انتصارًا لهم. حيث يقول : " لقد نفذ صبر إمام الجمعة وأمر أن يسحبوا السيد جمال الدين الواعظ من أعلى المنبر، وعرضوه للضرب. وأثناء ذلك ضرب كل من جناب آقا السيد عبد الله وجناب آقا السيد محمد وآقا السيد أحمد وغيرهم ضربًا مبرحًا ". ولكن هذا يعارض الصحة، وما زال مئات الأشخاص ممن كانوا حاضرين فى هذه الليلة على قيد الحياة، ويعلمون الخبر.

---

[٢] هى عربات تستخدم لتنظيف الأماكن المتسخة بالمسجد. (المؤلف).

ومضى المرحوم بهبهاني - الذى حملوه خارجًا إلى مدرسة خان مروى- والتف حوله صدر العلماء وبعض الأشخاص. ومن ناحية أخرى مضى السيد جمال الدين افجه اى وحاجى الشيخ مرتضى وغيرهما إلى طباطبايى. أثناء ذلك إذا بمؤيدى أمين السلطان- الذين كانوا يأملون نفعًا لهم من وراء تلك المساعى - يسارعون بالذهاب إلى بهبهانى وطباطبايى ويمنحونهما تأييدهم.

كانت طهران تقضى ليلة تاريخية، ففى هذه الليلة انعقدت المجالس فى مئات الأماكن والجميع يفكرون فى الغد. لقد لحقت الهزيمة بالمجاهدين، وكان واضحًا أن عين الدولة وأتباعه سوف يتابعون نصرهم ومن الغد سوف يقع العديد من الأحداث، وكان واضحًا أيضًا أنهم لن يستطيعوا الصمود بهذا الضعف.

وفكر المرحوم طباطبايى فى حل صائب، وهو عدم البقاء غدًا فى المدينة، واللجوء إلى عبد العظيم، وقال للذين كانوا فى داره : " الآن وقد وصل الأمر إلى هذا الحد فسوف نتحرك على الفور، وأن نرجئ إنجاز العمل الذى كنا نريده لمدة ثلاثة أشهر، ولو بقينا غدًا فى المدينة، فسيحرض عين الدولة إمام الجمعة والناس للقيام بأى عمل، وربما وقع العراك بين أتباعنا وأتباع إمام الجمعة، وعلى ذلك ينشأ الصراع الحيدرى والنعمتى، وكذلك تقوم الحرب بين المحلتين. وتضيع رغباتنا هباء. ومن ناحية أخرى فإن للتجار دورًا فى هذا، وإذا ما لم نظهر تأييدنا لهم فهذا مما لا يجوز، وإذا أيدناهم فسيقولون إننا كنا نريد إنقاص سعر السكر إلا أن رجال الدين لم يرتضوا هذا، وبهذا العذر سوف يرفعون أسعار الأطعمة، وسوف يلقون القبض على الكثيرين بحجة استقرار المدينة والحيلولة دون وقوع الفتنة، وسوف يطردونهم من المدينة. إذن من الأفضل ألا نتواجد فى المدينة لعدة أيام، وأن نمضى إلى عبد العظيم.

وقبل الحاضرون جميعًا هذا الاقتراح، وأرسلوا رسالة إلى بهبهانى، وقضوا الليلة على هذه النية. وكان ينبغى على السيد جمال الواعظ أن يتوارى وألا يظهر للناس. فأخذه ناظم الإسلام كرمانى (مؤلف تاريخ بيدارى إيرانيان) ليلاً إلى داره.

أما جريدة الحبل المتين فقد كانت تؤيد عين الدولة وتمتدحه، وكان أخو صاحبها سيد حسن قد ربط نفسه بعين الدولة فى طهران فى خدمته له، إلا أنه - صاحب الحبل المتين - مال إلى الصمت إزاء هذه الأحداث التى كانت تتعاقب فى طهران خلال شهر واحد، وبعد عدة شهور حيث كان مضطرًا للكتابة عن تلك الأحداث، كان يذم العلماء فى سفاهة وحمق بلسان (المراسل الصحفى) له فى طهران. (مما لا شك فيه أن هذا المراسل الصحفى كان أخاه)، ولما وصل إلى سرد هذه الحادثة نجده يقول :

" على كل حال فقد اجتمع الناس، وأخرجوا العلماء عنوة من ديارهم واحتشدوا فى مسجد الشاه، و كان الناس حتى غروب الشمس فى عراك من كل جهة، واندفعوا إلى ديار العلماء، وكلما وجدوا أحدًا أخرجوه من داره، وأحضروه إلى مسجد الشاه، ولم يبد معظم العلماء الرغبة فى مشاركة الناس هذا الأمر، ومن هؤلاء : آقاى السيد ريحان الله وآقاى الشيخ فضل الله وغيرهما. وفى النهاية تصاعد الأمر، واستعد الرجال لإثارة الناس مرة واحدة، وإحراق ديارهم، ومعاداة الدولة علانية.

وبالبديهة لم تقف الدولة مكتوفة اليدين. وهكذا صار الفقراء والضعفاء موطئًا للأقدام، والأطفال يتامى، والنساء أرامل، حيث عاث المفسدون وفقًا لهواهم.

أما الأجانب - الذين كان لهم ضلع فى هذا الأمر - فقد كانوا يكتمون ضحكاتهم، وإذا بفضل الله يبدو، وها هو إمام الجمعة ينتحى حاليًا جانبًا وبإشارة

واحدة منه يتفرق الناس الذين يجمعهم بآهة ويفرقهم بنفحة. وفى اليوم التالى فتحت الأسواق فى وقت مبكر أكثر من أى يوم آخر، وشغلوا بكسب العيش. وكأن شيئًا لم يقع بالأمس ولا خبر عنه. ولكن بقى فقط بعض العلماء وجمع من المريدين وبعض التجار وعدد من الطلاب، توجهوا فى النهاية إلى الزاوية المقدسة لحضرة عبد العظيم، فليصلح الله بكرمه مفاسد أمور المسلمين ... ".

هذا مثال يخبر بوجود من فسدت ضمائرهم فيفرغون على كل شىء لونًا آخر، وكيف يظهرون أنفسهم أتقياء يريدون خير الناس وهم أشرار فى قرارة نفوسهم.

ذهاب المجاهدين إلى عبد العظيم :

فى يوم الأربعاء الثانى والعشرين من شهر آذر (السادس عشر من شهر شوال) كان المجاهدون يخرجون من طهران الواحد تلو الآخر متجهين إلى عبد العظيم، وكان من بين العلماء : بهبهانى وأسرته، طباطبايى وأسرته، الحاج الشيخ مرتضى، صدر العلماء، السيد جمال الدين افجه اى، ميرزا مصطفى، الشيخ محمد صادق الكاشانى، والشيخ محمد رضا القمى.

وكانوا يمضون فى أعقاب بعضهم البعض راكبين عربات أو على ظهور الخيل، وفى أول الأمر لم تشأ الدولة السماح لهم بذلك، ووقف خدم إمام الجمعة وسعاة الدولة أمام البوابة، محاولين منعهم، وانتهى الأمر بالصراع والعراك وإطلاق الرصاص، وضرب السعاة من يسمى مدير الذاكرين، وخشية من بلوغ هذا الخبر إلى المدينة، وإغلاق الناس الأسواق ثانية، أرسل عين الدولة أمرًا بألا يمنعوهم.

وعلى هذا النحو خرج المجاهدون من المدينة، وانضمت إليهم جماعات أخرى، ومن ناحية أخرى أمر عين الدولة بالعمل على حث التجار على فتح الدكاكين، وإذا ما امتنع شخص عن فتح دكانه أغاروا على متجره. وجاء السعاة إلى السوق، وفتحوا الدكاكين عنوة، ونهبوا سلع أحد المحال أو اثنين أظهر أصحابهما المقاومة.

وكان عين الدولة يريد أن يبدى عدم مبالاته بالمجاهدين جميعًا، وأن ينجز مهامه بالعنف. وحاول بعد خروجهم أن يثير إمام الجمعة والشيخ فضل الله بالهبات والعطايا، وأنه لن يترك مسعاهم دون مكافأة. وإذا بمدرسة خازن الملك ومدرسة خان مروى اللتين آلت ولايتهما إلى الحاج الشيخ مرتضى، يمنح إحداهما إلى ملا محمد آملى (يقال إنه كان يتولى الإشراف عليها فى بادئ الأمر وأن الحاج الشيخ مرتضى أخذها منه عنوة)، وأحال الأخرى إلى إمام الجمعة. أما بابويه – التى كانت ولايتها مسندة إلى صدر العلماء– فقد وهبها إلى إمام الجمعة كذلك. ومسجد ومدرسة سپهسالار – التى كانت لبهبهانى – منحها لميرزا أبى طالب الزنجانى. وعلى هذا النحو منح كلاً منهم مكافأة سخية.

فى هذه الأيام أيضًا صار إمام الجمعة صهرًا للشاه، أما موقر السلطنة – الذى كان على صلة بالأحرار وعرف بخصومته للشاه – فقد ألقوا القبض عليه بإذن من محمد على ميرزا، الذى أصبح نائبًا للسلطنة فى فترة سفر الشاه الأخير إلى أوربا، واحتجزوه وطلقوا زوجته عنوة، واعتبر رجال الدين هذا الطلاق باطلاً، وقالوا : " لا يمكن أن تتزوج غيره ". وقاموا بذم حاجى الشيخ فضل الله الذى أتم هذا الطلاق. وفى هذه الفترة زوجوها لإمام الجمعة وقام حاجى الشيخ فضل الله بإتمام عقد الزواج أيضًا.

هذه هى أحداث طهران. أما فى عبد العظيم فبعد مضى المجاهدين إلى هناك، سارع طلبة مدرسة صدر ومدرسة دار الشفاء – على الرغم من أنهما خاضعتان لإشراف إمام الجمعة – بالانضمام إليهم، ثم تبعهم طلاب آخرون.

وانضم إليهم كذلك العديد من الوعاظ، فى حين لم ينضم من التجار سوى عدد قليل. وبصفة عامة تجمع منهم ألفان. وكان حاجى الشيخ محمد والشيخ مهدى الواعظ يعتليان المنبر أيامًا ويخطبان فى الناس. وكان الحاج محمد تقى بنكدار وأخوه حاجى حسن يدفعان ما يحتاجانه من نفقات، وذلك من الأموال التى كانت تحصل من التجار وغيرهم.

وكما ذكرنا سالفًا إن مؤيدى أمين السلطان تعاونوا معهم وأمدوهم بالأموال أيضًا (على حد قول براون أعطوهم ثلاثين ألف طومان).

فضلاً عن ذلك، مال إليهم بعض من الأمراء ورجال البلاط كل منهم بدافع خاص به، وكانوا أيضًا يرسلون إليهم الأموال فى هذه الفترة. وكذلك سالار الدولة ابن الشاه الذى كان فى ذلك الوقت حاكمًا على كردستان، وذلك طمعًا فى ولاية العهد، وقد أحضر الحاج ميرزا نصر الله ملك المتكلمين الإسبهانى إلى طهران لتحقيق رغبته هذه، وقد دفع بعض الأموال كى يوزعها العلماء فيما بينهم، وكما ورد فى "تاريخ بيدارى"، بأن طباطبايى قد أوصل أربعمائة طومان، وذكر براون أن محمد على ميرزا – الملك الجديد – قد أرسل أموالاً هو الآخر ولكن لا علم لنا بذلك.

وكانوا يزدادون عددًا وقوة يومًا بعد يوم، واتفق أن حدث أمر عجيب وهو أن الشيخ مهدى ابن حاجى الشيخ فضل الله انفض عن أبيه وانضم إلى بعضهم. ولما رأى عين الدولة تقدم مسعاهم، تملكه الخوف، وأخذ يبحث عن حل على هذا

النحو حيث أرسل من يسمى سالار أسعد إلى عبد العظيم مع بعض الفرسان وفرقة من الجند ليكونوا فى حراستهم، ومن ناحية أخرى أراد أن يفرق بين صفوف رؤساء المجاهدين بمنح الأموال، وأرسل رسالة إلى طباطبايى بأن ينفصل عن بهبهانى ويعود إلى المدينة على أن يدفع له عشرين ألف طومان، إلا أن طباطبايى لم يأبه بهذا.

بعد ذلك عزم على أن يخرجهم بالحيلة والخداع من هناك، وأن يرسل كل واحد منهم إلى مكان بعيد، ولإنجاز هذا الأمر أرسل أمير بهادر جنگ. وفى يوم اشتد برده، قدم إلى عبد العظيم مع مائتى فارس وعدة مركبات وعربات نقل، وجمع العلماء وقال : "أرسلنى الشاه حتى أحضركم إليه كى تتباحثوا معه شخصيًا، واطلبوا منه ما تريدون، وأنا لا أقصر فى السعى لمعاونتكم". إلا أن العلماء لم يستحسنوا قدومهم. فقال أمير بهادر: " إننى مضطر أن أمضى بكم من هنا ولو أدى الأمر إلى تخريب هذا المكان وقتل بعض الأشخاص ". وأثناء ذلك وقعت مشادة بينه وبين افجه اى، وحينما ذكر افجه اى اسم الشاه بالسوء، فإذا بالأمير بهادر بخداعه المعروف يتظاهر بالغضب لسب الملك فيرفع عقيرته صائحًا ويخر مغشيًا عليه، ويغيب عن الوعى.

ومن ناحية أخرى فإن حاجى الشيخ مرتضى تملكه الفزع من هذا الصياح وتلك الضجة وفقد وعيه .

وقامت ضجة عظيمة، وجاهد حتى أمكنه فى النهاية إحضار الاثنين معه، إذ حدث بعد التباحث أن لان جانب السيدين ووافقا على أن يجلسا فى المركبة ويمضيا إلى المدينة. ولكن أثناء ذلك أفصح بعض أتباع الأمير بهادر عن حقيقة الأمر، وطلبوا من بعض رفاقهم إبلاغ عين الدولة بجلية الأمر. فما كان أن ثار

أبناء طباطبايى وغيرهم، وأوقفوهم ومنعوا ذهابهم. وعاد الشغب ثانية بينهم، واختلط النساء والرجال من كل طائفة، ووقفوا أمام الفرسان، وأغلقت ساحة عبد العظيم بسبب هذا الشغب والصراخ والضجيج، وتجمع الناس جميعهم فى الصحن، وزاد العراك .

وعندما شاهد أمير بهادر هذا الوضع لم يتشدد معهم، وعزم على أن ينجز عمله ليلاً بعد أن يتفرق الناس، وقال للعلماء : " إننى ذاهب، وعليكم أن تفكروا فى الأمر حتى يدخل الليل لعل الأمر يمضى بسلام". قال هذا وخرج.

ومن ناحية أخرى، عندما وصلت أنباء هذا الحادث إلى طهران تليفونيًّا، عمت الفتنة وكثر اللغط، وعزم الناس على إغلاق الأسواق والقيام بثورة، لذا ما أن وقف الشاه على حقيقة ما وقع، حتى أمر الأمير بهادر تليفونيًّا بالعودة.

لقد ضاعف ما حدث من قوة وصمود المجاهدين، وانضم إليهم كذلك بعض الأشخاص من المدينة. وأرسل عين الدولة رسالة قال فيها : "أرسلوا واحدًا من طرفكم كى يتباحث مع الشاه ويبلغ مطالبكم إياه". فقبلوا هذا، ولكن كلما حددوا شخصًا احتج عين الدولة ورفض، حتى اختاروا السيد أحمد طباطبايى (أخو المرحوم طباطبايى) فقبله عين الدولة وأرسل مركبة وحارسًا لإحضاره إلى المدينة، فركب مع أبنائه وقدموا المدينة، وفى أول الأمر تقابل مع عين الدولة ثم مع الشاه وتباحث معهما، ولكن عندما عاد إلى عبد العظيم ظن السادة فيه ظن السوء، ولم يكترثوا بمباحثاته التى أتمها، وعلم من بعد أنه كان على صلة بعين الدولة فى الخفاء.

لقد كانوا يريدون التباحث مع الشاه مباشرة، والمطالبة بعزل عين الدولة إلى جانب مطالبهم الأخرى، أما عين الدولة فقد كان يريد الوقوف فيما بينهم وبين الشاه بحيث يكون كل كلامهم معه هو.

وحدث أن فكر بعض الأشخاص فى حل آخر، وهو أن يوسطوا السفير العثمانى وأن يبلغوا مطالبهم إلى الشاه عن طريقه، وعندما تحدثوا مع السفير وافق، ومن هذا المنطلق جلس السادة، وتشاوروا فيما بينهم، وكتبوا مطالبهم على هذا النحو :

١- عدم وجود "عسكر گارچى" فى طريق قم. (أخذ هذا الرجل من الدولة امتياز تسيير المركبات ومركبات النقل فى طريق قم، وكان يعامل عابرى الطريق معاملة سيئة، ودامت شكوى علماء قم والطلبة هناك منه، وتظلموا عند علماء طهران وحينما أراد السيدان استرضاء علماءُ قم وطلابها، جعلوا هذا مطلبًا من مطالبهم).

٢- عودة حاجى ميرزا محمد رضا من رفسنجان إلى كرمان.

٣- عودة الإشراف على مدرسة خان مروى إلى حاجى الشيخ مرتضى.

٤- تأسيس محكمة فى كل مكان بإيران. (سوف نتحدث عن هذا الموضوع فيما بعد).

٥- سريان القانون الإسلامى على جميع سكان الدولة.

٦- عزل مسيو نوس من رئاسة الجمرك ووزارة المالية.

٧- عزل علاء الدولة من حكم طهران.

٨- عدم خصم أى طومان من المرتبات والأجور. (وكان هذا مقترحًا منذ عام).

أرسل السفير العثمانى هذا المنشور إلى مشير الدولة وزير الخارجية الإيرانى، وحمله الوزير إلى الشاه وقرأه عليه فى حضور عين الدولة. ولعل الشاه لم يكن حتى ذلك الوقت على علم بمطالبهم، فقال للسفير العثمانى: اكتب أن مطالب السادة قد قبلت، وسوف يعودون إلى طهران بكل تعظيم وإجلال وتحت الحراسة. ثم التفت إلى عين الدولة وقال: "أعد السادة تحت الحراسة".

قال عين الدولة : " سمعًا وطاعة، ولكن عودتهم متوقفة على إنجاز الاستعدادات خلال اليومين أو الثلاثة ". كانت هذه نتيجة وساطة السفير العثمانى.

ومضت الأيام على هذا النحو، وقضى المجاهدون أو المهاجرون أيامًا قارصة البرد فى ذلك المأوى. وقد جاء فى كتاب "آبى": "كتب المهاجرون مطالبهم بلغة بسيطة ومثيرة وطبعوها ووزعوها على الناس". ولكن لا علم لنا بهذا الأمر، وما نعرفه أنهم كانوا يبلغون مطالبهم للناس بلغة الوعاظ، فمنذ ذلك اليوم الذى خرجوا فيه كان يصعد فى كل يوم حاجى الشيخ محمد أو أى واعظ المنبر، ويستهل الحديث بآية أو بحديث جريا على عادة الوعاظ، وأثناء ذلك يسوقون الحديث عن ظلم الحكام وأنانية عين الدولة ومتاعب الناس. وحتى هذا الوقت لم يكن متداولاً بينهم مصطلح الحكم النيابى أو الحرية. ولكن للمرة الأولى، تحدث بعض الأشخاص بحرية عن مساوئ الدولة، وأبدوا تعاطفهم مع الجماهير.

موافقة الشاه على المطالب :

منح عين الدولة حكم "عبد العظيم" لابن أخيه أميرخان سردار. وكان واضحًا أن قدومه كان من أجل المهاجرين. وإذا بهم لم يمضوا لاستقباله، ولم يكترثوا به، فأرسل إليهم رسالة يقول فيها : " لقد جئت كى أعيدكم إلى المدينة، وإذا

ما سمحتم تباحثنا فى إتمام المهمة ". فقالوا : ليأت. فجاء والتقى بالـسادة ودخـل معهم فى مفاوضات.

وبعد جلسة أو جلستين تم الاتفاق على أن يرسل المجاهدون مندوبين عنهم إلى عين الدولة كى يتم التفاوض معه شخصيًا، واختاروا منهم أربعة أشخاص هم : ميرزا أبو القاسم الابن الأكبر لطباطبايي، ميرزا مصطفى آشتيانى شـقيق حـاجى شيخ مرتضى، ميرزا محسن أخو صدر العلماء والسيد علاء الدين صهر طباطبايى وكانوا جميعًا من زعماء السادة وتتم معظم الأمور على أيديهم.

وفى ليلة الأربعاء العشرين من شهر دى (الرابع عـشر مـن شـهر ذى القعدة) قدموا إلى المدينة وذهبوا إلى دار عين الدولـة وقـاموا بالتباحـث معـه، واحتجزهم عين الدولة فى داره بحجة أنه سوف يبلغ الشاه بهذا الحـدث، وقـال : ينبغى أن تبقوا هنا حتى ليلة الغد. وقيل لعله كان يريد ألا يـدعهم يعـودون، وأن يرسل كل واحد منهم إلى مكان قصى. فقد قيل لعين الدولة إن جميع الأعمال فى يد هؤلاء الأربعة، وقبل السادة العودة إلى المدينة ولكنهم لم يوافقوا وكان يهدف – من حجزهم – أن ينحيهم جانبًا مما يفت فى عضد العلماء. وفى الغد ذاع نبأ هذا سواء فى المدينة أو فى عبد العظيم. واستاء الناس المقيمون فى عبد العظيم وألـم بهـم الغضب، أما فى المدينة، فقد مضى الشاه فى ذلك اليوم إلى منزل أمير بهادر جنگ لتناول طعام الغداء، وعلم هناك أن المدينة فى اضـطراب، والنـاس قـد أغلقـوا الأسواق، فسأل الشاه : لماذا ؟ .. قالوا : لأن مندوبى السادة قد احتجـزوا ويظـن الناس أنهم سيطردون من المدينة. وكان رجال البلاط يريدون قمع الفتنـة بـالقوة وإجبار الناس على فتح الأسواق، ولكن الشاه لم يوافق.

وبعد تناول الغداء حينما عاد الشاه، احتشد الناس في طريقه، والتفت النساء حول مركبته، وكن يصحن : " نريد السادة وزعماء الدين.. لقد عقد السادة عقودنا، ويؤجرون منازلنا .. يا ملك المسلمين مرهم باحترام رؤساء المسلمين .. يا ملك الإسلام لو أن الروس والإنجليز يعادونك في وقت ما، فسيجاهد ثلاثون مليون من شعب إيران بأمر من أولئك السادة .." قلن مثل هذا الحديث كثيرًا. في هذا اليوم أنجزت النساء وهن محجبات ومرتديات العباءات الكثير والكثير !!

مضى الشاه إلى ارك، ومن ناحية أخرى قدم الأمير بهادر إلى السوق هو وغيره حيث حثوا الناس على فتح الأسواق. ولكن ذهب جهدهم عبثًا. وأثناء ذلك كان علاء الدولة يتجول في الطرق حتى لا يغلقوها، وفي شارع جبة خان بالقرب من ميدان سبزه رأى السيد حسن صاحب الزمان الزماني في دكان وراق حيث جلس يتباحث مع بعض الأشخاص، ولما كان يعرف أنه من المجاهدين، أمر أن يسحبوه خارجًا، وقال : " أيها السيد المفسد هل أنجزت كل ما تريد ؟ !" قال هذا وانهال على رأسه ووجهه بالعصا. ثم أمر بضربه بالسياط، ونتيجة لهذا التصرف الأحمق أعيد إغلاق المحلات واستعد الناس مرة أخرى للمقاومة والصمود.

قال الشاه لعين الدولة : "يجب أن تلبي رغبات السادة وأن تعيدهم إلى المدينة غدًا، وإلا فسأذهب بنفسي وأحضرهم ". ومع هذا التصميم من قبل الشاه اضطر عين الدولة أن يجمع العلماء من كل جهة وأن يعيدهم إلى المدينة، وفي نفس اليوم بلغ النبأ إلى عبد العظيم تليفونيًا أن الشاه قبل مطالب السادة، ولكن الناس لم يرحبوا بذلك، ولم يفتحوا الأسواق، وتوجه جمع كبير من المدينة إلى عبد العظيم. وكانت حركة الذهاب والإياب بين هذين المكانين وكأنهما حبيبان انضم أحدهما إلى الآخر. وكان الناس جميعًا في حال من الغليان والثورة.

أخذ عين الدولة رسالة السادة، وكتب رسالة إلى الشاه، وسرد قصة الوساطة، وحدد مطالب السادة على لسانه هو، وقدم كل ذلك إلى الشاه. وأجاب الشاه على رسالة السادة، وسجل موافقته على المطالب أعلى رسالة عين الدولة، وبعد ذلك أصدر وثيقة منفصلة بخصوص المحكمة التى كانت مطلبًا أساسيًا للسادة.

ونورد فى هذا المقام رسالة عين الدولة على النحو الذى عين فيه المطالب مع وثيقة المحكمة :

" مذكرة عين الدولة إلى الشاه "

" أنا فداء تراب قدمك الشبيه بالجواهر، من عبد صاحب الجلالة قوى الشوكة المقدس المبارك، ليس خافيًا على خاطرك المشرق كالشمس، صاحب الجلالة القادر ملك الملوك روحنا فداه، أن هذا العبد القن يفخر بكنس مكانك السامى منذ أربعين عامًا، ويدعو فى كل وقت مزيدًا من الدعوات لذاتكم الفريدة المباركة، ولم يغفل قط عن هذا الهدف، ولكن فى هذه المقدمة فإن العلماء لم يكن لهم من غرض سوى الدعاء والثناء، وكانوا على الدوام فى شغل شاغل بدعائهم، ولكن حدث ما أضاع الهدف الأصلى، والآن جعلوا هذا الغلام القن الحقير شفيعًا لهم فى العتبة العليا، حتى ينعطف نظركم الشريف إلى إنجاح مطالبهم، وأملهم أن يشغلوا بالدعاء لمراحمكم الملكية وبما أن مطالبهم من قبيل الدعاء ليس إلا لذلك فهو يقدمها إلى عتبتك المباركة، والمأمول أن يتم الفخر بشمول مراحم جلالتكم " :

" نسخة من مطالب السادة "

١- محض سلامة الذات المقدسة المباركة الميمونة من أسباب ازدياد الدعاء، وقد أمرتم بأنه لو أصاب الدولة أى ضرر فيجب الاهتمام به، وليس لهذا الغلام إلا أن يعرض هذا الأمر وهو عرض الخير ودعاء العلماء وتمنيات العامة، حتى لا يصيب الدولة أى ضرر، ويزداد بذلك الدعاء لجلالتكم.

٢- بناء على تلك المهانة التى لحقت بالحاج ميرزا محمد رضا يجب على الدولة أن تستجيب لرحمة أهل الدعاء، وهذا مما يزيد الأمل فى طبقة العلماء ودعائهم ...

٣- إن سيئات أعمال عسكر گارچى - الموكل بطريق العراق - قد بلغت ولاة الأمر فى الدولة، وإن أقاربه وأتباعه قد أدبتهم الدولة، ولفتوا نظر عسكر ألا يتدخل فى الأمور، وإلا عاقبته الدولة حتى يقف عند حده، وهذا ما يحقق آمال ودعاء عامة الناس، كما يجب أن تصدروا أمرًا خاصًا فى مظالم سائر السادة العظام على أن يكون مقرونًا بالإيجاب.

٤- من أجل التحقيق فى مطالب جميع الرعايا والمظلومين، فلتصدروا أمرًا من جانب جلالتكم السنية يختص بإقامة دار للعدل، حتى يتم رفع الظلم عن المظلوم حقًا وعدلاً وحتى لا يتشكك أحد فى تنفيذ العدل .

" مذكرة صاحب الجلالة مظفر الدين شاه "

الجناب الأشرف الأتابك الأعظم – بناء على نحو ما أعلنا مرارًا عن نيتنا هذه فإنه ينبغى إعداد وتأسيس محكمة حكومية لتنفيذ الأحكـــام الـــشرعية وتحقيـــق راحة الرعية، هذا ونحن نقر صراحة تنفيذ هذا المطلب المقدس أن يسود القـــانون الإسلامى الذى هو عبارة عن وجوب تعيين الحدود وأحكام الشريعة المطهرة فـــى جميع ممالك إيران المحروسة على ألا يكون هناك أى فرق بين طبقـــات الرعيـــة، وطبقًا لما سنشير إليه من تنفيذ العدل والعقوبات بالنحو الذى يوجد فى نـــص هـــذا القانون، وممنوع قطعيًا ملاحظة الاعتبارات الشخصية والتحيز دون مبرر. وبنـــاء على هذا اكتبوا كتيبًا بنفس الترتيب مطابقًا لقوانين الشرع المطاعة، وأعقـــدوا فيـــه الفصول، وقدموه إلينا حتى يوزع فى جميع الولايات وتتم ترتيبات المجلس علـــى الوجه الأكمل، ولا شك أن هذا سيكون باعثًا على مزيد من دعاء العلماء لنا فى كل وقت وسوف يكون مقبولاً، وبلغوا مذكرتنا هذه جميع الولايات.

" شهر ذى القعدة ١٣٢٣ هـ.ق فبراير ١٩٠٦م"

" دار العدل "

قبل أن نمسك بخيط التاريخ ثانية، يجب أن نذكر هنا بعض الأشياء عـــن ماهية المحكمة ؟ ولماذا كان العلماء يطالبون بها ؛ من المعروف أن مصطلح "دار العدالة" هو نفسه ما يطلق عليه اليوم اسم "عدليه"– المحكمة – الإدارة وهى التـــى تتألف من قضاة ينصفون الناس ويحكمون بالعدل. ألم تكن هذه الإدارة موجـــودة ؟ وما جدوى أن يهاجر جماعة من كبار العلماء من المدينة بسبب المطالبة بهـــا، وأن

يلحقوا بأنفسهم كل هذه المضار ؟ ينبغى فى هذا المقام الإحاطة علمًا بأمور عدة، منها :

أولاً : لم تكن فى إيران فى ذلك الوقت محكمة، حقيقة أنهم كانوا يطلقون هذا الاسم على إحدى الوزارات، وفى نفس هذه الفترة التى نتحدث عنها كان يطلق على وزير العدل اسم نظام الملك، ولكن لما كانت جميع الأعمال مرتبطة بالمصالح الشخصية، كانت تنجز بعض الأعمال فى هذه المحكمة عن طريق المصالح الشخصية، وكل ما رغبوا فيه قالوه ونفذوه ويفرقون بين القادر والضعيف والثرى والفقير، ولم يكن التحقيق العادل معروفًا فى هذه المحكمة. حقيقة أنه فى تلك الفترة كان احتياج الناس للمحكمة قليلاً، فقلما كانوا يميلون إلى الظلم، ومن ناحية أخرى كانت معظم الخلافات تنهى على يد رجال الدين والشيوخ ورؤساء الأحياء. ولكن كثيرًا ما كان يظهر بعض الظالمين من رجال البلاط وغيرهم ويمدون أيديهم على ثروات الشعب، لذا كانت الحاجة فى هذا الوقت ماسة إلى وجود محكمة، ولكنها لم تكن موجودة فى إيران آنذاك. فما كان من السادة إلا أن طالبوا بوجود مثل هذه الإدارة من بين مطالبهم الأخرى، وكانوا يعتبرون ذلك أمرًا واجب التنفيذ.

ثانياً : لكى تقيم الدولة محكمة على النحو الذى كان يبغيه العلماء كانت مضطرة لأن تسن قانونًا، وكان هذا خطوة فى طريق وجود قانون للدولة، وكانت تبغى من ذلك أن تقرب المناضلين إليها أكثر فأكثر.

ثالثاً : كما رأينا سلفًا أن المجاهدين لجأوا مضطرين إلى عبد العظيم، وألحق إمام الجمعة بعمله هذا الهزيمة بهم، وكانت الخشية من أن يدوم الأمر على هذا. وفكر المرحوم طباطبايى – من أجل ضبط النفس – فى الهجرة من المدينة،

وكان تفكيره هذا صائبًا وغاية فى الحكمة، وبهذا أبعد أضـرار الهزيمـة عنـه واستمد قوته ثانية. ولكن إلامَ كان يمكنه البقاء هناك ؟ .. فكل مـن طباطبـايى وبهبهانى كان يعلم علم اليقين أنه إذا ما طال بقاؤهم هناك أكثر من ذلك سـيدب الفتور واليأس فى نفوس العديد من المهاجرين وسيميلون إلى الفرقـة. لأن كـلاً منهم ترك داره وأبناءه وتخلى عن عمله وحرفته، وتضامنوا أملاً فى التقدم، كما أن اليأس قد بدأ يجد سبيله إلى قلوب البعض منهم فكانوا يعودون.

وهكذا لم تكن كل القلوب قد انعقدت على إنكار الـذات والـصبر علـى الشدائد، وما كان الأمل فى تضحية الناس بأرواحهم. ولم يكن أحد يعمل على هدى وبصيرة عدا السيدين وقلة من الأشخاص غيرهما. وفى مثل هذه الأحداث ينبغـى على الرواد أن يجمعوا حولهم الأنصار رويدًا رويدا، وألا يتجـاوزوا الحـد فـى الجهاد.

وما كان الأمر متعلقًا بالأتباع فقط فى عدم الحماس للزعماء، فقد ورد فى "تاريخ بيدارى" خبر عن السيد أحمد شقيق طباطبايى وأبنائه يقول فيه: " أرسل إمام الجمعة رسالة يقول فيها إن هؤلاء الذين يطلعون على أسراركم ويلقون اللحف على وجوهكم ليلاً، يبلغوننا بمعلومات عن شئونكم، فلا تأتمنوهم ". ومن رسالته هذه ظن السادة السوء بمدير الذاكرين وطردوه من بينهم. بعد ذلك كتـب مجيـر الـذاكرين مذكرة مطولة عن العلاقة التى كانت بين عين الدولة والـسيد أحمـد طباطبـايى وأبنائه، وقد وردت بتمامها فى "تاريخ بيدارى"، وبما أننا لسنا على علم بـصحة أو كذب هذا الخبر فلن نورده فى هذا المقام، ولكن من الواضح أن سوء الظـن كـان موجودًا بينهم. وكتبنا فيما قبل أن عين الدولة عندما أراد شخصًا ليكون مندوبًا عن المهاجرين، اختاروا له السيد أحمد هذا الذى وافق على بعض المقترحات مع عـين الدولة، ولم يقبل العلماء ما اقترحه.

ومع سوء الظن هذا لم يعد هناك مجال للصمود أكثر من ذلك، وكان من الأفضل والأرجح أن يكون لتلك الهجرة نتيجة وأن يعودوا إلى المدينة وهم موفورو الكرامة، ولم يستطيعوا أن يأملوا نتيجة أفضل من إنشاء دار للعدالة خلال تلك الفترة. إن هذين الرجلين كانا يعملان على بينة وبصيرة، وسوف نرى من بعد أنهما لم يعلنا رضاءهما عن تأسيس المحكمة فقط، بل أعلنا عن رغبتيهما الأخيرة في ضرورة "وجود مجلس".

عودة المهاجرين إلى طهران :

عندما تم إعداد المواثيق اختاروا يوم الجمعة الثاني والعشرين من شهر ذى (السادس عشر من ذى القعدة) لعودة المهاجرين إلى المدينة. وفى هذا اليوم مضى كل من الأمير بهادر (وزير البلاط) وإقبال الدولة ونصر السلطنة وشمس الملك (ابن عين الدولة) وغيرهم إلى عبد العظيم بأمر من الشاه بمركبات ملكية وجياد ذات سروج ذهبية وفضية فاخرة، وذلك حتى يحضروا السادة إلى المدينة، وأغلقت الأسواق وتوجه الناس إلى عبد العظيم أفواجًا أفواجًا، وطالب أمير خان سردار تليفونيًا بأن يحضروا جميع المركبات الكبيرة والصغيرة الخاصة بالمدينة إلى هناك، كذلك أرسل العديد من الأعيان والأثرياء عرباتهم ومركباتهم، كما جعلوا السفر بالسكك الحديدية بين طهران وعبد العظيم بالمجان، واحتشد الناس وتزاحموا، فكانت الخشية من هلاك بعضهم.

وقبل الظهر بثلاث ساعات نصبوا منبرًا فى الساحة، واعتلاه حاجى الشيخ محمد واعظ وقرأ أمر الشاه على جميع الحضور من العلماء ورجال البلاط وغيرهم. ثم اعتلى المنبر من بعده الشيخ مهدى الواعظ وسيد أكبر شاه – وكلاهما من الوعاظ المشاهير – وقرأ ثانية أمر الشاه ومطالب المجاهدين، وعبرا عن

سرورهما وامتنانهما. وهتف الناس قائلين : "يحيا ملـــك الإســـلام"، "يحيـــا شـــعب إيران". وطبقًا لما كتب في "تاريخ بيدارى" كانت هذه هي المرة الأولى التي يـــسمع فيها الهتاف بحياة شعب إيران، كما كانت المرة الأولى التي ارتفع فيها الدعاء باسم الجماهير معبرين عن مظاهر الفرح.

وبعد الظهر بساعة أعدت المركبات وسارت القافلة، وجلس السيدان مـــع حاجي الشيخ مرتضى وصدر العلماء والأمير بهادر في مركبة ملكية تجرها ســـتة جياد، وركبت كل جماعة من الآخرين في مركبة، كما ركب النـــاس كـــذلك فـــي المركبات. وتقدمتهم جياد الموكب. وساروا على هذا النحو فـــي أبهـــة وفخامـــة، وعندما دخلوا المدينة مروا بين صفوف المصطفين، وواصلوا المسير حتى ترجلوا أمام قصر گلستان. ودخل العلماء القصر، وبعد مقابلة عين الدولة مضوا معه ومع مشير الدولة إلى الشاه. واستقبلهم الشاه بكل بساطة، وبعد الاستفسار عن الأحـــوال قال : " قبل أن تقدموا مطالبكم، كنت شخصيًا أريد دار العدالة، وفي منتصف شهر شعبان قلت لنظام الملك أن يقيمها. وبعد هذا فإن كل حاجة لكم ســـلوني إياهـــا ". وردًا على ذلك قدم السادة شكرهم، وبعد ذلك تقدم إليهم بالشكوى قائلاً : " لـــم لـــم تتحدثوا معي في حادث مبنى البنك، وأقدمتم على ما أقدمتم عليه مـــن عمـــل دون إخطار الدولة ؟ فأجاب طباطبايي قائلاً : " يوجد هنا مشير الدولة ومشير السلطنة، وتحدثت معهما مرارًا، كما كتبت إليهما الرسائل، والرد الذى ردا به هنا ".

أثناء ذلك كانت عيون الناس في الخارج ترقب العلماء وقد عيل صـــبرهم، لذا صرفهم الشاه، وعندما خرجوا التف حولهم الناس مسرورين هاتفين، وكان كـــل من يمضي منهم إلى منزله تتبعه جماعة من الناس ويرافقونه إلى داره. وعلى هذا النحو عاد المهاجرون إلى المدينة بعد شهر واحد، وهم الذين رحلوا من قبل في ذلة وضعف لكنهم عادوا بهذه العزة والقوة.

وفى الغد كان الناس يتدافقون أفواجًا لمقابلة السيدين وغيرهمـــا، وزينـــوا المدينة ليلة السبت، وباسم المحكمة احتفلوا معبرين عـــن ســـرورهم، وزار عـــين الدولة العلماء، وعزل علاء الدولة من حكم طهران بناء على مطالبهم.

وبلغت أنباء هذا الحدث صحافة أوربا، وذكروه مادحين مـــا كـــان مـــن العلماء، إلا أنهم اعتبروا المحكمة برلمانًا أو مجلسًا للشورى وكانوا يكتبـــون هـــذا الحدث فى الصحف تحت عنوان "ثورة العلماء على الدولـــة" وكتبـــوا : " إن قـــوة الاستبداد فى إيران قد انمحت، ومنح الشاه الحرية للشعب، وسوف يتم إنـــشاء دارٍ للشورى، وسوف تكون الحرية للكلمة والقلم ". وعلى هذا النحو كانوا يفهمون ذلك الحدث بأكثر مما كان يحتمله.

وأصدر علاء السلطنة – سفير إيران فى لندن – منشورًا كذب فيه الاتجاه إلى الثورة فى إيران وأن الحدث قد فسر بمفهوم آخر، فكتـــب يقـــول: " إن جفـــوة ضئيلة وقعت بين الدولة والعلماء، ولجأ العلماء إلى عبد العظيم التى تبعـــد بـــضعة كيلو مترات عن طهران، ومن قبيل العطف والرحمة أمر الشاه أن يزيلوا أســـباب استيائهم ويعيدوهم إلى طهران، وأن الموافقة على دار للشورى، والقانون وحريـــة الكلمة وتأسيس المحكمة كلها كانت رغبة الشاه منذ البداية، وهو الآن قـــد منحهـــا طوعًا ". ومن الواضح أن السفارة لم تكن لديها معلومات صـــحيحة عـــن حقيقـــة الأمر.

والأعجب من هذا أن صاحب جريدة الحبل المتـــين الـــذى تـــرجم هـــذه المكاتبات عن الصحف الإنجليزية، عدها صحيحة، وملأ عدة أعمدة عن منح الشاه دار الشورى والحرية، وبالغ فى المدح والتملق دون أن يذكر اسم أحد من العلمـــاء أو يمتدح لهم غضبتهم، وتلك أمارة أخرى على خبث طويته. وشر من هذا أنه بعد

وصول المكاتبات من طهران وعلم أن الحادث اتخذ لونًا آخر وأن الشاه لم يمنح شيئًا عن رضا وطواعية، وكان عين الدولة من ناحية أخرى غير راض، فقد لزم الصمت دفعة واحدة، وكما ذكرنا سالفًا أنه ذكر هذه الأحداث في صحيفته بعد مضى عدة شهور، واقترن هذا بذم العلماء وتوبيخهم.

سوء نيات عين الدولة :

مضى شهر بهمن على ما يرام. وتعلقت آمال الشعب بالدولة، وكانوا يأملون فتح المحكمة كما ذاع بين الناس الحديث عن تدوين القانون. وكان العلماء يتزاورون، وحققوا لأنفسهم مكانة بين الناس. وشاهدت في رسالة أن كاتبًا ممن خبثت نياتهم كتب عن مضى بهبهانى إلى دار طباطبايى وأنه خدعه وزين له الأمر، ثم تدفق الناس من كل صوب، وانخرط الشعراء في قرض الشعر.

ويقال إنه في هذه الأيام التى ذهب فيها العلماء لمقابلة عين الدولة، قال له طباطبايى : " إن أول مضرة لهذه المحكمة التى نبغيها تلحق بنا، حيث إن الناس سيكونون في راحة ولا يتظالمون وبذلك لا يحتاجون إلينا، وتغلق أبواب ديارنا. ولكن عندما ينقضى أجلى وأجلك، تكون قد أقدمت على عمل يحفظ سيرتك محمودة في الدنيا، ويكتبون في التاريخ كان عين الدولة مؤسس المجلس والمحكمة، ويبقى هذا عنك تذكارًا في إيران ". ولم يرد عين الدولة عليه، وقطب الجبين عند سماعه اسم المجلس. حقيقة أنه كان يريد ألا يصغى لهذا الحديث، لكنه اضطر وأعاد المجاهدين إلى طهران، وسلمهم أمر الشاه، وكان يريد ألا يراهم، وأن يضعف بالحيلة قوة المناضلين، ثم يقضى عليهم. لقد كان هو نفسه يريد الخير لإيران ولكن من أى طريق ؟ .. عن طريق الأنانية وحب الذات. وقد فتحت جريدة الحبل المتين في أعدادها بابًا تحت عنوان " الإصلاحات الجديدة أو النيات العالية للوزير

الأعظم"، وبسطت القول فى هذا كل البسط. وكان عين الدولة رجلاً قليل العلم، نشأ فى بلاط الاستبداد. واشتد عليه أن يسمع كلمة " القانون " أو " دار الشورى " أو أن يرى الشعب شغوفًا بشئون البلاد. وكان معاديًا لهذا فى قرارة نفسه، ومن مطالب العلماء هذه نفذ فقط عزل علاء الدولة من حكم طهران، أما بقية المطالب فظلت فى طى النسيان.

وفى النصف الثانى من شهر بهمن وقع حدث غير متوقع وهو أنهم فى ليلة الأربعاء الثامن عشر من شهر بهمن (الثالث عشر من ذى القعدة) ألقوا القبض على سعد الدولة وزير التجارة والدكتور محمد خان إحياء الملك وهما فى داريهما، وطردوهما من المدينة فأرسلوا سعد الدولة إلى يزد والدكتور محمد خان إلى مازندان.

ولم يكن ذنب هذين الرجلين معلومًا سوى أن سعد الدولة كان رجلاً همامًا، وكما ذكرنا سالفًا أنه صمد أمام عين الدولة، وكان ينتقد أعمال نوس وعلاء الدولة، كما كان يميل إلى التجار، وأن سلوكه هذا قد تأذى منه عين الدولة الذى كان فى ذلك الوقت هو الوحيد الذى فى يده أزمة الأمور فى إيران، وكان يطلق عليه " الأمير الأتابك الأعظم ". وكما أمر أخرجوه – أى سعد الدولة – مترجلاً من طهران، وجلده القوازق فى الطريق بالسياط، ولم يكفوا قط عن إيذائه والتطاول عليه.

أما الدكتور محمد خان فقد كان طبيب أمين السلطان، ولعل هذا هو السبب فى عداء عين الدولة له. وقد سأله ناظم الإسلام شخصيًا عن الباعث على إخراجه إلا أنه لا يعلم كذلك. إنهما لم يكونا من المجاهدين، كما أن طردهما لم يكن لجريرة ارتكباها. ولكن لما كان الناس يعتبرون أن زمن الاستبداد قد ولى، وتطلعوا إلى

الحرية، فقد انزعجوا من هذا الحادث غير المتوقع وحزنـوا. ثـم أظهـروا عـدم اكتراثهم مرة أخرى، حيث استبشروا خيرًا عندما ذاع الحديث عن صدور الفرمان بقيام " دار العدالة ".

وفى شهر اسفند وقع حادث آخر، وهو طرد السيد جمـال الـواعظ مـن المدينة. وكما أسلفنا الذكر فإن السيد جمال كان يعيش مختبئًا فـى منـزل نـاظم الإسلام منذ الليلة التى وقعت فيها حادثة مسجد الشاه. ولكن فى ساعة متأخرة مـن الليل مضى به كل من ناظم الإسلام ومعين العلماء الإسپهانى إلى عبـد العظـيم، وظل شبه مختف هناك عدة ساعات حتى عاد إلـى المدينـة فـى معيـة بعـض الأشخاص، ومضى إلى داره. لكن عين الدولة لم يصفح عنه، وكان يـذكر اسـمه أحيانًا فى غضب، ولذا كان السيد جمال يعيش فى خوف. وفى أوائل شهر اسـفند كتب نير الدولة – الذى تولى حكم طهران بعد علاء الدولة – رسالة إلـى حـاجى الشيخ مرتضى على هذا النحو: "من الأفضل أن يمضى السيد جمال إلـى مـشهد للزيارة، وسوف أعطيه نفقات سفره ". وكان واضحًا أن عين الدولة إنما كان يريد أن يخرج السيد جمال وكان هذا أول دليل على سوء نياتـه. وشـاء الطـلاب أن يقوموا بثورة ولا يدعوه يخرج ولكن السيدين حالا بينهم وبين ذلك. وأرسل بهبهانى الشيخ مهدى الواعظ إلى عين الدولة للوساطة، لكنه لم يقبل، وقال : " من المحـال أن أقبل رغبة السيد، ولا ريب فى أنه ينبغى ألا يكون السيد جمال فى طهران فـى العشرة أيام الأولى من عاشوراء، لأن خطبه على المنبر ستكون سببًا لنشوب الفتنة والثورة ". وأقسم أنه " إن لم يرحل السيد جمال فسأقتله، ولكنه لو مضى من تلقـاء نفسه أعده بأن أعيده بعد عاشوراء وسوف يمنحه الشاه ألف طومان نفقات سفره ".

واضطر بهبهانى إلى القبول، وقال السيد جمال : " اتجه صوب قم". وقـد جاء فى "تاريخ بيدارى" : " قال آقا السيد جمال : إن هدفنا جميعًا هـو أن يـسمح

الشاه بوجود مجلس الشورى، ولو أنى أعلم أن السماح بوجود المجلس أمر منـــوط بقتلى فأنا مستعد للقتل بكل الرضا والطواعية. فقال السيد بهبهانى : إن هذا الكـــلام سابق لأوانه، فلا تذكره، اكتف فقط بكلمة المحكمة حتى يحين أوانه ".

وفى يوم الاثنين الثلاثين من شهر بهمن (السادس والعشرين من شهر ذى الحجة) رحل السيد جمال عن طهران مع ابنه وأحد الخدام، وقضى عـــشرة أيـــام عاشوراء فى قم، ثم عاد ثانية بعد ذلك. وقد امتنع المجاهدون عن اســـتقباله لكـــنهم أبدوا الكثير من المودة والتعاطف معه.

وفى العاشر من شهر محرم أقام عين الدولة قـــراءة روضـــة الـــشهداء، وكانت رغبته فى هذا أن يستميل إليه العلماء أو أبناءهم وذوى قرباهم، وفى ســـبيل هذا لم يضن بمنح الأموال، وكان عماله يحاولون استرضاء العلماء أو أبناءهم فـــى الذهاب والإياب لكن دون جدوى. وكان عين الدولة يريد أن يوقـــع الفرقـــة بـــين السيدين ويستميل طباطبايى إلى جانبه، وينحـــى بهبهـــانى جانبًـــا، إلا أن شـــهامة طباطبايى وصفاء قلبه لم يفسحا له الميدان لذلك.

أثناء ذلك أدرك المجاهدون سوء نيات عـــين الدولـــة، فـــضعف أملهـــم، وحاولوا الجهاد ثانية وكان العلماء يجتمعون مرتين أسبوعيًا بحجة إقامـــة وليمـــة؛ حيث كانوا يتبادلون أطراف الحديث فيما بينهم، ومن ناحية أخرى كـــون الطـــلاب جماعات فيما بينهم، وكانوا يعقدون المجالس والاجتماعات، كمـــا كـــانوا يكتبـــون المنشورات السرية ويطبعونها بالجيلاتين ويوزعونها خفية.

وعلى هذا النحو انتهى شهر اسفند وحل عام جديد (١٩٠٦م-١٢٨٥هـ.ش) وهو من أعوام إيران التاريخية، وقضى الناس أيام النيروز بين الخوف والرجـــاء.

وفى أواخر شهر فروردين حدث اجتماع سرى بين عين الدولة وطباطبايى، واتفق أن قدم " احتشام السلطنة " إلى دار طباطبايى – يعد احتشام السلطنة من الأشخاص ذوى السيرة المحمودة وكان قد عاد حديثًا من السفارة بألمانيا – وتحدث معه عن عين الدولة وتصرفاته، وطلب أن يقابل طباطبايى عين الدولة بحيث يجتمع الاثنان فقط قائلاً بأن عقدة الأمر سوف تنقضى بهذا اللقاء، ووافق المرحوم طباطبايى على مطلبه، وفى جوف الظلام مضى ليلاً إلى منزل عين الدولة، واجتمع الاثنان وحدهما، وتبادلا أطراف الحديث فيما بينهما. وطلب عين الدولة المصحف وأقسم عليه : " إننى مستعد لتحقيق غايتكم، وأعدك أن يشكل المجلس بكل سرعة، فأنا أقدس أفكاركم، والآن قد صفحت عما حدث، فإننى أريد إزالة العوائق من أمامنا، وها آنذا أعدك أن تؤسس دار العدالة حقًا خلال عدة أيام ".

وتحمس طباطبايى من هذا القسم وذلك العهد، وعاد. ولكن فى الخارج لم يكن هناك أثر لهذه البشرى، وفى نفس هذه الأيام حدثت واقعة اجتماع باغشاه، حيث علم أن هذا الكلام من ألفه إلى يائه كان محض افتراء.

اجتماع فى باغشاه :

فى ذلك الوقت كان مظفر الدين شاه مقيمًا فى باغشاه، وفى يوم الثلاثاء العاشر من شهر اردى بهشت أقام عين الدولة اجتماعًا هناك، وتشاور مع الوزراء بخصوص المحكمة وتنفيذ أمر الشاه.

وكما ذكرنا سالفًا لم يكن عين الدولة يريد قط أن يتحمل تبعة مطالب المجاهدين. فضلاً عن ذلك لم يكن يرغب فى أن يطرح من يده زمام حكمه المستبد، ولما كان رجلاً قليل العلم لذا كان ينفر من القانون والمجلس وأى أفكار

من هذا القبيل، وكان يكن لهذا كله العداء، وكان هذا إصـــرارًا منـــه علـــى عـــدم الموافقة على المطالب، والشيء الذى لم يكن يبغيه أن تكون التبعة على عاتقه فكان يرغب فى أن يشاركه بعض الأشخاص. وكانت هذه الجلسة من أجل ذلــك، وقــد كانت هناك توصيات من قبل لبعض الوزراء.

استهل عين الدولة الحديث بقوله : " جميعكم تعلمون أن صاحب الجلالــة الملك أصدر الأمر بخصوص المحكمة، ومع أننى قد أمرت بأن يعدوا لها لائحــة، وها هم قد انتهوا منها، إلا أننى أمرت بالتوقف، وذلك لأن رجال الدين لم يتخلــوا عما يفعلون، ويكتبون المنشورات السرية، فهل ترون أنه من الأفضل أن ينفذ أمــر الشاه، أم نحبط آمال رجال الدين وأن نجيب بقوة الدولة ؟".

ولزم جميع الحضور الصمت، فأعاد الحديث ثانية وكرر ســؤاله : فــرد احتشام السلطنة : " من الأفضل أن تقوموا بتنفيذ الأمر، لأنه إذا لم ينفــذ أســقطتم هيبة الدولة فى أعين الناس، ومن ناحية أخرى فإن تأسيس المحكمة لن يعود بــأى ضرر على الدولة ".

فقال الأمير بهادر جنگ (وزير البلاط) : " ليس الأمر كذلك. من الأفضل للدولة ألا تنفذ الأمر؛ لأنه إذا أقيمت المحكمة فينبغى أن يتساوى ابن الملك مع ابن بائع الفاكهة، وعندئذ لا يستطيع أى حاكم أن يتحايــل، ونغلــق طريــق التحايــل والخداع".

فقال احتشام السلطنة : " جناب وزير البلاط، حسبك هذا، إلامَ التحايــل ؟! وحتامَ الظلم ؟! وإلى متى يبقى الناس فى ذلهم وضعفهم ؟ ينبغى لقلبك أن يتوجــع قليلاً لحالهم، لا تغضبوا الناس من الدولة أكثر من هذا، ولا تجعلوا العلماء أعــداء للشاه ". وتدخل حاجب الدولة فى الحديث قائلاً: "إذا ما أقيمت المحكمة سوف تمحى

الدولة ". فقال ناصر الملك (وزير المالية الذى شاهد أوربا) : " نعم الأمر كذلك، لم يحن الوقت بعد فى إيران لإقامة المجلس ولن تناسب المحكمة هذه الدولة ".

وتدخل الأمير بهادر ثانية فى الحديث قائلاً : " جناب احتشام السلطنة، أنت تنتمى إلى القاجاريين ولا ينبغى أن تسر لضياع الملك من يد هذه الأسرة ". فأجاب احتشام السلطنة قائلاً : " إن تقدم الدولة وتزايد قوتها فى تعاونها وتضامنها مع الشعب. واليوم سعدت الدولة لأن الشعب أصبح فى خير، فقدِّر هذا، ومد يدك إلى الجماهير، وفكر فى حلول للمساوئ، واجعل للدولة شرفًا، وسن قانونًا يتبعه الناس قاطبة، فكفانا ظلمًا، ولا تسِيءْ إلى سمعة الشاه، ولا تفضح أمر الدولة ". فالتفت الأمير بهادر إلى عين الدولة وقال : " يريد احتشام السلطنة أن يمحو قدرة الشاه".

فقال احتشام السلطنة : " إنى آمل أن أرى الشاه وولى النعمة قويًّا مثل إمبراطور ألمانيا وإنجلترا، لكنكم تريدون أن تجعلوه خديوى مصر وأمير أفغانستان ". فقال الأمير بهادر : " لن أسمح بقيام المحكمة ما دمت على قيد الحياة، ومن الخير أن تمضى إلى ألمانيا وتدين بالعبودية لإمبراطور الألمان. سيدى، إن مولاى لا يريد هذا النوع من العبودية ".

وعندما بلغ الكلام هذا الحد قطع عين الدولة حبل الحديث وقال : "ينبغى علىّ أن أطلع صاحب الجلالة على هذا الحديث، وأطلب الإذن من الشاه شخصيًا ".

وعلى هذا النحو انتهى الاجتماع، وكان عين الدولة يريد ألا يقول الناس إنه المستاء وحده من إقامة دار العدالة، بل يدركون أن هناك وزراء يقرونه على هذا. ولم يبد احتشام السلطنة فى هذا الاجتماع تبعيته للآخرين، وأبدى تأييده للجماهير، فقد أرسلوه بعد بضعة أيام إلى كردستان بحجة المحافظة على الحدود. ففى ذلك الوقت – كما سنذكر فيما بعد – عبر الجيش العثمانى الحدود، وكان هناك

جدال وعراك، واعتبر الناس هذا التصرف طردًا له من طهران. وهذا ما أفسح له مكانًا عند المطالبين بالحرية. (كما أفسح طرد سعد الدولة – من طهران إلى يزد– مثل هذا المكان له).

رسالة طباطبايى إلى عين الدولة :

كان ذلك فى منتصف شهر ارد يبهشت. وقد زاد استياء الناس من عقد هذا الاجتماع ومما قاله الوزراء فيه ومن التصرف الذى اتخذ تجاه احتشام السلطنة، وضغطوا على السيدين وغيرهما من الزعماء، فكتب طباطبايى رسالة إلى عين الدولة، سوف نوردها فى هذا الموضع مع بعض الاختصار :

" أين كل هذه الأسرار والعهود والمواثيق؟ من المسلَّم أنك على دراية بما فيه هذه البلاد من خراب وما يعانيه الشعب من أخطار.

ومن البديهى أنكم تعلمون أن إصلاح هذا كله منحصر فى إقامة المجلس واتحاد الدولة والأمة ورجال الدولة مع العلماء. ومن عجب أنكم تعلمون المرض وتعلمون كذلك كيفية علاجه، إلا أنكم لا تقدمون على عمل. إن هذه الإصلاحات سوف تنفذ عما قريب، لكننا نرغب أن تتم على يد ملكنا وأتابكنا لا على يد الروس والإنجليز والعثمانيين. نحن لا نبغى أن يسطر على صفحات التاريخ أن الدولة انقرضت بمظفر الدين شاه وذهبت إيران أدراج الرياح فى عهد ذلك الملك ... إن الخطر داهم، والوقت ضيق، وحال هذا المريض يشرف على الموت، واحتمال برئه ضعيف، فهل التقاعس فى علاج مثل هذا المريض أو إرجاء العلاج أمر يليق؟ قسمًا برب العالمين والأنبياء أجمعين والأولياء بألا أتخاذل قط عن إيران، وإذا ما تجاسرت أو أتجاسر فالمعذرة لى لأن إيران وطنى، وآمالى فى هذه المملكة، وخدمتى للإسلام فى هذا الموضع، وعزتى وثيقة الصلة بهذه الدولة.

وإنى أرى أن هذه المملكة تقع فى يد الأجانب وأن جميع شئونى وآمـالى تذهب هباء، فطالما بقيت حيًا فإننى سأسعى فى سبيل الحفاظ على هذه المملكة، بل إننى سوف أبذل الروح فى سبيلها إذا ما دعت الضرورة... واليوم ينبغى أن ننحى المآرب الشخصية جانبًا، وبذل الروح لله. لماذا ينجز هذا العمل باسم فلان وفلان ؟ إن الوقت ضيق والمطلب هام، ولا وقت لهذه الأفكار، وأنا على أهبة الاستعداد أن أتخلى عن كل شيء فى سبيل هذا وأتنحى عن كل ما يخصنى. وإذا ما استوجب منى إنجاز هذا الأمر فإما أن يكون لى صفة فى الدولة وإلا فأنا على استعداد لأن أحمل النعلين وأقوم بالحراسة (من أجل الأمة ورفع الظلم).

أقسم لك يا صاحب السمو بالله وبالرسول بأن تنثر ما فى وسعك ولا تجعل المملكة والشعب أسرى للروس والإنجليز والعثمانيين. ما العهد ؟ وما القرآن ؟ إن عهدنا كان من أجل إقامة المجلس وإلا فليس بيننا أى اتفاق ! وبالاختصار تتقدم على الأمر بإنجاز هذا العمل، ونحن على أهبة الاستعداد ولم لم تتقدم فسأتقدم بمفردى لإنجاز هذا الأمر، ولن أبالى إذا تحقق الهدف أم مت لأنى منذ الوهلة الأولى تخليت عن روحى وبعد ذلك أقدمت. وما تبقى شيء من عمرى ولن أسعد لأى شيء، لأن سعادتى هى أن أقدم على هذا الأمر، ومنتهى آمالى هو تحقيقه، أو أن أبذل روحى فى سبيله وهذا مدعاة لمغفرة الله لى وفخرى وفخر ذريتى من بعدى. وسوف أترك هذا العمل تذكارًا لى فى صحيفة الوجود وإذا لم يتم فسوف ألعن كما تلعن أسلافنا.

وأنا العاجز ألتمس أن تنجزوا هذا الأمر فى العاجل. إن تأخيره ولو ليوم واحد سيكون له أثر السم الزعاف وحقًا لايمكن دفع شر العثمانيين إلا بهذا المجلس واتحاد الأمة والدولة ورجال الدولة، وثمة نتائج أخرى لذلك. ولا أريد أن أزعجكم أكثر من ذلك، والسلام " .

وينبغى أن يلاحظ جيدًا أن الحديث عن المجلس واتحاد الدولة والأمة ورد فى هذه الرسالة بدلاً من المحكمة، وحقيقة أن السيدين وأتباعهما تقدموا خطوة نحو هذا الهدف، ورويدًا رويدا رفعوا النقاب عن رغباتهم الأخرى التى تمثلت فى مجلس الشورى والحكم النيابى. ومما يثير العجب ما ورد فى "تاريخ بيدارى"، فقد ذكر : " إن عين الدولة حينما اطلع على الرسالة ظن أن كلمة "يكتنه" - أى بمفردى - التى وردت فى الجملة التى يقول فيها "يكتنه اقدام خواهم كرد" أنها كلمة "يكشنبه" أى يوم الأحد، وخشى من قيام ثورة فى هذا اليوم فما كان منه إلا أن أحضر عدة أفواج من الجند - كانوا يعسكرون خارج المدينة- إلى المدينة، وكلفهم بحراسة القصر ومراكز الشرطة، وقال للشاه : إن رجال الدين عازمون على القيام بثورة يوم الأحد. ومن ناحية أخرى وقع الشغب بين الناس على أن يوم الأحد سيكون يوم جهاد. وكان عين الدولة يرسل الرسائل إلى السيدين وغيرهما يعبر فيها عن الخوف والرجاء. وجاء يوم الأحد ومضى، دون أن يحدث شىء، لكن الناس أدركوا أن الدولة فى خشية من المجاهدين، وهذا مما زاد من شجاعتهم.

فتنة مشهد وذيوعها :

على هذا النحو ساءت العلاقة بين المجاهدين والدولة، مما جعل المجاهدين يقومون بالشكوى والتطاول. أثناء ذلك حدثت بعض الأحداث التى اتخذوها ذريعة لهم فى ثورتهم. ولزم أهالى فارس الصمت - لقد كانوا يطالبون بالإنصاف فى ذلك العام ولم يلتفت إليهم إلا إنهم طالبوا ثانية بالإنصاف، وأرسلوا البرقيات المتوالية إلى الدولة والعلماء. كذلك كتبوا برقية إلى محمد على ميرزا ولى العهد. وفى ذلك الوقت مضى شعاع السلطنة إلى أوربا إلا أن أعوانه كانوا يستولون على قرى

الأهالى وازدادوا عنفًا. ونتيجة لمطالبة الأهالى بالإنصاف ومقـاومتهم للظـالمين، عزل الشاه شعاع السلطنة من حكم فارس، وأرسل علاء الدولة ليخلفه فى منصبه، ألا أنهم لم يعيدوا القرى إلى الأهالى واتخذ المجاهدون هذا ذريعة أخـرى لمذمـة الدولة وحث الناس على الثورة. بعد ذلك جاء النبأ بثورة مشهد، وسبب ذلك أن من يدعى حاجى محمد حسن قد احتكر الخبز واللحم بالمدينة ورفع كثيرا من سعريهما، فثقل هذا على الأهالى وأخذوا فى الشكوى. ولكن لما كان آصف الدولة هو الحاكم، وكان بعض الأشخاص أعوانًا له، لم يجد الأهالى مكانا للتظلم. ورويدًا رويدًا تهيأوا للقيام بثورة وتضامن الجميع وأخذوا يذهبون هنا وهنـاك، دون أن يهـتم أحـد او يمنعهم.

وفى النهاية تدخل الطلاب فى الأمر وتضامنوا معهم، وتقـدمهم قوقـازى يدعى رئيس الطلاب وكان يجمع الناس حوله، وأرسل بعض الأشخاص ليـستدعى محمد حسن إليه ويأخذ منه إقرارًا بأن يخفض سعر الخبز واللحم فى غضون ثلاثة أيام، فيقدم حاجى محمد حسن التعهد ويخرج، ثم يجمع حوله حملة البنـادق بعلـم آصف الدولة. وفى اليوم الثالث كان الناس يأملون فى خفض سعر اللحم والخبـز، ولما لم يروا ما يدل على هذا النحو اجتمعوا ثانية، ومضى رئـيس الطـلاب مـع الطلبة إلى مسجد "جوهر شاد"، واتخذوه مقرًا لهم وأقدموا على العمـل. وأرسـل رئيس الطلبة مجموعة من الطلاب والأهالى حتى يـأتوا بحـاجى محمـد حـسن ويحضروه إليه. ولما تحركوا أغلق الناس الأسواق، وانضم إليهم جماعة من أهـل السوق.

وخلال ثلاثة أيام جمع حاجى محمد حسن حملة البنـادق مـن "كاكريهـا" - إحدى القرى - كما أرسل الحاكم مائتى فارس، وكانوا على أهبة الاستعداد فـى دار حاجى محمد حسن وفى نزل قوافل پهلوى، وأخذوا يترقبـون الطريـق. أمـا

الطلبة والأهالى فلم يكن لديهم علم بذلك، ولم يخطر ببالهم مثل هــذا قــط، حيــث وصلوا إلى دار حاجى محمد حسن وأرادوا أن يحطموا الباب بالقوة والعنــف، ثــم يدخلون ليقبضوا على حاجى محمد حسن. وإذا بهم يــردون علــيهم فــى البدايــة بالعصى والحجارة ثم يطلقون عليهم الرصاص من البنــادق، وبمجــرد أن ســمع الطلبة والأهالى صوت طلقات الرصاص ولّوا هاربين، وسقط على الأرض كل من أصيب بالرصاص، ثم تعقبهم حملة البنادق وأخذوا يطلقون عليهم الرصــاص مــن الخلف حتى بلغوا بهم الساحة، وهناك، ودون أى إنذار واصلوا إطلاق الرصــاص وأصيب جمع كبير. وعلى وجه الإجمال قتل أربعون شخصًا. ومن عاشوا ظلوا فى فترة علاج طويلة. وهكذا كانت ثورة الأهالى المساكين.

وقع هذا الحدث فى شهر فروردين، ولكن وصل خبره إلى طهــران فــى شهر ارديبهشت، واتخذ لونًا آخر، فقد ذاع أنهم قصفوا قبة الإمام الرضا بإذن مــن الحاكم آصف الدولة دون مراعاة لحرمتها، وقد اشتد وقع هذا كثيرًا علــى النــاس، وزاد من سخطهم على الدولة، وألهب حماسهم جميعا. وكم تكدر الناس فــى ذلــك اليوم، واتخذ المجاهدون هذا الحدث ذريعة أخرى. وذكره المرحوم طباطبايى وهو أعلى المنبر وبكى بكاء مرًّا، كما كتب بعض الأشخاص المنشورات السرية حــول ذلك الموضوع.

رسالة طباطبايى إلى مظفر الدين شاه :

فى هذه الأيام كتب طباطبايى رسالة إلى الشاه شخصيًّا، وطبع منها ســت نسخ، وأرسلها خلال ست طرق كى تصل واحدة منها على الأقل إلى الشاه. ونورد فى هذا الموضع نسخة منها :

" لعل الصيحة الصادرة عن قلوب الوطنيين تبلغ صاحب الجلالة الأقدس الملك خلد الله سلطانه، وبما أنكم قد صرحتم بأنفسكم قائلين إن أردتم أن تتقدموا إلى فى كل وقت بمظلمة فتقدموا، وبناء عليه فنحن نزعج خاطركم المبارك بهذه المطالب. فهذه الأيام سدوا على الدعاة طريق الدعاء ويحولون دون بلوغ المظالم إلى الحضرة المباركة. وما دام الأمر كذلك إذا ما اشتبه أمر على صاحب الجلالة فكيف يتسنى لنا أن نصحح هذا الاشتباه ؟ ولأهداف خاصة بهم قالوا إن الداعين لجلالتكم يضمرون السوء للدولة ولشخص جلالتكم الملكى، وبذلك غيروا خاطركم المبارك علينا حتى إذا ما فضحنا مفاسدهم لا تصدقوننا .

قسمًا بالله .. إننا نحن الداعين نحب صاحب الجلالة، ونطلب من الله تعالى ليلاً ونهارًا أن يسبغ عليكم نعمة العافية ويبقيكم للوجود المبارك. ولِمَ لا نبغى للملك الرءوف الرحيم العفو الراحة والسعادة ؟ إننا ندعو أن تتحقق مقاصدنا نحن الداعين فى عهدكم المبارك. فهل لنا ألا نحب مثل هذا الملك ؟ وحاشا لله أن نكون ممن يطلبون عرض الدنيا أو أن غاية أهدافنا هو طلب الرئاسة أو تحقيق النفع لنا، أو أن تكون خدمة الشرع منحصرة فى هذه الدولة ونحن نعلم حال العلماء فى البلاد الأخرى. فإيران وطن ومقر لتحقيق مقاصد الداعين وينبغى بذل الطاقة فى سبيل رقيها وإنقاذها مما يتهددها من أخطار. وليس فى الإمكان أن نتمنى السوء لهذه الدولة والعقل لا يقبل أن يلزم الداعون الصمت تجاه هذه المخاطر ويطالبوا باضمحلال الدولة ويحولوا بين صاحب الجلالة وبين العلم بحال البلاد ومفاسدها وأخطارها وبؤس الرعية وظلم الظالمين من الحكام وغيرهم والقضايا الفاسدة. فهم يخبرونه على الدوام أن البلاد عامرة يسودها النظام وبعيدة عن كل خطر والرعية فى راحة ورفاهية، ويداومون القول إنه لم تقع أية مشاكل غير مرغوب فيها ولن تقع .

يا صاحب الجلالة : إن البلاد خربة والرعية فـــي بـــؤس وغـــصة، وإن الحكام وموظفى الدولة يبسطون يد التعدى على مال الرعية وأعراضهم وأرواحهم، وظلم الحكام وموظفى الدولة لا يقف عند حد، فكل ما يطلبونه من مـــال الرعيـــة يسلبونهم إياه، وقوة غضبهم وشهوتهم تستجيب لكل ما يريدون فعله مـــن ضــــرب وقتل وسلب. من أين تحصلت لهم تلك الأبنية والأمتعة والأموال فى فترة وجيزة ؟ إن كل هذا ملك للرعية المسكينة، وهذه الثروة من نصيب الفقراء المعـــدومين، إن صاحب الجلالة مطلع على حالهم، إنهم أصبحوا ذوى ثراء واسع وسطوة فى فتـــرة وجيزة من أموال الرعية. وفى العام الماضى أخذوا فتيات قوتشانيات – عوضًا عن ثلاث كيلات من القمح تدفع ضريبة–وذلك ممن ليس لديه أموال وباعوهن للتركمان وأرمن عشق آباد بأسعار باهظة، ففر عشرة آلاف من الرعايا القوتـــشانيين إلـــى روسيا مما حاق بهم من ظلم، كما هاجر آلاف من رعايا إيران إلى البلاد الأجنبية لما حاق بهم من ظلم الحكام وموظفى الدولة، وهناك اشتغلوا حمالين وفعلة ومـــاتوا فى الذلة والمهانة، وليس فى الإمكان توضيح حال هؤلاء وما أصابهم مـــن ظلـــم الظالمين واختصاره فى هذه المظلمة .

إنهم يخفون هذه المشاكل عن صاحب الجلالة ولا يدعون جلالتكم تطلعون عليها وحلاً لهذا المشكل إذا لم يصلح الحال فى هذه البلاد ستكون جزءًا من الـــبلاد الأجنبية فى العاجل، ولا ريب أن صاحب الجلالة لا يرتضى أن يكتب فى التـــاريخ أن إيران ذهبت أدراج الرياح فى عهد جلالتكم المبـــارك وضـــعُف الإســـلامُ وذلَّ المسلمون .

يا صاحب الجلالة : ينبغى لهذه المفاسد "مجلس عدالة" أى جماعة تتـــألف من جميع طبقات الشعب ينصفون عامة الشعب ويتساوى فيـــه الـــشاه والـــشحاذ، وصاحب الجلالة المبارك يعلم فوائد هذا المجلس أكثر من أى شخص آخـــر، فلـــو

وجد المجلس فإن هذه المظالم سوف ترفع، وسوف يعمر الخرب، ولن يطمع الأجانب فى البلاد، ولن يحتل الإنجليز سجستان وبلوجستان، ولن يستولى الروس على موضع فلان، ولن يستطيع العثمانيون التعدى على إيران. كما أن وضع الخبز واللحم – وهما قوت معظم الناس وما يمسك عليهم رمق الحياة – مغشوش وغاية فى السوء، ومعظم الناس محرومون منهما. وقد أمر صاحب الجلالة بإصلاح وضعهما، وقد حضر المحبون للخير ولكن وا أسفاه، فهم يقبضون مبالغ باهظة من القصاب والخباز ولا يسمحون بتحقيق هذا الهدف وأن يكون الناس فى راحة من ذلك. ويخفى على صاحب الجلالة وضع الجند وهم حماة الدولة والأمة، إنهم لا يعطونهم إلا جزءًا من راتبهم وتموينهم ومعظمهم يحصل قوته باشتغاله مع العمال والفعلة، وقد منعوا هذا. وفى كل يوم تموت طائفة منهم جوعًا، ولا يمكن أن يتصور وجوب عيوب فى أى دولة أكثر من هذا!!

وقد قضينا ثلاثين يومًا فى زاوية حضرة عبد العظيم فى شدة ومشقة حتى صدر الأمر الملكى بتأسيس المجلس المرغوب، وقد قدمنا عظيم الشكر وأقمنا الزينات إعلانًا عن هذا الشكر، واحتفلنا بذلك احتفالاً عظيمًا. وقضينا يومًا فى انتظار تحقيق مضمون هذا الأمر الملكى دون جدوى، وقد أجل كل شىء، بل يقولون فى صراحة إن الأمر لن يتم، وإن تأسيس المجلس يتعارض مع السلطنة، ولا يعلمون أن السلطنة الصحيحة الدائمة لن تكون بلا مجلس، ولا معنى للسلطنة بلا مجلس، وهى عرضة للزوال.

يا صاحب الجلالة : إن من تعدادهم خمسة عشر مليونًا – وهم أولاد الشاه – لا تجعلوهم أسرى لاستبداد شخص واحد فلا تقطع نظرك عن خمسة عشر مليونًا من أبنائك مراعاة لخاطر شخص مستبد، وأنا لا أريد أن أزعجكم أكثر من ذلك وأطلب أن تمعنوا النظر فى هذه المظلمة وتأمروا بالإصلاح قبل أن ينقطع

طريق الحل، حتى لا تضيع البلاد من أيدينا وأن يصبح جماعة من الرعايا - الذين هم فى منزلة أبناء جلالتكم - أسرى وأذلة للأجانب".

مطاع الأمر الأعلى (محمد بن صادق الحسينى طباطبايى)

ووصل رد على هذه الرسالة قريب مما يلى : "جناب السيد محمد المجتهد، لقد قرأنا رسالتكم وأوصينا بها الأتابك حتى يحقق مطالبكم. أنتم لا تقصرون فيما هو واجب عليكم وتدعون الله وتوفقون الأشرار والغوغاء بنصحكم وأخمدتم الثورة والفتنة، ولا تعلمون على من يعم سخطنا".

خروج رشديه وغيره من طهران :

علم العلماء أن هذا الرد من عين الدولة نفسه، وأن رسالتهم لم تبلغ الشاه. حقيقة أن الشاه أصيب بالفالج (الشلل) فى هذا الوقت، ولا يقدر على القيام بشىء بنفسه، وأصبح عين الدولة أكثر حرية، وقرر أن يكون أكثر صلابة فى مواجهة المجاهدين وأن يعمل للقضاء عليهم. من ناحية أخرى ظهر أمر عظيم وهو أن الشاه سيغير ولى العهد وأنه سيعزل محمد علي ميرزا - الذى كان وليًا للعهد - ويختار أحد أبنائه الآخرين بدلاً منه. وقيل إن شعاع السلطنة سوف يكون هو المرشح لذلك. وليس معلومًا من أين ظهرت هذه الفكرة؟ وما الباعث عليها ؟ لعلها لعبة السياسة، وما كان يفهم من ذلك فى الخارج هو أن عين الدولة يريد أن يستميل إلى جانبه الأمراء أمثال شعاع السلطنة وسالارالدولة وغيرهما، وعندئذ حين يبلغ أحدهم ولاية العهد - أو من الأفضل أن نقول سدة الحكم - يتخذه الصدر الأعظم له.

أيًا ما كان فما تم شىء ولم نر سوى كلامه، وكانت نتيجة ذلك أمرين: أولهما أن محمد علي ميرزا أضمر العداء لعين الدولة وانضم إلى المجاهدين.

والآخر أن الأمراء – الذين كانوا يأملون فى ولاية العهد – انحازوا إلى عين الدولة وتنحى بعضهم عن المجاهدين بعد أن كانوا يميلون إليهم .

وفى شهر خرداد (ربيع الثانى) اتفق السيدان وأتباعهما على أن يجتمعوا كل ليلة بأحد المساجد ويدعون الناس إليه. وكان بهبهانى يعتلى المنبر فى مسجد "سربولك" ليلة كل جمعة، وطباطبايى فى مسجد "تشاله حصار" ليالى الاثنين، وأثناء ذلك تكلم بعض الأشخاص من الشعب كلامًا هراء فيما يتعلق بوجوب مجاهدة الدولة دون أن يكون لديهم العدة لتحقيق هذا الكلام، وكان كل أملهم أن يكون الجندى والمدفعى مسلحًا، فإذا قام العلماء (بالجهاد) فلن يقفوا فى مواجهتهم. وكانوا يوزعون المنشورات فى هذا الخصوص وقد عم الشغب بين الناس، وقيل إن المجاهدين سوف يجتمعون فى منزل طباطبايى وسوف ينطلقون من هناك للقتال.

وقد انتشر هذا الحديث حتى إن عين الدولة تملكه الخوف، وقد رأيت رسالة جاء فيها :

" لقد هرَّب الأتابك مجوهراته من منزله". وهذا القول سواء أكان صدقًا أو كذبًا فهو برهان قاطع على الخوف. ولهذا السبب كان عين الدولة يحتفظ بجيش على أهبة الاستعداد خارج المدينة حتى إذا ما وقعت انتفاضة يدخل المدينة ويلقى القبض على من شاء ويقتل من شاء. وذات ليلة تحدث طباطبايى من فوق المنبر فى هذا الخصوص وقال: " أسمع من كل ركن وضاحية أنهم يقولون إن رجال الدين ينوون الجهاد، وهذه الشائعة كاذبة ومخالفة للواقع، فلا حرب ولا نزاع بيننا، فمليكنا مسلم، والجهاد ضد ملك مسلم أمر غير متصور ! " بعد ذلك قدم النصح للناس وأمرهم بالصبر والسكينة وحد من غلوائهم.

وأراد عين الدولة أن يمنع الوجود فى هذه المساجد وأنذر بعدم وجـود أى شخص خارج داره بعد ثلاث ساعات من حلول الليل، وأمر الشرطة بـأن يلقـوا القبض على كل شخص يرونه فى الطرق أو فى الشوارع بعد هذه الساعة ويزجوا به فى السجن.

وكان هذا الأمر باعثًا لاستياء الناس، فبناء عليه كان يقبض فى كل ليلـة على الكثيرين، وفى كل ليلة بعد حلول الليل بثلاث ساعات كانوا ينفخون فى البوق ثم يقبضون على كل من يجدونه. وفى البداية يفرغون جيبه وجعبته وتحت إبطه ثم يزجون به إلى السجن، ومن ناحية أخرى شاء عين الدولة أن يخرج بعض هـؤلاء المتهورين من المدينة وأن يرعب الآخرين، ولعله كان يريد أن يفت فـى عـضد المجاهدين بهذا الأسلوب وأن يقبض على أعوانهم ويبعدهم. وفـى ليلـة الـسبت الخامس والعشرين من شهر خرداد(٢٤ من ربيع الثانى) ألقوا القبض على ثلاثـة أشخاص فى ديارهم وهم حاجى ميرزا حسن رشديه ومجد الإسلام كرمانى وميرزا آقا أسپهانى وعهدوا بكل واحد منهم إلى مجموعة من الحـراس وأرسـلوهم إلـى كهريزك، ومن هناك أجلسوا ثلاثتهم على مركبة وتوجهوا بهم إلى كلات نـادرى تحت الحراسة. ولم يكن أى منهم من زمرة المجاهـدين، فرشـديه هـو مؤسـس المدارس وكان رجلاً فصيحًا جريئًا، ولم يكن يكف عن مذمة عـين الدولـة هنـا وهناك.

ومجد الإسلام كان أحد موظفى عين الدولة، وقد قيل فى ذلك الوقت إنـه كان يأتيه بالأخبار وكان يتكسب عيشه من عمله هذا. ولكنه حينما رأى تقدم أمـر المجاهدين بدأ يفكر فيما هو آت، وأراد أن يكون له مكان بينهم، وكان كلما جلـس هنا أو هناك يبسط لسانه بمذمة عين الدولة.

أما ميرزا آقا فكان قد عاد حديثًا من إسطنبول، وقدم نفسه إلى عين الدولة على أنه عالم بالقانون. وقد اقترح أن يدون له القانون الذى يرغب فيه، وقد كان رجلاً مغرورًا أرعن، لذا كان يتحدث كثيرا هنا وهناك عن القانون والحرية وحياة شعوب أوربا.

ولكن عندما قبض عين الدولة عليهم أذاع أنهم كانوا من البابية (البهائية)، وأرسل بهذا إلى طباطبايى الذى كان يسعى للوساطة بخصوص مجد الإسلام. ولكى يخدع الناس أمر أن يلقوا القبض على ثلاثة من التجار المعروفين بأنهم بهائيون وقيدوهم واحتجزوهم فترة ثم أخذوا مائة وخمسين طومانًا من كل منهم وأطلقوا سراحهم. وبعد عدة ليالٍ وقعت الحادثة المفزعة لمهدى جاوكش، وكان هذا الرجل يعد من رؤساء منطقة سربولك، وكان يجمع حوله الشباب والمبشرين. ولما كان من أتباع ومؤيدى بهبهانى كان يجلس فى المقهى ويذم عين الدولة بلا خوف. أما عين الدولة – الذى كان على الدوام غاضبًا على بهبهانى وقلبه مفعم بالحقد عليه – فقد سيطر عليه الغضب حينما بلغ سمعه أن أحد أتباعه يتحدث عنه على هذا النحو، وأراد أن يصب جام غضبه على رأس المهدى المسكين، فأمر أن يقتحموا داره ليلاً، وألا يتورعوا عن القيام بأى شىء يستطيعونه، وألقوا القبض عليه، وضربوا زوجته الحامل حتى أجهضت، وألقوا بأحد أبنائه فى حوض وخنقوه، وضربوا الآخرين كبيرهم وصغيرهم وأصابوهم. وعلى الرغم من كل هذه الأفعال البذيئة لم ينسوا سلب متاع المنزل ومعداته. من ناحية أخرى ففى الغد عندما جاءوا بمهدى هذا إلى عين الدولة أمر فضربوه بالسياط ضربًا مبرحًا، ثم ألقوا به فى السجن وقد انقطعت أخباره فترة طويلة حتى إن الجميع شكوا فى أنه قتل. وكان لذلك المسلك الظالم من قبل عين الدولة أثره الشديد على الناس، فطائفة

تملكها الخوف الشديد، وتنحوا بعيدًا، وطائفة أخرى اشتد غضبها وصاروا أكثر صمودًا فى طريق الجهاد. وبصفة عامة اشتد الأمر وازداد قوة.

أثناء ذلك، حينما حل شهر جمادى الأول، أعلن الناس الحِداد – جريًا على عادتهم فى كل عام – فى أيام الثالث عشر والرابع عشر والخامس عشر باعتبارها أيام الحداد على ابنة رسول الإسلام وعدوا المجالس للتعزية. وفى أحد هذه الأيام (اليوم الرابع عشر) اعتلى المرحوم طباطبايى المنبر فى حضور جمع كبير من الناس وتحدث بكلام له قيمته، وكان بعض الأشخاص يدونون ما يقول ووردت جميعها فى كتاب تاريخ بيدارى.

وفى بادئ الأمر ذكر الرجل الفطن الشاه وأعرب عن سعادته والرضا عنه، لكنه قال : " إنه مريض، ولا يبلغونه كلامنا " ثم قال : يقولون إننا لا نريد الشاه، ونطلب الحكم النيابى ونبغى الجمهورية، وهم بهذا يريدون أن يغضبوا الشاه علينا، لكننا نريد فقط دارًا للعدل " "مجلس فيه جماعة من الناس ينصفون الشعب والرعية ". ثم ذكر ظلم رجال الدولة، وسرد حادثة فارس وما شابهها، وقال فى النهاية : " أيها الناس، أنتم مكلفون برفع الظلم ". ثم ذكر ظلم عثمان والإطاحة به فى صدر الإسلام، وقال : "اليوم كذلك ندرك أن سبب الظلم فرد واحد هو الأتابك، فانظروا فى أمره .." وبمجرد أن تحدث عن المطالبة بالحكم النيابى بسط حديثه فى ذم الشر والاستبداد وأضرارهما، وأوضح ذلك علانية. وأثناء الحديث ذكر المصير المحزن لمهدى جاوكش، واشتكى من ضيق العيش فى طهران، فقال :" يذهب رجل إلى الطبيب لأن ابنه أصيب بالدفتريا أملا فى علاجه، فإذا بهم يقبضون عليه المسكين فى الطريق ويحتجزونه حتى الصباح، وعندما يبزغ الصباح يكون ابنه قد مات. وتمضى امرأة حامل إلى والدتها فيلقون القبض عليها، وبمجرد أن يطلع الفجر تموت الحامل وطفلها. فأى عمل من هذه الأعمال أتحدث عنه ؟ لو تعلمون

أى ظلم كان يرتكب فى هذه الليالى ! إن الشعب الذى لايثور على الدولة لن يجـد لكلمة العدل أى معنى". ثم قال: " أيها الناس استيقظوا، تعرفوا على علتكم، وابحثوا عن دواء لها وبادروا بالتداوى ". ثم قال :" لكل داء دواء ودواء الاستبداد الثـورة والتضامن ". وفى نهاية الحديث قال :" سواء مر عام أو عشرة أعوام إنمـا نريـد العدل والعدالة. نحن نريد تنفيذ قانون الإسلام، نحن نريد مجلسًا يتساوى فيه الـشاه والشحاذ فى حدود القانون ". وعلى هذا النحو أفهم الناس مطالبه وفتح لهـم قلبـه دون خجل أو مواربة.

رسالة ناصر الملك إلى طباطبايي :

عندما سمع عين الدولة حديث طباطبايي الذى ذم فيه الاسـتبداد علانيـة، ومن ناحية أخرى كان يدرك مدى قوته، لذا أقدم على تصرف آخر وهو أنه حـث ناصر الملك- الذى درس فى إنجلترا وعرف بالعلم والفضل كما كان رجلاً تقيًـا - كى يكتب رسالة إلى طباطبايي ويقول له إن الحكم النيابى سابق لأوانـه الآن فـى إيران، أما الوقت الحالى فيكفيه السعى نحو زيادة المدارس، ومد العون للموجـود منها حاليًا، وبهذا نهيئ الناس للمطالبة بالحكم النيابى. وكانت هذه حجة يقدمها دائمًا من خبثت نياتهم وتبعد التفكير عن سوء نيتهم، مختفين تحت ستار حسن النيات.

وكتب ناصر الملك رسالة ينبغى علينا أن نوردها فى هذا المقام، ولكن بما أنها مفرطة فى الطول وتتضمن كثيرًا من الهراء فيجب غض النظر عـن بعـض أجزائها. وتتضح فيها عظمة طباطبايي وسداد رأيه بحيث لم ينخـدع بمثـل هـذه الرسالة، ولم يجعل للفتور سبيلاً إلى نفسه :

" وصل إلى الحضرة المقدسة العالية بأننى أنا العبد ضمن مـن يجلـون الوجود المبارك للحضرة العليا، وبما أننى أرى من قبيل الإنصاف أنكـم مهتمـون

بأمر الوطن، وتريدون رقى الأمة، وقد أدركتم ما يعانيه المواطنــون مــن شــقاء، وتأملون أن تجدوا دواء مناسبًا لهذه العلل، وتريدون فتحًا لباب الخير والسعادة أمام هذه الأمة التى تشرف على الفناء، وعلى حد ما فهمت أن كل هذا العويل والقيــل والقال ليس من قبيل الإعجاب بالنفس، وإنما هدفكم هو علاج داء الــشعب. ولكــن يأخذنى شديد الحزن والأسى عندما أرى أنكم من فرط رغبتكم ولعجلتكم فى مداواة هذا العليل لا تعلمون أية مداواة تختارون وأى دواء به تبدأون على أن يكون فيــه شفاء لهذا العليل. وبما أنكم تعلمون أن المترتب على صرف العلة عن العليل هــو أن يصح وينشط فإن هذا العليل المسكين العاجز عن الحركة لم يطعــم أى طعــام منذ وقت بعيد ولم يتلق بدنه ما يحول بينه وبين الفناء، ولم يبق فيه رمق لتــصدر منه حركة أو قدرة على الكلام، ورفعت بالسياط وجعلت تهوى عليه ضاربًا حتــى يعدو ويثب من الخندق، وبسبب هذا البلاء الذى حاق به من المرض وعدم تناولــه الطعام جفت أمعاؤه وتعطلت عن العمل أحشاؤه، وأنت تدس فى فمه فخذ جمل غير ناضجة ليبتلعها وواضح ما هى نتيجة هذا الدواء وهذا الطعام ! إن الطبيب الحاذق (الماهر) هو الذى يشخص المرض وينصح فى بادئ الأمــر باســتعمال الأدويــة المفيدة على الدوام، وإذا عجز عن صب الدواء فى حلق المريض فإنه يصب بــدلاً منه الحساء الغليظ قطرة قطرة حتى يستعيد قوته رويدًا رويدا ثم يرفعه من تحــت ذراعيه ويخطو به عدة خطوات فى غرفته، بعد ذلك يمضى به برفق إلــى الفنــاء والحديقة حتى يستطيع العدو والوثب تدريجيًا.

واليوم (كما هو الشأن فى جميع المدن المتمدينة السعيدة) نجــد المطالبــة بمجلس النواب والإصرار على سن قانون للمساواة والتحدث عن الحرية والعدالــة الكاملة، على حين تتردد على الألسنة فى إيران حكاية الــضرب بالــسياط وفخــذ الجمل. والله القدير العليم شهيد على أنى لا أقصد فى هذه الرسائل أن أتملق أحــدًا

ولا أريد إلا إحقاقًا للحق وأن أوضح أصل المسألة لاغير. إن جميع أرجاء مملكة إيران الرحبة ليس فيها جبال مثل شوارع طهران فهى ذات تلال وأحراش، بها أرض وعرة وسباع ووحوش، وفيها كذلك اللور والأكراد وجند الشاه والقشقاى ... إن الكلام الذى هو فى أرجاء الدنيا لب السعادة والشرف والفخر، أراه أنا العبد أنه سوف يكون فى إيران اليوم داعيًا للهرج والمرج والخراب والذلة وعدم الاستقرار وما لا يحصى من المفاسد؛ إذ إننا إلى اليوم لسنا مهيئين لإجراء الإصلاحات وتنفيذ الترتيبات الجديدة، وإذاعة هذا الكلام سوف يصرف عن الناس الرعب وصلابة القدرة الحالية. ولا يخفى ما يترتب على ذلك من عاقبة ! فلنفترض نحن العبيد أن صاحب الجلالة ملك الملوك قد أصدر عن رضا وطواعية فرمانًا بالحرية الكاملة، كما أصدر أوامره إلى المحترم المقدس الحضرة المستطاب حجة الإسلام بأن يشكل مجلس النواب، فماذا أنتم فاعلون؟ فأنتم فى مسيس الحاجة إلى ما لا يقل عن ألف رجل على علم بحقوق الشعوب والدول حتى يتشكل هذا المجلس، ويجب الآن على سائر أفراد الشعب والإدارات التى يرتبط بعضها بعضًا أن يكون على صلة بالعالم. وبحيدة تامة وبعيدة عن الأغراض، أسأل جنابكم أن تحصوا لى مائتى رجل على هذه الصفة. ولا يذهب عنكم أنه إذا ما حفظ أحد كل ما قاله العرب من شعر وقد فهم كل ما فيه من كلام مستعينًا بمعجم ليفهم ما جاء فى مقامات الحريرى فإنه ليس أهلاً لعضوية هذا المجلس، لكن ينبغى أن يكون فى المجلس أولئك الرجال الذين حينما يسألونهم لماذا تهبط قيمة عملتنا يومًا بعد يوم وينقص وزن فضتها عن وزن فضة الفرانك والمارك والشلن والين والروبية يردون ردًّا صحيحًا ويعلمون الطريق لحل المشكلة أو يستطيعون إيجاد الحلول أو التباحث حول سائر الأمور السياسية والمالية والتجارية والزراعية والعسكرية، وهى التى تتعلق بأمور الحياة وتقدم الشعوب. ولكنى أشك فى صحة ذلك، وإذا ما أن تنتخبوا منصفين لا

تستطيعون أن تجدوا فى جميع أرجاء إيران مائة رجل وإلا لمَ تشكون؟ ولمَ تضربون صدركم بالحجر ؟ وإذن فما نتيجة كلامى ؟ وأى هدف لى ؟ هل هدفى هو منع جنابكم من إتمام هذه الإنجازات الناجحة التى فيها خير الشعب وسعادته وفخره ؟ لا والله. أو أن تكون رغبتى هى التضامن مع رجال الدولة تملقًا ؟ لا ؛ إننى أرغب فى أن يكون إتمام هذه الإنجازات على الوجه الأكمل حتى يفضى إلى نتيجة صحيحة، وبناء على ذلك فإذا ما سمحتم أعرض الوسيلة إليها شريطة أن تمعنوا النظر فيها باحثين منصفين، هل من المسلم به أننا فى مسيس الحاجة إلى رجل (أى عالم بعلوم العصر الحديث) لتغيير تلك الحالة؟ أقسم بالله نحن فى حاجة إليه، أقسم بالقرآن وبالرسول وبعلى المرتضى وبالإسلام وبالكعبة وبالدين وبالمذهب نحن فى حاجة إلى عالم ! نحن فى حاجة إلى عالم !!! وإذا ما عرف هذا ؛ فكونوا على ثقة بأن هذا هو أفضل وسيلة للرقى والمساواة والعدالة والسعادة والسيادة وارتفاع رؤوسنا بالعلم ومن يعلمون متقضيات العصر.

وبناء على ذلك ففى يوم القيامة سوف يتعلق الشعب الإيرانى بذيلكم فى حضرة العدالة الكاملة المطلقة وفى حضرة جدك الأعظم، وسوف يقولون يارب إن خيرنا وسعادتنا أمر لم يكن فى يد الشاه ولم يكن فى يد الأتابكة والصدور العظام، ولم يكن فى يد الوزراء، إنما كان فى يد سادة كانوا يستطيعون العمل ولم يعملوا، وتركونا فى الذلة والمهانة والأسر فى يد الدول الأجنبية، وسوف تجيبون سيادتكم قائلين، أنت تعلم أننا جميعا نضج بالشكوى، وإنى أقسمت مع جميع رفاقى على الإصلاح ومضينا إلى حضرة عبد العظيم، وكتبنا رسائل شديدة اللهجة، وسمعنا إجابات عنيفة، وما أكثر أوقات النهار التى عشناها فى ظلام بتحمل ما لايحتمل ولكن دون جدوى. وما ذنبنا ؟ فإن الشعب يجيب بأن كل ما أقدمتم عليه كان منافيًا للصواب وكان أساسكم وبناؤكم كالنقش على الماء لأنهم لم يحققوا شيئًا. وكان ينبغى منذ البداية أن تحيطونا علمًا بمقتضيات العصر وتخلصونا من الجهل

والعمى، وبذلك ينبغى أن نأخذ بأسباب العلم والشرف وسوف يستدلون بنـــاء علـــى الشرح الذى سنورده ويثبتون أن الوسيلة إلى تعميم العلوم ليـــست إلا فـــى أيـــدى العلماء فقط وعندئذ أوقن أن حضرة المستطاب العالى لن يكون له من جواب .

وأسوق هذه الفقرة على سبيل المثال، ثم أخوض فى شرح ما أريد، فـــإن حال السادة العلماء - أى أولئك الذين يوافق رأيهم رأيكم وهم حريصون على الدين والوطن والشعب ويأملون أن تبلغ هذه الأمة أوج السعادة - يشبه حال مـــن مـــلأ المخازن بأنواع الغلال والأطعمة واللحم والسمن وقدم كل هذا إلى جمع كثير مـــن الأطفال الذين كادوا يهلكون جوعًا وهم يقفون على هذا الباب أو ذاك يسألون عـــن كسرة خبز، أو كشخص وضع جميع لوازم الطعام فى قِدر ووضـــع تحـــت القـــدر الحطب، وحمل كومة من القش فى يد ومصباحًا فى اليد الأخرى، وأخـــذ يطـــوف على باب كل جيرانه يسألهم شيئًا للوقود حتى يشعل ما تحت القدر، ولم ينتبه أنـــه يملك فى يديه نارًا وإذا وضع كومة القش (التى فى يده) فوق المصباح لاشتعلت .

وكفى أن نطلق الحكم بعرض الأمثلة، فأنا أعرض هـــذا الطلـــب وأختـــم المذكرة بدعائى لكم، فلم تصل أى من الدول المتمدنة قط إلى أوج درجات العـــزة والرخاء إلا عندما اتحدت الحكومة مع الشعب واهتم كل منهما بأمر الآخر واتفقـــا على إصلاح العيب، وهيئوا أسباب رقى الشعوب. وهذا الاتفاق والاتحاد لم يتيـــسر لأية دولة أو لأى شعب إلا عندما يستنير أفراد وطوائف ذلك الشعب بنـــور العلـــم والخلق ويتربون على ذلك .

وما من ملك أو إمبراطور طاب نفسًا بأن يشرك الشعب معه فى سلطته أو أن يستشيره فى أمر سوى صاحب الجلالة ميكادو موتسوايتو إمبراطـــور اليابـــان، وبزوغ نجم اليابان لهو من عجائب الزمان، وما كان أفضل من اليابان مثالاً تحتذيه الشعوب التى ترقد فى سبات الغفلة .

وفى هذا الموضع بسط القول عن اليابان وحكمها النيابى.

وقد أقيمت عدة مدارس خلال الإحدى عشرة سنة الأخيرة ولكنهـا كانـت مدارس ناقصة معيبة ولم تكن سوى اسم بلا مسمى، ولذا لم تستطع أن تنجز عملاً مثلما أنجز ميكادو. وفى رأيى أن ميكادو يمتلك كذلك السيادة الروحيـة والدينيـة ويعده الشعب اليابانى ولى أمرهم، فكان تنفيذ أوامره هو الأكثر، وأما ما نهى عنـه فى الأمور الروحية فكان أقل القليل.

وبما أن إنشاء المدارس الوطنية فى إيران من واجب السادة علماء الـدين، ومن حسن الاتفاق أن إنشاء المدارس الوطنية فى إيران وأسباب نشر العلوم إنمـا يقوم على أصول الشريعة المطهرة، وهذا ما لا نجد مثيلاً له فـى أى بلـد آخـر. وسائر الشعوب حينما تصحو من سبات الغفلة إنما تفكر فى تعليم الشعب وما أكثر ما تكبدت من مشاق وما أقصى ما بذلت من جهود حتى ينشئوا مدرسة واحدة، أما فى إيران فيوجد العديد من المدارس الوطنية فى وقتنا الحالى، ولجميعهـا أوقـاف أوقفت عليها ونظم خاصة بها، وفى طهران وحدها لدينا ما يقرب من مائة وخمسة وثلاثين مدرسة وطنية بين كبيرة وصغيرة، وللمدارس الوطنية وجود كـذلك فـى سائر إيران حتى الأقاليم منها. وبذلك نملك فى إيران على وجـه الإجمـال ثلاثـة آلاف مدرسة، ولكن هذه الوسائل بقيت معطلة ضائعة بسبب سوء إدارتها، وهـى لاتفيد الشعب بأية فائدة. ففلان راعى البقر الطالقـانى أو المـزارع المازنـدرانى يلتحق بالمدرسة فى العشرين من عمره ويشغل الحجرة ويستهلك ما يدفعه الوقـف، ويحملون جثته من المدرسة وهو فى السبعين وهو يحتار فى كتابة ميم الكلمـة ولا فرق فيما تعلمه من اليوم الأول. وقد أوجدوا هذه المدارس الوطنيـة علـى أنهـا مدارس للكسالى، ولا أذكر كم من مجتهد تخرج من مدارس إيران فى هذه المـدة. وهم يفسدون نظم المدارس على أنها مخالفة للشريعة وتخالف مقـصود أصـحاب

الوقف، وفى إمكانى أن أقسم بشجاعة أن النظم الحالية للمدارس الوطنيــة لا تتفــق مع الغرض الأصلى للواقف عليها مطلقًا، ولكن فى الإمكان أن تجد جميــع هــذه المدارس مسارها الصحيح مع قدر من اهتمام السادة العلماء ورعايتهم، ولا تصبح المدرسة الوطنية نزلاً ولا فنادق وتكون مهمتها مع ما يريده الــسادة. وينبغــى أن يعينوا لها منهجًا وجدولاً للدراسة، وأن يقرروا فترة الدراسة، وأن ينظمــوا هــذين الأمرين ويهيئوا الأسباب لهما، ويجعلوا فى جدول الدراسة فى كل مدرسة نــصيبًا من علوم العصر الحديث يلزمون الطلبة بدراسته، ولا يمضى اثنا عشر عامًا دون أن يتخرج الطلبة من هذه المدارس. وحينئذ يكون لإيــران علمــاء بقــدر كــاف يستطيعون أن يقولوا وينفذوا كل ما هو قائم على العلم والعقل بدلاً من ذلك الهــراء الذى لا طائل منه.

قسمًا بالله أن شديد الحزن ليأخذنى حينما أفكــر أن كــل هــذه الوســائل والأسباب تظل معطلة ضائعة، ولو أن هذا النظام الخاص بالمدارس الوطنية يعــد أمرا هينًا، إلا أنه من الأهمية والعظمة حيث إنهم يذكرون مؤســسيها وأســماءهم مقرونة بالثناء عليهم وطلب الرحمة لهم .

وقد قدمت إلى سيادتكم جوهر هذا الفكر، وفى اعتقادى أنه ســيكون لــى الأجر الجميل فى العالم الإنسانى والإسلامى. والآن أقدم هذا الأمر لكــى يحظــى بالدراسة والتمحيص وإمعان النظر من قبل كل المجالس والاجتماعات. ولما كــان ضعف بصرى يحول بينى وبين بسط الكلام فى هذا الشأن أكثر من ذلك، فأنا أرى أن تعرض مذكرتى هذه على سائر السادة العظام الذين يتفقون مــع ســيادتكم فــى الرأى، وأتمنى من الله سلامتكم والعزة والإقبال لكــم ومــن معكــم مــن الــسادة العظماء".

"العبد المحب لوطنه المؤمن بشعبه الصديق الحقير".

مقتل السيد عبد الحميد:

على هذا النحو ظهر العداء بين المجاهدين والدولة، وكان واضحًا أن عدم مبالاة عين الدولة أفسد ما بينهما، وسوف يتمخض ذلك عن أحداث جديدة، وفضلاً عن ذلك فإن الحاج الشيخ محمد الواعظ لم يكن يتحكم فى أقواله هذه الأيام، وأخذ يبسط لسانه فى مذمة عين الدولة من فوق المنابر، فأمر عين الدولة بإلقاء القبض عليه، وفى يوم الأربعاء التاسع عشر من شهر تير (١٨ جمادى الأولى) وبعد مضى ساعتين من بزوغ نهار ذلك اليوم، وعندما كان حاجى الشيخ فضل الله ممتطيًا حماره ويمضى برفقة أحد خدامه فى ضاحية سربولك وعلى حين غرة - هجم أحمد خان ياور عليه من الخلف هو وجماعة من الجند، وحينما شاهدهم الشيخ محمد جذب لجام حماره ووقف، فجاء أحمد خان وقال : لنمض باسم الله. فسأله : أتعرف من أنا ؟ وإلى أين نمضى ؟ فرد عليه قائلاً: أنت حاجى الشيخ محمد الواعظ وينبغى أن تمضى معنا إلى منزل عين الدولة. ودون أن يدرك ماذا يفعل، اضطر إلى أن يسلم نفسه إليهم، والتف حوله الجند ومضوا به صوب منزل عين الدولة. ولكن حينما وصلوا إلى مسجد ومدرسة حاجى أبى الحسن المعمار وقف الطلبة على جلية الأمر وحالوا دونهم بالتعاون مع من فى السوق، ولم يشأ أحمد خان أن يلجأ إلى استخدام العنف معهم، فأنزل حاجى الشيخ محمد من صهوة حماره، وحبسه فى مخفر الشرطة الذى كان قريبًا من هناك واحتشد الناس حول المخفر. وأثناء ذلك بلغ الخبر بهبهانى فأرسل ابنه السيد أحمد مع بعض الأشخاص لإطلاق سراحه، وازداد الناس حماسًا بعد وصولهم، وأثار أديب كرمانى ثائرة الناس وتقدمهم وأغاروا على مخفر الشرطة واقتحموه وحملوا حاجى الشيخ محمد على أكتافهم ومضوا به، فأمر أحمد خان بإطلاق الرصاص، فأطلق الجند

الرصاص فى الهواء وأصيب أديب الذاكرين برصاصة طائشة أسقطته على الأرض إلا أنه نهض ثانية ومضى .

أثناء ذلك كان أحد الطلاب ويدعى السيد عبد الحميد عائدًا من المدرسة ولما وصل إلى الجمع وشاهد ما حدث وقف أمام أحمد خان وأخذ يوبخه قائلا : كأنك لست مسلمًا ؟! .. فغضب أحمد خان وأخذ بندقية أحد الجنود وتوجه صوب السيد وأصاب صدره الأيمن برصاصة نفذت من ظهره، وسقط فى التو على الأرض، وحمله الناس وأسرع الجميع نحو المدرسة، وكان أديب لا يزال على قيد الحياة، وطلب ماء ليشربه لكنه توفى قبل أن يحضروه إليه.

مسح حاجى الشيخ محمد رأسه ووجهه بدمه وجعل ينتحب ويصيح، كما أخذ النساء والرجال كذلك فى النحيب، أثناء ذلك وصل سيف الدين ميرزا مدير المدفعية مع جمع من جنود القوزاق لمساعدة أحمد خان إلا أنهم وصلوا متأخرين، وحينما رأوا الحشد واللغط حملوا جثة السيد حتى لاتقع فى أيدى الناس ومضوا. وخشى الناس أن يحملوا كذلك أديب الذاكرين فأخذوه وأوصلوه إلى داره. أثناء ذلك وصل صدر العلماء مع جماعة من الطلبة ومؤيدى السيد إلى هناك وازداد الثوار حماسًا برؤيته، وأسرع أحد الشباب ويدعى على كوهى مع جماعة فى أعقاب القوزاق ولحق بهم، واستولى على جثة السيد بالقوة والعنف وأعادوها .

وأمر صدر العلماء أن يحملوا جثمان السيد ويتوجهوا به صوب مسجد الجمعة، فحمل الناس الجثمان بهذا الحشد ومضوا باكين منتحبين. ورويدًا رويدا وصل النبأ إلى المدينة وأقبل المجاهدون على عجل من أرجاء المدينة وأغلقت الأسواق والخانات والحوانيت. وبهذه الكيفية دخل الثوار المسجد الجامع، وفى البداية حضر من العلماء بهبهانى ثم تبعه الشيخ محمد رضا القمى ثم طباطبايى

ومع كل منهم جمع غفير. وعلى هذا النحو قامت ثورة عظيمة فى عاصمة إيــران وصمد الناس فى مواجهة الدولة، ومضى إليهم أيضًا حاجى الشيخ فضل الله ودخل المسجد مع جماعة ورافقه جميع العلماء الكبار طوعًا أو كرها ماعدا إمام الجمعــة الذى لم يكن فى المدينة وحضر جميع التجار وأهل الــسوق وكــانوا يجاهــدون. وأحضر البزازون خيمة كبيرة وأقاموها فى فنــاء المــسجد وأحــضروا الأوانـــى والأوعية وبعض أدوات المنزل وكل ما يحتاجون إليه من ديــارهم، وفـــى هــذه الحادثة كان للنساء دور كبير حيث كن يصحبن الرجال فى إحضار رجــال الــدين إلى المسجد كما كان يوجد بعضهن فى المسجد .

تشاور العلماء فيما ينبغى عمله واتفقوا على المطالبة بإقامة محكمة وعــدم الخروج من المسجد طالما لم تتحقق رغبتهم، وقال بعضهم : نطلب عــزل عــين الدولة. فقال طباطبايى : إذا أقمنا المحكمة لن يكون عين الدولة فى عــداد البــشر. وغسلوا جثمان السيد وعرضوه فى المسجد، وعلى ما جرى به العرف فــى ذلــك الوقت التفوا حول الجثمان وجعلوا ينوحون ويضربون صدورهم.

وقد نظمت الأشعار فى رثائه على نحو ما ذكر بروان وغيــره، وســوف نذكر منها بعض الأبيات :

قدم غافل من الطريق ولا علم له بالأمر

ووضــــع أصبـــع حيرته فـــى فمـــه

ووقع نظره على الشعب وهو فى ذهول ودهشة

مما يصنع الفلك ومن شغب النساء والرجال

وعلى حين غرة أطلق رئيس الجند الدون

رصاصة بلا مبالاة على جسد شمعة المجلس فأزهقت روحه

وكأنما قتل الحسين مجددًا بجور اليزيد

وصار عبد الحميد قتيل عبد المجيد[1]

ليكن مقبولاً كل القبول عند الله

قربانـــــك الجديـــد يا أيها الرســـول

قصة مسجد الجمعة :

فى ظهيرة ذلك اليوم دخل فوج من جند المعسكر إلى المدينـــة، ونـــصبوا المدافع فى الشوارع وقاموا بالحراسة. وفى ليلة الخميس، كانوا ينادون فى النـــاس من قبل الدولة:" أيما شخص لن يفتح دكانه أو حانوته من الغد سوف تنهب ســـلعته ويؤخذ بالعقاب". وأخذ المنادى يطوف بالشوارع والضواحى معلنًا هذا البيان مـــن الساعة الخامسة مساء وحتى دنو الفجر. وفى الغد عندما خرج الناس من المنـــازل شاهدوا كثيرًا من الجند ورجال المدفعية فى الشوارع والطرقـــات خاصـــة حـــول القصر الملكى (ارك) كما وجدوا فى ميدان سبزه وفى الأسواق المجاورة لمـــسجد الجمعة أعدادًا غفيرة من الجند.

وكان عين الدولة يتخوف من نشوب معركة، وببعد نظره كان قـــد جلـــب الجيش كله داخل المدينة، فى حين أن مثل هذا التفكير كان بعيدًا كـــل البعـــد عـــن السيدين وغيرهما من رؤساء المجاهدين، وما كانوا يريدون تحقيق مطلبهم إلا عن

---

[1] كان عبد المجيد اسم عين الدولة. (المؤلف).

طريق السلم والتمسك بالهدوء. حقيقة أن بعضهم كان يحمل المسدسات وبعض المعدات، وسوف نذكر العمل الأحمق الذى كان من السيد محمد رضا الشيرازى ومع هذا فلم يكن أولئك الزعماء يبغون القتال.

وقد لامهم بعض الأشخاص قائلين : لِمَ لمْ تحاربوا ولم تعدوا الأسلحة من قبل ؟ لكن هذا النقد لم يكن بناء على حسن فهم وتفكير. إنهم قوم لم يحاربوا، ولو احتشدوا لن يستطيعوا الحرب وسيعجزون عن الصمود فيها، كما أن أولئك الملتفين حول السيدين لو أرادوا خوض الحرب فلن تكون لذلك نتيجة سوى التعلق بأذيال الفرار بعد طلقة واحدة وسيقتل منهم خلق كثير. لذا اتخذ عين الدولة هذا مبررًا له وألقى القبض على الزعماء وأرسل كلاً منهم إلى مكان بعيد، ولقد أحسنوا صنعًا بما فعلوا .

واليوم قدم عين الدولة إلى المدينة من نياوران محاطًا بفرقة من الفرسان وبصحبته الأمير بهادر ونصر السلطنة، وكان يريد أن يقف على جلية الأمر وأن يجد الحل عن قرب، وعندما جلس للتشاور مع رفقائه اقترحوا أن يصمدوا ضد هذه الثورة وأن يبطشوا بالثائرين. فما كان منه إلا أن أرسل شخصًا إلى المسجد وأبلغ العلماء رسالة فحواها : "امضوا إلى دياركم حتى ننظر فى مطالبكم ". فأجابوا عليه بشجاعة قائلين :" إن هدفنا هو تأسيس مجلسٍ للعدل حتى لا يُظلم أحد بعد الآن أو يتعرض للعدوان، ولما كان عين الدولة معارضًا لوجود المحكمة ولم ينفذ أمر الشاه، إذن فهو خائن للدولة والشعب وينبغى أن يقتلع من منصب الوزارة".

أدرك عين الدولة أن العداء معه هو شخصيًا وتشدد فى الصمود أمامهم. واليوم حالوا دون خروج النساء، وكانوا يقبضون على كل من يشاهدونها منهن ويحتجزونها فى مخفر الشرطة. وقد وقع بالأمس عراك بين مجموعة منهن وبعض

الجند والقوزاق. ولم يفتح اليوم أحد دكانه سوى بعض الخبازين وما أشبههم رغم ما أصدرته الدولة من بيانات، وكثر الزحام فى المسجد وما حوله، وقبل الظهر عقدوا مجلسًا لختم القرآن على السيد عبد الحميد وقرأوا الروضة. وصعد الوعاظ المنابر وبسطوا ألسنتهم فى مذمة عين الدولة وأعماله. وفى وقت الظهيرة قام البزازون بعمل آخر وهو أنهم ربطوا قميص السيد الدامى فى رأس عصا وجعلوه راية والتف حولها جماعة منهم، وعلى نحو ما كان يفعل المحزونون فى ذلك الوقت، جعلوا ينوحون ويضربون صدورهم قائلين :"محمد يا محمد، أنصف صيحة الأمة يا محمد". وفى البداية دخلوا المسجد عدة مرات ثم خرجوا إلى السوق وطافوا حول مسجد الشاه ومسجد الجمعة وعادوا ثانية. وكان ميرزا مهدى بن حاجى الشيخ فضل الله أحد الطلائع فى هذه الأحداث، ولهم من تلك مقصدان : أولهما : أن يثيروا حماس الناس وأن يجددوا ارتباطهم بالمسجد. والآخر : أن يخيفوا الجند ورجال المدفعية ويلزموهم حدهم.

ظل العلماء والرؤساء فى المسجد ليلة الجمعة وقضوا معظم الليل فى قراءة الروضة والدعاء والصلاة، ثم ناموا واستيقظوا ثانية فى الفجر ورفعوا أصواتهم بالصلاة والدعاء من فوق السطح وما حوله، وكان بعضهم يرفع صوته قائلاً :" يا أالله " حتى يسمعهم الجنود المناوئون فى تلك النواحى. وفى يوم الجمعة تزاحم الناس ثانية فى المسجد وما حوله وبلغ الزحام إلى حد أن وقفوا على الأسطح، لذا ضاعفت الدولة من عدد الجند ورجال المدفعية الذين انتشروا فى تقاطع الطرق وما حولها. وكانوا فى ذلك اليوم يقومون بقراءة القرآن على روح السيد عبد الحميد .

لهذا ينبغى أن نقول إن ذلك اليوم كان يومًا لقراءة الروضة، وهو عمل ألف الإيرانيون القيام به على الدوام، وكانت تقرأ الروضة فى كل مكان يجتمع فيه

الناس وفى كل مسجد أو محفل، حيث يذكرون موقعة كربلاء وقصتها ويبكون، ووصل بهم الحد إلى درجة قراءة الروضة فى حفلات العرس. وفى اجتماعات المجاهدين هذه كانوا جميعًا يقرأون الروضة سواء من كان منهم فى حضرة عبد العظيم أو من عادوا إلى طهران أو من كانوا يجلسون حينئذ فى مسجد الجمعة، وخاصة حينما تُذكر قصة مقتل "السيد" حيث كان هذا نفسه باعثًا لقراءة الروضة وإعلان الحداد على قتلى كربلاء.

واليوم استقدموا كذلك بعض الأشخاص ممن يضربون صدورهم حيث جعلوا من قميص السيد وعمامته رايتين، وظهرت جماعتان كل منهما تتبع الأخرى فى رفع الرايات، وشاعوا ثانية أن يخرجوا كي يطوفوا فى الأسواق ويدقوا الصدور ثم يعودون فلم يوافق بهبهانى على هذا، وكان يقول: " ربما لن يتركوكم ويطلقون عليكم الرصاص". فقالوا : "ذهبنا بالأمس ولم يمنعنا أحد". فقال العلماء: "لقد أبعدوا الجنود بالأمس أما اليوم فقد صدرت الأوامر لهؤلاء الجند الذين يقفون حول المسجد فى أفواج بإطلاق الرصاص". قالوا:" نحن لا نملك معدات للقتال حتى يطلق الرصاص علينا ". وبهذه الصورة صمموا على الخروج.

وفى الحقيقة أنهم لم يظنوا قط أن يطلق الجند الرصاص على رجال الدين، لذا ضاقوا ذرعًا بالمسجد وسئموا عدم إقدامهم على عمل، وكانوا يريدون أن يحثوا أنفسهم على العمل والثورة .

ومضى الفوج الأول على النحو التالى: مرت مجموعة من الأطفال أمام السيد، ولفت مجموعة أخرى من السادة والطلبة العمائم حول أعناقهم وحملوا المصحف فى أيديهم ومضى خلفهم من يدقون على صدورهم وتقدموا ناحية الميدان. بيد أنهم لم يبلغوا الميدان حيث حال الجند دون ذلك ولكنهم أرادوا تجاهل

أوامرهم حيث ضغط الناس عليهم من الخلف. وفجأة أصدر القائد أوامره بـإطلاق الرصاص، فرفع الجند البنادق إلى أعلى وأخذوا فى إطلاق الرصاص، فاضطرب الناس ثم جلسوا، وأثناء ذلك رشق الأطفال – الذين كانوا يجلسون على السطح – الجند بالأحجار، فأصدر القائد أوامره ثانية بإطلاق الرصاص، فعاود الجند إطلاق الرصاص، وفى هذه المرة أصيب عدد غفير من الناس وخروا على الأرض واضطرب الآخرون وتملكهم الفزع وزحفوا مندفعين إلى المسجد، ونشبت ثورة كبرى، واختلط الرجال بالنساء، وأخذ كل منهم يبحث عن ذويه وتعالى النواح والعويل من كل جانب.

التف عدد كبير من النساء والرجال حول العلماء وقد غلبهم البكاء والنواح بلا وعى، ومضى وقت طويل حتى قر قرارهم ثانية. وكان بعضهم يريد أن يهب للقتال على قلة ما لديهم من أسلحة إلا أن العلماء لم يسمحوا لهم بذلك.

لقد عادوا بقتيلين، أحدهما السيد مصطفى (الإمام). والآخر هو الحاج السيد حسين الذى أحضروه إلى المسجد، وكان شيخًا فاضلاً أصيب برصاصة فى صدره، كما جُرح آخرون.

لم يعرف الناس على وجه التحقيق عدد القتلى، لأنهم حين ولوا هاربين كان الجند يحملون كل من سقط منهم سواء قُتل أو جُرح ويبعدونه، وقد دفعوا بهم جميعًا إلى مخزن دون أن يداووا الجرحى، وكانوا يملأون بعض المركبات بالقتلى ليلاً ويمضون بهم خارج المدينة، وقد ذكر مؤيدو الدولة أن عددهم بلغ اثنى عشر رجلاً، لكن يقول آخرون إن عددهم كان يربو على المائة .

كان القائم بهذه الأعمال من قبل الدولة هو نصر السلطنة وكان على جان من مؤيديه، وقد أبدى جهدًا عظيمًا وذاع صيته منذ ذلك اليوم، وبعد تلك الحادثة

قدم نصر السلطنة وسيف الدين ميرزا وجلسا فى الميدان حتى يصدرا الأوامر عن قرب وينجزا عملهما، وأرسلا قائدًا مع خمسين من رجال المدفعية حتى يقيموا استحكامات فوق سطح السوق، ومن ناحية أخرى أرسلا مجموعة من حاملى البنادق أعلى شمس العمارة ليدكوا المسجد، كما منعوا الماء من الوصول إلى المسجد.

أثناء ذلك وقع حادث آخر فى المسجد، وهو أنه بعد عدة ساعات من الحادث وما كادت القلوب تقر ويعود اللون إلى الوجوه حتى تصاعد فجأة صوت البنادق من بين الناس وانطلقت رصاصتان إحداهما تلو الأخرى، وهكذا أدرك الناس أن الجند اندفعوا نحو المسجد وأنهم سوف يطلقون فيه الرصاص، وما كان إلا أن عم الاضطراب وولوا هاربين، وكان منهم من يبحث عن ملاذ له، كذلك فر العلماء من صحن المسجد إلى إيوانه وقد شجت وجوههم وارتعدت فرائصهم وانشغل كل منهم بالبحث عن أبنائه وذويه .

فى ذلك الوقت صدر تصرف من المرحوم بهبهانى يدل كل الدلالة على شجاعته وعظمته، حيث اتجه على الفور بنفسه إلى مكان مرتفع وفتح صدره وتوجه إلى الناس وقال بصوت مرتفع: " أيها الناس لاتخافوا ولا ترهبوا، إن هؤلاء لهم شأن معى، وها هو ذا صدرى فأين من يجعله الهدف ؟ فالشهادة والقتل ميراثنا ". ووقف مدة وتكلم فى هذا الصدد، وعاد الناس ثانية وغمرت السكينة قلوبهم.

فى هذا اليوم [1] صدر حادث غير لائق من قبل السيد محمد رضا الشيرازى وهو أنه وصل إلى جندى من جند القوازق، وأطلق عليه رصاصة من

---

[1] ذكر فى " تاريخ بيدارى" : "فى هذين اليومين" ولكننا نرجح كل الترجيح أنه يوم واحد. (المؤلف).

إحدى البنادق فأودت بحياته بعد ساعات، وسوف نعرف هذا الرجل علـــى حقيقتـــه جيدًا إذ كانت كل أعماله على الدوام فى غير محلها كما كان شره أكثر من خيره .

تفرق الأهالى عن المسجد :

تدل هذه الأحداث على تشدد عين الدولة فى معالجة الأمور وعدم تورعـــه عن سفك الدماء من ناحية، كما تظهر خوف الناس وعدم قدرتهم على الصمود من ناحية أخرى. وعلى وجه الإجمال فإن مستقبلاً مخيفًا كان يُـــرى، ولـــو أن الجنـــد أغاروا على المسجد فإن جماهير الناس لم تصمد، بل سارعوا بالفرار، ولو أنهم لم يغيروا على المسجد واكتفوا بمنع الطعام والشراب وحاصروهم وصمدوا عدة أيام، لضاق الناس وتفرقوا رويدًا رويدًا وانتهى أمرهم بالذل وتنكيس الرؤوس خنوعًا .

لو كان هذا العمل قد قام على أساس من المنطق، فبدلاً من أن يصل الأمر إلى هذا الحد حيث ثارت حشود الأهالى وأريقت الدماء، لما بقى أثر لـــذلك العنـــاد وكان ينبغى أن يمحى عاجلاً أو آجلاً. أما واقع الحال فـــإن عـــين الدولـــة كـــان منصرف الذهن تمامًا عن هذا التفكير، وما كان مظفر الدين شاه فى ذلـــك الوقـــت سوى أداة فى يده. وكان عين الدولة يتخذ العبرة من أحداث الروس، فقد وجد فـــى روسيا أنصارًا للحرية منذ طويل زمان، وكانوا يبذلون كل جهد، ويريقون الـــدماء، بيد أن الدولة صمدت وكانت تحول دون إتمام ذلك باستخدام القوة. لهذا كان يريـــد أن يسلك نفس الطريق، وكان أمره بإقامة الاســـتحكامات فـــوق أســـطح الـــسوق، وإرسال حاملى البنادق إلى أعلى العمارات ينبئ عن دخيلة نفسه.

إذن ما الذى ينبغى فعله ؟! وهنا بدر عن السيدين حل ذكى، فأثنـــاء ذلـــك كان يأتى البعض من قبل الدولة قائلين لهما :" فرّقا الناس ولا تكونـــا ســـببًا فـــى الشغب ". ووصلت رسالة من الشاه شخصيًا فى هذا الصدد عن طريق ابنه عـــضد

السلطان، عرضها كل من المرحوم بهبهانى والمرحوم طباطبايى وطلبا من النـــاس أن يتفرقوا، فأبى الناس، فألح السيدان على ذلك، فقال الطلاب :" نحن لاننفضُّ من حولكما ولا نسمح للناس بأن ينفض جمعهم ويمضوا ويفتحوا الأسواق".

فحمل بهبهانى المصحف فى يده واستحلفهم بـــالله أن يتفرقـــوا ويفتحـــوا الأسواق وقرأ عليهم الرسائل التى كانت قد وصلت من قبل الشاه والحكومة، وقال: "أيها الناس، أنتم تبغون إقامة العدل من الحكومة، ولم تـــسمعوا منهـــا ردًّا ســـوى طلقات الرصاص، وسوف يتصاعد الأمر، فينبغى أن تمضوا فى أقرب وقت".

وقبيل المغرب تفرق الناس ومضوا إلى ديارهم ولم يبق فى المسجد سوى العلماء وذوى قرباهم والمتصلين بهم والطلبة وبعض الخواص.

وفضلاً عن جثمان السيد عبد الحميد الذى دفنوه فـــى صـــحن المـــسجد، أرسلوا كذلك جثمان حاجى السيد حسين ودفنوه فى ضريح الإمام زيد .

وكانت ليلة السبت بالنسبة للمجاهدين ليلة حزن ويأس، حيث عـــاد النـــاس إلى منازلهم بقلوب منكسرة، وبقى العلماء فى المسجد فى جمع قليل. وفى هذه الليلة بدرت هفوة من ميرزا مصطفى آشيتانى وذلك أنه خرج من المسجد بحجة مـــرض والدته، ومضى إلى منزل الأمير بهادر ودخل إليه من باب المودة، وقـــضى تلـــك الليلة فى منزله، لكنه حين عاد إلى المسجد فجرًا برفقة رجاله تـــوجس الآخـــرون، وظنوا به ظن السوء.

فتحت الأسواق يوم السبت وقام الناس بأعمالهم، لكـــن الجنـــد والقـــوازق ورجال المدفعية ظلوا فى أماكنهم وامتلأ بهم كل ركن، وصاروا أكثر شدة مع مـــن فى المسجد بأمر من عين الدولة بحيث إنهم لم يسمحوا لأى شخص يريد بالدخول،

لكنهم لم يمنعوا أحدًا من الخروج، كما منعوا عنهم الخبز والماء وأنواع الأطعمة الأخرى دفعة واحدة.

وتقول جريدة الحبل المتين التى أوردت هذه الأحداث بعد عدة شهور (بعد منح الحكم النيابى):" كان من المقرر أن يهجم الجند، ويقيدوا أربعة أشخاص فى المسجد ويحملوهم، وهم: آقا السيد جمال قارئ الروضة (الواعظ)، وحاجى الشيخ محمد الواعظ، وحاجى الشيخ مهدى الواعظ، وميرزا باقر قارئ الروضة [1]، ولا أعلم لِمَ لمْ يقوموا بهذا العمل" ؟

ولما كان كاتب هذا المقال هو السيد حسن شقيق صاحب الجريدة، وكما أسلفنا الذكر أنه اتصل بعين الدولة آنذاك وكان يعمل لحسابه، لذا يمكن القول إن عين الدولة كان قد عقد العزم على ذلك، لأن أولئك الوعاظ بسطوا ألسنتهم فى ذم عين الدولة من فوق المنابر، وكما ذكرنا سالفًا أنه كان غاضبًا شديد الغضب على كل من السيد جمال وحاجى الشيخ محمد.

وعند اقتراب الظهيرة قدم نصر السلطنة إلى العلماء وقال :"أنا مكلف من قبل الدولة بأن أعيدكم إلى دياركم، وسأعيدكم بكل احترام". فأجابوا عليه بشجاعة: " طالما لم يأت جندى ويجبرنا على الخروج، فلن نغادر هذا المجلس وذلك المسجد. إما أن تقام المحكمة وإما أن تقتلونا ". وحينما رأى نصر السلطنة ما لديهم من صمود أدرك أنه إذا ما أقدم على عمل ثارت الفتنة، ورغم ما يتصف به من حدة ورعونة، فإنه أبدى اللين وانصرف.

اشتد أمر الخبز والماء، وكان الناس فى كربهم وتوسلهم يرسلون بعض الأشياء مع الجند فى ظلمة الليل، لكن دون جدوى فما أشبع لهم جوعًا وما روى

[1] لا نعلم من هذا الشخص. (المؤلف).

لهم ظمأ : واليوم اقترح بهبهانى على المقيمين أن يمضوا كى لا يصيبهم أذى بسببه، وقال : " إنما العداء بينى وبين الصدر الأعظم وليس بينكم، فلتمضوا ولتحرروا أنفسكم ". فلم يقبلوا منه هذا ولم يتراجعوا عن رفقته، ومضى هذا اليوم على هذا النحو.

وفى يوم الأحد الموافق الثالث والعشرين من شهر تير (الثانى والعشرون من جمادى الأولى) اشتدت وطأتهم على من فى المسجد، وكانوا يحولون دون دخول أى شخص إلى المسجد أو حمل شىء إليه. وفى ذلك اليوم كان الوسطاء يغدون ويروحون، وكانوا يحضرون الرسائل السرية من عين الدولة إلى بعضهم. وكانت رغبته أن يوقع الفرقة بينهم وأن يعزل بعضهم عن بهبهانى وينتقم منه. بيد أنه لم يستطع إنجاز شىء، ولم يلق العلماء - الذين كانوا موجودين - سمعًا لترغيبه أو تهديده ولم ينفضُوا عن بهبهانى .

ذُكر فى تاريخ بيدارى عن الشيخ محمد رضا القمى أن عين الدولة أرسل إليه رسالة ووعده بمنحة إذا ما خرج من المسجد، لكنه أبدى شجاعته فى الصمود أمامه ورفض منحته، وعلم بهبهانى بذلك فأثنى عليه.

وهكذا كانوا يضغطون، واشتد الأمر عليهم، وكان ينبغى إيجاد الحل، فاقترحوا فى ذلك اليوم :" إما أن تنشئوا المحكمة وإما أن تقتلونا ولا شأن لكم بالآخرين، وإما أن تفسحوا لنا الطريق فنمضى عن المدينة ".

وبعد غدو الوسطاء ورواحهم قبلت الدولة الحل الثالث، وأصدر الشاه أمرًا بأن للسادة الحرية التامة فى الذهاب حيثما شاءوا. فقالوا :" سوف نذهب إلى العتبات". وطلبوا من الشاه إذنًا بهذا الأمر، وبعد منتصف ليلة الاثنين بساعة تفرقوا عن المسجد، وعاد كل منهم إلى داره مع أقاربه وذويه ليعدوا أنفسهم للرحيل. وعلى هذا النحو انتهى حادث مسجد الجمعة.

وأظهرت جريدة الحبل المتين سوء جوهرها فى هـذا الموضـع كـذلك، ونشرت مقالاً مخجلاً من ألفه إلى يائه دون أن تكتب عن الحـادث. ولـو كانـت لا تؤيد المجاهدين فكان ينبغى ألا تظهر ذلك، وأن تكتب الحدث كما وقع، بيد أنهـا أخفت الواقعة مرة واحدة ولم تذكر أحدًا من المجاهدين واكتفت فى المقال بكتابـات بذيئة وتلفيق الأكاذيب. ومن الواضح أن أخاه السيد حسن قد أرسلها من طهـران، ويحق القول إن الكاتب استخدم ذكاءه فى طريق خبيث، فيقول فى مستهل المقـال: "ما دام الجهل يسيطر على قوم والسفاهة والغباء تستحوذ على شعب فهم لا يعلمون خيرهم، ويقومون بتحركات وحشية بإلقاء شبهات المغرضين ويقولون كلامًا يـدل على الجنون. ومعلوم أنه لا نصيب من الحرية لقوم هذا شأنهم، وأى شعب تجـرى عليه هذه الصفات لن تجد السعادة إليه سبيلاً".

والمقال بأكمله على هذا المنوال، فيقول بـلا اسـتحياء : "حينمـا شـاهد الأجانب أن الأتابك الأعظم يصحح أمور الدولة ويسعى فى تقدم إيران، أثاروا عليه أولئك ليفسدوا عمله ". وقد جعل عين الدولة إيران وفق مراده بصلابته لذا توجس الأجانب من نتيجة أفعاله وتملكهم الذعر وإلى هذا الحد يبلغ كاتب الجريدة منتهـاه فى عدم الفهم والكذب !!

هجرة العلماء إلى قم:

وفى الليلة نفسها، ومع طلوع الفجر، خرج بهبهانى وطباطبـايى وصـدر العلماء وغيرهم من المدينة متجهين إلى ابن بابويه (مكان بالقرب من عبد العظيم) حتى ينضم إليهم الباقون، وقد رافق السيدين جميعُ رجال الدين والطلاب وغيـرهم ممن كانوا فى المسجد .

وفى هذه المرة رافقوهما وانضموا إليهما مستقلين العجلات والمركبات وممتطين الجياد، وقد ذُكر أن بعضهم مضى سيرًا على الأقدام. وقضوا ذلك اليوم فى ابن بابويه وسلكوا الطريق ليلاً .

وأما حاجى الشيخ فضل الله – الذى كان قد تأخر – فقد أعد نفسه للسفر وتوجه إليهم بعد يومين مع مؤيديه، وانضم إليهم فى كهريزك. وكان عين الدولة شديد الرغبة فى ألا يترك الفرصة تفلت من يديه هذه المرة، لكنه لم يستطع فعل أى شىء .

وعلى وجه الإجمال كانوا قرابة الألف شخص، ولما كانوا يطوون الطريق رويدًا رويدًا فقد بلغوا قم فى اليوم الثلاثين، ومع أنهم كانوا قد خرجوا لبلوغ العتبات بيد أنهم بسطوا بساط الإقامة هناك واستقروا .

من ناحية أخرى كانت الأسواق مفتوحة فى طهران وعم الأمن والهدوء بين الناس، كذلك ظل الجند والقوزاق ورجال المدفعية فى المدينة على هذه الحال عدة أيام، حيث وقف الجند والقوزاق فى الأسواق على بعد خطوات من بعضهم بعضًا، وكان الظن أن الدولة قد انتصرت واستأصلت جذور الثورة. والأمر لم يكن كذلك، وكان الناس يتأهبون لثورة أعظم وأكبر. وذلك الوقت الذى انكشفت فيه الوجوه وكثر الحديث عن الحكم النيابى على الألسنة، لم يكن يرى فيه فى الظاهر سوى الهدوء، أما فى الباطن فلم تتخل القلوب عن الثورة، وكان الغضب من جانب والخوف من جانب آخر يغمران الناس بالقلق .

وقد اشتد وقع رحيل العلماء على الناس وزاد من غضبهم، وعبرت النساء كذلك عن هذا، فكن يُوَلْوِلْن هنا وهناك. يقول فرصت الشيرازى :" رأيت بنفسى

امرأة منقبة جعلت على رأسها عصا وتصيح قائلة : ينبغى بعد هذا أن يعقد مسيو نوس البلچيكى على بناتكم، فليس لدينا علماء بعد ذلك.

مع ذلك الترابط الذى كان بين العلماء والناس فى ذلك اليوم، ومع تلك الحاجة إليهم فى أمور حياتهم لم يحدث قط أن مال الناس إلى الصمت، أو آثروا الراحة هكذا، أما عين الدولة الأحمق فكان يكتفى فقط باستخدام العنف دون التفكير فى العاقبة. ومنذ اليوم الذى رحل فيه العلماء انتشرت الأكاذيب فى البلاد، فحينًا كان يقال إنهم أرسلوا خمسمائة فارس كى يلقوا القبض عليهم، وحينًا آخر يقولون إن عين الدولة غاضب إلى أبعد حد من الرسالة التى كتبها طباطبايى إليه وإنه سوف يقتله.

من ناحية أخرى فإن بعض التجار وغيرهم ممن يؤيدون السيدين من البداية، وهم معرفون جيدًا من أمثال : حاجى محمد تقى بنكدار وشقيقه حاجى حسن وغيرهما، وحينما بقوا فى طهران ولم يذهبوا إلى قم قيل إنهم كانوا يخشون من عين الدولة على أرواحهم وممتلكاتهم، فتملكهم الخوف وذهبوا إلى القنصلية الإنجليزية للاعتصام فيها.

ومن الأساليب المعروفة فى إيران آنذاك اللجوء إلى بعض الأماكن والاعتكاف بها، وطلب الوساطة من أصحاب هذه الأماكن، وكانوا يفعلون هذا الأمر فى الأضرحة والمساجد وفى ديار المجتهدين ومكاتب البرق الوطنية، لكن لم يحدث ذلك فى القنصليات سوى بضع مرات. أما ما جد فى الأمر وكان الناس على علم به ويذكرونه جيدًا فهو قصة أبى الحسن ميرزا الشيخ الرئيس والشيخ زين الدين الزنجانى، وكان أبو الحسن ميرزا من الشيوخ ، ولكنه كان رجلاً أهوج، له فى كل زمان مسلك مغاير، فقد فكر من زمن طويل فى الاتحاد الإسلامى، وكان

يتحدث عن الاتحاد بين إيران وتركيا، لذا أبدى تعاونه مع السيدين وأتباعهما. وكذلك كان الشيخ زين الدين متهمًا مثله بهذا الجرم، لذا كانت الدولة تريد أن تعتقلهما فعلما بذلك ولاذا بالقنصلية التركية وأخذا الأمان من الشاه بوساطة السفير. وهذه القصة أوقفت الناس على شيء وهو اللجوء إلى إحدى السفارات، ولما أرسل الأتراك الجيش إلى الحدود، وكانوا معادين لإيران فى تلك الآونة، كما كانت روسيا نفسها بعيدة عن الحكم النيابى، وفى صراع مع شعبها، اضطروا أن يختاروا القنصلية الإنجليزية، وبخاصة أن لإنجلترا الريادة فى المطالبة بالحكم النيابى وقد عرفت بذلك فى جميع الأرجاء .

وقد جاء فى كتاب آبى (الكتاب الأزرق) : "فى التاسع من شهر يوليو السابق على مقتل السيد عبد الحميد بيومين كتب بهبهانى رسالة إلى السفير وطلب منه مد يد العون. فأجاب السفير قائلاً : "إن إنجلترا لا تستطيع أن تبذل العون لمن يتصرف تصرفًا معاديًا لحكومته". وفى السادس عشر من يوليو غادر طهران، وكتب إليه ثانية يقول : نحن العلماء والمجتهدين بما أننا لا نريد أن يفضى الأمر إلى إراقة الدماء، لذا نغادر البلاد، لكننا نطلب منكم ألا تضنوا علينا بتعاونكم معنا فى جهدنا ضد الظلم".

وواضح أن طلب بهبهانى المساعدة والمساندة من قبل سفير إنجلترا ليس إلا لكى يتوسط السفير بينه وبين الشاه، وأن يبلغ الشاه شخصيًا برسائله كما حدث عندما كانوا فى عبد العظيم حيث طلب هذا الطلب من سفير تركيا. وسر هذا الأمر أن مظفر الدين شاه نفسه كان من أنصار القانون والمجلس، بيد أن عين الدولة وبعض الوزراء منعوا الشاه عن ذلك بحجة أن أحد جيراننا الأقوياء فى عداء مع الحكم النيابى وفى صراع مع شعبه بسبب ذلك، وليس من الحكمة السياسية أن يمنح الحكم النيابى فى إيران. وبهذه الحجة ألزموه الصمت، وكانوا يقولون له

كذلك: " إذا ما منحنا اليوم الحكم النيابى سيطالبون غـدًا بالجمهوريـة ويخلعـون الشاه".

وأرعبوا الشاه الضعيف بهذه الحجج، وبذلك لم يـسمحوا أن تـصل هـذه الأحداث إلى مسامعه، وكانوا يحولون دون ذلك بقدر استطاعتهم .

وكانت نية بهبهانى أن يتوسط سفير إنجلترا بينه وبين الشاه وأن يـشجعه ويمنع عنه الخوف، ولا يظن أن بهبهانى أو طباطبايى كانا يحبذان لجوء الأهـالى إلى القنصلية أو أن يقال مثل هذا الكلام عنهما، لأننا رأينا بأنفسنا إلى أى حد واجها الشدائد والمصاعب، ورغم ذلك لم يغادرا المسجد، واضطرا فى النهاية إلى التوجه صوب قم. فأين هذا التصرف الشجاع الخطير من جانبهما؟ وأين الرضـا بلجـوء الأهالى إلى سفارة إحدى الدول الأجنبية ؟!

لقد بدر هذا التفكير عن بعض السذج، وبداية لم يرغب فى ذلك سوى قلـة من الناس، ولكن رويدًا رويدًا قوى التفكير فيه ومال الجميع إليه، وأقـدموا علـى عمله دون مبالاة. وأنى لشخص أن يعرف ؟ ألم يكن هناك فى الأمر خدعة ؟ إنهم لم يكونوا راغبين فى أن يُذكر اسم هذين السيدين وحدهما إذا ما حـدث وتغيـرت الحكومة وتم تنفيذ القانون بعد كل هذا الجهاد والنضال الذى استمر عامًـا ونـصفًا بفضل المساعى الحصيفة والشجاعة لهذين السيدين ورفاقهما.

وأيًا ما كان، فقد مضى بعضهم إلى قلهك بعد يومين من رحيل العلماء إلى قم، وسألوا موظفى القنصلية : "لو أننا لجأنا إلى القنصلية هل سيسمح لنا بهذا أم لا" ؟ ومع أن موظفى السفارة ردوا قائلين : "لن يسمح لكم". لكن لم يشتد وقـع ذلـك عليهم. وكان أن مضى ما يقرب من خمسة أشخاص من التجار والطلبة إلى مبنـى

القنصلية فى نهاية يوم الخميس الموافق السابع والعشرين من شهر تير (السادس والعشرون من جمادى الأولى) واعتصموا هناك.

وفى الغد قدم غيرهم، ولما رأى الناس أنهم لا يمنعونهم توجهوا إليهم، وأقامت طائفة من الحرفيين خيمة حول القنصلية، وأحضروا قدورًا كبيرة ذات مقابض من الأسواق وأقاموا مطبخًا كبيرًا. ومن العجب أن الدولة لم تمنعهم من ذلك، فالدولة التى حاصرت المسجد وأبدت تلك الشدة لم تفعل شيئًا هنا ولم توقف جنودًا حول القنصلية لمنع الناس من الذهاب إلى هناك. وهذا هو مفهوم الحكم الفردى الأحمق .

وفى يوم الاثنين الموافق الحادى والثلاثين من شهر تير بلغ عددهم ثمانمائة وثمانية وخمسين، ولكن بعد ثلاثة أيام أخرى بلغ عددهم خمسة آلاف، وبعد أربعة أيام ارتفع عددهم إلى ثلاثة عشر ألفًا وأغلقت الأسواق جميعها.

وقد رأيت فى إحدى الرسائل :" أقيم مايقرب من خمسمائة خيمة أو يزيد، وقد أقام التجار كافة من الرفاء وبائعى الجوز وصانعى الآنية – وهم من أضعف التجار وأقلهم شأنًا – الخيام هناك".

والشىء الذى كان يدعو إلى السرور هو أنهم كانوا يتصرفون جميعًا فى سكينة وهدوء، حتى أثنى الإنجليز أنفسهم على ذلك. وجاء فى كتاب "آبى" : "كان تصرفهم تصرفًا حكيمًا يثير الإعجاب، وهذا الإعجاب وهذا التصرف الحكيم من قبلهم كان نتيجة ليقظة رؤسائهم، وهذا التصرف لم يَدعْ سبيلاً لمن تشككوا فى أنهم كانوا يريدون العنف والشغب " .

وكانوا يقدمون وجبات الغداء والعشاء لكل هذا الجمع الغفير دون مشقة أو جدال، وقد استخدموا فى هذا أكثر من عشرة قدور كبيرة، كانوا يطهون اللحم فى

حين والأرز مع اللحم فى حين آخر ويرسلونه فى أوانٍ واسعة إلى الخيام، وكانت تكاليف كل ذلك من مال التجار والحرفيين، يشاركهم فى ذلك حاجى محمد تقى .

مطالب الناس من الدولة :

أما مطالبهم : حين مضوا فى البداية إلى القنصلية خوفًا على أرواحهم، فقد كانوا يرون أنفسهم ضعافًا تنقصهم الشجاعة، لذا وسطوا مستر گرانت دف – القائم بالأعمال الإنجليزى – فى إبلاغ مطالبهم إلى الدولة على النحو التالى :

أولاً : عودة العلماء المهاجرين إلى طهران .

ثانياً: التأكد من أنهم لن يعتقلوا أحدًا أو يعذبوه .

ثالثاً : توفير الأمن بالمملكة، فلا وجود اليوم لمن يأمن على ماله وروحه.

رابعاً : افتتاح المحكمة بحيث يستطيع كل فرد من العلماء والتجار وغيرهم رفع شكواهم إليها .

خامساً : القصاص من قاتل السيدين العظيمين .

بيد أن عين الدولة ووزراءه أبدوا عدم الاكتراث بذلك، ولعدم فهمهم وجهلهم بلغوا بالأمر هذا المدى ولم يفكروا فى وخيم العاقبة، وردوا على المطالب بأنفة على النحو التالى :

أولاً : إن بعض السادة توجهوا إلى العتبات بمحض إرادتهم وغيرهم فى المدينة ولا لزوم لوجودهم فيها .

ثانياً : إن الدولة لا تعتقل شخصًا دون ذنب .

ثالثاً :إن المملكة فى كامل أمنها .

رابعاً : إن المحكمة مفتوحة منذ أعوام، وهى تسعى فى إنجاز الأمور خاصة هذه الأيام حيث قرر حضرة الأشرف العالى شعاع السلطنة رئيس الديوان المبارك أن يبحث فيما تقدم به المتظلمون من شكوى، ولم يكن العرف فى إيران – فى أى وقت قَط – أن تشترك طوائف الشعب فى الديوان المبارك.

خامساً : لم يُقتل أحد حتى ينبغى القصاص له .

وما أن وصل هذا الرد حتى تبدلت الحال، فقد ازداد عدد من تجمهروا فى القنصلية من ناحية، وتردد على الألسنة الحديث عن المطالبة بالحكم النيابى من ناحية أخرى. وفى تلك الأيام فهِّم بعضهم الناس مفهوم الحرية والحكم النيابى والبرلمان إلى حد ما. كما أن أولئك الذين تجمهروا يطالبون بمطالبهم قد زاد حماسهم رويدًا رويدًا، وأخذوا يزيدون فى مطالبهم تلك. وفضلا عن هذا، وقع فى ذلك الوقت حادث يثير العجب وهو أن محمد علي ميرزا – ولى العهد – ضم صوته إلى صوت المجاهدين من تبريز، وبعث بمجاهدى تلك المدينة إلى مكتب البرق كى يبعثوا برقيات إلى الشاه وقم وباقى المدن، حتى يظهروا التعاطف مع العلماء المهاجرين، كما أرسل بنفسه برقية إلى والده. وهذا التصرف من قبل ولى العهد فضلاً عن أنه يعد تأييدًا منه للمجاهدين، كان يتضمن نتيجة أخرى، حيث جعل العلماء فى المدن الأخرى يطلعون على هذه الأحداث ويقومون أيضًا بإرسال البرقيات، حيث وصلت برقياتهم هذه من أصفهان وشيراز، كما جاءت كذلك برقيات من علماء النجف. ولكى يخنق عين الدولة أصوات المجاهدين لم يسمح أن تصل أصواتهم إلى أماكن أخرى، ولم تكن لدى المدن سوى معرفة ضئيلة عن أحداث طهران، لكن تصرف ولى العهد هذا، وبرقيات علماء تبريز حطمت هذا القيد، ووصلت أخبار كثيرة إلى المدن .

كان هذا كله مشجعًا للمعتصمين، ويبدو أن الجند ورجال المدفعية وغيرهم مالوا إلى الشعب فى ذلك الوقت، وكانوا يبدون تعاونهم لهم فى الخفـاء. حتـى إن مجموعة الجند التى كانت أمام القنصلية كانت تختلط بالمعتـصمين، ولـم يـنجح أفرادها أنفسهم عنهم ولم يقوموا بأعمالهم.

نتيجة لذلك عرض مجاهدون آخرون مطالبهم، وطالبوا هذه المرة بـالحكم النيابى والبرلمان فى صراحة، والدولة التى لم توافق على تلك المطالـب واجهـت هذه المرة المطالب الجديدة الأخرى، وهى على هذا النحو :

أولاً: عودة العلماء الأعلام .

ثانياً : عزل الأمير الأتابك .

ثالثاً : افتتاح دار الشورى.

رابعاً : القصاص من قتلة شهداء الوطن.

خامساً عودة المنفيين (رشديه والآخرون) .

وقد أطلع القائم بالأعمال الإنجليزى الشاه على هذا، فقال الـشاه : "يعقـد اجتماع فى وجود وزير الخارجية تبحث فيه هذه المطالب ". وعُلم أن الجلـسة قـد انعقدت يوم الاثنين الموافق السابع من شهر مرداد. لكننا نرى أن مثل هذه الجلـسة لم تنعقد وأن عين الدولة تنحى عن منصبه قبل ذلك اليوم .

تأييد محمد على ميرزا للمجاهدين :

قد أسلفنا الذكر أن محمد على ميرزا ضم صوته إلى المجاهدين، وينبغـى أن نكتب خبر ذلك : إن هذا الرجل مع قصر نظره وعناده لا يمكن أن يحمل قلبًـا ينفطر لحال الوطن والشعب، لذا لم يكن يظن أنه يعلم معنى ثورة الشعب وأثرهـا

الضار على قدرته فيما بعد، خاصة وهو من كان له معلم مثل شابشال. إذن لمــاذا كان يبدى هذا التعاون ؟

وخبر ذلك أنه حينما أراد عين الدولة أن يعزله عن ولاية العهـد، اشـتد حقده عليه منذ ذلك الحين، وتحين الفرصة فى ذلك الوقت، وما كان يريـد سـوى الإطاحة به، وكان المجال فسيحًا له مع المجاهدين.

أثناء ذلك لم تكن هناك معلومات صحيحة حول أحداث طهران فى تبريز، ولم تكن تصل إليها أية معلومات سوى نشر بعض الأخبـار فـى جرائـد بعـض الأشخاص، لأنه كما سبق لنا القول كانت الدولة تمنع البرقيات، بيد أن ولى العهـد - الذى كان على علم بحقيقة الأمر - استدعى كبار علماء المدينة من أمثال حاجى حسن مجتهد وإمام الجمعة وميرزا صادق وحاجى ميرزا محسن وثقـة الإسـلام، وليس معلومًا ما قاله لهم وما حثهم عليه حتى مضوا إلى مكتب البرق. وفى البداية أرسلوا برقية إلى الشاه تتضمن تأييدهم للعلماء المهاجرين، ولما وصل الرد - الذى يعتقد أنه لم يكن من قبل الشاه - أرسلوا إليه برقية أخرى مطولة، ثم أرسلوا إلـى علماء قم، ومن بعدهم إلى علماء المدن الأخرى وحثوهم على الانضمام إليهم. وبعد يومين أو ثلاثة أرسل ولى العهد بنفسه رسالة إلى والده، ورد الشاه عليـه وعلـى علماء تبريز فى السادس من شهر مراد (السابع من جمادى الأولى) وهو نفس اليوم الذى عزل فيه عين الدولة، ولما كانت هذه هى رغبة محمد علـى ميـرزا لـزم الصمت ثانية وألزم العلماء كذلك به. وسوف نذكر فى هذا الموضع أجزاءً من هذه البرقيات :

"برقية علماء تبريز إلى الشاه"

"إلى الحضرة المباركة، موئل الإسلام خلد الله سلطانه، وصل المنشور المبارك من قبل الشاه فى الرد على برقية هؤلاء الدعاة. إن خدام هذه الشريعة المطهرة لم يتخلوا قط عن تأييد دولة الإسلام، وإنهم على يقين بأن الوجود المبارك للملك هو ظل الله ويعدونه نموذجًا للعدالة والتقوى والالتزام بالشريعة. ونحن نعلم ونرى فى وضوح أن أصحاب الأهواء من رجال البلاط لا يسمحون بتوصيل مذكراتنا ومذكرات سائر خدام الشريعة المطهرة، سواء فى طهران أو فى سائر أماكن المملكة المحروسة على نحو صحيح إلى جناب حضرة السلطان، بينما يقدمون مقاصدنا الحقيقية التى لا تتعارض مع أهدافهم نحن خدام الشريعة المطهرة وسائر أهل آذربايجان، نحن نعلم منذ أربعين عامًا كيف تكون الأوامر الملكية، إنهم لا يعرضون عليكم عرائضنا، ولم تكن العبارات الواردة فى مرسوم الرد علينا نابعة قط من ألفاظكم الكريمة ولا من طبعكم العادل الملكى، وواضح وضوح الشمس أنها من عبارات خائن !!

وقد عرضنا مجمل أوضاع المملكة من بداية المذكرة واشترك فيها علماء دار الخلافة الباهرة مع أولى الأمر فى الدولة، ونتقدم إلى جلالتكم بتكليف من رجال الدين وعلماء طهران دار الخلافة وبموافقة علماء المملكة المحروسة كافة، ومن أولى الأمر فى الدولة أن يصدر قرار بإصلاح وضع المحاكمات وديوان المحاسبة الحكومية حتى يأمن جميع الرعايا فى ظل ملك الإسلام من الأوضاع الفاسدة ويعيشوا فى مهد الأمن والأمان. ولما كان هذان المطلبان يتعارضان مع استبداد وزراء البلاط وظلمهم، لذا وعدوا علماء دار الخلافة بوعود لا أصل لها،

وأعادوهم من الهجرة الأولى إلى العتبة المطهرة لحضرة عبد العظيم وجعلوهم فى حيرة بالوعود والمماطلة.

من ناحية أخرى طمأنوا الخاطر السلطانى فى إنجاح حوائجهم، ومهما طال انتظار علماء دار الخلافة حتى تتحقق وعود أولى الأمر فى الدولة لم يروا نتيجة، ورويدًا رويدًا أقدم أولو الأمر فى الدولة ووزراء البلاط على نفى وطرد جمع من السادة والعامة ممن لا ذنب لهم سوى أنهم يريدون الخير للشعب ودولة الإسلام. أما علماء دار الخلافة الذين رأوا النقض بالعهد والتصرفات الظالمة من قبل وزراء البلاط فقد جددوا مطالبهم جديًا، وفى هذه المرة نحن على يقين أن أولئك الوزراء الخونة قد تشددوا وتعسفوا دون أن يحيطوا علمكم الشريف، وما كان ردهم على برقية علماء دار الخلافة سوى التهديد والوعيد. وفى النهاية حينما صمم العلماء على تقويض أساس الظلم هذا ورأوا أن مركز العلم هو العدل فقد أدرك وزراء البلاط أنه إذا ما نفذت هذه الخطة قصرت يد الاستبداد والظلم وسوف تظهر خيانتهم للعيان. ولعلمهم بهذا جعلوا طلاب العلم وذرية الرسول هدفًا لرصاص الجند، وحاصروا المسجد ومعبد الإسلام وبيت الله كأنها قلاع الأشرار والمتمردين، وأوقفوا الجند والعسكر فوق أسطح المساجد وقطعوا الطعام والماء عن علماء الإسلام وكأنهم متمردون أو قتلة. ومنذ صدر الإسلام حتى يومنا هذا لم تلحق أكثر الشعوب كفرًا مثل هذه الإهانة بعلماء الإسلام، ومثل هذا التحقير لم يكن موجهًا فقط إلى شخص علماء الإسلام، بل إنه فى حقيقة الحال كان موجهًا إلى شريعة محمد (صلى الله عليه وعلى آله) وهتكًا لحرمة الشريعة .

والآن فإن جميع علماء المذهب، بل جميع المسلمين الذين على المذهب الشيعى الإثنا عشرى يطلبون دفع هذه المهانة بالتمام من جلالتكم، حتى يتحقق غرض العلماء المهاجرين وإرضاءً لهم كى يعودوا إلى الوطن مكرمين، خصوصًا

أهل تبريز الداعين بالخير والذين سبق أن شوهد ذلك منهم. ونحن نتجرأ ونقول إن الإستجابة لرجائنا وما يتعلق بإعادة المهاجرين ضرورى فى العاجل القريب، وليس فى الإمكان القيام بالإصلاح وإسكات العوام بمجرد بتقديم الوعود، والمتوقع أن يعم البلاء إذا ما أفلتَ الزمام من يد الداعين ويضطرهم إلى الإقدام على تصرفات تسود منها وجوههم ".

"الرد على البرقية من قبل الشاه"

"**إلى ولى العهد** :

أخبر جناب حاجى ميرزا حسن المجتهد وآقاى إمام الجمعة وآقاى الحاج ميرزا محسن آقا وآقاى ميرزا صادق المجتهد وآقاى ثقة الإسلام باهتمامنا بما قالوه ...، وقل لهم عنا إن رحمتنا الملكية تشمل على الدوام طبقات الشعب على وجه الإجمال خصوصًا العلماء الأعلام، وعلماء آذربايجان على الأخص، فجميعهم دعاة الدولة والشعب وهم موضع اهتمام الملك ونحن نرعاهم جميعًا، لذا قبلنا منكم طلب علماء آذربايجان فى ضرورة عودة علماء طهران بشفاعتكم ووساطتكم، وأرسلنا مشير الدولة وزير الخارجية لإعادتهم، وسوف يتشرف بذلك علماء طهران فى العاجل وسوف نقبل مذكراتهم التى تهدف إلى ما فيه صلاح الدولة والشعب".

"برقية ولى العهد إلى الشاه"

"بواسطة حضرة الأمير الأتابك الأعظم إلى تراب قدمك المقدس أرواحنا فداه أصير صدقة لترابك المقدس، لقد تحقق وشوهد فى بلاد الملك إلى الآن، إن هذا العبد القن لم يتقاعس أو يغفل منذ بدء حياته عن بذل الروح لأداء واجبه أملاً

فى رضاكم عنه، ولو خطر بباله أن مذكرات العلماء الأعلام لا قـدر الله تتـضمن خلاف المصلحة وتلحق الضرر بهذه الدولة لما ذكر عن ذلك شيئًا، وفيما يخـتص بهذا الحديث فقد بذلت الجهد قدر الإمكان فى ألا أجعل علماء آذربايجـان ييأسـون من رعاية صاحب الجلالة .. ووجودى اليوم فى مكتب التلغراف هو لكى أتـشفع لعلماء دار الخلافة المهاجرين. وأنا أتجاسر فى كامل العجز والتضرع وأقـول إن جميع رعايا إيران ودائع إلهية، ولهم منزلة أبناء صاحب الجلالـة المقـدس، وإن المحافظة على مصالح أهل الإسلام مما تفرضه ذمة السلطنة. ومع هذا فليـصرف النظر عما سبق، فعندما أواسيهم وأطيب خاطرهم وأسعى فى إعادتهم مكرمين فإن المجد سيكون لعظمة الدولة وقوة الإسلام وشرف العبـد القـن سـيطبق الآفـاق. والرعية التى فى منزلة أبناء السلطان لا تستحق القمع والأخذ بالعقاب بلا رحمـة بسبب ما وقعوا فيه من أخطاء. وكلى أمل أن تقبل الشفاعة الصادقة لخادمك".

السابع من شهر جمادى الآخرة سنة ١٣٢٤ هـ.ق

الرابع من شهر أغسطس سنة ١٩٠٦م

"رد البرقية من قبل الشاه"

"ولى العهد :

لقد بلغتنا برقيتك عن طريق جناب الأتابك الأعظـم، إن رحمتنـا تـشمل العلماء الأعلام ومسعاهم فى التذكير بنشر تعاليم الشرع المحمدى (ﷺ)، وعلى آله. وكنا نريد طمأنينة العلماء وما زلنا نريد، ولا يحتاج هذا إلى تصريح. ومعلـوم أن العلماء العظماء يدعون بالخير للدولة على الدوام، ووجودهم مرغوب فيه من أجل الدولة والشعب، وفى واقع الأمر هم جيش الدعاء، وتكريمهم واجب على الـدوام، ونحن نستوجب توقيرهم وحفظ مصالحهم على أنفسنا. ومنذ عدة أيام أرسل علمـاء

آذربايجان برقية خاصة بأمر العلماء، وأبلغناهم شعورنا نحوهم، وينبغى أن يعلموا حق العلم أنا نحسن الظن بهم ونرعى جانبهم إلى أبعد حد. والآن فيما يختص بشفاعتكم واستقدام علماء تبريز فقد أمرنا مرارًا أن يمضى مشير الدولة وزير الخارجية إلى قم ويعيد العلماء العظماء مكرمين، وعليكم أن تبلغوهم عنا أنهم سيكونون موضع رحمة الملك، وينبغى أن يعودوا وكلهم أمل، وأن يعلموا أن رعاية الملك لهم ولعلماء آذربايجان لأن نيتنا مبيتة على الدوام على نشر الشرع وعلى رعاية جانب العلماء العظماء، ولن نضن قط برحمتنا عليهم ".

السابع من شهر جمادى الآخرة سنة ١٣٢٤ هـ.ق.

الرابع من شهر أغسطس سنة ١٩٠٦م

الأمر بالحكم النيابى :

لقد قلنا من قبل إن هذه الردود قد صدرت من قبل الشاه فى السادس من شهر مرداد (السابع من شهر جمادى الآخرة) وواضح من رده على ولى العهد أنه فى الوقت الذى كان يرسل فيه هذه البرقية كان يريد إرسال ميرزا جعفر خان مشير الدولة وزير الخارجية إلى قم، فيمضى ويسترضى جانب العلماء ويعيدهم معه إلى طهران، وهذا حسبه دون أن يبحث فى مطالب الشعب الأخرى. وواضح أن هذا كان نتيجة لمقاومة عين الدولة وأتباعه فلم تكن لديهم حتى الآن فكرة التسليم والرضا بذلك، ولم يتركوا الشاه حر التصرف، كما كانوا لا يزالون يأملون فى نجاح مسعاهم.

لكن الأمر كان أكبر مما يفهمون، فالشعب الذى بلغ هذا الحد فى المطالبة بالحرية لم يكن من اليسير إسكاته، لكن رجال البلاط لم يدركوا ذلك، وفى كل مرة كانوا يلجأون إلى حيل جديدة. وفى نفس اليوم عزل عين الدولة من منصب

الصدارة العظمى وأسند الشاه هذا المنصب إلى مشير الدولة، واختار عضد الملك رئيس "قبيلة القاجاريين" وحاجى نظام الدولة للذهاب إلى قم، وكان الإشفاق من أن يكتفوا بهذا العمل وألا يعلموا شيئًا عن المطالب الأخرى .

ومع أن عين الدولة قد ولى بيد أن البلاط كان مصرًا على الاحتفاظ بتسلطه وعناده، وواضح أن تنحية عين الدولة لم تكن سوى خداع وتمويه، بيد أن الناس لم يكتفوا بهذين الأمرين. ولما كانوا يخشون أن يقبل العلماء كلام المبعوثين ويعودوا إلى طهران فقد بعثوا إليهم ببرقية وجاءهم الرد عليها من المرحوم بهبهانى.

ولما كانت الثورة تزداد يومًا بعد يوم وبلغ عدد المعتصمين فى ذلك الوقت أكثر من أربعة عشر ألفًا، قامت إنجلترا بالوساطة وطلبت من إيران رسميًا أن ترد على المطالب فى أسرع وقت ممكن وتنهى الثورة، كما ذكر هذا فى البرلمان .

ويمكن القول إنه حتى ذلك الوقت لم يكن الشاه على علم بحقيقة الأحداث، فعندما كان يقيم فى قصره خارج المدينة كان رجال البلاط يحيطون به ولا يمكنون أحدًا من أن يطلعه على أحوال الدولة. ولكنه حين علم بحقيقة الأمر أبدى تعاطفه. وفى يوم الأحد الثالث عشر من شهر مرداد (الرابع عشر من جمادى الآخرة) أصدر الأمر الذى هو الآن بداية كل القوانين، وها نحن نورده فى هذا المقام :

"سيادة الصدر الأعظم – من حيث إن البارى تعالى جل شأنه جعل زمام تقدم وسعادة مملكة إيران المحروسة فى أيدينا، وجعل شخصنا حافظًا على حقوق أهالى إيران قاطبة ورعايانا الصديقين، لذا فإنا فى هذا الوقت – حيث استقر رأينا وإرادتنا العظيمة على تحقيق رفاهية وأمن أهالى إيران قاطبة وتشييد وتأييد مبانى الدولة والإصلاحات فى مرافق الدولة والمملكة– أقرر بأن يشكل وينظم مجلس

الشورى الوطنى من المختارين من الأمـــراء والعلمـــاء والقاجـــاريين والأعيـــان والأشراف والملاك والتجار والحرفيين وذلك بانتخاب الطوائـــف المـــذكورة فـــى طهران دار الخلافة، حيث يجب أن تسود المشاركة فى إبداء الرأى فى أمور الدولة والمملكة ومصالح العامة، وأن يبدى تعاونــــه ومـــساندته لمجلـــس الـــوزراء فـــى الإصلاحات التى سوف تحقق الرخاء والرفاهية لإيران، وأن يعرض فـــى هـــدوء وطمأنينة كل ما يحقق خير الدولة والشعب ومصالح العامة، وشئون أهـــل إيـــران قاطبة على رئيس الدولة كى تزين بتوقيع الملك وتنفذ. ومن البديهى أنــــه بموجـــب هذا المرسوم المبارك سوف تعد لائحة هذا المجلس وأسباب تـــشكيله بنـــاء علـــى تصديق المنتخبين وتوقيعهم منذ هذا التاريخ. وبعون الله تعالى فإن مجلس الشورى المذكور الذى هو حارس عدلنا سيبدأ فى الإصلاحات اللازمة لأمور المملكة وتنفيذ القوانين الشرعية، لذا نقرر أن تعلنوا وتنشروا هذا المرسوم المبارك حتـــى يطلـــع المواطنون جميعًا على حسن نياتنا التى تهدف إلى رقى دولة إيران وشعبها، كـــى يدعوا الله بدوام هذه الدولة وبقاء هذا الرخاء.

بتاريخ الحادى عشر من شهر أغسطس ١٩٠٦م
الرابع من شهر جمادى الآخرة سنة ١٣٢٤هـ.ق
فى العام الحادى عشر لحكمنا

وكان يوم الرابع عشر من شهر جمادى الآخرة – حيث صدر هذا الأمر – يوم ميلاد الشاه، واحتفل المعتصمون تعبيرًا عن تضامنهم مع الشاه وزينـــوا بـــاب السفارة وعلقوا كثيرًا من الرايات تتضمن صورًا للأسد والشمس، وأقاموا الزينـــات الفاخرة، كما شاركت النساء أيضًا فى هذا الحفل.

ولكن حينما صدر الأمر بالحكم النيابى وطبع وألصق على الجـــدران لـــم يرض المجاهدون عنه، ولم يروه مناسبًا لمطالبهم، وأرسلوا بعضهم لنزع مطبوعاته

من على الجدران لأنه لم يضم اسم الجماهير، لذا لم تكن عباراته واضحة، وعلى هذا النحو لم تتحقق نتيجةٌ لهذا القانون وقرروا عقد جلسة تتكون من رؤساء المجاهدين فى ليلة السادس عشر من شهر مرداد (السابع عشر من شهر جمادى الآخرة) بمنزل مشير الدولة بقلهك لكى يتشاوروا فى هذا الشأن، وكان نتيجة هذه الجلسة أن أصدر الشاه الأمر التالى ثانية:

"سيادة الصدر الأعظم - استكمالاً لمذكرتنا السابقة المؤرخة فى الرابع عشر من شهر جمادى الثانية سنة ١٣٢٤ هـ .ق والتى أمرنا فيها صراحة بتشكيل مجلس من المنتخبين من قبل الشعب، نأمر ونقرر مجددًا من أجل أن يطلع أهالى إيران وأفراد الشعب كافة على توجيهاتنا بأن يدار المجلس المذكور طبقًا للمذكرة السابقة.

وبعد اختيار أعضاء المجلس يتم إعداد مقررات مجلس الشورى الإسلامى، على أن تكون مطابقة لتصديق المنتخبين وتوقيعهم على نحو يتفق ومصالح الشعب والمملكة وقوانين الشرع المقدسة، وتتم بعرضها علينا وتذييلها بتوقيعنا".

وقبل الناس هذا المرسوم وأعلنوا سرورهم به. وفى نفس اليوم تفرقوا عن السفارة وفتحوا الأسواق وأقاموا الزينات. واستمرت الاحتفالات وإقامة الزينات فى المدينة لمدة ثلاث ليال. ومن ناحية أخرى فإن العلماء فى قم - الذين لم يقبلوا أقوال عضد الملك- كانوا على استعداد للعودة وتفرقوا هنا وهناك ثم تجمعوا فى كهريزك ودخلوا عبد العظيم فى الثالث والعشرين من شهر مرداد حتى يعودوا إلى المدينة فى الغد، واستقبلهم الناس استقبالاً عظيمًا وأرسل الشاه مركبات الدولة ليستقلوها، واستمر الاحتفال وإقامة الزينات لمدة يومين آخرين.

وفى يوم السبت السادس والعشرين من شهر مرداد (السابع والعشرين من شهر جمادى الآخرة) انعقدت جلسة عظيمة فى مبنى المدرسة الحربية (إحدى مبانى البلاط)، واجتمع فيها جميع العلماء ورؤساء المجاهدين وغيرهم من الوزراء ورجال البلاط، وكان عضد الملك يستقبل الوافدين من قبل الدولة .

وكانت هذه الجلسة من أجل افتتاح مجلس مؤقت، حيث لزم أن تكتب لائحة الانتخابات والقيام ببقية الأعمال التى ينبغى أن تكون لإنجاح الحكم النيابى وتأسيس دار الشورى. واجتمع فى ذلك اليوم ما يقرب من ألفى شخص، وحينما جاء وقت الكلام، تحدث مشير الدولة أولاً وبين الهدف من تأسيس هذا المجلس، ثم ألقى حاجى ميرزا نصر الله ملك المتكلمين خطبة باسم الشعب وقدم امتنانه، وبعد هذا التقطت ثلاث صور للمجتمعين وانتهت الجلسة. وسوف نورد فى هذا المقام كلمة مشير الدولة :

"السادة العظماء : لاشك أن كلاً منا ممن تشرفوا بالحضور فى هذا المكان يعلم على وجه الإجمال ما الهدف من تشكيل هذا المجلس الموقر واجتماع السادة العلماء والوزراء والأمناء والأعيان والتجار هنا، ولكن بما أن حسن نيتنا نحن عبيد صاحب الجلالة ملك الملوك خلد الله ملكه وسلطانه معلومة جلية، لذا أرى من الواجب أن أحيط السادة العظماء علمًا بأنه نما إلى علمكم أن صاحب الجلالة ملك الملوك خلد الله ملكه صمم على أن يفتح أبواب الرخاء والرفاهية فى وجه أهالى مملكة إيران المحروسة قاطبة، وأن يتم تنفيذ الإصلاحات اللازمة التى تؤدى إلى مزيد من عمران الدولة ورفاهية الشعب. ولما كانت هذه النية لا تتم إلا بالتعاون وبتضامن أهالى إيران قاطبة؛ لذا استقر الرأى المبارك لملك الملوك المعظم على تشكيل مجلس الشورى الوطنى من المنتخبين من طبقات معينة، على النحو الذى ورد مفصلاً فى مرسومه المبارك بتاريخ الرابع عشر من شهر جمادى الآخرة فى

طهران دار الخلافة. ومن هذا المنطلق كان لا بد من إعداد لوائح الانتخابات وسائر بنود القائمة الخاصة بمجلس الشورى الوطنى وأن ينظم ذلك بكل دقة بحيث يكـون وفق المرسوم المبارك السابق الذكر .

ولا ريب، وكما تعلمون، أن إنجاز هذا العمل يستلزم وقتًا وفرصة معينة، لذا فإن صاحب الجلالة ملك الملوك قدم دليلاً قاطعًا وحجة دامغة فى تنفيـذ رأيـه المبارك لتشكيل وتنظيم مجلس الشورى لأهالى إيران قاطبة، حيث قرر أن يعـين فى العاجل مكان مؤقت لهذا المجلس الوطنى الموقر وتقدم فيه الحلـوى والـشراب للسادة العلماء والوزراء والأعيان والأشراف والتجار والحرفيين .

ومن البديهى أن أولى الأمر فى الدولة سوف يبدون اهتمامًا كبيرًا بإعـداد لائحة القوانين المتعلقة بالانتخابات وقائمة مجلس الشورى الوطنى فى أسرع وقت، على أن تكون مطابقة لمرسوم الملك الصادر بتاريخ الرابع عـشر مـن جمـادى الآخرة، ويبادر أعضاء المجلس الوطنى فى طهران بافتتاح هذا المجلس المـوقر. وندعو الله أن يديم ظل صاحب الجلالة الملك خلد الله ملكه وسلطانه علـى أهـالى إيران قاطبة، وأن يوفق أبناء الوطن المقدس وأولى الأمر فى الدولة لفـتح أبـواب الرخاء فى وجه الإيرانيين، وأن يبلغ الذروة بدولة وشعب إيران الخالدة التى قامت منذ خمسة آلاف سنة".

فساد رجال البلاط :

على هذا النحو ظهر الحكم النيابى فى إيران، لكن أفـراد الـشعب ظلـوا بعيدين كل البعد عنه، ولم يدركوا مغزاه وقيمته وعجزوا عن إدراك ما يفعلونه .

ومن مظاهر السذاجة لدى الإيرانيين – وبخاصة لدى أهالى طهران – أنه إذا ما قام شخص أو شخصان بعمل ما أقدم عليه كذلك آخرون، وفى هـذا الوقـت

كان العديد من الناس يكتبون الشكاوى، وكان كل منهم يعرض كل ما يعلم بدلاً من أن يسعى إلى التعلم وإدراك الحكم النيابي. والآن وهاهم قد حصلوا عليه ؛ فما عساهم أن يصنعوا وأى طريق يسلكونها وقد وجدوا المجال لإثبات الذات ! وكان المجلس ينعقد كل أسبوعين، وقد كتبت لائحة الانتخابات عدة مرات وشكلوا من مجموعها أفضل لائحة، وقرروا أن يزيلها الشاه بإمضائه فى يوم الخميس الرابع عشر من شهر يور (السادس عشر من شهر رجب) على أن يقوموا بانتخاب النواب فى طهران.

لكن أثناء ذلك وقع حادث آخر وهو أن أصحاب الأهواء والاستعلاء لم ييأسوا لأنهم لا يريدون أن يكفوا أيديهم أو يعترفوا بالهزيمة ببساطة، وإنما حاولوا إحراج الشاه وجعلوه يحجم عن التوقيع على اللائحة، وأخذوا يغيرون مدلول الأمر الذى قد صدر.

من ناحية أخرى سُمع أن عين الدولة – الذى كان قد مضى إلى كاشان – قدم إلى مبارك آباد، وقيل إنه سوف يأتى إلى المدينة، وإن مقاليد الحكم ستكون فى يديه ثانية، فثار الناس عند سماع هذا النبأ، وكان بعضهم يحاول أن ينال فتوى من العلماء لطرد الأمير بهادر ونصر السلطنة وحاجب الدولة من إيران. ونتيجة لهذه الضجة اضطرت الدولة لإظهار اللين ووقع الشاه على اللائحة فى السابع عشر من شهر يور (التاسع عشر من شهر رجب)، ومن ناحية أخرى أرسل أمرًا إلى عين الدولة بأن يتجه إلى خراسان .

وبهذه الكيفية خمدت الثورة ثانية، ولما كان التوقيع على اللائحة قد تم، بدأوا فى طهران فى اختيار ستين نائبًا، ودخلت دولة إيران فى عداد دول الحكم النيابى، وكتبت جرائد مصر والهند وأوربا المقالات فى هذا الشأن.

إلا أن البلاط لم ييأس من المقاومة ولم يكن لديه نية الاستكانة، ولذلك لـم يبعثوا بكيفية ما حدث إلى بقية المدن. فكانت هذه الأحداث تقع في طهران ولا علم لأحد بها في كل من تبريز والرشت ومشهد وأصفهان وشيراز وكرمان، حيث ظل منع البرقيات على ما هو عليه. وقد خلف مشير الدولة عين الدولة، وكـان يـسلك نفس مسلكه، ومن ثم عُلم أن عين الدولة لم يكن وحده بل كـان هنـاك غيـره، أو بعبارة أوضح، عُلم أن طائفة أخرى كانت تعمل على صد الجماهير .

وأوامر الشاه التي كان ينبغي أن تلصق على الجدران في كل الأرجاء لـم يتم لصقها، وكان ينبغي البدء في اختيار النواب في جميع الأرجاء لكنه لـم يبـدأ، وظلت المدن جميعها بلا علم بما يحدث، فقد مُنح الحكم النيابي في طهران وافتـتح المجلس مرارًا، لكن عوامل التسلط في الأثرة تدخل في الأمر. وكانت جرائد أوربا تتحدث عن ثورة إيران وعن حكمها النيابي، لكن في تبريز وغيرها من المدن لـم تستطع جريدة من الجرائد أن تعلن هذا النبأ. وكان واضحًا أن الدولة لـم تخـضع وكانت تصر إذا ما استطاعت أن تقتلع هذا الجهـاز مـن طهـران. ولـم يـدرك المجاهدون هذا، وسعدوا بانتصارهم، وكانوا يجتهدون في اختيار النـواب، وكـان الشاه كذلك ميالاً إلى القانون والمجلس وكان يلوم بعض الأمراء وغيرهم ممن كانوا لا يريدون إنجازًا لهذا الأمر، وكان يقول مرارًا : "إنه متعاطف من صـميم القلـب مع هذه الحركة ". ولكن لم تُر نتيجة لهذا الكلام وتلك الأفعال من قبله. وواضح أن زمام الأمر لم يكن في يده فقط .

وجملة القول : نتيجة للجهود الباسلة الحكيمة من قبل الـسيدين وأتباعهمـا خلال عام ونصف العام ظهر الحكم النيابي في إيران، ولكن كان لا بد من انتفاضة أخرى لكي يمضي قدمًا، وأخذت تبريز الأمر على عاتقها، وكانت حركة مفاجئـة

قضت على آمال رجال البلاط وأوصلت أصوات مجاهدى طهران إلى جميع الأرجاء. وينبغى لنا أن نكتب قصة تبريز وثورتها على حدة، وها نحن بلغنا بالكلام غايته فى هذا المقال، ولكن قبل أن نترك القلم ينبغى أن نورد بعض ما جاء فى جريدة الحبل المتين، فمالك هذه الجريدة مثال واضح لهؤلاء الذين يرتزقون من خدمة الجماهير، أو نقول على الأصح، إنهم يأخذون خدمة الجماهير وسيلة لكسب العيش. ولما كان هذا النوع من الناس كثيرين فى إيران فنحن نتتبع هذا الرجل لإظهار سوء أعمالهم. فضلاً عن ذلك نريد أن نوضح جميع المحاسن والمساوئ فى حركة المطالبة بالحكم النيابى حتى وقتنا هذا بقدر ما تسعفنا به طاقتنا.

وهذه الجريدة كانت تظهر العداء الخسيس للمجاهدين بتمويل من عين الدولة، فحينما أعلنت وكالة أخبار رويتر عن سقوط عين الدولة لم تستطع أن تحجم، وكتبت تقول: "كل ما كتبه مراسل رويتر والأخبار الخارجية عن الأمير عين الدولة الأتابك والصدر الأعظم بعيد عن الصواب، فلم يخلعوا الأمير من الصدارة، وعلى نحو ما نعلم يقينًا أن قبول الاستقالة لم يقبل منه مرارًا وذلك منذ فترة، وفى هذه المرة عندما اختلف مع العلماء وأنصار الإصلاح قبلت الدولة استقالته ولم يكن هذا خلعًا له" .

ولذلك حينما رأى أنه لا أمل فى العمل بدأ يظهر تعاطفه مع الحكم النيابى، بل إنه لم يكتف بذلك وقام بالتوجيه والإرشاد، وكتب مقالات متتابعة مبينًا ما ينبغى عمله. وأثناء ذلك أراد أن يسدل الستار عن مساوئه، وصرح بأن القائمين بالإعلام إنما يقولون كذبًا. أما ما يثير الخجل أكثر من ذلك أن من كان يتعاطف مع الدولة بالأمس وكان يذم جهود السيدين وأتباعهما إلى هذا الحد انقلب على عقبيه الآن وأخذ يكتب الأحاديث قائلاً: إن الذنوب جميعها تقع على عاتق الدولة، وإن رجال

الدولة لم يسمحوا بتقدم إيران، ويستطرد فى حديثه ويقول : " إذا ما قيل إن الـــذنب يقع على عاتق الشعب فهو كذب، قسمًا بالعباس إن كل هذا بسبب جهالـــة الرجـــال وأهوائهم ....".

"المقال الثالث"

كيف ثارت تبريز؟

في هذا المقال نوضح وضع آذربايجان قبل الحكم النيابى، كما نتحدث فيه عن أحداث الحركة النيابية منذ ثورة تبريز حتى وفاة مظفر الدين شاه.

على نحو ما رأيناه، فإن طهران هى التى بدأت الحركة النيابية، ولكن تبريز أخذت على عاتقها مسئولية تطورها وتقدمها. وقد عرضنا الوقائع حتى منح قانون الحكم النيابى وكتابة لائحة الانتخابات وتوقيعها ثم البدء فى اختيار نواب طهران. وكانت طهران حتى ذلك الوقت هى التى تعمل فقط، لكن تبريز كان لها ضلع فى هذا وأخذت على عاتقها الحمل الأثقل. ومن هنا يجدر بنا فى هذا المقام أن نتحدث عن ثورة تبريز وجهودها.

ولكن يجب قطع تسلسل أحداث التاريخ، ونورد فى هذا الموضع ديباجة نبين فيها موقف آذربايجان فى السنوات السابقة على الحكم النيابى، ونوضح البواعث التى حثت الناس على القيام بالثورة، وأثناء ذلك سوف نجد المجال لنبحث بعض مشاكل إيران ونتعرف على أوضاع أهلها وأحوالهم.

لقد قلنا : إن الإيرانيين كانوا يعيشون ولا علم لهم بما يقع فى العالم من أحداث ولا بانتفاضة أوربا حتى ذلك الوقت الذى بدأت فيه يقظة إيران فى عهد سپهسالار القزوينى، وفى الوقت الذى وقعت فيه حادثة امتياز الدخان ظهرت الانتفاضة فى المجتمع، وكانت تلك اليقظة وهذه الانتفاضة فى تقدم حتى انتهت على هذا النحو حيث المطالبة بالحكم النيابى.

وواضح أن جميع المدن كانت مساهمة فى هذه الثورة فى قليل أو فى كثير! ولم تكن آذربايجان بلا نصيب من هذا. ولما كانت تبريز تعد أكبر مدينة فى إيران - بعد العاصمة - وكان ولى العهد يقيم فيها دوما، لذا كانت هناك صلة بينها وبين طهران، ولذلك ومع كل هذا البعد، لم تكن جاهلة أو بلا نصيب مما يحدث فى العاصمة، لذا توافرت فيها بواعث اليقظة، فالقوقاز تقع بالقرب منها، وكذلك الأراضى التركية، وذلك مما زاد من استعداد أهالى آذربايجان ويقظتهم.

ويفصل القوقاز عن آذربايجان نهر(ارس)، وكانوا يطلقون عليه هنا اوتاى "آنور". وفى كل عام كان يمضى إلى هناك أفواج عديدة من التجار والعمال وغيرهم، وكانوا يعودون بعد أن يقيموا هناك سنين عدة ويأتون بكل ما يروى أو يشاهد عن روسيا والروس وغيرهم من الأوربيين وكأنها الهدايا، كذلك كان يفعل من يذهبون إلى إسطنبول ثم يعودون منها.

وكان أهالى آذربايجان أكثر نشاطًا وتقدمًا من غيرهم فى التجارة وتصدير البضائع إلى الدول الأجنبية، فكانوا مسيطرين على التجارة فى جميع مدن القوقاز كتفليس وباكو وباتوم وعشق آباد وغيرها من المدن. كما كانت لهم اليد الطولى فى التجارة فى إسطنبول وغيرها من المدن التركية وبعض مدن أوربا.

هؤلاء التجار الذين كانوا يستهينون بالمشقة فى أعمالهم ويداومون على السفر، كانوا يجمعون الثروات ويعيشون موفورى الكرامة من جانب، ويكتسبون معرفة بالعالم والحياة من جانب آخر، وزاد شغفهم ببلادهم وتقدمها. وكانت طائفة التجار تلك فى آذربايجان طائفة لها قيمتها وقدرتها، وكما سنرى عظم نشاطهم فى دفع النقود للغير وتعضيدهم فى حركة الحكم النيابى.

ونحن نعتبر المدارس والجرائد من نتائج حركة المجتمع ويقظته، وأسفلنا الذكر أن المدارس بدأت تظهر فى آذربايجان أو على الأصح فى تبريز وانتقلت من هناك بعد ذلك إلى طهران وغيرها من المدن.

أما الجرائد، فكما سبق لنا القول كانت فى البداية جرائد رسمية، وقد صدرت فى تبريز فى عهد مظفر الدين ميرزا جريدة باسم "ناصرى" بفضل نديم باشا. وبعد ذلك ظهرت جرائد أخرى وازدهرت فى تبريز. وعلى حد علمنا، كانت أول جريدة من هذا النوع هى جريدة "اختر" وكان بعض أهالى تبريز يصدرونها فى إسطنبول.

وإذا ما تحدثنا عن جرائد المدن وعقدنا مقارنة بين طهران وتبريز، فمن الحق القول بأن لجريدة "تربيت" السبق فى طهران، ومن بعدها جريدة "الحديد" فى تبريز، وواقع الحال إنه لا يمكن الموازنة بين الجريدتين.

وعلى وجه الإجمال كانت مدينة آذربايجان، وخاصة مدينة تبريز، أكثر من غيرها استعدادًا لليقظة، فنحن نعتبر الانتفاضة بسبب امتياز الدخانيات هى أول انتفاضة فى المجتمع الإيرانى، وكما قلنا حول تلك الانتفاضة، كان أهالى تبريز هم الرواد فيها وهذا دليل على حسن استعدادهم.

وواقع الحال لم يوجد فى تبريز أو آذربايجان رواد كالسيدين، إذ كان هذان الرجلان المبجلان من طهران، وفى تبريز كان مجتهد آذربايجان هو حاجى ميرزا جواد، وكان ذلك فى أواخر عهد ناصر الدين شاه، وقلما وجد نظير لهذا الرجل من حيث كثرة أتباعه وتأثيره فى الجماهير، فكان نافذا فى كل مكان وكانت الدولة ترعى جانبه، وكان الناس يبذلون أرواحهم فى سبيله، إلا أنه لم يكن ذلك الرجل الذى يعلم معنى الدولة والمجتمع ويهتم بمثل هذه الأشياء. وأنا لم أكن معاصرًا له، ولا علم لى به، ولكنى أعلم حق العلم من خلال أخباره أنه لم يكن على علم بمثل هذه الأمور، ولم يكن يرغب فى شىء سوى فى الرياسة والسيطرة.

وجدير بالذكر أن نوضح أن الدولة فى تلك الفترة كانت فى جانب والشريعة فى جانب آخر. وأقول بطريقة أوضح إن ناصر الدين شاه كان يحكم باسم الدولة من جانب، وكان رجال الدين يحكمون باسم الشريعة من جانب آخر، ولما كان كلا الجانبين فى نزاع على الدوام فى السر وفى العلن فإن العلماء كانوا يتمادون فى بسط

سلطانهم باسم الشريعة ولم يرغب الناس فى غير هذا، ولا عرفوا سواه، وإما أن يكونوا أعداء للدولة وينبغى الإشفاق منهم أو ينبغى أن يكون هناك قانون ليقل الظلم، وغير ذلك مما لا يدركه حاجى ميرزا جواد وأمثاله.

وقد وقع حادث فى عهده جعل الناس أكثر خضوعًا له واختصاصًا به من جانب، ويزيد من غرارته وجهالته من جانب آخر. وكيفية ذلك أن شابًا رحل من تبريز إلى القوقاز وكان يعمل هناك، وحدث أن قتل رجلاً أو فعل جرمًا آخر يشبه هذا الجرم، وكان أن اعتقلوه ونفوه إلى سيبيريا، فلجأت والدة الشاب إلى حاجى ميرزا جواد وطلبت منه العمل على إطلاق سراح ابنها، فأرسل حاجى ميرزا جواد برقيته إلى إمبراطور روسيا وطالبه فيها بإطلاق سراح الشاب (ولم يعلم من الذى وجهه إلى ذلك) وبعد بضعة أيام وصل الرد بأن الإمبراطور قبل مطلبه وأمر أن يستدعوا الشاب من سيبيريا ويعيدوه إلى إيران ويوصلوه إلى أمه.

واضح ما كانت عليه نية الإمبراطور، ولماذا كان يسترضى مجتهد آذربايجان، لكنهم لم يعلموا حقيقة الأمر فى ذلك الوقت، وفهم الناس معنى آخر، وعدوا هذا من منطلق قوة الشريعة وصاروا أكثر حماسًا فى تعاطفهم مع حاجى ميرزا جواد.

وتردد الحديث على الألسنة أعوامًا عدة على النحو التالى : "كانت قوة الشريعة على عهد حاجى ميرزا جواد آقا راسخة، حيث كان يحكم بطرسبرج من هنا ". ولا ريب أنه هو نفسه لم يفهم سوى هذا المعنى ولم يكن يعلم ما كان وراء هذا التعاطف فى الخفاء.

ونحن لا نلومه أو نذمه لأننا لم نسمع ظلمًا ولا سوءًا آخر عنه، فنحن نكتب عن عدم إدراكه. وكان جميع مجتهدى آذربايجان فى مثل جهالته بحقائق الأمور.

الصراع المذهبى فى آذربايجان :

إذا كانت الصراعات المذهبية أهم ما يهتم به الإيرانيون ويؤثر فى حياتهم، فقد زادت هذه الصراعات قوة فى آذربايجان. ومسألة التسنن والتشيع التى اتخذت لها طابعًا سياسيًا منذ عهد الشاه إسماعيل والسلطان سليم، وكانت سببًا للحقد والضغينة بين الشعبين الإيرانى والتركى، وكانت تحمل معها على الدوام أفكارًا خاصة، كانت هذه المسألة فى آذربايجان على نحو أشد مما هى عليه فى سائر المدن. وقد تزايدت الضغائن والأحقاد على أثر إراقة الدماء والمذابح والسطو المتتالى الذى وقع فى عهد الصفويين وماتلاه، وكان أساسًا لارتكاب الأعمال الطائشة الحمقاء.

والإيرانيون الذين كانوا شيعة، إذا ما حسبنا ،كانوا يهتمون بأمورهم المذهبية ربع العام، فكانوا يدقون الصدور وينوحون ويبكون ويتلون زيارة عاشوراء ويدعون ويندبون ويجلسون تحت المنابر يلقون السمع إلى فضائل أهل البيت ويجمعون الأموال ويمضون للزيارة. وفضلاً عن هذا كله كانوا يقومون بأعمال "التبرى" واتخذوا التاسع من شهر ربيع الأول من كل عام عيدًا يحتفلون به ويغلقون الأسواق، ويقوم كبيرهم وصغيرهم بأعمال حمقاء. وطبقًا لما ذكر مجلسى وغيره أنه لا يكتب على أحد فى هذه الأيام الثلاثة أى ذنب.

وكما ذكر رجال الدين إنه بعد موت الرسول خلفه صهره على، وقد سلب الخلفاء الثلاثة عليًا وبذلك ظهر كل شر فى الدنيا، وجميع الذنوب تقع فى عنق أولئك الثلاثة خاصة ثانيهم، والشيعة يذكرونهم دومًا بكل ما هو سيئ. وقوم لهم هذه العقيدة يبدو الحال التى هم عليها وإلى أى حد كانوا فى منأى عن أمور الحياة والدولة. وكانت هذه الأعمال وتلك الضغائن والعقائد سائدة فى آذربايجان أكثر مما كانت عليه فى المدن الأخرى، وقد أوردت عروض محرم فى تبريز – والتى رأيتها رأى العين – قصصًا مطولة عن التقييد للأيدى وضرب الرأس والضرب بالسلاسل ودق الصدور وإقامة الحجلة وتمثيل مواقف العرب وزينب وما أشبه، ونحتاج لحديث مطول لتوضيح ذلك، وتستغرق هذه الأمور هنا أكثر من ثلث العام.

وفضلاً عن المساوئ الأخرى التى كانت تحدث فى التاسع من شهر ربيع الأول، كان ثمة تصرف يثير العجب، وهو أن الناس كانَ يرش كل منهم الآخر بالماء، وفى ذلك اليوم يستطيع كل شخص أن يرش الماء فى وجه الآخر ويبلله من رأسه إلى قدمه، وإذا ما مر أحد فى الحارات صب آخر فوق رأسه بقِدْر ماء من أحد الأسطح، أو رش وجهه بالماء بكأس فى يديه. وكان الناس يجتمعون ويقفون بالقرب من نهير أو حوض ماء ويمسكون بالمارة ويطرحونهم فيه، وكان الطلبة يفرشون البسط ويقيمون الاحتفالات ويدفعون ببعضهم فى الحوض. ولم يكن معلومًا من أين ظهر هذا التصرف ؟

ودراويش التبرئة الذين ظهروا فى عهد الصفويين ووقفوا أمام جياد الوزراء والأمراء أو أمام الناس، كانوا يبسطون القول فى مذمة رجال صدر الإسلام، وقد بقى هذا حتى ذلك الوقت، وما زال يرى بعضهم فى الأسواق وهم معرفون باسم "اللعانين".

وانضمت آذربايجان إلى كردستان وجعلت منطقة منها مقرًا للأكراد، فتسببت هذه الأوضاع فى مضرة أخرى وهى ازدياد الحقد تجاه الأكراد السنيين. وهذه قصة السنة والشيعة. وفضلاً عن هذا كان بينهم مسألة أخرى وهى ماتعرف باسم الشيخية والمتشرعة والكريمخانيين. ففى عهد فتح علي شاه كان الشيخ أحمد الإحسائى أحد مجتهدى العراق، وكان له العديد من المريدين فى إيران وغيرها، وقد ظهر بأقوال جديدة وعاداه المجتهدون الآخرون وعدوه ملحدًا، ونتيجة ذلك أن ظهرت بين الإيرانيين طائفتان، إحداهما تبعت الشيخ وسميت بالشيخية، والأخرى أطلقت على نفسها اسم المتشرعة.

وقد وقع بين الطائفتين نزاع دام فى تبريز، ولم يأمن الناس على أنفسهم لفترة طويلة. وما زال فى تبريز مسجد يطلق عليه اسم " المسجد الدامى"، ويقال إن دمًا أريق فيه بسبب الشيخية والمتشرعة.

وخلف السيد كاظم الشيخ أحمد خليفة فى المشيخة، ولكن وقع نزاع من جديد بعده، وقام حاجى محمد كريم خان فى كرمان مدعيًا لنفسه الخلافة، وأضاف من عنده إلى ما قال الشيخ ما لم يقبله حاجى ميرزا شفيع فى تبريز وأعلن اعتراضه على أقوال الشيخ. وترتب على ذلك أن انقسم الأهالى فى تبريز ومدن آذربايجان الأخرى إلى ثلاث جماعات، هم : "الشيخيون" أو أتباع حاجى ميرزا شفيع"، "الكريمخانيون" أو أتباع حاجى محمد كريم خان و" المتشرعون" أو أعداء كلتا الطائفتين وأتباع غيرهما من رجال الدين.

وفى الأعوام السابقة على الحكم النيابى التى نتحدث عنها، لم يقع بينهم نزاع دامٍ تراق فيه الدماء، ولكن عاشت هذه الطوائف الثلاث كل منها فى عزلة عن الأخرى بحيث لم يكن بينهم تزاور، ولم يكن بينهم مصاهرة، وكانت مساجدهم منفصلة. وفى شهر رمضان من كل عام كانوا يتحدثون فى أمور الدين، كما تذم كل طائفة الأخرى من فوق المنابر.

أما روادهم : فكما سبق أن قلنا إن الشيخية كانوا أتباع حاجى ميرزا شفيع الذى خلفه ابنه ميرزا موسى، ومن بعده آل الأمر إلى ميرزا على آقا ثقة الإسلام، وكانوا يملكون عدة مساجد كبيرة يجتمعون فيها فى شهر رمضان وغيره من شهور العام، وكان لهم شيوخ آخرون فى تبريز والنجف سوى ثقة الإسلام.

وكان الكريمخانيون أتباعًا لكريم خان ومن أسرته، ولما كانوا مقيمين فى كرمان، لذا كانوا يتخيرون بعضهم لهداية الأتباع فى تبريز. وفى الوقت الذى ظهر فيه الحكم النيابى كان حاجى السيد محمد قره باغى مندوبًا عنهم، ولكن بعد أن وافاه الأجل بعد عدة أعوام خلفه الشيخ على جوان.

والمتشرعون الذين تبعت طائفة كبيرة منهم شيوخًا آخرين، كانوا يعدون أنفسهم من أتباع علماء النجف وكربلاء، وكانوا يحذون حذوهم ويعملون بما جاء فى رسائلهم. وكان يوجد كذلك فى المدن العديد من المجتهدين والشيوخ لهداية الناس،

وكان بعضهم ممن جمعوا ثروات طائلة كما جمعوا كثيرًا من الخدم والأتباع من الطلبة والسادة، وكان لهم نفوذ عظيم ووقفوا موقف المعارضة من الدولة، وكان هؤلاء المجتهدون يعدون من الأعيان.

وفى تبريز كانت الزعامة والريادة منذ مائة عام لأسرة ميرزا أحمد، وهؤلاء جمعوا منذ قرن من الزمان ثروات طائلة وامتلكوا ضياعًا كثيرة، وتوغلوا فى كل مجال. وكما ذكرنا أنه فى عهد ناصر الدين شاه كان زمام الأمور فى يد حاجى ميرزا جواد الذى كان له النفوذ لمدة تقرب من الثلاثين عامًا. وعندما وافته المنية فى عام ١٢٧٤هـ.ش (١٨٩٥م) خلفه ابنه ميرزا رضا، ولما توفى هو أيضًا بعد ذلك بثلاثة أعوام تولى زمام الأمور حاجى ميرزا حسن مجتهد ابن أخى حاجى ميرزا جواد الذى كان قد عاد من النجف، لذا فإن ابن أخيه حاجى ميرزا كريم تولى منصب إمام الجمعة.

وفى الأعوام السابقة على الحكم النيابى كان لكل واحد من هذين الشخصين ثروة طائلة ونفوذ عظيم، وكان بين العم وابن الأخ منافسة وصراع، لذا وجد مجتهدون آخرون من أمثال ميرزا صادق آقا وأخيه حاجى ميرزا حسن وحاجى ميرزا أبى الحسن أنكجى وغيرهم.

وإذا أردنا وصف سلوكهم وحياتهم فسيطول الكلام، وليس هذا مجاله، أما ماينبغى ذكره فأنهم كانوا وبالاً على الناس ويتساوى فى ذلك أخيارهم وأشرارهم.

لقد التحقوا منذ شبابهم بالمدارس، وحصلوا دروسهم فترة فى إيران وفترة أخرى فى العراق، وتلقوا عدة تعاليم عن المذهب الشيعى والأصول والفقه والحديث والقرآن، وكان كل ما يدور فى خلدهم فكرة "خلافة الإمام". وقد اتخذ أشرارهم تلك التعاليم أداة لجمع المال والغلبة، وجعل الناس تحت سيطرتهم. أما أخيارهم فكانوا يرغمون الناس على العمل بهذه التعاليم، وكانوا يحثونهم على القيام بأعمال لا طائل تحتها كالبكاء ودق الصدور والزيارة وتلاوة دعاء الندبة وما أشبه، أو يزيدون نيران

الحقد المذهبى اشتعالاً فى القلوب، فالمسيئون على هذا، والأخيار على ذاك، وقد جعلوا الناس حيارى ومنعوهم عن التفكير فى وضع الوطن وحال الجماهير.

ومن الحق قولنا إن المحسنين منهم كانوا يعلمون الناس أفعالاً حميدة كالصدق والإخلاص فى العمل والإحسان إلى الآخرين وما أشبه، لذا كانوا قومًا قد يأتى من ورائهم نفع !! إلا أن واقع الحال على وجه الإجمال أن مساونهم كانت أكبر من محاسنهم. والأخيار منهم والأشرار لم يتذكروا قط أن تلك البلاد التى فيها قوام حياتنا لها أعداء يسعون فى محوها وينبغى علينا أن نبذل كل ما نستطيع لحمايتها منهم، ونكون على الدوام أيقاظًا ونعد العدة لذلك، ولم يخطر لهم ذلك على بال، وإذا ما تحدث به أحد لم يلقوا إليه سمعًا، والعديد منهم كان يعد هذا الحديث إلحادًا وكانوا يمنعون الناس عنه عن جهالة منهم، ولذلك باعدوا بينهم وبين كتب طالبوف وسياحتنامهء إبراهيم بيك، وكثيرًا ما رأينا عندما كان يدور مثل هذا الحديث فى جلسة بحضور رجل من رجال الدين أن تجهم وجهه ومنعه أو قال جوابًا على ذلك على النحو التالى :

"إن لهذه البلاد الشيعية ملكًا يحميها". أو قال : " إن قلب الملك فى يد الله فلندْعُ الله أن يجعل الرحمة فى قلبه من أجل المملكة ". وكان فى تبريز شخص واحد فقط لم يكن على هذا الوضع وهو المرحوم ثقة الإسلام، وسوف نتحدث عنه فيما بعد.

مقتل ميرزا آقاخان كرمانى وأتباعه :

إن أهالى آذربايجان مع حسن استعدادهم لليقظة وتلك البواعث الخاصة التى كانت بينهم، لم يستطيعوا أن يحركوا أنفسهم تحت ثقل هذه المشاكل، وهكذا كانوا يعيشون حتى عهد مظفر الدين شاه الذى أصبح ابنه محمد على ميرزا وليًا للعهد، وأسندت إليه شئون آذربايجان، فكان ظلمه وسوء خلقه من جانب، وبعض الأحداث الأخرى من جانب آخر مما دفع الناس طوعًا أو كرها إلى الكلام والانتفاضة.

وثمة حادثة مفزعة وقعت فى بداية ولاية عهد محمد علي ميرزا وهى مقتل ميرزا آقاخان كرمانى، وحاجى شيخ أحمد روحى وحاجى ميرزا حسن خان خبير الملك، حيث قتل ثلاثتهم فى مكان واحد بتبريز.

ولميرزا آقا خان وحاجى شيخ أحمد قصة طويلة، فقد رحلا فى صدر شبابهما من كرمان إلى أصفهان ومنها إلى طهران ثم اتجها من هناك إلى إسطنبول. ودرسا هناك عدة لغات كالإنجليزية والفرنسية والتركية العثمانية، وشاهدوا أوربا وقوة الدول الأوربية. ومن هذه الناحية كانا ينظران إلى اضطراب أمر الشرق وتأخر الشرقيين بقلوب تملؤها الحسرة، فتأذت نفساهما بذلك وجعلا يتخبطان فى تفكيرهما، فقد كانا فى البداية كأهل إيران على المذهب الشيعى، ثم صارا بعد ذلك أزليين، وتزوجا من بنات البهائيين، وصرحا بأنهما من أتباع الطبيعة، وفى نهاية الأمر انضما إلى السيد جمال الدين أسد آبادى واعتنقا الإسلام ثانية، وجاهدا متضامنين معه باسم "الاتحاد الإسلامى" وكتب كل منهما كتبًا عديدة معروفة.

أما خبير الملك فكان القنصل العام لإيران فى إسطنبول، وقد انضم إلى السيد جمال وأصبحا رفيقين وكان ثلاثتهم يكتبون الرسائل إلى أهل إيران باسم " اتحاد الإسلام " وألقى أولئك المساكين بأنفسهم إلى التهلكة، وقد توسلوا بكل وسيلة من أجل خلاص هذه الشعوب.

وفى عام (١٢٧٤ هـ.ق - ١٨٩٥م) وهو العام الأخير من مُلك ناصر الدين شاه طلب علاء الملك سفير إيران من البلاط العثمانى اعتقالهم. وعلى حد ما جاء فى "تاريخ بيدارى" فقد أوعزوا إلى السلطان بأن كان لهم ضلع فى ثورة الأرمن التى وقعت منذ عام. وألقوا القبض على هؤلاء الثلاثة بأمر السلطان، وأرسلوهم إلى طربزان، وزجوا بهم هناك فى السجن، واتفق فى نفس العام أن قتل ناصر الدين شاه بيد ميرزا رضا كرمانى، واتجهت الظنون فى ذلك الأمر إلى السيد جمال الدين ولم يغضوا الطرف عنهم. وجاءوا بهم إلى الحدود بأمر من الدولة وسلموا إلى الإيرانيين، ومن هناك مضوا بهم إلى تبريز حيث قتلوهم. ولما كان الوزير الأكرم فى تلك الفترة

نائبًا للحكومة فى آذربايجان وعلم بكيفية قتلهم، لذا أرسل مذكرة إلى ناظم الإسلام مؤلف كتاب " تاريخ بيدارى"، نوردها فى هذا المقام :

" ذات يوم استدعانى محمد علي ميرزا الذى كان حديث عهد بولاية العهد، وأطلعنى على برقية من المرحوم ميرزا على أصغر خان أمين السلطان مفادها أنهم يحضرون ثلاثة مذنبين من إسطنبول فأرسلوا ثلاثين فارسًا وحولوا المذنبين إلى آواجق چالدران – وهى على الحدود الإيرانية التركية – حتى يأتوا بهم إلى تبريز. فأرسلت رستم خان قراجه داغى مع ثلاثين فارسًا وظل منتظرًا ما يقرب من شهر على الحدود دون أن يرد خبر من السادة، فعاد إلى تبريز دون استئذان، فأبرق محمد علي ميرزا إلى طهران يقول إن رستم خان ظل منتظرًا مدة شهر على الحدود ولما لم يأت إليه خبر من السادة عاد إلى تبريز.

وردوا من طهران قائلين إن المذنبين يدخلون الحدود هذه الأيام، فلتبادروا بعودة رستم خان إلى الحدود، فأرسلنا رستم خان من جديد، ولم أكن أعلم مَنْ هؤلاء المذنبون ؟ وأى ذنب ارتكبوه ؟

وقد سألت محمد على ميرزا مرتين أو ثلاثًا فقال أنا كذلك لا علم لى، ولكننى أعلم حق العلم أنه لما كان متشككًا فى أمرى لم يكن يريد أن يتفوه بشىء، ومن ثم فإن سوء ظنه كان من حسن الظن، فإن السادة الذين دخلوا مرند اقتربوا من تبريزعلى مسافة منزلين، ولمجرد الاحتياط وحتى لا قدر الله لا يتسنى لهم الفرصة لهروبهم أو لخلاصهم، أرسل إسكندر خان فتح السلطان رئيس الحراسة فى كوكبة من الفرسان إلى مرند حتى يكونوا فى معية رستم خان.

وحيث إننى كنت نائبًا للحكومة وولى السلطنة على السجناء فى سجن الدولة، لم يسلموا السادات لى، وكان لمحمد على ميرزا منزل فى ضاحية ششكلان يقيم فيه بسبب عدم إتمام ترميم المنزل الرسمى له. وفى الليل ودون إخبارى، أحضروا السادة وحبسوهم فى منزله بحيث لم أستطع مقابلتهم أو الاطلاع على حال أولئك المساكين.

أثناء ذلك قمت بالتحقيقات اللازمة خلال عدة جهات، وجئت لإطلاق سراحهم حتى إننى قدمت إلى أحد الحراس عشرة طومانات، وأوصلت المقلمة والورق إلى السادات حتى يكتبوا من سجنهم إلى المرحوم ميرزا ابن المرحوم ميرزا جواد آقا وسائر العلماء يلوذون بهم ويطلبون إطلاق سراحهم. وعن طريق نفس الحارس وصلت الرسالة المكتوبة إلى العلماء، وكنت شديد الرغبة لأن ألتقى مع السادة، وذات يوم عند الغروب لا أدرى لماذا ذهبت من دار الحكومة إلى منزل محمد على ميرزا، ورأيته وحده يقرأ كتابًا فى الحجرة، وسمح لى بالجلوس، وقال : " ألف هذا الكتاب أحد هؤلاء السجناء الثلاثة ويدعى ميرزا حسن خان وجعله قانونًا لإيران ". وسلمنى الكتاب فقرأت بضعة أسطر منه ثم قال : " ألم تر هؤلاء السجناء ؟ فلتذهب من أجل خاطرى إلى السجن واستجوبهم ". قلت: "أذهب شريطة أن تأتى معى، وأن تقف خلفى لتسمع كل ما نتحدث به". فقبل، ومضينا أنا ومحمد على ميرزا وإسكندر خان فتح السلطان وميرزا قهرمان خان نير السلطان إلى السجن، ووقف هو خلف الباب ودخل ثلاثتنا السجن، ورأيت أولئك المساكين قد فرغوا توًّا من الصلاة وليس معهم أحد، والثلاثة يتحدثون، وجلس فتح السلطان وميرزا قهرمان خان متواجهين، ولأننى لم أرغب فى أن يطلع محمد على ميرزا على مدى حزنى فقد جلست فى أحد أركان السجن، وكان محمد علي ميرزا ينظر من ثقب الباب، وتحدث فتح السلطان وميرزا قهرمان خان مع السادة، وبعد مرور ربع ساعة قلت : " إننى أرغب كذلك فى التحدث معكم". قالوا : " ألنت ميرزا محمود خان حكيم الحاكم ؟ "قلت أنتم ترون أن لهجتى تركية، ولست إلا واحدًا من عبيد ولى العهد " ثم حضر أحد الخدم وأخرج علبة سجائره وقدم لكل منهم سيجارة على سبيل التعارف، وأخذت أنا أيضًا سيجارة وتحدثنا، وكان حديثى عن المرحوم آقا السيد جمال الدين بالإيماءة والإشارة حتى يفهم حضرات السادة كلامى، وسألتهم أين تعرَّفوا به، قالوا:

" قد تشكل مجلس فى إسطنبول من أجل الاتحاد الإسلامى وكان رئيسًا له، وقد تعرفنا هناك كذلك على أعضاء المجلس ". وتحدثنا عن فوائد الاتحاد الإسلامى وما يتكشف عنه من نتائج فى خدمة الإسلام.

وتحدثنا طويلاً فى هذا الصدد وعرفنى السادة حق المعرفة، وقلت إنه لا يستبعد أن يتحدث هؤلاء السجناء بما يضر بهم فأوقفت الكلام ولم أرغب فى سرد حديث آخر، وقلت فى النهاية : " لِمَ قتلوا ناصر الدين شاه؟ فرد الشيخ أحمد قائلاً : "طالما كتبوا إليه إلا أنه كان يرفض فقتلوه". فوقفت، فقال الشيخ أحمد : " أرجو أن تبقى معى مدة نصف الساعة حتى نتبادل أطراف الحديث ". ولم يكن هؤلاء المساكين يدركون أن محمد على ميرزا يقف خلف الباب، فتحفظت فى كلامى وقلت : " بما أننى أعانى من آلام الروماتيزم، وهواء الدور الأرضى رطب فإننى لا أستطيع أن أمكث أكثر من ذلك ". فقالوا : نطلب من ولى العهد أن تخصص لنا حجرة جافة غدًا مساءً أو بعد غد مساء على أن تشرفنا بالحضور ونتحدث قليلاً". فقلت : " لا بأس فأنا مستعد لذلك إذا ما سمح ولى العهد ".

وبمجرد أن وقفت قال الشيخ أحمد : " ترى أى قيود هذه التى وضعوها حول أعناقنا، لو كنت تعلم أن هذا القيد قد صنع من الذهب لكنت حضرت لزيارتنا مرة كل يوم"، وثار الدم فى رأسى وخرجت عن طوعى. وقلت :

" أنا أعرف كما يعرف البعض كذلك !!".

طالما كنت فى تبريز، فإن مثل هذا الحديث جعلنى لا أطمئن قط إلى محمد على ميرزا، وعرضنى لصدمات كثيرة. بعد ذلك خرجنا من السجن، وقال محمد على ميرزا : "كان استجوابكم كله عن اتحاد مسلمى العالم وكان علميًا". فقلت : " نعم. ينبغى فى بداية الاستجواب أن يكون الكلام ناضجًا حتى يكون دافعًا للطرف المقابل أن يقولوا ما فى قلوبهم فى الاستجوابين الثانى والثالث ".

وعدت إلى المنزل وأنا فى غاية الأسف، وكنت أفكر فى تدبير حيلة لخلاصهم ونجاتهم، وعقدنا جلسة أو اثنتين مع المرحوم ميرزا آقا إمام الجمعة المغفور له حاجى ميرزا موسى ثقة الإسلام وتفاوضنا بخصوص السادة، وفى اليوم الأربعين حرضنا الناس لخلاصهم والتوسط لهم لدى طهران. ومضت عدة أيام على هذه الأحداث، ثم أخبرونى فى الصباح الباكر أنهم قتلوا السادة ليلاً، فذهبت فى التو دون وعى إلى محمد علي ميرزا وقبل أن أبدأ ؛ قال : " إن حسين قلى خان ابن عم الأمير بهادر تلقى أمرًا ليلاً من الشاه فى طهران بأن أقتل السادة وأرسل رؤوسهم إلى طهران، وكنت مضطرًا لإطاعة الأمر ". قلت : " أنا نائب الحكومة وعلى الأقل كان ينبغى أن تخبرونى ". قال : " لم يكن لدى إذن بالتحدث فى ذلك قبل الوقت المحدد".

وبعد مضى فترة من الليل أحضروا المساكين الواحد تلو الآخر وقطعوا رقابهم تحت شجرة النرجس فى منزله الخاص، ولقد كان يجلس فى الشرفة يشاهد ذلك، قطعوا رؤوس الثلاثة ثم سلخوا جلودهم وملئوها بالتبن وأرسلوها فى الليلة نفسها إلى طهران بواسطة حسين قلى خان، أما الرءوس نفسها فقد بعثوا بها كى تلقى فى مجرى النهر الذى يمر بوسط المدينة حيث أخفوها تحت الرمال.

وفى صبيحة تلك الليلة، حيثما كان الأطفال يلعبون فى النهر ظهرت رءوس مسلوخة قد طفت من القاع، فأخبرونى، فأرسلت على الفور طالبًا دفنها فى موضع الدفن، وفكرت فى العثور على جثث أولئك الشهداء، وعلمت أنهم حملوا جثثهم فى نفس الليلة ووضعوها تحت جدار فى جبل يولى وهدموا الجدار عليها. وفى الليلة التالية أرسلت نائب عبد الله آدم شخصيًا مع بعض الأنفار سرًا فأحضروا الجثث كما حملوا الرءوس وغسلوها وكفنوها ودفنوها فى مقبرة تلك المحلة. إلى هنا كانت مذكرات الوزير الأكرم.

وقالوا عن الذين قُتلوا إنهم كانوا ثلاثة أشخاص من البابية، وكانوا يطلقون هذا الاسم على كل من سفكت دماؤهم، إذا كان هذا حدث، فماذا يجب أن يفعلوه مع أنصار البابية أنفسهم ؟ ولكن كثير من الناس كانوا يعرفون خبرهم جيدًا وحزنوا عليهم كثيرًا.

وبعد عدة أعوام كانت أسماؤهم تتردد على الألسنة دومًا حين ظهر أنصار الحرية وجاهدوا وناضلوا، وعد ذلك أحد مظالم القاجاريين.

قصة الخبز :

من مساوئ عهد الاستبداد عملية التخرين، حيث كان أصحاب الضياع على الدوام لا يبيعون القمح أو الشعير حتى يشح الخبز ويرتفع سعره وحينئذ يبيعونه بأثمان باهظة. وقد شاع هذا الأمر فى آذربايجان خلال السنوات السابقة على الحكم النيابى، وكان معظم أصحاب الضياع من رجال الدين والأعيان والتجار. والدولة التى كان ينبغى عليها أن تمنع ذلك لم تتخذ أى إجراء لأن محمد على ميرزا نفسه كان يملك ضياعًا وكان يستفيد من ارتفاع أسعار الغلة. نتيجة ذلك كان الخبز يشح على الدوام، وكان الرجال والنساء يتزاحمون أمام المخابز حتى أن صخبهم وضجيجهم كان يسمع من بعيد.

كانت هذه المعاناة للفقراء، وكان ذلك سببًا فى ظهور الشغب مرات عدة، ومن ذلك شغب أريق فيه الدماء عام ١٢٧٧ هـ.ش (١٨٩٨م) كما تم السطو على منازل نظام العلماء وعلاء الملك وغيرهما. وحدث فى هذا العام أن قل الخبز إلى أبعد حد، واشتدت معاناة الناس. وكان السيد محمد اليزدى – الذى كان قد قدم إلى تبريز حديثًا فى ذلك الوقت – يعتلى المنبر فى المسجد وعند تلاوة الروضة إذا به يبسط لسانه بذم من يقومون بالتخزين، ويزداد اشتعال نار الغضب عند الأهالى نتيجة لذلك، وكذلك إثارة البعض للناس فى هذا الخصوص فقد أغلقت الأسواق، وتجمع البعض فى سيد حمزة وجعلوا يصيحون وينتحبون، فرغب أمير جروسى حاكم آذربايجان أن يخمد تلك الثورة عن طريق رسله إلا أنه عجز عن ذلك. أثناء ذلك تردد اسم ناظم العلماء على الألسنة، وكان يقال إن الخبازين مضوا إليه لشراء القمح بيد أنه رفض البيع، وتحدثوا عن أسرته بالسوء. وفى اليوم التالى اتجه الناس إلى منزله كى يحاصروه وحدث أن علم نظام العلماء بذلك من قبل فما كان منه إلا أن أعد حملة البنادق وجعلهم

يطلقون الرصاص. وقيل إن عددًا كبيرًا من الأهالى قد أصيب بطلقات الرصاص وخروا صرعى ولكن لم تتفرق جموع الناس، لذا تقدم حملة البنادق وواصلوا الضرب فأصابوا البعض كذلك، ولحقدهم على رجال الدين اعتقلوا الطلبة الذين كانوا عائدين من الدرس ولم يعلموا عن الأمر شيئًا وقطعوا رءوسهم بوحشية.

وفى الليل استطاع نظام العلماء وإخوته مساعدة المرحوم حاجى ميرزا موسى ثقة الإسلام، بأن خرجوا مع أفراد أسرته. وفى الغد اندفع الناس إلى منازلهم وأغاروا عليها وسلبوا العديد من الأدوات والأمتعة، وبعد هذا فكر محمد على ميرزا فى حيلة حيث أصدر أمرًا إلى أمير العسكر بتفريق الأهالى. وكان هذا الحادث فى شهر مرداد عام ١٢٧٧ هـ.ش (ربيع الثانى عام ١٣١٦ هـ.ق).

وهكذا يتضح أنه كان يضمر فى قلبه الحقد على علاء الملك وغيره (أخى نظام العلماء)، وكان له ضلع فى هذا الحادث حيث كان يريد الانتقام.

وبعد الإغارة على المنازل تفرق الناس وخمدت الفتنة، ولكن لم تحل مشكلة نقص الخبز فى الأسواق ومعاناة من لا يجدون خبزًا، وظلت هذه المعاناة حتى حدثت الحركة المطالبة بالحكم النيابى، ولا شك فى أنه ينبغى أن يعتبر هذا سببًا من أسبابها. إننى أتذكر الثلاثة أو الأربعة أعوام السابقة على الحكم النيابى، فكنت فى ذلك الوقت كبيرًا، وكنت أمضى أحيانًا إلى السوق وأرى بعينى تزاحم النساء والرجال أمام الدكاكين.

وفى الأعوام التى هطلت فيها الأمطار من السماء وأنبتت الأرض زروعها وكانت الغلال وفيرة كان على الناس أيضًا أن يحصلوا على الخبز بالتعب والمشقة، وكانت النساء الأرامل يتركن أطفالهن فى المنزل ويقفن أمام الدكاكين أربع أو خمس ساعات كى يحصلن على الخبز. وكان العمال يعملون حتى المساء وقد حصلوا على الأموال لكنهم يعودون إلى منازلهم وقد خلت أيديهم من الخبز.

فى تلك الفترة فى آذربايجان لم يكن أصحاب الدور، وذوو الحياء يشترون الخبز من السوق بل كانوا يعدونه فى بيوتهم كوسيلة للتدبير. وكانت المخابز أكثر من غيرها انتشارًا فى الأسواق ومع هذا فما أكثر ما كان يعانيه الفقراء والمحتاجون من مشقة فى هذا الصدد. وكان الخبازون يتسلطون على الناس فى ظل تأييد محمد على ميرزا، ويسلكون معهم سلوكًا غير لائق، ولما رأوا أن الناس فى حاجة إليهم كانوا يظلمونهم بكل وسيلة، فكانوا يرفعون أثمان الخبز ويبيعونه بسعر باهظ من ناحية، ومن ناحية أخرى كانوا يخرجون الخبز وهو فطير ويخلطونه بأشياء أخرى سوى الدقيق، وبعد كل هذا كانوا يبيعونه وقد بلغ وزنه ثلاثة أرباع المن أو أقل بدلاً من أن يكون وزنه منًّا، وكان الخبازون يجهرون بقولهم : " إن منّنا ثلاثة أرباع المن، فلتعلموا هذا أيها الناس !! ".

أتذكر أن أحد الخبازين كان يريد أن يمضى إلى كربلاء من أجل أن يكون ماله حلالاً وكان يقول هذا للناس، ومع أن ذلك كان كذبًا، وكان الناس يقولون إنه يقدمه أقل من الثلاثة أرباع المن !!

والاحتكار كان أحد مشاكل هذا الزمان، وبما أن أحدًا لم يعترض، ولم يكن هناك ما يمنع ذلك، لم يكن الخبازون وحدهم هم الذين يبيعون قليلاً، فكان جميع أصحاب الدكاكين على نفس الوضع. وأكثر شيء كان وقعه شديدًا على الناس يتمثل فى احتكار الخبازين؛ لأنهم كانوا يحصلون على رغيف الخبز بتعب ومشقة وبأثمان باهظة وبدلاً من أن يكون وزنه منًّا كان وزنه ثلاثة أرباع المن.

كان هذا كله سببًا فى يقظة الناس من عدة وجوه، فمن ناحية يئس الناس وتأذوا من محمد علي ميرزا الذى سيتولى الملك من بعد. ومن ناحية أخرى استاءوا من رجال الدين الذين كانوا يقرون من يخزنون القمح. وعلى وجه الإجمال كانوا يقتربون من التفكير فى حياتهم، ورويدًا رويدًا أدركوا أنه ينبغى عليهم أن يفكروا فى وسيلة.

ومن أوائل رجال الدين الذين كانوا لا يحبذون اختزان الغلال إمام الجمعة ويليه المجتهد، وكان المجتهد نفسه لا يرضى بذلك ويلقى بالذنب على عاتق ابنه حاجى ميرزا مسعود، أما إمام الجمعة فلم يكن راضيًا عن هذا التمويه !!

مقتل جعفر آقا شكاك :

فى عام ١٢٨٤ هـ.ش (١٩٠٥م) عندما كان مظفر الدين شاه فى أوربا وكان محمد على ميرزا يشغل منصب نائب السلطنة فى طهران، وقعت فى تبريز حادثة تثير العجب، وإن لم تكن على صلة قريبة من حركة الحكم النيابى فإنها على صلة بتسلسل التاريخ والأحداث التى وقعت فى الأعوام الأخيرة، وكانت من الأحداث التى حطت من هيبة الدولة فى عيون الناس، لذا نوردها فى هذا المقام :

كانت عشيرة شكاك من عشائر الكرد الذين يقطنون بالقرب من الأراضى التركية، وكان رؤساؤهم يتحينون الفرصة فى كل وقت لإعلان عصيانهم على الدولة ويقومون بالإغارة والسطو. وفى تلك الأزمنة ومنذ عدة أعوام أعلن محمد آقا رئيس أولئك القوم وابنه جعفر آقا عصيانهما ولم يكفا عن الإغارة. وقد حذر نظام السلطنة – الذى تولى زمام الأمور فى آذربايجان بعد مضى محمد على ميرزا إلى طهران – جعفر آقا واستدعاه إلى تبريز، فقدم جعفر آقا فى معية سبعة من صفوة خواصه يدعى أحدهم ميرزا نام داييش، وقد أكرم نظام السلطنة وفادته.

ولما كانت الحرب حامية الوطيس فى ذلك الوقت بين المسلمين والأرمن فى القوقاز، وكانت الأخبار الواردة عن هذه الأحداث تثير الناس فى تبريز، وخوفًا من انتشار الشغب فى أى وقت عهد إليه بمهمة الإشراف على أرمينيا عدة أيام وكلف بجمع أعوانه لكى يوقفوا الشغب إذا ما وقع.

وظلوا فترة فى المدينة يحملون بنادقهم ولما كانوا يمرون بالأسواق أو الأحياء كان الناس يقفون لمشاهدتهم. وشاع ذات يوم أنهم قتلوا جعفر آقا وفر رجاله وهم

يطلقون القذائف وأصابوا عدة أشخاص بالرصاص وحدثت انتفاضة فى المدينة. وكيفية ذلك أن محمد على ميرزا أبرق تلغرافيًا من طهران يأمر نظام السلطنة بأن يقتل جعفر آقا، وكان من تصرفه أن استدعى محمد حسين خان ضرغام – الذى كان أحد القواد الفرسان فى قره داغ – إلى قصره، كما سلم لبعض الخدم وغيرهم البنادق والمسدسات، وجعلهم على أهبة الاستعداد فى الطابق الأرضى، ثم استدعى بعد ذلك جعفر آقا، ودخل جعفر آقا مع أتباعه دون أن يسيء الظن ونزلوا بهم فى الفناء، وصعد السلم للقاء نظام السلطنة، وقاده الخدم إلى حجرة صغيرة، وبمجرد أن جلس حمل ضرغام بندقيته وجعله هدفًا له من كوة، فقفز جعفر آقا ثم سقط مسلمًا الروح. وبمجرد أن سمع أتباعه من أسفل صوت الرصاص ووقفوا على حقيقة الأمر، صعدوا السلم وهم يطلقون الرصاص وهرب الخدم، أما هؤلاء فقد وصلوا إلى جثة جعفر آقا، وعندما وجدوه ميتًا لم يصمدوا وخافوا على أنفسهم وفتحوا نافذة وتسلقوها الواحد تلو الآخر حتى ارتقوا إلى السطح، ومن هناك وصلوا إلى الطريق ومضوا وهم يطلقون بنادقهم، وكانوا يضربون كل من صادفوه وخرجوا من المدينة ولم يستطع أتباع نظام السلطنة إلا أن يضربوا اثنين منهم (أحدهما فى الفناء والآخر وقت تسلقه السطح) أما الآخرون فنجوا. وهذه القصة تثير العجب من كل جانب، وقد غضت كثيرًا من هيبة موظفى الدولة، فمن ناحية نجد نكث العهد والقتل غدرًا، ومن ناحية أخرى نجد عدم فهم الأمور وإظهار العجز أمام بعض الأشخاص من الأكراد. وعلى ذلك كان الناس يخشون العاقبة؛ حيث إن الدولة بمثل هذا العجز لا تستطيع أن تحقن دماء آلاف الأبرياء وإن الأكراد سوف يهبون للقتال والقصاص.

وأحضروا جثة جعفر آقا مع هذين الرجلين، وعلقوهم فى عالى قابو. وكنت فى ذلك الوقت أذهب إلى المدرسة مع اثنين أو ثلاثة من التلاميذ لمشاهدتهم، وقد عُلق الثلاثة منكسى الرءوس.

أما أولئك الأكراد الذين فروا، فقد أرسل نظام السلطنة فى أعقابهم جماعة من الفرسان حتى لحقوا بهم فى ارونق ولكنهم قاوموهم وقاتلوهم فى بسالة، وأثناء القتال

استولوا منهم بمهارة على بعض الخيول وامتطوها ومضوا. وهذا مثال آخر لضعف الدولة.

وأعلن محمد آقا - والد جعفر آقا - العصيان مرة أخرى محتجًّا بذلك وهيأ الأمر للثورة. ولما ظهر فى تلك الفترة الحديث حول مسألة الحدود مع الأتراك، وتوترت العلاقات بين الدولتين، اغتنم الفرصة، ومضى إلى إسطنبول، حيث أكرموا وفادته، ونال لقب باشا وكان يجد فى العمل، لكنهم أساءوا الظن به من أجل حادث وقع، واستعادوا منه ما أعطوه إياه ولم يستطع فعل شىء. لكننا سوف نرى بأى الأعمال قام ابنه الثانى إسماعيل آقا أو سيمجو.

الحرب بين الأرمن والمسلمين فى القوقاز :

لقد سبق لنا القول إن الحرب بين جنوب أفريقيا وإنجلترا، والحرب بين الروس واليابانيين قد وقعتا فى الأعوام السابقة على الحكم النيابى، وكانت الجرائد الفارسية تذكر أحداثهما مما أدى إلى يقظة الإيرانيين فى كل الأرجاء، كذلك كانت ثورة الروس وحركة المطالبين بالحرية هناك والمساعى العجيبة التى بذلوها مما يتحمس الناس له.

وفضلاً عن هذا كله كانت الحرب بين الأرمن والمسلمين فى القوقاز سببًا لاستنهاض الهمم فى آذربايجان.

وقد كان لهذه الحرب، أو نقول بعبارة أفضل لهذه المذبحة أثرها فى إيجاد الحقد فى نفوس الأرمن، وكما سبق وذكرنا كانت دولة روسيا تزيد هذه النار اشتعالاً لأن نتيجة لتلك الهزيمة التى منيت بها تلك الدولة، والثورات والفتن التى ما جت فى معظم الأرجاء كانت الخشية كذلك من ثورة أهل القوقاز. فالدولة كانت تحبذ وجود مثل هذه الحرب بين المسلمين والأرمن لتلافى مثل هذه الأحداث وإثارة الناس.

وفى البداية نشبت حرب فى باكو فى شهر بهمن عام ١٢٨٣هـ.ش- ١٩٠٥م حيث قتل الأرمن من يدعى آقارضى الذى كان ينتسب إلى إحدى الأسر الثرية، كما

كان شابًا فاضلا، وتم ذلك فى يوم الأحد الموافق الثلاثين من نفس الشهر (الرابع عشر من شهر ذى الحجة ١٣٢٢هـ.ق- ١٩٠٥م)، ومن هنا بدأ سفك الدماء، الذى استمر زهاء الأربعة أيام بلياليها، وقتلت أعداد كثيرة من كلا الفريقين تساوى فى ذلك الأبرياء والأشقياء، وصارت قصور شامخة طعمًا للنيران. وفى النهاية استتب الأمن والسلام بمسعى حاجى زين العابدين تقيوف وشيخ الإسلام وغيرهما.

لكن النفوس لم تتطهر من أضغانها، ولم يمض وقت طويل حتى نشبت الحرب مرة أخرى وسُفكت الدماء سواء فى باكو أو فى غيرها من مدن القوقاز، والله أعلم بعدد القتلى من النساء والرجال.

وكانت الجرائد الفارسية تذكر هذه الأحداث، وكانت جريدة تربيت تؤيد الأرمن بينما أبدت جريدة الحبل المتين وغيرها تأييدها للمسلمين، واشتد وقع هذا الحادث على الناس فى كل الأرجاء، وكان له أثر آخر فى آذربايجان خصوصًا فى تبريز؛ لأنه فضلا عن قرب القوقاز من آذربايجان، وفضلاً عن المودة التى كانت لأهل آذربايجان بالنسبة للقوقاز، ولما كانت مجموعة كبيرة من الناس هنا فى القوقاز وكانت الأنباء تصل بأن الأرمن لم يفرقوا بين الإيرانيين وغيرهم فى قتل المسلمين، فزاد كل هذا من سخط الناس وقلقهم.

وكانت الخشية من إراقة الدماء، لكن يقظة الدولة وتدخل بعض العلماء وسلوك رؤساء الأرمن الحكيم حال دون ذلك. وكان الأرمن يعدون أنفسهم إيرانيين ويكرهون مسلك أبناء جنسهم فى مدن القوقاز، وتقربوا من العلماء وضموهم إلى جانبهم حتى ذلك الوقت الذى توفى فيه شيخ حسن مامقانى فى النجف، فكانوا يقيمون سرادق العزاء له فى مدن إيران وكذلك فعل الأرمن فى تبريز لمواساتهم، حيث أقاموا مجالس العزاء فى مسجد قلعة بيجى الكائن فى بلاد الأرمن.

وعلى ذلك لم تنشب حرب هنا، وفى عام ١٢٨٥ هـ.ش- ١٩٠٦م وفيما يقرب من شهر قبل أمر الحكم النيابى، وقع شغب ذات يوم، وأغلق الناس الأسواق، وكاد

الزمام أن يفلت من الأيدى، إلا أن العلماء والدولة حالوا دون حدوث ذلك ومنعوه. وفى عملية المنع هذه كان أحد الرواد هو إمام الجمعة الذى كان يرعى جانب الأرمن، وكان مسلكه هذا سببًا لاستياء أهل القوقاز، وبسطت الجرائد ألسنتها فى ذمه والشكوى من سلوكه هذا.

ولكن كانت هذه الحادثة سببًا فى ازدياد ثورة الناس ويقظتهم، والأكثر من هذا أنها صارت سببًا يتخذون منه العبرة، وتردد على الألسنة أنه تم قتل عدد كبير من الإيرانيين الأبرياء من التجار والعمال وغيرهم فى باكو وغيرها من المدن، ولم تكترث دولة إيران بذلك ولم تتباحث فى هذا الأمر، وقد اشتد وقع ذلك على الناس، وهذا ما كشف للناس إلى أى حد بعيد كان عدم اكتراث وتقاعس الدولة القاجارية.

وقد وقع حادث آخر فى آذربايجان فى تلك الأعوام وهو أن أحد المبشرين الإنجليز قُتل فى موضع بين تبريز وارومى ولم يعرف قاتله، واشتد ضغط دولة إنجلترا، وظل هذا موضع تباحث لفترة طويلة وعانى منه الكثير من الناس حتى تم منح خمسة آلاف طومان فدية له فى النهاية. وقارن الناس بين هذا الحادث وبين حادث القوقاز، حيث أريقت دماء آلالاف من الإيرانيين الأبرياء ولم تبد الدولة إزاء ذلك سوى الصمت واللامبالاة، فدخلهم غضب شديد.

مساوئ محمد علي ميرزا ولى العهد :

أثناء ذلك كان سلوك محمد علي ميرزا نفسه وتصرفه باعثًا آخر ليقظة الناس وسخطهم. فهذا الرجل الذى كان يريد مُلك الدولة كان يبدى ميله الشديد تجاه الروس، وكان يعيش فى كنفه شاب روسى لبق يدعى "شابشال" بصفته معلمًا للغة الروسية وهو فى نفس الوقت مرشده فى كل أفعاله.

وبلغ ميله تجاه الروس حد أن التقط لنفسه صورة بزى القوزاق، وقدمها باستهتار إلى الناس، مما جعل الناس يفكرون كيف سيكون مصير الدولة مع مثل هذا الملك فى المستقبل؟... ولم يكن بين الملوك القاجاريين من يماثله فى وضعه وسلوكه.

حقيقة عاش الإيرانيون طويلاً فى ظل هذا الاستبداد، واعتادوا ظلم وطغيان الحكام، ومع كل هذا فقد ساءهم كثيرًا هذا السلوك المشين منه.

لقد كان شابًا جشعًا، ومع كل ما كان يمتلكه من ثروة طائلة ومكانة رفيعة، فإنه كان حريصًا على ابتزاز الأموال من الشعب، وإذا استدان شيئًا، فلن يرده مطلقًا، وقد أدرك الجميع ظلمه، كما كانوا يخطبون وده بتقديم المال إليه أو بأى طريق آخر، ولم يقف عند حد فى رغبته الملحة فى ظلم الناس، وأسوق فى هذا الموضع مثالين لذلك :

المثال الأول :

كان الحاج محمد تقى الصراف يمتلك العديد من الديار فى تبريز وطهران، وقد جمع ثروة طائلة، وصار من المقربين لدى محمد على ميرزا بتقديم الأموال إليه، وكان يشترى من الدولة أراضى فضاء فى لاكه ديزج[1]، و استولى بهذه الحجة على أراضى الآخرين.

ولكن الحاج عباس لاكه ديزجى، الذى كان شيخًا شجاعًا وله ابن شاب، قد صمد أمامه وجاهد فى حماية أراضيه ورعايتها منه، كما أن ابنه كان يضرب رجال حاجى محمد تقى، فينقل محمد تقى هذا إلى محمد علي ميرزا فيصدر أوامره بأن يلقوا القبض على ابن حاجى عباس ويزجوا به فى السجن، ثم يستولون على الأراضى عنوة ويسلمونها إلى حاجى محمد تقى. ولم يخضع الحاج عباس لهذا ولم يكف عن المقاومة، فكان يحمل ما لديه من مستندات وأوراق ويمضى إلى منازل العلماء طالبًا الإنصاف، وعندما لم يجد نتيجة لذلك، إذا به يحمل ذات يوم عدة أقفال ويمضى إلى

---

[1] لاكه ديزج هى ضاحية فى مدينة تبريز. (المؤلف).

أبواب مساجد مجتهد وميرزا صادق وغيرهما، ويقفل كل منها بقفل بحجة أن فى مدينة يسودها هذا الظلم الصراح يجب أولاً السعى لرفع الظلم، ويجيب رجال الدين قائلين : " لا قدرة لنا على التصدى للظالمين. . إلا إذا ما سُئلنا " فاستفسر منهم الحاج عباس، وكتب كل رجل من رجال الدين ردًا عليها. ويقال إن ميرزا صادق آقا كتب يقول : " إذا كان الاستيلاء على أملاك الحاج عباس صحيحًا، فإن اغتصاب فدك [1] صحيح كذلك ". فيأخذ الحاج عباس تلك الصحيفة ويمضى إلى عالى قابو، ويرفع عقيرته مطالبًا بالإنصاف وقت خروج محمد على ميرزا، فيستدعيه للمثول أمامه ويسأله عن حقيقة الأمر، فطلب الحاج عباس الإنصاف ويقدم إليه تلك الصحيفة، فيضطرب محمد على ميرزا ويطرحها بعيدًا عنه، وأخذ يوجه السباب للحاج عباس، ويقول الحاج عباس : "أنت كأحد حفدتى. أيليق بك أن تسبنى ؟ فيأمر محمد علي ميرزا وقد اشتد غضبه أن يلقوا القبض عليه ويسجنوه. من ناحية أخرى يصدر أوامره بأن يحضروا ابنه من السجن ويعذبوه على مرأى من أبيه بحيث يبللون قدميه بالزيت ويأخذونه على النار ويحرقونها، ويسلم الشاب المسكين روحه بسبب هذا الأذى. وظل الحاج عباس فى السجن حتى ذلك اليوم الذى أخرجوه مع بقية السجناء ليعمل فى

---

[1] فدك : هى قرية فى الحجاز المسافة بينها وبين المدينة مسيرة يومين، وقد ورد فى سيرة ابن هشام عن ابن إسحاق : " فلما فرغ رسول الله (صلى الله عليه وسلم) من خيبر، قذف الله الرعب فى قلوب أهل فدك حين بلغهم ما أوقع الله تعالى بأهل خيبر، فبعثوا إلى رسول الله (صلى الله عليه وسلم) يصالحونه على النصف من فدك، فقدمت عليه رسلهم بخيبر أو بالطائف، وبعدما قدم المدينة، فقبل ذلك منهم، وكانت فدك لرسول الله (صلى الله عليه وسلم) خالصة، لأنه لم يوجف عليها بخيل ولا ركاب ".

وقد سيطر عليها عمر (رضى الله عنه) بعد ذلك وعندما توسعت الفتوحات الإسلامية آلت إلى ورثة الرسول (صلى الله عليه وسلم). وثمة خلاف وقع بين على والعباس بن عبد المطلب (رضى الله عنهما) بسببها فكان على يقول إن الرسول قد منحها لفاطمة (رضى الله عنها) فى حياته، بينما كان العباس يعدها ملكًا للرسول ويعتبر نفسه وريثًا لها، وفى النهاية أمر عمر بن عبد العزيز – أثناء خلافته – والى المدينة حتى يدعها لأولاد فاطمة.

(ابن هشام : السيرة النبوية، تعليق أ.د/ عمر عبد السلام تدمرى، ج٣ ص ٣٠١، الطبعة الأولى، بيروت، ١٩٨٧م. على اكبر دهخدا : لغت نامه، شماره° ٧٩، ص٨٤، طهران، ١٣٤١ هـ.ش). (المترجم).

أعمال البناء للدولة، فتحيَّن الفرصة وهرب، ومضى إلى منزل الحاج ميرزا جواد المجتهد واعتصم هناك حتى وقع حادث المطالبة بالحكم النيابى وانضم إلى الآخرين.

المثال الآخر :

إن السيد محمد اليزدى - الذى أوردنا اسمه - لما كان عمه السيد على من العلماء المشاهير وأقام أعوامًا عدة فى تبريز وكان يتردد على قصر محمد على ميرزا للدعاء وما أشبه، فقد وجد هو الآخر السبيل إلى محمد على ميرزا وصار من المقربين لديه وجمع ثروة طائلة خلال فترة قصيرة. وفى نفس الفترة توفى من يدعى ميرزا حسن خان صدر الوزراء- أحد أثرياء تبريز- وترك أطفالاً صغارًا وكبارًا، فابتاع سيد محمد أحد منازله، وعندما اطلع على حقيقة أحوال هذه الأسرة وعرف أن الأم تقوم بتدبير أمور الصغار وأن لهم من الأموال والثروات الكثير، فنزل ذات ليلة من سطح منزلهم بسلم وتسلل حتى وصل إلى مخدع هذه السيدة وأسمعها كلامًا لينًا إلى أن تزوجته السيدة، وبهذه الطريقة استولى على ثروتها وثروة أبنائها، وتطاول على ثروات الآخرين عنوة وجعل لنفسه الدكاكين والحمامات والأموال وما أشبه. ولما كان من المقربين لدى محمد على ميرزا لم يستطع أحد أن يمنعه، وظل هكذا حتى نشرت الابنة الكبرى لصدر الوزراء هذه القصة على صفحات الجراند، وذلك بعد منح الحكم النيابى وتظلمت إلى مجلس الولاية، فأرسل المجلس من يكف يد السيد محمد عن ممتلكاتهم.

وسوف نرى قصة عداء الحاج مير مناف الصراف وقصة أخرى لسادة الدوتشى مع محمد على ميرزا، والباعث على ذلك أن محمد على ميرزا أخذ أموالاً من حاجى مير مناف لينال ابنه ذو الستة عشر عامًا رتبة عميد، وكان للحاج مير مناف نقاش مع أحد الأشخاص بخصوص إحدى القرى، ولما كان محمد على ميرزا يتلقى الأموال فى أى وقت من كل جهة فكان يؤيده فيما يريد.

تلك أمثلة لظلم محمد على ميرزا والمقربين منه، ومع كل هذه المساوئ وتلك المظالم لم يكن يقبل شكوى من أحد، وكان يرفض هذا المسلك. وقد وزع مجموعة من الجواسيس بين الناس فإذا ما تحدث أحد أو اشتكى يطلعونه على ذلك. وهكذا خشى الناس لدرجة أنهم امتنعوا عن الحديث فى هذا الصدد حتى فى ديارهم.

وينبغى أن نضيف إلى مساوئه تلك، تظاهره بالتقوى، فكان يقيم خيمة كل عام فى العاشر من شهر محرم، ويمشى فى الطرقات ليلة عاشوراء حافى القدمين، ويحمل الشمع لأربعين مسجدًا. و كان يأتى فى رمضان إلى مسجد الحاج الشيخ محمد حسين ويحيى ثلاثة ليالٍ ويصلى خلفه ويطبع كتب الدعاء.

وفى شهر المحرم من نفس العام الذى ظهر فيه الحكم النيابى عثر الحاج الشيخ محمد حسين على نسخة جديدة حول زيارة عاشوراء، فطبعها محمد على ميرزا على الفور فى مطبعته الخاصة ووزعها على الناس.

مجاهدو تبريز :

على هذا النحو تهيأ المجال لثورة الأهالى فى تبريز، وظهر فى الأعوام الأخيرة بعض الأشخاص ممن كانوا يدركون معنى الدولة وحياة الشعوب، وكانوا على علم بأحوال الدول الأوربية ويبذلون قصارى جهودهم لرفع الاستبداد، وتدريجيًّا تعرف بعضهم على البعض الآخر وتجمعوا وبدأو فى الجهاد. ونحن نعرف بعضًا منهم وسمعنا أسماء البعض الآخر، وسنذكر فى هذا الموضع من نعرفهم، وهم : ميرزا خدا داد حكاكباشى، وشقيقه ميرزا محمود، السيد حسن تقى زاده، وميرزا سيد حسين خان (عدالت)، والسيد محمد الشبسترى (أبو الضياء)، والسيد حسن شريف زاده، وميرزا محمد على خان تربيت، والحاج على بائع الدواء، وميرزا محمود غنى زاده، والحاج ميرزا آقا بائع البسط، وكربلائى على مسيو، والحاج رسول صد قيانى،

وميرزا على قلى خان صفروف آقا محمد سلماس، وجعفر آقا گنجه اى، وميرزا على أصغر خويى، وميرزا محمود اسكويى ومشهدى حبيب [1].

هؤلاء وغيرهم ممن لا نعرفهم قد تفتقت يقظة كل منهم بطرق مختلفة، فبعضهم قد حصل العلم كتقى زداه وشريف زاده وأبى الضياء وتربيت وعدالت وصفروف، وكان بعضهم على دراية باللغات الأوربية، وكانوا ينشرون المقالات فى جريدة الحبل المتين وغيرها من الجرائد. وقد ذكرنا عدالت الذى أسس جريدة "الحديد" ثم نشر جريدة "العدالة" بعد ذلك. وكان أبو الضياء من زملائه، أما تقى زاده وتربيت فكانا يصدران جريدة تحت عنوان "خزانة الفنون".

وكانت مجموعة منهم تلتف حول عدالت حيث كانوا يعقدون الاجتماعات فى منزله، ويتباحثون فيما يختص بالدولة ومشاكلها. وكانت جماعة منهم تعقد اجتماعات خاصة، وهذه الجماعة تتألف من الحاج رسول وجعفر آقا وعلى مسيو وميرزا على أصغر خويى وآقا محمد سلماسى، وكان هؤلاء يكتبون المنشورات السرية ويطبعونها بالجيلاتين ويوزعونها بين الناس، كما كان هناك من يجاهدون منفصلين أو منضمين لشخص أو اثنين. وقد انضم لهم بخش على آقا – أحد موظفى جمرك جلفا الروسى – كان يوصل لهم المنشورات التى كان يوزعها أحرار الروس فى القوقاز، كما كان يساعد من يمضى منهم إلى القوقاز.

وكان يؤيدهم من العلماء الكبار المرحوم ثقة الإسلام، فهذا الرجل مع كل ما كان يتمتع به من مكانة مرموقة - حيث كان زعيمًا للمشايخ - إلا أن أفكاره تحررت عن طريق قراءة الجرائد الشهرية والكتب المصرية وغيرها من الكتب، وكان يرثى لحال الناس والوطن ولم يضن بالمساعدة.

---

[1] ذكر معظم هذه الأسماء السيد صبرى الذى يعيش حاليًا فى طهران. (المؤلف)

وما يثير العجب في هذا هو أمر صفروف حيث كان رئيس مخابرات محمد على ميرزا، والتقارير التي كانت تصل كانت تمر من تحت يديه، وعلى الرغم من عمله هذا فقد كان من الأحرار وانضم إليهم وساندهم وكان يمد يد العون وينقذهم من المشاكل.

وقد أنشأ صفروف هذا جريدة تحت عنوان "احتياج" حيث صدرت منها عدة أعداد ولكن عندما نشر فيها بعض المقالات لم يرض عنها محمد على ميرزا، وضربوه بالعصا على قدميه بأمر منه وصادروا جريدته.

وهذه الجماعة ترجع نهضتها إلى الاطلاع على الأوضاع في المجتمعات الأوربية وتقدمها. ولذلك فإن بعض الأئمة الذين كانوا يعدون في المرتبة الثانية لرجال الدين بعد المجتهدين ضاقوا ذرعًا من عدم مبالاة محمد على ميرزا والمقربين له بالدين والشريعة، ومن تجميع الثروات وجشع كبار المجتهدين وتسلط المسيحيين والأوربيين في الدولة، وتنبهوا لذلك وقاموا بانتفاضة اقتداء بعلماء طهران وبقية المدن، وتعرف البعض منهم على الآخر وتجمعوا. وفي عام (١٢٨٥هـش-١٣٢٤هـق) أو قبل ذلك بقليل أقاموا منتدى باسم "المجلس الإسلامي" واجتمعوا سويًا لتلاوة الروضة والسعي من أجل رواج السلع الإيرانية والحد من تداول السلع الأجنبية وتباحثوا في ذلك، ونذكر من أولئك الحاج ميرزا أبا الحسن تشايكناري والشيخ إسماعيل الهشترودي والشيخ سليم وميرزا جواد ناصح زاده وميرزا حسين الواعظ.

وكان الحد من ترويج السلع الأجنبية أحد سمات مساعي ذلك الوقت وفي ظل التعريفة الجمركية - التي سبق أن ذكرناها - استطاع نوس في فترة وجيزة أن يزيد من البضائع الروسية في إيران على نطاق واسع، وصار هذا مصدر قلق الجميع،

ومن هذا المنطلق كان المجاهدون فى جميع الأرجاء يحاولون الحد من هذا، ففى طهران كان السيدان وأتباعهما لا يقدمون الشاى فى مجالسهم، وكانا يحثان الناس على استخدام البضائع الإيرانية. وقد شارك فى هذه المساعى رجال الدين فى أصفهان وغيرها من المدن، كما كانت تصل الرسائل من علماء النجف تؤيد ذلك.

وفى تبريز أيضًا جعلوا ذلك عنوانًا لهم، بيد أنهم أرادوا أن يجاهدوا أكثر وأكثر حتى أنهم كانوا يريدون الانضمام إلى مجاهدى طهران ومساندتهم.

وفى الوقت الذى حدثت فيه حادثة مسجد الجمعة وما تابعها كان هناك فى تبريز مجموعتان على أهبة الاستعداد، لتقديم العون والموازرة. وواقع الحال أن الصمود والمقاومة فى تبريز كانا أشد وأعنف مما كان فى طهران، إذ كان سلوك محمد على ميرزا هنا لا يقارن بسلوك مظفر الدين شاه أو عين الدولة فى طهران.

لا شك أن الاستبداد كان قد تفشى فى تبريز حيث كان العدو الأول للحياة النيابية والحرية، وفضلاً عن أن محمد على ميرزا كان يعلم أنه ملك البلاد القادم فإنه لم يكن راضيًا بأية حال عن ثورة الأهالى، وفى ظل ميله للجار الشمالى، لم يكن يريد الإساءة إليهم مطلقًا. واتفق أنه أقام فى تبريز ولم يكتف بمعارضة أهالى تبريز بل إنه لم يفسح المجال لأية انتفاضة، وكان يسعى دومًا لخنق انتفاضة طهران بشتى الحيل مثلما جاء فى حديثه بعد ذلك. ويقال إنه فى هذه الأيام نفسها، أرسل الحاج سيد أحمد خسرو شاهى إلى النجف وكان من أئمة تبريز، وذلك لكى يتباحث مع العلماء هناك ويحثهم على عداء الحكم النيابى، كما أرسل إمامًا آخر إلى طهران للتباحث مع العلماء هناك.

كل هذا لم يكن له أى أثر فى أفعال الشاه والآخرين، وهكذا كان يريد أن يسعى بنفسه وألا يجعل للحركة التى كانت قد وقعت أية قيمة. وذكرنا فيما قبل أنه بذل

كل مساعيه فى معاونة المجاهدين وأرسل علماء تبريز إلى مكتب البرق حتى يبرقوا إلى الشاه وقم وغيرها من المدن، لكننا أسلفنا القول بأن الغرض من هذا كله كان الإطاحة بعين الدولة، وقد أنجز هذا الأمر ببراعة حيث قام به بمساعدة المجاهدين وتأييد العلماء المهاجرين، وقد أرسل علماء تبريز إلى مكتب البرق، كما لم يذهب الأئمة إلى المساجد فى تبريز لبضعة أيام، ولم يقيموا صلاة الجماعة، ولكن بمجرد أن سقط عين الدولة اطمأن قلبه، كما أن رجال الدين مضوا لشأنهم ولم يسأل أحد : أى نتيجة تحصلت ؟! وما إذا كان العلماء المهاجرون قد عادوا أم لا؟! أو هل تمت الاستجابة إلى مطالبهم أم لا ؟!

وهذا الأمر يشير من جانب إلى دهاء محمد على ميرزا وشغفه لإخفاء أحداث طهران. ويبين من جانب آخر هوان شأن علماء تبريز وعدم قدرتهم على تنفيذ أى أمر. ومع هذا الضغط والمضايقة تصاعدت الانتفاضة فى تبريز خاصة فى وجود ذلك العجز الذى ألم بالمجاهدين، فكان يعتم على أحداث طهران، ولم تكن الجرائد تذكر شيئًا عنها، وكانت جريدة الحبل المتين هى الجريدة الوحيدة التى جعلت من نفسها أداة لعين الدولة، وكانت المعلومات تصل إلى المجاهدين أو غيرهم عن طريق الجرائد التى كان يكتبها البعض فى طهران وكانت تقرأ خفية.

انتفاضة تبريز :

صدر قانون الحكم النيابى فى طهران، وانعقد المجلس المؤقت، وكتبت لائحة الانتخابات، ولكن لم يشاهد أثر لذلك فى تبريز وغيرها من المدن. وكان المجاهدون يعقدون الاجتماعات فى دأب وسعى، وأثناء ذلك ظهرت جماعة مجاهدة أخرى فى ضاحية الدوتشى. ونحن نعرف استياء الحاج مير مناف من محمد على ميرزا، وكان

– منـاف هذا – مـن إحـدى الأسـر العريقـة التـى يطلـق عليهـا "سـادات الأرزل" [1].
وكانوا جميعًا يعادون محمد على ميرزا. و كان مير هاشم من زمرة أولئك السادات، كما كان من الأئمة، هذا وقد جمع حوله بعض الأشخاص وأخذ العهد منهم بـألا يهابوا شيئًا وأن يتكاتفوا للنضال والجهاد.

وبهذه الكيفية كانت تتم الاستعدادات، حتى وصلت الصحف فى أواخر شهر يور تفيد بأن البلاط لا يزال يعادى الأسواق ويقاوم، وأن الشاه امتنع عن التوقيع على لائحة الانتخابات، وأغلقت الأسواق ثانية ووقع الشغب. وقام المجاهدون كذلك بانتفاضة عند سماعهم هذه الأنباء، وعقدوا العزم على أن يقوموا بثورة هنا أيضًا، وعلى هذا تقدم مير هاشم وأتباعه وساروا على نهج أهل طهران فى الذهاب إلى القنصلية الإنجليزية.

أرسل مير هاشم أخاه مير ستار – الذى كان موظفًا بالبنك الإنجليزى - إلى القنصلية على أنه يحمل رسالة من البنك، لكن لم يجب القنصل إجابة واضحة، وقال : " لقد قبل الأهالى سفارتنا فى طهران، وسوف نرى ما يحدث هنا ". وأدركوا رضاه عن هذا. وفى ليلة الأربعاء السابع والعشرين من شهر يور (التاسع والعشرين من شهر رجب) عقدوا جلسة فى دار مير جليل – أحد سادة الدوتشى – وقد حضرها كل من : مير هاشم، وميرزا على أكبر مجاهد، وميرزا جواد ناصح زاده، ومير جليل خداوند خانه، ومير خليل، وسيد رضى، ومير حاجى آقا، ومير ستار، ومير ربيع، ومير يعقوب، السيد على، وملا محمد على تركان بورى، وميرزا نجف قلى خان الهشترودى ومحمد باقر وآخرون. وتكفل آقا مير باقر بن حاجى مير جعفر الإسلامبولى بالإنفاق على تحريك الجهاد. وفى تلك الليلة أخذ الجميع يتشاورون، ولم

---

[1] أرزل اسم قرية من قرى تبريز. (المؤلف).

يكن ميرزا على أكبر مجاهد موافقا على الذهاب إلى القنصلية ولكن قبل الجميع هذا بعد مشاورات مطولة.

وفى اليوم التالى قبل بزوغ الشمس خرجوا مثنى مثنى متجهين إلى القنصلية، وسار مير جليل فى طريق منفصل حيث مضى إلى مدرسة الصادقية حتى يحضر معه الطلبة منها، وعندما وصلوا كان القنصل نائمًا، وحينما استيقظ تقدم إليه ميرزا على أكبر ومير هاشم وعرضا مطالبهما. فأجاب القنصل : " نحن لا نستطيع أن نتدخل فى الأمور الداخلية لدولة إيران، ولا نستطيع قبولكم بهذه القلة، ولكن إذا ما أغلقت الأسواق وحضر العلماء وغيرهم كممثلين عن الشعب، فإننا سنقبل فى هذه الحالة ".

وكان قوله هذا مصدرًا لقلقهم لأنهم لم يكونوا أكثر من أربعة عشر أو خمسة عشر شخصًا، ولم يأملوا فى غلق الأسواق كما أنهم لو خرجوا ثانية لاعتقلوا عن آخرهم. وزاد قلقهم هذا عندما عاد مير جليل وحده خالى الوفاض إذ لم يرافقه الطلبة، ومع هذا لم يجعلوا لليأس سبيلاً لنفوسهم، وفى الظهيرة، دخل الشيخ سليم والحاج ميرزا أبو الحسن مع بعض الأشخاص إليهم، فسر الجميع لرؤيتهم، وأسرعوا لاستقبالهم فى وسط الفناء وقبلوهم. كذلك قدم بعض المطالبين بالحرية مثنى مثنى، وهؤلاء ممن كانوا على علم بذلك فى حين أن عامة الناس لم يكن لهم علم بذلك، ومع هذا فقد عدم بعض العارفين بالأمر الجرأة على الانضمام لهم. ووقف محمد على ميرزا على جلية الأمر فأرسل الجواسيس كى ينبثوا فى تلك الضواحى ويتعرفوا على الغادين والرائحين.

وتكفل آقا مير باقر بالإنفاق حيث كان يقوم بإعداد الشاى والغذاء وغير ذلك، وافترشوا أحد قاعات القنصلية وجلسوا. أثناء ذلك قدم مفاخر الدولة الوسيط من قبل

محمد علي ميرزا وقال بعد أن جلس : " إن صاحب السمو يشكو من السادة، لأنه يرعى خاطرهم على الدوام، والآن إذا ما كان لهم مطالب فمن الأفضل أن يعرضوها عليه ". فما كان من الحاج ميرزا أبى الحسن - ذلك الشيخ حسن النية - إلا أن شكا من التسويف المستمر لطلباتهم المتعاقبة.

وسر مفاخر الدولة وقال : " الآن أجيب مطلبكم، فقد أمر صاحب السمو بأن يخفضوا ثمن الخبز ". فقاطع ناصح زاده حديثه من أسفل القاعة وصاح قائلاً : " أيها السيد: " ماذا تقول ؟ أي تسويف هذا؟؟ وأي خبز تقصده ؟! نحن لم نأت إلى هنا من أجل هذا. نحن نريد الحرية، نريد العدالة، ثم بعد ذلك ينبغى أن يسرى القانون فى هذه المملكة ". وعلت الدهشة وجه مفاخر الدولة الذى لم يكن قد سمع بمثل هذا الكلام حتى ذلك اليوم، ولم يستطع الرد، وقال : " يجب أن نعرض هذا ". ونهض ومضى.

أثناء ذلك سرت الشائعات فى السوق وقال بعض المجاهدين لكل من وصل إليهم : "سوف تغلق الأسواق اليوم، وسيذهب الناس إلى القنصلية الإنجليزية "، لكن هذا المسعى لم يتمخض حتى الآن عن أية فائدة، إذ لم يستطع الناس القيام بثورة خوفا من محمد على ميرزا. وفى اللحظات الأخيرة أخذ بعض الشباب - ممن كانوا فى القنصلية - على عاتقهم مسئولية المضى لإغلاق السوق، ومضى أربعة منهم، وهم : مير يعقوب، والسيد على، ومير صمد ومحمد باقر، وعندما وصلوا إلى سوق الزجاجين أطلقوا الأعيرة النارية على التوالى، وحمل مير يعقوب الخنجر فى يده حتى وصل بالقرب من سوق الأمير فاضطرب الناس من ذلك الرصاص وتلك الضجة، وبادروا إلى إغلاق الأسواق واتجه العديد منهم نحو القنصلية.

والأشخاص الذين كانوا يأتون لما كانوا يجهلون ما حدث اقترح أن يتحدث معهم أحد الأشخاص ويطلعهم على جلية الأمر. وأخذ ناصح زاده هذه المسئولية على عاتقه ووقف على درجات السلم وخطب فيهم.

ومر اليوم على هذا النحو، ولم يذكر مصطلح الحكم النيابى، بينما كان الحديث يدور حول المطالبة بالعدالة والحرية. وكما ذكرنا سالفًا إنهم كانوا يريدون أن يضموا صوتهم إلى صوت المجاهدين فى طهران، ولما كانت المعلومات الصحيحة لم تأت من هناك بعد، فلم يسمع مصطلح الحكم النيابى ولم يعلموا بمنحه، بيد أن القنصل الذى كان على علم جيد بأحداث طهران تحدث عن حقيقة ما حدث، ومن هنا ظهر مصطلح الحكم النيابى.

وفى الغد، أى من يوم الخميس، تحسن الحال، حيث توجه حشد من الأهالى إلى القنصلية، وبخاصة أن من بادروا بإغلاق الأسواق بالأمس وأسرعوا إلى ديارهم دون الذهاب إلى القنصلية، قدموا إلى هذا الموضع اليوم، ومن لم يسمعوا الخبر بالأمس سمعوه اليوم وأسرعوا إلى هناك.

وكانت القنصلية وما حولها مفعمة بحشود الناس، وافترشوا مسجد صمصام خان - الذى كان بالقرب منهم - كما تجمعوا فى أماكن أخرى. وقدم كبار العلماء من أمثال الحاج ميرزا حسن مجتهد، والحاج ميرزا كريم إمام الجمعة، وميرزا صادق، والحاج ميرزا محسن، وثقة الإسلام والحاج السيد محمد قره باغى وغيرهم إلى مسجد صمصام خان وانضموا جميعًا إلى جموع المحتشدين.

وفى ذلك اليوم اقترح التجار أن يتحملوا كل النفقات وتقدم فى البداية حاجى مهدى آقا وقال موجهًا حديثه إلى رجال الدين : " لن أضن قط بكل مرتخص وغال فى هذا السبيل الذى سوف ينتهى لرخاء وفخر الإيرانيين، وسوف أتكفل بكل النفقات

من صلب مالى ". لكن لم يقبل الآخرون ذلك واقترحوا أن يساهموا جميعًا فى دفع الأموال، ولإنجاز هذا الأمر أنشأوا صندوقا باسم "صندوق نفقات جمعية العدالة والمطالبين بالحكم النيابى الإسلامى " وأعدوا له خاتمًا وإيصالات خاصة به وكانت عهدة أمانة الصندوق لآقا مير باقر، ورئاسته لحاجى محمد صادق قازانتشانى وعلى مسيو الكربلانى، وفى ذلك اليوم أضيئت المصابيح فى محال الخبازين بأمر من محمد على ميرزا، وخفضوا ثمن الخبز. ونظرًا لارتفاع ثمن الخبز وقلته وما كان يسببه للعامة فى آذربايجان لسنوات طوال من ضيق ومشقة - فقد حرص محمد على ميرزا على استرضاء الناس بتخفيض سعره حتى يحول بينهم وبين تعاطفهم مع المجاهدين. وأدرك المجاهدون غرضه وأرسلوا بعض الأشخاص وأطفأوا المصابيح وردوا على محمد على ميرزا قائلين : " ليس غرضنا تخفيض ثمن الخبز، نحن نريد الحكم النيابى ". فأرسل محمد على ميرزا إليهم قائلاً : " ينبغى أن أتلقى الأمر بما يختص بهذا من طهران وسوف أبرق إلى الشاه برغبتكم ".

وأبرقوا هم كذلك وعرضوا مطلبهم، كما أرسل القنصل الإنجليزى إلى السفارة برقية بهذا. ولكن تأخر الرد وظلت الأسواق مغلقة لعشرة أيام وظل الناس كذلك يتجمعون يوميًا فى مسجد صمصمام خان وفى القنصلية.

أثر هذه الثورة فى أهل تبريز :

كانت تلك الأيام العشرة مفيدة للغاية بالنسبة لتبريز، ويجب أن يظل ذكرها باقيًا فى التاريخ، فالناس الذين عاشوا قرونًا تحت نير الظلم والاستبداد ولم يعرفوا سوى الصراعات المذهبية والعروض الهزلية فى شهرى محرم وصفر، وكانوا غير مدركين لمفهوم المجتمع والدولة وما أشبه ذلك من المفاهيم، ولم تكن لديهم الحرية مطلقًا للحديث عن آلامهم أو الشكوى من مظالم رجال البلاط، بدأوا الآن يسمعون

سلسلة من الأحاديث المفيدة الجديدة فيما يختص بعمران الدولة وعزة الشعب، وكانوا يشعرون بوجودهم عند الحديث عن الحرية. وبصفة عامة كانوا يرون مستقبلاً عظيمًا باهرًا ويستبشرون بذلك ويسرون سرورًا عظيمًا.

وأقول كلمة واحدة، لقد غيرت العشرة أيام هذه تبريز، وأدرك الجميع ضرر العداء بين السنة والشيعة، واختفت الأحقاد بين الشيخية والمتشرعة والكريمخانيين وتطلع الجميع إلى الاتحاد وبذل الروح فى سبيل الشعب والدولة. وكان أئمة الطوائف الثلاث يجلسون فى المسجد بجوار بعضهم البعض معربين عن أسفهم على العداء الذى كان بينهم حتى ذلك اليوم. ووقف حاجى سيد محمد قره باغى زعيم الكريمخانيين، وقال : "كان أفراد هذه الطوائف يتحدثون عن الموتى وعن صوت النعال، وينبغى الآن تنحية هذا جانبًا، ففى هذا السبيل يجدر بنا أن نتكاتف لسعادة ورفاهية الإيرانيين.

والأرمن الذين لم يختلطوا بالمسلمين أو يعايشوهم حتى ذلك الوقت، وكان يخاف بعضهم البعض قبل ذلك بشهور - تعاطفوا الآن وتحابوا وكانوا يؤازرون المطالبين بالحرية خفية.

وأرسلت بعض أفواج من الجند - الذين كانوا يعسكرون فى صحراء شاطرا نلو (بالقرب من تبريز)، وكان محمد على ميرزا قد أعدهم لمثل هذا اليوم، وكأنه كان يأمل فى أن يضحى الجند العراة بأرواحهم - مندوبين عنهم إلى المسجد وطالبوا بأن يكونوا فى رفقة الآخرين. ولكنهم تلقوا الجواب بأن ابقوا حيث أنتم وكونوا معنا بقلوبكم.

وكان الأثرياء من التجار يبادرون بمد الصندوق بالمال، فيقول آقا مير باقر، الذى ذكرنا من قبل أنه كان أمين الصندوق : " لم أجد فسحة من فراغ منذ الصباح

وحتى الغروب". وقلما وجدت مثل هذا الغليان وتلك الحركة فى الجماهير، ولم تشارك النساء هنا فى الأحداث مثلما حدث فى طهران، لكن الرجال كانوا يظهرون حماستهم وثورتهم بلا حدود. ويمكن أن يعتبر الباعث على هذه الثورة وتلك الحماسة عدة عوامل، منها :

أولاً : استعداد الشعب ومهارته الفطرية، فالأحداث التى وقعت فى هذا العام أو فى العامين الآخرين – والتى سوف نذكرها – تعد أفضل مثال للاستعداد الفطرى لدى أهالى تبريز.

ثانيًا : وجود زعماء ورواد أخيار طيبى القلب. ففضلاً عن المجاهدين الذين أحصيناهم وكان لمعظمهم دور فعال حتى الآن وكانوا يجاهدون بشجاعة ونزاهة، تقدمت أيضًا مجموعة أخرى من التجار الشرفاء والعمال من أمثال حاجى رحيم آقا باكوتشى وحاجى مير محمد على الإسبهانى وحاجى ميرزا على تقى گنجه اى وحاجى محمد على بادامتشى وغيرهم، وجعلوا يجاهدون، وجميعهم يتسمون بطيبة القلب، فيما عدا مير هاشم الذى عرف بالأنانية وحب المنفعة خلال تلك الأيام.

ثالثًا : أهمية وطرافة الأمر نفسه. فالشعب الذى عاش أعوامًا طوالاً أسير الأنانية وقاسى الظلم دومًا، كان يرى نفسه الآن أمام الحكم النيابى، أو على الأصح أمام الحياة الديمقراطية، واستعاد طريق الشجاعة والعزة، وكان يسمع آمالاً عريضة عن تقدم الدولة ورخاء الشعب، وواضح كيف كانت تنشرح قلوبهم لما كانوا يتحمسون وينتفضون.

وفى هذا المضمار كان هناك دور كبير للخطباء، ويجب أن نعد أولهم ميرزا جواد ناصح زاده، فهذا الرجل أول من وقف فى طليعة الجماهير وتحدث بكيفية جديدة أخذها عنه الآخرون، وعرف منذ ذلك الوقت "بالخطيب".

وأتحدث قليلا عنه : "كنت فى ذلك الوقت فى السادسة عشرة من عمرى، وكنت أحصل العلم، وسمعت يوم الأربعاء عن إغلاق الأسواق، لكننى لم أعلم الباعث على ذلك. وفى الغد – أى فى يوم الخميس – وقبل الظهيرة، كنت قادمًا من دارى، ورأيت الناس فى ويجويه فى ثورة حادة وكانوا يتحركون أفواجًا أفواجًا، ورأيت شخصين يتحدثان فى مكان، ويقولان :

– لقد أعلنوا تخفيض ثمن الخبز، ومع هذا أطفأوا المصابيح.
– إنهم لا يطلبون تخفيض ثمن الخبز. ترى ماذا يطلبون ؟
– يريدون الحكم النيابى.
– حكم نيابى !! ماذا يعنى الحكم النيابى ؟!
– فلنمض حتى تعلم ما هو الحكم النيابى.

ومضى ذلك الرجل، وكانت أول مرة أسمع فيها اسم الحكم النيابى، وكنت راغبًا مثل ذلك الرجل فى معرفة هذا المعنى، فتعقبته، وفى البداية رأيت الناس يحتشدون حول مسجد صمصام خان وامتلأ المسجد، ووقف بعض الناس فى الشارع وكان هنال رجل ويقف بجوار المنبر ويتحدث، وكنت أسمع صوته بيد أننى لم أكن أدرك كلامه، ثم رأيت بعض الأشخاص يواصلون المسير دون توقف، فمضيت فى أثرهم، وعلى بعد خطوات من هناك رأيت منزلاً مفتوحًا احتشد فيه الناس فدخلته، فرأيت حديقة نضرة جميلة والناس فيها وقوف وكان هناك شاب واعظ أشقر الشعر وعلى رأسه عمامة صغيرة بيضاء يتكئ بكلتا يديه على السلم ويريد أن يتكلم، وكان

الجميع يلزمون الصمت وكلهم آذان صاغية إلى حديثه أملاً فى معرفة معنى الحكم النيابى. وبدأ الواعظ حديثه بوجه طلق ولسان فصيح قائلاً :

حينما حل أوان الورد، انطلقت البلابل تنتحب شوقا

فلست أيها المفيق أقل من البلبل الثمل، فبادر بالنواح

ألديك الخبر أن طيور المرج تقول

ارفع رأسك أيها النائم عن وسادة الغفلة

إلامَ تطأطئ رأسك حزنًا كالبنفسج

وا أسفا إنك فى سبات، بينما النرجس فى يقظة

أنشد هذه الأبيات ثم شرح بعد ذلك معنى الحكم النيابى باللغة التركية، وأثناء ذلك تحدث عن متاعب الشعب ومظالم رجال البلاط ومهانة الوطن وما أشبه ذلك، فسيطر البكاء على كثير من الناس. ولم أنس تأثير الحديث فى نفسى بعد مضى أكثر من ثلاثين عامًا.

وكان ثمة خطيب آخر هو ميرزا حسين الذى كان ينشد الأشعار بصوت جهورى جميل : ويقول:

- نحن الذين جبوا الخراج من الملوك

بعد أن سلبناهم المنطقة والتاج.

- كما أخذنا عرش العاج المرصع بالجواهر

وأغرنا على أموالهم وكنوزهم.

- ونزعنا عن أجسادهم الحرير والديباج

بل نحن الذين سلبنا البحر أمواجه ولم نرهب العاصفة ولا التيار [1].

ومنهم كذلك الشيخ سليم الذى كان يتحدث باللهجة القروية الدارجة سواء فى ذلك الوقت أو فيما بعد، وقد أبدى تعاطفه مع الفقراء وكان يذكر قصة نقص الخبز وغلاء اللحم، وبشر بأنه حينما يكون هناك حكم نيابى سوف يكثر الخبز ويرخص سعره ويصبح اللحم فى متناول الجميع، وأن الفقراء سوف يشبعون بالخبز والشواء، وضم أصابعه وهو أعلى المنبر وأشار بيده وبنفس اللهجة التركية القروية وقال : " إن رائحة الكباب تتأتى من التجارة ". وكان لحديثه هذا قيمة أخرى حيث كان باعثا على مواساة الفقراء.

وكان ميرزا على أكبر مجاهد يعتلى المنبر أحيانا، يذم ظلم رجال البلاط بنفس الحدة التى كانت فى طبعه، وكان مير هاشم يخطب أحيانا. كما شارك بالخطابة بعض الذين شاهدوا القوقاز أو إسطنبول وكانت لديهم معلومات عن تقدم أوربا. وذات مرة قام مير ربيع أخو مير هاشم وبسط لسانه فى مذمة محمد على ميرزا ومزق ثيابه كالمجنون وتأذى الناس من سلوكه ولم يسمحوا له بالاستمرار.

---

[1] أخذت هذه الأبيات من إحدى قصائد أديب الممالك، وكان الوعاظ يقرءونها من فوق المنبر (المؤلف).

وكان يصدر عن مير هاشم نفسه بعض السلوك السيئ، إذ كان يفخر بتميزه على الجميع مدعيًا أنه تقدم الجميع وقد خلفه الناس إلى هذا المكان. وحينما كان يخرج من القنصلية كان يطلق مسدسه على أهالى الدوتشى والشباب الموجود هناك مما أشاع الاستياء منه ومضت الأيام على هذا النحو. وهنا أيضًا كطهران، كانوا يقدمون الغداء والعشاء للجميع، ولكنهم لم ينصبوا خيمة، وكان معظم الناس يجتمعون فى المسجد وما حوله ولم يبق سوى الزعماء والرواد طوال الليل، بينما يعود الآخرون إلى منازلهم.

قبول الشاه لمطالب أهالى تبريز:

مع أن الشاه قد أصدر قانون الحكم النيابى قبل شهر ونصف، وتم اختيار نواب دار الشورى الستين فى طهران، فإنه ليس معروفًا لماذا لم يتم الاستجابة السريعة لمطالب أهل تبريز ؟ وبعد أن هدأت الأمور، لماذا أثيرت من جديد ؟ وواضح أنه كانت هناك عقبات وكانت تتم بعض الأمور فى الخفاء ولا علم لنا بها حتى الآن. وكانت معظم الأمور فى آذربايجان فى يد محمد على ميرزا، ويمكن القول إن هذا التباطؤ مرجعه ذلك.

وكانت الأمور فى تلك الأيام مضطربة مشوشة مما يصعب إدراكها أو فهمها!! وأيًا ما كان فقد تعهدت الدولة طوعًا أوكرهًا. وفى يوم الخميس الرابع من شهر مهر (الثامن من شهر شعبان) وصل الرد من طهران إلى ولى العهد وأرسله مذيلاً بتوقيعه شخصيًا إلى مستر راتسلاو- قنصل إنجلترا - مع رسالة منه أيضًا. وأرسل مستر راتسلاو نسخة من هذه المذكرة وتلك الرسالة مع برقية الشاه نفسها إلى حاجى مهدى آقا وغيره من رؤساء الانتفاضة باسم "جمعية طالبى العدالة بتبريز" [1].

---

[1] رسالة راتسلاو وبرقية الشاه إلى ولى العهد فى متناول أيدينا الآن. (المؤلف).

وفى اليوم نفسه وصلت برقية من القنصلية الإنجليزية [٢] تفيد بوصول تلك النسخ. وسر الناس لهذه البشرى وخرجوا فى اليوم نفسه من المسجد والقنصلية، وفتحوا الأسواق وأقاموا الزينات والاحتفالات. كذلك مضت جماعة من زعماء الانتفاضة والتجار إلى "باغ شمال" عند محمد على ميرزا واستقبلهم وحدثهم قائلاً : "إننى أكثركم رغبة فى وجود قانون بالبلاد، فلو كان للدولة قانون لكنت أكثر راحة..." ثم تحدث بعد ذلك عن قصة قتل القس الإنجليزى والضغط الذى وقع على إيران، وقال: "أستطيع دفع خمسة وعشرين ألف طومان فى تلك الحادثة ويدفع إمام قلى ميرزا كذلك خمسة وعشرين ألف طومان". ولا يعلم من مثل ذلك الحديث ما إن كان يعيه أم لا !

وأبدى الحضور سعادتهم من هذا الحديث، وأثنوا عليه وقاموا وانصرفوا. ولدينا البرقية التى أرسلها مظفر الدين شاه إلى ولى العهد ونورد صورة منها فى هذا الموضع :

برقية مظفر الدين شاه إلى ولى العهد

" لقد أمرنا بتأسيس مجلس الشورى الوطنى وتنظيم لائحته وإعدادها بوساطة ولى العهد وأهالى مملكة آذربايجان، وعلى نواب مدينة تبريز وسائر الولايات الحضور إلى طهران لأداء ما عليهم من عمل. وفيما يتعلق بجميع المتحصنين داخل القنصلية الإنجليزية، سيتم العفو عنهم جميعًا".

---

[٢] فى ذلك الوقت سافر سير اسبرانيك رايس سفير إنجلترا إلى لندن، وكما رأينا حل گرانت دف محله فى القيام بأعمال السفارة، وهذه البرقية منه. (المؤلف).

رسالة ولى العهد إلى القنصل

" مسيو راتسلاو القنصل العام، أعرض البنود الأربعة التى طالب بها الأهالى وفقا لإمضاء الملك عليها وتوقيعه، كما أرسلت نسخة من البرقية التى وصلت الآن من قبل الملك الخاصة بإقامة المجلس وتنفيذ اللائحة إلى الأهالى، واطلعوا جميعًا عليها وطابت نفوسهم بها لدرجة أنهم انفضوا وفتحوا الأسواق وأقدموا على القيام بأعمالهم".

٨ شعبان المعظم سنة ١٣٢٤ هـ.ق (أكتوبر ١٩٠٦م)

مذكرة ولى العهد

أولاً : من قبل عبد الملك قرين الشرف صاحب الجلالة المقدس أرواحنا فداه، ومن طرفى شخصيًا أطمئن من يعتصمون فى القنصلية والمسجد بأن العفو سوف يشملهم جميعًا، ولن يكون هناك أى إجراء من قبل الحكومة أو غيرها لمضايقتهم على الإطلاق.

ثانياً : أوافق على قيام مجلس الشورى الوطنى على النحو الذى منحه الملك صاحب الجلالة المقدس إلى الشعب وسوف ينفذ ويعلن عنه فى الأقاليم.

ثالثاً : يقيم عامة الرعية الزينات والاحتفالات سواء كان ذلك فى تبريز أو فى ولايات آذربايجان بمناسبة تشكيل مجلس الشورى الوطنى، الذى هو أساس عمران الدولة ورفاهية الشعب.

رابعًا : عليهم أن يبادروا بتعيين النواب وانتخابهم، فإذا ما تم انتخاب نواب تبريز وسائر الولايات فعليهم بالتوجه إلى طهران ".

برقية السفارة

" أخبرني الصدر الأعظم أن النسخ المطبوعة لأمر الملك فيما يختص بمنح الحكم النيابي وتشكيل المجلس قد أرسلت إلى أمناء آذربايجان وحكام الولايات، وأن انتخاب النواب جارى التنفيذ فيه وينبغي أن تُطلع اللاجئين والمعتصمين، وتوضح لهم بأن تنفيذ وعود صاحب الجلالة موكول فقط بدولة إيران ولا يجوز للدول الأخرى أن تضمن ذلك".

الأعمال التى كان الأهالى يقومون بها :

على هذا النحو نالت تبريز حريتها، وبعد ذلك ظهر الحكم النيابى فى كل الأرجاء، ووصلت الأنباء عنه إلى جميع المدن وأرسلوا لائحة الانتخابات وقانون انتخاب الأعضاء من طهران إلى كل الأرجاء، وقد تمرد حكام بعض المدن ولم يفسحوا مجالاً للأهالى، ولكن كان الأهالى فى تبريز والرشت ينعمون بالحرية فى ثورتهم، وكانت الأنباء تصل عن ذلك إلى بقية مدن آذربايجان وظهرت هناك أيضًا انتفاضة. وكان يتحتم وصول اللائحة والقانون من طهران حتى يختاروا الأعضاء، والحقيقة أن أهالى تبريز لم يتمادوا فى ثورتهم بل التزموا الهدوء نسبيًا. أما المجموعة التى تقدمت الصفوف وأثارت تلك الانتفاضة، فلم يكف الناس عن مؤازرتهم ولم ينفضوا من حولهم، وقد اتخذوا لأنفسهم دارًا جعلوها مركزًا لهم.

وكان بعض الأثرياء يخشون منحهم دارًا. إلا أن ميرزا مهدى خان – الذى كان يمتلك عدة منازل على مشارف أرمنستان بالقرب من السوق، كما كانت له مكانة مرموقة – قدم لهم دارًا وتعهد بأن يجعل هناك حارسًا عليهم، ومنذ ذلك الوقت عرف هذا المكان باسم "جمعية ميرزا مهدى خان" وانتخب عشرون من رؤساء الحركة ممن انضموا لمؤازرة العلماء فى الجمعية وجعلوا يدبرون الأمور. كذلك اختار

أصحاب كل حرفة من بائعى النسيج وصانعى السروج وبائعى الفاكهة والدخانيات والسكر وغيرهم نائبًا عنهم، وانضموا إلى الجمعية وشاركوا النواب.

وحتى الآن لم يظهر أحد عداءً تجاه الحرية، ولم يقدم محمد على ميرزا وحاشيته فى الظاهر على أى عمل، لكن ذوى الفكر الثاقب لم يكفوا عن أعمالهم، ولم يرغبوا فى أن يخلو الميدان، وكانوا يظهرون الرغبة الشديدة فى الخير عن طيب خاطر ولم يتركوا الناس فى هدوء وكان جميعهم يبغون السعى فى الخير بخطى ثابتة.

ولما كان معظم الزعماء من رجال الدين، وكان واضحًا فى خطبهم أن الجهاد سيكون من أجل إعلاء الشريعة، لم تكن هناك حتى الآن ثمة تفرقة بين مطالبهم، وكان الجهاد معظمه فى سبيل الدين. وفى الظهيرة كان صوت الأذان يعلو من كل جانب فى السوق وتتزايد حشود الناس فى المساجد وخلف الأئمة. وكانت استقامة كل إنسان تزداد عما قبل، وكذلك كثرت مواساتهم للفقراء.

وتوجد فى تبريز ضاحية تسمى " قره تشيلر" كانت مقرًا لجماعة من الغجر، وكانوا يحترفون الغناء ويضربون بالدف ويغنون ويرقص أبناؤهم، ولما كان مثل هذا العمل يعد حرامًا، وكانت منازلهم دومًا وكرًا للأشرار حيث كان يجتمع فيها الأوباش من فراشى البلاط وغيرهم ويسكرون، لكنهم فى هذه الآونة كفوا عن هذا العمل على النحو التالى، حيث طرد البعض من المدينة واستتيب البعض الآخر وحلقوا رؤسهم.

وكانت حلاقة الذقن تعد حرامًا، ولم يقم بذلك سوى البعض من رجال البلاط وبعض الأوباش. وفى أوائل هذه الأيام عقد الحلاقون اجتماعًا سويًا واتفقوا على ألا يحلقوا اللحى بعد ذلك، وقالوا شعرا فى هذا المجال مفاده "حلاقة اللحية أمر ممنوع" ونشرت جريدة ملا نصر الدين كاركاتيرًا تسخر فيه من حلاقى تبريز.

وكان الخبز - كما أسلفنا الذكر - أحد المشاكل فى عهد الاستبداد وكان الرجال والنساء يتزاحمون دومًا أمام دكاكين الخبازين ويصيحون. أما فى هذا الوقت فقد كثر الخبز فى جميع أنحاء المدينة، ولم يكن يتواجد أمام أى دكان سوى شخصين أو ثلاثة يشترون الخبز، وقبل الحكم النيابى كان الرغيف الذى يزن منًا (ألف مثقال) يباع بقرانين، وقد ذكرنا أنهم كانوا ينقصون وزن الخبز إلى ثلاثة أرباع المن أو أقل من ذلك، والآن انخفض سعره إلى ثمانية عباسى ولم ينقصوا وزنه.

وقلة المعروض من الخبز - والذى كان مشكلة أساسية - قد اختفى فى هذه الفترة مرة واحدة. وكان أصحاب الدكاكين يقدمون على العمل كما ينبغى، ولو كان لأحدهم رغبة فى الانحراف فلم يجرؤ عليه خوفًا من الناس.

وزالت الأحقاد والضغائن بين الشيخية والمتشرعة والكريمخانيين واختفت كذلك بين السنة والشيعة، ولم يستطع أحد أن يتحدث بمثل هذا الحديث واختفى المتبرنون (اللعنتية) مرة واحدة.

لقد وجدت المدارس من قبل فى تبريز، ولكن كثر إقبال الناس عليها فى هذا الوقت وعقد الأثرياء الاجتماعات فى كل ضاحية، وكانوا يتباحثون حول إنشاء المدارس، كذلك كان هناك من يرغبون فى تأسيس الشركات وإقامة المصانع. أثناء ذلك عقد بعض زعماء المجاهدين جلسة سرية باسم "المركز الغيبى" وكان من بينهم المرحوم على مسيو الكربلائى وحاجى رسول الصدقيانى وحاجى على الصيدلى والسيد حسن شريف زاده وميرزا محمد على خان تربيت وجعفر آقا الگنجوى، وآقا مير باقر و ميرزا على أصغر خويى وآقا تقى الشجاعى وآقا محمد صادق خامنه اى

والسيد رضا [1]. وكانوا يسعون لإنجاز عمل أفضل حيث قاموا بتشكيل جماعة تحت اسم "مجاهد".

هذه هى الأعمال التى قاموا بها فور خروجهم من الاعتصام، وسوف نعقب على ذلك فيما بعد.

افتتاح دار الشورى :

أثناء ذلك تأسست دار الشورى فى طهران، وقد ذكرنا أن المجلس المؤقت كتب لائحة الانتخابات وذيلت بتوقيع الشاه، وفى المقابل بدأوا فى اختيار النواب فى طهران، وكانت هذه اللائحة تقسم الشعب إلى ست طبقات على النحو التالى : الأمراء والقاجار، العلماء والطلاب، الأعيان، التجار، أصحاب المزارع والزراع والحرفيون. وتختار كل طبقة مجموعة من النواب عنها، وانتخب ستون نائبًا لتمثيل طهران على النحو التالى :

أربعة للأمراء والقاجار، أربعة للعلماء والطلاب، عشرة لأصحاب المزارع والزراع، اثنان وثلاثون للحرفيين. وبناء عليه كان معظم النواب من أهل السوق والحرفيين، وسوف نرى أنهم كانوا أغلبية فى المجلس الأول.

فى الوقت الذى كانت تتوالى فيه أحداث الانتفاضة فى تبريز كان السعى فى طهران لانتخاب النواب، وقد عجلت انتفاضة تبريز فى تقدم ذلك، وكثير ممن كانوا مترددين خرجوا من ترددهم وأقدموا على العمل.

---

[1] كانوا اثنى عشر شخصًا ولم نعرف اسم واحد منهم. (المؤلف).

وكانت النية معقودة على أن يفتتح المجلس يوم الأحد الرابع عشر من شهر مهر (الثامن عشر من شهر شعبان) وقد انتهوا فى ذلك اليوم من اختيار النواب، وهذه أسماؤهم :

من الأمراء والقاجار : أسد الله ميرزا، يحيى ميرزا، حاجى أمجد السلطان ومعظم الملك.

من العلماء والطلبة : آقا ميرزا محسن (أخو صدر العلماء)، الحاج الشيخ على النورى، ميرزا طاهر تنكابنى والحاج السيد نصر الله أخوى.

من التجار : الحاج حسين آقا أمين الضرب، الحاج السيد مرتضوى، الحاج محمد إسماعيل مغازه، الحاج معين التجار البوشهرى، ميرزا محمود الأصفهانى، الحاج محمد على بائع الشيلان، الحاج محمد تقى الشاهرودى، وثوق الدولة، محقق الدولة ومخبر الملك.

من الأعيان : صنيع الدولة، نصر السلطان، صديق حضرت، احتشام السلطنة، سعد الدولة، حسن على خان (ابن مخبر الدولة)، مشار الملك، عون الدولة، دبير السلطان، الحاج سيد باقر أخوى وسيد الحكماء [1].

من الحرفيين : ميرزا محمود بائع الكتب، الحاج ميرزا إبراهيم الخياط، الحاج سيد إبراهيم بائع الحرير، الشيخ حسين بائع السقط، الحاج محمد إبراهيم وارث، ملا حسن وارث، الحاج محمد تقى صاحب المحل، الدكتور السيد ولى الله خان، أمين التجار الكردستانى، الحاج السيد آقا بائع السهام، الحاج ميرزا أحمد صانع الذهب، الحاج الشيخ إسماعيل بائع البللور، مشهدى باقر البقال، الشيخ حسن بائع الخيوط

---

[1] أوردنا ذكرهم من جريدة الحبل المتين ومن كتاب "تاريخ المجلس الوطنى لإيران " وكما يُرى فهم قلائل. (المؤلف).

الحريرية، الأستاذ حسن المعمار، السيد حسين البروجردى، الشيخ حسين علـى، آقا حسين قلى، الحاج عباس على، الحاج عبد الوهاب، الحاج على أكبر الطـاهى، الأستاذ غلام رضـا صـانع الثلج، الحـاج سيد محمد صـانع الساعات، الحـاج سيد محمد تقـى الهراتى، السيد مصطفى السمسار والسيد مهدى الدلال [١].

ومن الزرادشتيين : أرباب جمشيد.

وما ينبغى أن يرى جيدًا فى هذا الفهرست أسماء وثوق الدولـة ومخبر الملك وغيرهم ممن يحملون الألقاب، ويعد البعض منهم من المحنكين ذوى الخبرة. ونحـن نسأل : هل كانوا يَرْثون لحال الدولة والشعب وكانوا ميالين للحكم النيـابى؟! ولـو صـح هذا، إذن لمَ لمْ يبدوا تعـاونهم فـى سبيل الحـصول علـى الحكم النيـابى مـع السيدين وأتباعهما ؟! ولمَ لمْ يظهروا أى تعاون فى تلك الأيام العصيبة ؟! ولو لم يكونوا ميالين للحكم النيابى، إذن كيف أصبحوا الآن عن طيب خـاطر نوابًا فـى المجلس ؟! وواضـح أنهم كانوا يكنون نيَّات أخرى فى قلوبهم أو أنهم كانوا يسعون لتحقيق نفع ذاتى.

كمـا نجد أسماء مشهدى بـاقر البقـال وحـاجى أكبر طـاهى الأرز، فمـاذا كـان يرتجى من أمثـال أولئك ؟! ففـى هذا الوقت الذى خرج فيـه زمـام الأمـور من قبضـة البلاط ووقع فى أيدى الشعب ينبغى أن يكون الأمر فى يد المحنكين الحكماء. ولا أقول كما قال ناصر الملك إن الحكم النيـابى مـازال مبكرًا من أجل إيران، فلو إيران ظلت تحت نير الاستبداد فالحكم النيابى ما زال بعيدًا عنهـا. ونحن نقول إن الانتفاضـة كانت بكرًا وهى تحتاج فـى هذا الوقت إلـى رواد يوضـحون بـالقول والكتابـة المعنـى الأصـح للحكم النيابى وكيفية تدبير أمور البلاد والكيفيـة التـى يخبرون بهـا النـاس عن مشاكل إيران، وأن يظهر من الشعب قوم محنكون أكفاء، ولمـا لـم يكن هنـاك زعمـاء مـن هذا

---

[١] أوردنا ذكرهم من جريدة الحبل المتين. (المؤلف).

القبيل، فإن السيدين اللذين قادا هذه الانتفاضة لم يصدر عنهما هذا الأمر، كما أن الآخرين الذين كانوا يستطيعون ذلك، قلت مقدرتهم أو كثرت، لم يكن فى مقدورهم الارتقاء بفكرهم إلى هذا المستوى الرفيع، حيث كان كل منهم يبحث عن طريق يفضى به إلى مصلحته الخاصة.

كان هذا أحد عيوب انتفاضة الإيرانيين، وسوف نرى أن وصول نواب المدن لم يصلح ذلك العيب ولم يظهر من بينهم مثل أولئك الزعماء !

هذا مثال لعدم نضج الإيرانيين الذين حاولوا طويلاً أن يسحبوا زمام الأمور فى الدولة من يد المنتفعين وأنصار البلاط، والآن وقد حالفهم التوفيق ظهر رجال البلاط أولئك ولكن فى هيئة أخرى، واتصل بعضهم ببعض وجعلوا زمام الأمور فى أيديهم ثانية دون أن يعرفوا مضرة ذلك.

أما عن افتتاح المجلس : ففى مساء يوم الأحد، اجتمع الوزراء والسفراء والقناصل والعديد من الأعيان بأزيائهم الرسمية فى قصر گلستان، وقد وجد السيدان كذلك وغيرهما من مجتهدى طهران وجميع النواب المختارين. ولما كان الشاه يشكو من ألم فى ساقه جاءوا به فى كرسى ذى عجلات، وألقى نظام الملك كلمة الافتتاح نيابة عن الشاه، وعندما انتهى صدحت الموسيقى، وفى الوقت نفسه أطلقت فى الميدان مائة طلقة وعشرًا، وقد نشروا كلمة الشاه فى الجرائد، ولن نوردها هنا لطولها.

وبعد انتهاء المقابلة، تفرق السفراء والقناصل والآخرون، وعاد النواب إلى المدرسة الحربية (توجد فى نفس مكان المجلس المؤقت)، وبعد قليل من التباحث انفض جمعهم حينما حل الليل، وأقاموا الزينات والاحتفالات فى طهران خلال تلك الليلة بمناسبة افتتاح برلمان إيران وانتشرت الأنباء عن الافتتاح فى جميع الأرجاء.

وفى غداة يوم الإثنين اجتمع النواب وانتخبوا صنيع الدولة رئيسًا ووثوق الدولة نائب الرئيس الأول وأمين الضرب النائب الثانى له. ولما كان ينبغى كتابة "اللائحة الداخلية" عينوا بعض النواب لتدوينها. وأثناء ذلك كان الدستور يدون كذلك. (ويقال إن مشير الملك ومؤتمن الملك ابنا الصدر الأعظم هما اللذان كتباه أو على الأصح ترجماه). وعقدوا جلستين أو ثلاثًا فى نفس المدرسة الحربية، وحينما كتبوا رسالة طلبوا فيها من الشاه أن يخصص مقرًّا للمجلس، فأصدر أوامره أن يكون قصر بها رستان – الذى بناه المرحوم الحاج ميرزا حسين خان سپهسالار بالقرب من المسجد والمدرسة – مقرًّا للمجلس وهناك عقدت الاجتماعات! ولما كان النواب غير محنكين وعددهم قليل، ولما لم يكن فى ذلك القصر مناضد أو كراسى فكانوا يجلسون على الأرض ولا يتحدثون إلا عن الخبز واللحم فى طهران. وهكذا ظل المجلس فترة فاترًا كئيبًا، لكننا سوف نرى أنه تحسن رويدًا رويدًا عن ذى قبل.

طرد مير هاشم وإمام الجمعة من تبريز :

نعود إلى تبريز ونقول : لم يكن الناس قد هدأوا بعد، كما كان زعماؤهم يواصلون السعى والجهاد، أثناء ذلك بدر عن مير هاشم سلوك يثير العجب، وهذا الرجل كان إمامًا للمعتكفين، والآن بدأ يفرض سلطانه على الجميع بحجة يرددها قائلاً : " إننى من الزعماء وشاركت فى بعث الحركة، لذا فمن حقى الرئاسة ". وبدأ يظهر الصلف مع الجميع. وكما أسلفنا الذكر، فإن السلوك الشائن بدا منه أيام الاعتصام، فحيثما تحرك كانت تحيط به جماعة من سادة الدوتشى وشبابها وقد تمنطقت بالبنادق والمسدسات وسلك الطريق كأنه بيگلر بيك، وكان يظن صندوق الإعانة – الذى أسس من أجل الإنفاق على المعتصمين – خزانته ويكتب منه البراءات، ولم يكن ينظر سوى للقنصل فقط نظرة اعتبار دون غيره من الناس.

وبعد الخروج من الاعتصام، قام بالكثير من الأعمال الشائنة، وكان يمضى للقاء ولى العهد بمفرده ويتحدث إليه. وكان عمله هذا سببًا لسوء الظن به، وشاع أن مير هاشم حصل على الأموال من ولى العهد مقابل وعد منه بالقضاء على مصدر الحركة. وقيل إنه كان يقول لولى العهد : "إن من حمل الجمل إلى السطح هو الذى يستطيع إنزاله". ونتيجة لقصر نظره فقد ظن أن بمقدوره العمل على إخماد الحركة التى جاءت نتيجة لمساعى مئات الرجال.

تأذى الأحرار من ذلك بشدة، ولكن رعاية لجانب أهالى الدوتشى، وخوفًا من بنادق أتباع مير هاشم، لم يستطيعوا التفوه بكلمة حتى جاء يوم الثالث والعشرين من شهر مهر (السابع والعشرون من شهر شعبان) حيث أقيمت جلسة الجمعية، والتفت ميرزا حسين واعظ نحو ممثلى الحرفيين ودون أن يذكر اسم مير هاشم جعل يعدد مساوئه ويذمه. ولكن فى الوقت الذى كان يتحدث فيه وصل مير هاشم وجماعته ودخل الجمعية وجلس، وأدرك من أقوال ميرزا حسين أنه يذم أفعاله فتشاجر معه، وأثناء ذلك اندفع إخوته وأتباعه إلى الداخل وضربوا ميرزا حسين ضربًا مبرحًا، والآخرون إما أنهم هربوا أو وقفوا ملتزمين الصمت خوفًا .

وزادت هذه الحادثة من سخط الناس، وفى الغد اجتمعت جماعة من الأحرار فى المسجد، وأغلقوا الأسواق، وأحضروا إلى هناك رجال الدين وغيرهم، وطالبوا بطرد مير هاشم من المدينة وألحوا فى طلب ذلك. ولم يستطع مير هاشم الصمود وخرج من المدينة متجهًا إلى طهران.

وكان هذا هو أول ضرر لحق بحركة تبريز، وذلك لأن أهالى الدوتشى - الذين كانوا كثرة فى العدد، وذوى بأس وبطش وكانت لهم الخطوة الأولى فى طريق

الحركة - تنحى معظمهم، ورويدًا رويدًا أظهروا العداء، وسوف نرى أى ضرر حدث نتيجة لهذا الانقسام.

فى تلك الأثناء كانت لائحة الانتخابات وقانونها قد وصلا من طهران، وطبقًا لقانون اللائحة انتخبوا ستة للمراقبة بحيث يجلسون فى فناء الجمعية ليديروا حركة الانتخاب، ووكل محمد على ميرزا إجلال الملك من قبله، وعندما حل شهر رمضان وكان العمل شاقًا أثناء النهار، اقترحوا أن يفتحوا الجمعية فى المساء. وفى تلك الأونة ظهرت جريدة باسم "انجمن" وصدر العدد الأول منها فى يوم السبت السابع والعشرين من شهر مهر (أول رمضان).

ووقع حادث آخر فى نفس الوقت، وهو طرد الحاج ميرزا كريم إمام الجمعة من المدينة، وقد ذكرنا هذا الرجل بأن كان له الأمر النافذ قبل الحكم النيابى، وكان كلما خرج يتقدم ببغلته ثم يتبعه ما يقرب من مائة شخص من السادة والطلبة والخدم، وكان نافذ القول فى كل مكان، كما كانت داره معتصمًا يأمن فيها كل من يلجأ إليها.

ويمكن القول إنه كان يعد أكبر شخصية نافذة الأمر فى تبريز بعد محمد على ميرزا. وقد سبق وذكرنا قصة امتلاكه الضياع والمخازن. ومثل هذا الشخص كيف كان يتحمل أن يخضع للقانون ويتساوى مع الآخرين ؟! وكيف يتحمل أن يستيقظ الناس ويقوموا بأعمالهم الحيوية ولا يعبئون به ولا بنفوذه ؟! وفى الأيام الأولى التى حضر فيها إلى مسجد صمصام خان كان مضطرا لذلك، ولم يكن يدرك فى ذلك اليوم المعنى الأصح للحدث ولا نتيجته، ولكن بعد أن أدرك ذلك تملكه الضيق، وبدلاً من أن يعمل خيرًا وأن يفتح له طريقًا بين الجماهير فكر فى أن يخدع الخطباء بمنحهم الأموال واستمالتهم إلى جانبه، ومنح ميرزا جواد ناطق (ناصح زاده) ثلاثمائة طومان ليأخذ قدرًا منها ويعطى الباقى للآخرين. وقدم ناطق الأموال إلى صندوق الجمعية

ورفع النقاب عن أمر إمام الجمعة، واجتمع الأحرار ليلة الأحد الثامن والعشرين من شهر مهر (الثانى من شهر رمضان) وعرضوا القصة، ووقع فيهم الهرج والمرج، وذكروا مساوئ إمام الجمعة وطالبوا بطرده من المدينة. وقالوا : "إذا لم يخرج سوف نخرجه نحن فى الغد".

وأطلع رؤساء الجمعية ولى العهد على جلية الأمر وذلك عن طريق إجلال الملك، وأصدر ولى العهد أوامره بألا يبقى إمام الجمعة فى المدينة إبتداء من الغد وعليه أن يرحل. وفى الغد صعد إمام الجمعة المنبر وكان أمله أن ينصرف الناس عن ثورتهم ضده حتى يرضوا عن بقائه فى المدينة. ولكن هذا العمل لم يفض إلى نتيجة واضطر إلى الرحيل عن المدينة.

وقيل إنه أقام فى باغ وزير بالقرب من المدينة وقيل إن بعض الناس كانوا يترددون عليه وكانت أحاديثهم تدور حول الإضرار بحرية الناس، ومن ناحية أخرى صار ابنه الحاج بيوك خلفًا لأبيه فى المدينة وكان يأتى إلى المسجد فى حشد كبير وعظيم. فثار الأحرار ثانية فى يوم السبت الرابع عشر من شهر آبان، وأغلقوا الأسواق وقاموا بالشغب، وعرضت الجمعية حقيقة الأمر على ولى العهد فأرسل رئيس فراشيه "نير السلطان" وأمره بأن يذهب ويبعد إمام الجمعة من حول المدينة، كذلك أمره بألا يدخل ابنه المسجد.

مضى إمام الجمعة إلى ميدان قزلجه الذى يبعد عن تبريز بأربعة فراسخ ويقع على أول الطريق المتجه إلى مدينة طهران، واستقر هناك حيث كانت قريته. ومن ناحية أخرى، مضى البعض وأحضروا إلى المسجد ميرزا غفار آقا الإمام القديم للمسجد حتى يصلى بالناس وقد سبق له أن جذب إمام الجمعة من يده بعنف.

أول صدام مع محمد على ميرزا :

كان العمل فى انتخاب النواب يجرى فى مساره، وكانت كل مجموعة (طبقة) تنتخب نوابها فى دورها. ومن ناحية أخرى، لما حل شهر رمضان، وكانت المساجد عامرة بمن فيها، تحين وعاظ الحكم النيابى الفرصة، وكانوا يسوقون الحديث فى المنابر عن الحكم النيابى وعن أحوال البلاد. وفى ليلة الثالث عشر من شهر آبان (السابع عشر من شهر رمضان) وقع الشغب ثانية.

فى اليوم الذى وصلت فيه البرقية من قبل الشاه وأعلن فيها الحكم النيابى أبدى محمد على ميرزا تضامنه وتعاطفه، وسبق وكتبنا أنه كان يقبل كل طلب تتقدم به الجمعية، ولكن هذا لم يكن دليلاً على طهر سريرته فكان يتحين الفرص دومًا حتى يحول دون ذلك. وعندما انتهى أمر انتخاب النواب أرسل رسالة لكى يفضوا الجمعية لأنها أدت مهمتها، كما أن الجمعية التى شكلها الأحرار أنفسهم لم يكن لها أساس من القانون.

وخشى من فى الجمعية من هذه الرسالة وكان معظمهم من رجال الدين والتجار وامتثلوا للأمر وفضوا الجمعية. لكن الأحرار أو بالأصح المجاهدين لم يقبلوا ذلك. وفى مساء تلك الليلة اتجه من فى الجمعية إلى دار حاجى ميرزا حسن المجتهد لتناول طعام الإفطار، وفى الوقت الذى وصل فيه نير السلطان رئيس فراشى ولى العهد وكان يتحدث مع المجتهد وغيره أبدوا رغبتهم ثانية فى حل الجمعية، واستفسروا عن خبر الرسالة فأجاب المجتهد قائلاً : "لقد وصلت هذه الرسالة وهى صحيحة، وطالما أن الدستور لم يصدر فالجمعية قائمة ". فقالوا : نحن لن نسمح بإغلاق الجمعية، وما حصلنا عليه لن نتخلى عنه". وقالوا كلامًا من هذا القبيل. واتصل نير السلطان تلفونيًا بمحمد على ميرزا بناءً على رغبة المجتهد، وقال محمد على ميرزا نفس هذا الكلام.

وبمجرد أن سمع المجاهدون هذا سرعان ما بدأ الشغب. ولما كانت هناك جماعة محتشدة فى الفناء وقف أحدهم على مكان مرتفع، وقال : يريد أولئك الناس أن يغلقوا الجمعية، وبعد إغلاقها يلزم الوعاظ الصمت مضطرين وتبرد دماؤنا رويدًا رويدًا وعندئذ تكون لهم الغلبة والقدرة على أن يصنعوا بنا ما يريدون، ولكن "كسر ذلك القدح وانفض الأمر " وطالما أن أحدنا كان حيًا فلن نتخلى عن الحرية، ولو تخلى عنها الطهرانيون سوف نسعى وحدنا فى المحافظة عليها".

أجاب الحضور بهذه الأقوال وهتفوا بحياة المطالبين بالحكم النيابى والمطالبين بالحرية فى حماسة وحمية، والشغب الذى وقع فى تبريز فى ذلك اليوم لم يُر له نظير من قبل، وتردد على الألسنة كلام لا عهد لإيران بمثله من قبل، وصرحوا بأنهم لن يتخلوا عن الصمود ولو أفضى الأمر إلى القتال وسفك الدماء.

ودامت هذه المظاهرة طويلاً، واتصل نير السلطان تليفونيًا بمحمد على ميرزا وعرض حقيقة الأمر على النحو الذى شاهده. وكان الرد : "نحن نبغى عدم اجتماع الجمعية إلى أن يصل الدستور وهم الآن لايقبلون، فليفعلوا مايفعلون". وخفف الناس من ثورتهم من هذا الرد لذا كتب محمد على ميرزا مذكرة وفقًا لاقتراح نير السلطان بأن تكون الجمعية قائمة وأن يكون هناك شخص من قبله لتنفيذ قوانين الجمعية.

وأحضر نير السلطان المذكرة، وقال للناس : "ينبغى أن نحضر السادة إلى الجمعية فى نفس الليلة ونضىء الفوانيس فى الحال". وحضر مجتهد وغيره إلى الجمعية فى نشوة وسرور وأحضروا موائد الحلوى من السوق احتفالاً بهذا الفوز لذلك الحشد الذى اجتمع – وكان أكثر من ألف شخص – وتناولوا الحلوى. ونورد المذكرة فى هذا الموضع :

"تظل جمعية تبريز الوطنية قائمة كما فى السابق ويُعين شخص من قبل الحضرة المقدسة لتنفيذ بنود الجمعية، وسوف يحضر إلى الجمعية لينفذ كل ما يحكم به أعضاء الجمعية من الأمور الجزئية والكلية والتى تتعلق بالأمة، وسوف يساند موظفو الحضرة العليا تنفيذ جميع أحكام الجمعية القومية."

السابع من رمضان المبارك ١٣٢٤ هـ.ق (نوفمبر ١٩٠٦م)

وكان هذا أول صدام بين محمد على ميرزا والأحرار، وكما ذكرنا، إن على مسيو الكربلائى والحاج رسول صدقيانى والحاج على دوافروش قد شكلوا جمعية سرية باسم "المركز الغيبى"، وذلك بمساعدة تسعة آخرين وكان زمام الأمور فى أيديهم.

وفى الخارج جلس الحاج ميرزا حسن المجتهد وغيره من رجال الدين وبعض التجار فى الجمعية، وكانوا يعدون ممن يملكون زمام الأمور ولكن لم يكن لديهم الجدارة لذلك. وكانت تلك الجمعية تملك زمام الحركة خفية، وكان طرد مير هاشم وإمام الجمعة والحيلولة دون إغلاق الجمعية نابعًا عنهم وكانوا رجالاً فضلاء ليس فيهم أنانية، ولم يكن لهم رغبة سوى الحكم النيابى ووجوب تجميع القوى والاستعداد للقتال. وكانوا يدركون جيدًا أنهم لو تركوا الناس على سجيتهم لدب فيهم الضعف رويدًا رويدًا ولخمد حماسهم، لذا كانوا يقدمون الحجة تلو الأخرى فى كل حين ويدفعونهم إلى الانتفاضة ولم يتخلوا عن النضال.

وتوجد بعض القصص القيمة فى تاريخ الحكم النيابى، وأثبت بعض الأشخاص جدارتهم وحنكتهم ومن هذه القصص قصة تعاون السيدين وظهور انتفاضة طهران كما ذكرنا وهى تستحق الثناء من كل ناحية. والأخرى قصة تعاون الثلاثة

المشاهير وأتباعهم حيث نفذوا ثورة تبريز ببراعة وحنكة وشكلوا طائفة من المجاهدين، وأعمالهم جميعًا جديرة بالمدح والثناء.

وكان صمودهم أمام محمد على ميرزا والمحافظة على الجمعية قد أدى إلى نتيجة باهرة، وهى أن زمام الأمور فى آذربايجان أصبح فى أيدى الأحرار، واستسلم محمد على ميرزا واضطر للعمل سرًا من أجل إعاقة الحركة.

وكانت صحف القوقاز تنشر أحداث آذربايجان وتذكر كل ما وقع منها. والكثير من هذه الصحف اعتبر ثورة إيران شيئًا أحمقَ وكان من بينها جريدة "إرشاد" فلم تنظر إليها نظرة اعتبار، وأحيانًا كانت تكتب عنها كلامًا فاترًا. لكن هذه الحادثة غيرت من فكرها، وعرضت جريدة "إرشاد" نفسها القصة وأثنت عليها.

المصرف الوطنى :

أثناء ذلك قامت دار الشورى فى طهران أيضًا بعمل عظيم زاد من مكانتها وقيمتها أمام القريب والغريب، وكيفية ذلك أن الدولة اتجهت إلى الاستدانة للمرة الثالثة وتفاوضت فى ذلك مع روسيا وإنجلترا وقدموا بعض المقترحات. وفى يوم السبت الثامن عشر من شهر آبان حضر إلى المجلس حاجى مخبر السلطنة من قبل مشير الدولة الصدر الأعظم، ونقل ذلك إلى المجلس. وحتى ذلك الوقت لم يحضر معظم النواب إلى طهران ولم يسن قانون الدولة بعد، وكانت الدولة تريد من المجلس تصديقًا على ذلك الأمر وكأن هذه المساعى قد بذلت وأقيمت دار الشورى حتى يستمر الوضع على ما كان عليه. وكان رجال البلاط قد تحايلوا من قبل بطرق قانونية وحصلوا على القرضين السابقين واستولوا عليهما، والآن يأملون فى قرض آخر على أن يكون ذلك بناء على تصديق من دار الشورى، ويستولون عليه كذلك.

وأظهر مخبر السلطنة رسالة من الصدر الأعظم جاء فيها : "امض إلى مجلس الشورى وبلغ الأعضاء أن الدولة مدينة فى الداخل والخارج بعشرة ملايين طومان ويجب أن تسددها، وهى تتباحث مع دولتين بشأن السداد، وأنهما مستعدتان لدفع القرض بنفس الفائدة، وقد صدرت الأوامر إلى بنك الاستقراض والبنك الإمبراطورى ولكن ينبغى أن يبدى النواب رأيهم وتبلغنا به، ثم أخرج نسخة من الاتفاقية التى اقترحت مع كلتا الدولتين وقرأها على النواب : "إن كلتا الدولتين تقرضان إيران عشرة ملايين طومان بفائدة قدرها ٧% بالشروط التالية :

أولاً : على دولة إيران أن توضح لكلتا الدولتين المجالات التى سوف تنفق فيها هذه الأموال.

ثانياً : ألا تخصم دولة روسيا من هذا القرض ما كانت تطالب به من قبل.

ثالثاً : شروط هذا القرض هى نفس شروط القرضين السابقين.

رابعاً: أن يسدد مليونان من هذه الأموال حتى حلول النيروز.

خامساً: رهن هذا القرض بالنسبة للروس هو الجمارك الشمالية وبالنسبة للإنجليز البرق والبريد.

سادساً: أن تخبر إيران كلتا الدولتين على بقية الدين الذى طلبته قبل عدة أشهر.

وكان مخبر السلطنة يقول : " لم تسدد الرواتب الشهرية للسفراء وقناصل إيران فى البلاد الأجنبية، وكذلك رواتب الجند وموظفى الإدارات داخل الدولة منذ بضعة أشهر، ولم تقدم كذلك الأموال إلى البلاط للإنفاق، وينبغى أن نملك مليونى طومان لسداد ذلك وإذا لم تصل سريعًا سوف تتوقف جميع الأعمال".

وارتفعت الهمهمة في المجلس بسبب هذا الاقتراح وانقسم النواب إلى طائفتين، طائفة أيدت ذلك، والأخرى لم تؤيده ولزمت الصمت. كما أن الإعلان عن فقر الدولة وما قيل من أنه لو لم تصل الأموال ستتوقف جميع الإدارات، قد عقد الألسنة. أثناء ذلك قام الحاج معين التجار – المتسم بالحنكة وسداد الرأى – فقال إنه يرفض اقتراح الدولة، وأخذ نسخة من الاتفاقية وقرأ بنودها الواحد تلو الآخر وأوضح ضرر كل منها، ثم قال فى جرأة : "يقينى أن هذا الدين وقدره عشرة ملايين طومان الذى تدعيه الدولة ليس صحيحًا لأن الأمير الأتابك (عين الدولة) دائمًا ما كان يفخر بنفسه بأننى وازنت بين دخل الدولة وإنفاقها ولدينا زيادة قدرها ستمائة ألف طومان، ونحن لا نعرفه كاذبًا أو يقول هراء إلى هذا الحد وعلى الدولة أن ترسل بيانًا بالمصروفات خلال الثلاثة أعوام السابقة إلى المجلس حتى نبحثها. ولو صدق أن الدولة مدينة فالواجب على الشعب أن يجد حلاً لهذا ولكن ليس عن طريق الحصول على قرض من روسيا وإنجلترا وبتلك الشروط الصعبة أو أن توضع الدولة تحت رقبتهم من أجل مليونى طومان، على ذلك فلنبحث فى مصروفات الدولة فإذا ما حصلنا على المبلغ لن تمس حاجتنا إلى الاستدانة ثانية من القريب أو الغريب. والآن لا نستطيع أن نبدى برأينا فيما يختص بالاستدانة أو عدمها بشكل عشوائى". ثم ذكر القروض السابقة وطالب الدولة بأن ترسل اتفاقيات تلك القروض إلى المجلس حتى يطلع الشعب على حقيقتها. وقال كلامًا من هذا القبيل عن أعمال الدولة، وتبدل حال المجلس من كلامه القيم الجرىء، والنواب الذين لم يكونوا مؤيدين للاقتراح تشجعوا وأبدى الجميع عدم رضاهم على القرض بالإجماع، وعلت الهمهمة من المجلس ثانية. ومن كانوا من قبل غير مؤيدين خجلوا من أنفسهم ولزموا الصمت. ولما شاهد مخبر السلطنة الحال مضى حتى يطلع الدولة. ولكنه عاد إلى المجلس فى الغد وبدأ الحديث قائلاً : " إن بيان الإيرادات خلال الأعوام الثلاثة التى تريدونها لم تعده الدولة، ولكن–

لا ينبغى التسرع فى محاسبة الدولة على هذا، والآن نحن نريد مليون طومان وإذا لم تصل ستتوقف الإدارات. فإما أن ترضوا عن هذا القدر من الدين أو تجدوا لنا حلاً عن طريق آخر، وينبغى إتمام ذلك الأمر خلال ثلاثة أيام ".

واضطرب النواب اضطرابًا شديدًا من كلامه هذا ولما استشعروا الشجاعة فيهم واختلطت الأصوات فيما بينهم ردوا قائلين : " لا يستطيع الشعب أن يرهن داره عند الأجانب لأن الأمير بهادر جنگ والوزير فلان والموظف فلان يريدون الأموال". وزدات حدتهم فى هذا الكلام.

وعاود الحاج معين الكلام وقال هذه المرة : " الدولة من الشعب والشعب من الدولة وليس هناك فرق بينهما، والآن طالما أن الدولة لا تملك مليون طومان فهذا دليل على أن الشعب معدم وينبغى لنا أن نمد يد العون إليه، ولكن لا يمكن إنجاز أى أمر بهذه العجلة ونستطيع خلال ثلاثة أيام أن نحصل على الأموال من روسيا أو إنجلترا أبينا أم رضينا".

فقال مخبر السلطنة : " المليون طومان جاهزة الآن فى البنوك ونريد فقط موافقتكم حتى ندفعها ".

فقال الحاج معين : " إن يمنحوا هذا المبلغ بلا رهن فلتأخذوه ولكن ينبغى أن يكون المجلس على علم بوجوه إنفاقه ".

فقال مخبر السلطنة : " إنهم لا يعطون بلا رهن وينبغى أن يغير الاتفاق وأن نحصل على هذا المقدار من المال بناء عليه ".

فقال الحاج معين : " على هذا فإن الدين بهذه الكيفية حتى ولو كان مائة ألف طومان ليس أمرًا حسنًا، فإما أن تأخذ الدولة هذا المبلغ بلا رهن ويضمنه الصدر الأعظم نفسه وإما أن تمنحنا نحن التجار تفويضًا باسمنا ونسدده لها ".

فقال مخبر السلطنة : "مادام الإقراض بهذه الكيفية ليس فى مصلحة سياستهم فلن يقرضونا وينبغى عليكم أن تقبلوا هذه الشروط" وطال كلامه على هذا النحو وكلما ألح عليهم مخبر السلطنة بقبول الاقتراح لم يقبل النواب وخاصة التجار وفى النهاية اقترح بأن تمنح الدولة ضمانًا لهم حتى يؤسسوا مصرفا ومن رأس ماله يقرضونها مليونًا من الطومانات.

وفى يوم الخميس الثالث والعشرين من شهر آبان (السابع والعشرون من شهر رمضان) حينما عُلم أن الدولة أعطتهم التفويض تباحث النواب فيما يختص بالبنك الوطنى وتعهد التجار – وكان فى مقدمتهم الحاج معين التجار والحاج أمين الضرب والحاج محمد إسماعيل وأرباب جمشيد - بتأسيس هذا المصرف، ومن هنا ظهر أمر المصرف الوطنى الذى كان يعد أحد آمال الإيرانيين منذ أعوام.

مثال من مواقف الإيرانيين الحماسية :

أدى هذا الأمر فى بداية عمل المجلس إلى نتيجتين، إحداهما ازدياد قيمة المجلس. فكان رجال البلاط والأجانب يظنون أنه طالما أن الإيرانيين قد انتفضوا منذ عهد قريب وليس لديهم معلومات كافية عن ذلك فإنهم سيكتفون فقط بأن يوجد قانون داخل البلاد وألا يكون هناك شيء من الاستبداد، وهكذا كانت نظرة المجلس إلى المحكمة لأنهم كانوا يدركون أنهم سوف يقبلون كل ما تقترحه الدولة فى طاعة عمياء. وعلى وجه الإجمال لم يتوقعوا أن يكون للإيرانيين أفكار سياسية، ومما أوضح عدم صحة ظنهم هذا نضال النواب وتلك الأقوال الحكيمة للحاج معين التجار، كما زاد كذلك من أهمية المجلس. وبعد أن وصلت أخبار هذه المقاومة إلى الصحافة الأوربية، وعلى الرغم من هذه المشاورات، لم تيأس الحكومة وكانت تأمل فى الاستدانة من الروس أو الإنجليز، إذ بعد مرور عدة أيام على ذلك حضر ناصر الملك وزير المالية

إلى المجلس وعرض تلك الأقاويل ثانية، وساق الحديث عن حاجة الدولة وفقرها لكن المجلس اعترض بشدة، وقال الحاج معين : " نحن بصدد تأسيس مصرف، فعليكم أن تهيئوا له لائحة وبنودًا ". فقال ناصر الملك : " لن يتم عملكم هذا حتى مضى خمس سنوات – يلزم لمريضنا حقًا أن يتناول دواء ليشفى من الحمى وبعد زوالها ينبغى أن تقوى أعصابه – ذلك السيد الوزير الذى رأى أوربا كم كان متسرعًا فى رهن البلاد والاستيلاء على عدة ملايين وملأ خزائن رجال البلاط الظالمين سيئى النية ليشفى حمى حرصهم وطمعهم بدواء المال. وإزاء مثل هذه الشهامة التى أبداها جماعة من التجار فبدلاً من الثناء عليهم ومجاملتهم كان يسخر من بأسهم. فقال الحاج معين : "هل تستطيع الدولة أن تكتفى بمبلغ أربعمائة ألف طومان أو خمسمائة ألف ندفعها ثم نتصرف فى الباقى"؟! فرد ناصر الملك قائلاً : " هل تظنون أن الخمسمائة ألف طومان تكفى لكل هذه الكوارث ؟ حقًا إن رجال الدولة كانوا يتحركون بأيدى غيرهم، وكان كل أملهم الحصول على ذلك القرض ولذلك لم يوافقوا على مقترحات النواب !!

وطالب الحاج معين الدولة ثانية بأن ترسل اتفاقيات القروض السابقة إلى المجلس وتوضح كذلك وجوه إنفاق القرض الذى كانت تريده، فخرج ناصر الملك يائسًا وهكذا شغل التجار بأمر البنك وقد وفقوا فى ذلك، وهكذا لم تكن هناك حجة للبلاط كى يتحدثوا ثانية عن الحصول على ذلك القرض.

أما النتيجة الأخرى أن الناس وجدوا الميدان فسيحًا لإظهار مدى حماستهم فمنذ اليوم الذى بدأ فيه الحديث عن ذلك سر جمع من الأثرياء والفقراء وأبدوا تعاونهم، وبعد أن هيأ التجار المجال لذلك بحيث يحصلون على رأس ماله وهو خمسة عشر مليون طومان حيث يستطيع كل شخص أن يشارك فى الأسهم بداية من خمسة طومانات إلى خمسين ألف طومان، وكتبوا لائحة بذلك وأرسلوها ليذيلها الشاه بتوقيعه، وأعلنوا عن بعض الأماكن لتحصيل الأموال من الناس حيث توجهوا إليها

وبدأوا فـي دفـع الأمـوال، ولـم يكـف الفقـراء كـذلك عـن مـساندة الأثريـاء الـذين كـانوا يدفعون الأموال. وعقد الطلاب جلسة وجمعوا الأموال من بعضهم وأرسلوها. وقيل إن البعض باع كتبه ليجمع الأموال. وكان تلاميذ المدارس يقومون كذلك بنفس العمل. وكانت النساء تتحدثن عن بيع الأقراط والقلائد فيما بينهن، وذات يوم وقفت امرأة أمـام منبر السيد جمال واعظ فى مسجد ميرزا موسى، وقالت : " لمَ تقترض دولة إيران من الخارج؟! هل أدركتنا المنية ؟! أنا امرأة غسالة أسهم بدفع طومـان مـشاركة منـى، كمـا أن النساء الأخريات استعددن لذلك ". وتكررت مثل هذه المواقف.

واقتدى رجال الدين - الذين قلما كانوا يشاركون فى مثل هذه الأمـور - بهـم، حيث تعهد الحاج الشيخ فضل الله بدفع مائتى طومان، وتحين الحـاج ميـرزا أبـو القاسـم أمـام الجمعـة – الـذى أسلفنا ذكره وعرف بعدائـه للحكم النيـابى وسـاءت سيرته عنـد الناس – الفرصة وكتب رسـالة إلـى المجلس وأبدى تعاونـه مـع الجمـاهير وتعهد بدفع خمسة آلاف طومان.

حقيقة أن الناس قد تنبهوا وامتلأت قلوبهم بالحماسـة والحميـة وأقدم حشد من الناس على العمل يحدوهم الأمل، وكـانوا يريـدون الخيـر لأنفسهم كمـا سـعوا من أجل خير البلاد ورفعتها. وفى ظل هذه الحركة وتلك الانتفاضة استحال أن يكون فـى قلـوب الناس أنانية أو طمع، واتجهوا جميعًا إلى التضامن رغبوا أم لم يرغبوا مـا عدا رجـال البلاط الرجعيين الذين فسدت قلوبهم وكانوا يعترضون.

كـان هـذا كلـه فـى طهـران، ولكـى تتـضامن المـدن الأخـرى، مـضى التجـار المؤسسون إلى مكتب البرق لاستدعاء الجماعات برقيًا وتحدثوا مـع كل جماعـة علـى حدة وسمعوا من الجميع بشرى التضامن، وأبدى أهـالى تبريـز التعـاون فيمـا يختص بالبنك لكنهم تحفظوا فى الـرد علـى منح القرض إلـى الدولـة. وفضلاً عن مدن إيران

نفسها أبدى الإيرانيون فى كل من القوقاز والهند وإسطنبول تضامنهم ودام سعيهم وحديثهم فترة فى جميع الأرجاء وسوف نورد نتيجة ذلك.

فى تلك الأثناء كان الحديث فى المجلس عن لائحة الدستور، أما النسخة التى أعدوها من قبل وأرسلوها إلى الشاه ليذيلها بتوقيعه فقد عادوا يطالبون باستردادها، وكان رجال البلاط السيئو النية يعتذرون عن ذلك بمرض الشاه، واحتفظوا بها ولم يردوها، مما اضطر المجلس للتذكير بها على الدوام. وكان نواب المدن يصلون الواحد تلو الآخر.

وبعد منح الحكم النيابى فى طهران لم تؤسس جريدة حتى منح امتياز جريدة باسم "مجلس " إلى " آقا ميرزا محسن " (أخو صدر العلماء)، وصدر العدد الأول منها يوم السبت الثالث من شهر آذر (الثامن من شهر شوال) وكان يحررها أديب الممالك فراهانى ويديرها ميرزا محمد صادق طباطبائيى (ابن المرحوم طباطبايى). وهذه الجريدة – كما يتضح من اسمها- كانت تنشر أحاديث المجلس أكثر من سواها، ومبلغ علمنا أنها كانت تلى جريدة "انجمن" فى تبريز من حيث كونها جريدة عصر الحرية.

الرد المتحفظ لتبريز فيما يختص بالمصرف الوطنى :

كان الأحرار يسعون سعيًا موفقًا فى تبريز وكانت الأمور تتم فى الظاهر عن طريق الجمعية (أو ما يطلق عليه المجلس الوطنى) وفى الخفاء عن طريق المركز السرى، ولما رفعت يد محمد على ميرزا والمحيطين به حلت الجمعية محل المحكمة، وكانت تلقى السمع للمظالم التى كانت تقدم إليها من تبريز نفسها أو من المدن الأخرى، كذلك حلت محل المحاكم وكانت تسعى لأمن وراحة المدينة. والمركز

السرى الذى كان يجتمع فى الغالب فى دار المغفور له على مسيو كان ينظر إلى أعمال محمد على ميرزا وأتباعه بعينين يقظتين.

وعندما انتهى شهر رمضان وخف دور المساجد، وجدوا من الضرورى عدم الكف عن ذكر الحكم النيابى وفوائده، واقترحوا أن تغلق الأسواق أيام الجمع وأن يعتلى المنبر ثلاثة من الوعاظ هم المغفور له الشيخ سليم وميرزا جواد ناطق وميرزا حسين فى ثلاثة مساجد، وكان هذا الأمر جزيل النفع وترتب عليه أن ذكر فى تبريز خبر إطلاق الرصاص والتدريب العسكرى كما سنشاهد فيما بعد.

يئس محمد على ميرزا من المقاومة والعراك علانية، فقام فى الخفاء بمحاولات للتفريق ولم تلزم بعض حاشيته الصمت من أمثال السيد محمد اليزدى ومفاخر الملك ومفاخر الدولة وغيرهم، وفى ظل مساوئهم انعدم الأمان حول المدينة، ولم يقم شخص بالحيلولة دون ذلك حتى أن الحاج مشير دفتر – الذى كان عليه أن ينفذ قوانين الجمعية – أبدى عدم اكتراثه، وانتهز المركز السرى الفرصة ثانية حيث مضت جماعة من المجاهدين إلى الجمعية يوم الأحد الثالث من شهر آذر (الثامن من شهر شوال)، وأعربوا عن عدم رضاهم وشكواهم من فساد الأمور وعدم توفر الأمن حول المدينة واستهتار الحكام. وفى الغد أغلق الجميع الأسواق واجتمعوا فى الجمعية وما حولها، ومضى البعض واستدعوا العلماء وغيرهم إلى الجمعية وأعربوا عن شكواهم وطالبوا بالحل قائلين : " إذا ما عجزتم عن إيجاد الحل لن نفتح الأسواق ولن نغادر هذا المكان". وكان اللغط يسمع من كل الأرجاء، وطلب المجتهد تليفونيًا من ولى العهد رسولاً كى يحضر ويستمع إلى رغبات الناس ويمضى ليحدثه عنها، ووجه ولى العهد إليه بنير السلطان بيد أنه حين حضر واستمع إلى حديث الناس ومضى وحضر ثانية لم يأت برد صريح. وأبدى ولى العهد عدم اكتراثه، وقال : "ليتفرق الناس مطمئنين ". وانزعج الناس من هذا الرد وقاموا ثانية بالشغب وتحدث الخطباء

بلهجة شديدة، وتحدث كل من الشيخ سليم وميرزا جواد وميرزا حسين إلى الناس كل على حدة وأسكتوهم وبعد التشاور اقترحوا أن يمضى العلماء أنفسهم إلى الحديقة لمقابلة محمد على ميرزا وأن يطلعوه على حقيقة الأمر، وعندما مضى العلماء وأفصحوا عن شكواهم استسلم محمد على ميرزا ثانية وخضع إلى المطالب وأعاد العلماء يحملون البشرى وهدأت خواطر الناس وفتحوا الأسواق فى اليوم التالى.

بعد ذلك استدعوا الحاج مهدى آقا وغيره من التجار برقيًا من طهران وتباحثوا فيما يختص بالبنك الوطنى فأجابوا أنهم سيعقدون جلسة ويفكرون فى هذا الأمر وسوف يطلعونه على النتيجة، وكان ذلك فى يوم الجمعة الثامن من شهر آذر (الثالث عشر من شهر شوال) فى دار الحاج مهدى آقا وبحضور المجتهد وثقة الإسلام وميرزا صادق آقا والحاج ميرزا محسن والحاج سيد المحققين وجماعة من التجار وغيرهم، وعقدوا جلسة وتباحثوا فى هذا المجال، وبعد التشاور اقترحوا أن يتعاونوا لإنشاء المصرف الوطنى وجمعوا الأموال فى الحال، لكنهم لم يوافقوا على منح القرض إلى الدولة لأن معظمه سيجد طريقه إلى خزائن أشرارها، وأرسلوا برقيتين بهذا إلى طهران إحداهما بتوقيع العلماء والأخرى بتوقيع التجار، ونورد فى هذا الموضع برقية التجار:

" الحضور المحترمون، السادة أعضاء مجلس الشورى الوطنى المقدس وعامة السادة التجار المحترمين دام إجلالهم، قد تقرر فيما يختص بالقرض وتأسيس البنك الوطنى أن تباحثنا وكان الجواب : عرضت هذه المسألة يوم الجمعة الثالث عشر من هذا الشهر أمام مشاهير العلماء وحجج الإسلام وجمع من رجالات الدولة والتجار هذا وقد تم التباحث فيها، وجميع الطبقات مستعدة عن طيب خاطر لتأسيس هذا البنك الوطنى الذى فيه أسباب خلاص الدولة والأمة، ولكن ما يبغونه فى هذا المجال هو الضمانات، ويأمرون بأن تفسحوا مكانا فى القرار المذكور لميزانية الدولة فأولاً ينبغى

إصلاح ميزانية المملكة حتى لا تدعو الحاجة بعد ذلك إلى الاستدانة وطالما لم يصوب الدستور فى حضور النواب من أطراف البلاد، وما لم يتم إصلاح الميزانية لن يكون هناك مجال لتأسيس البنك، وتقولون بأنه سيتم توقيع الدستور أوائل العام الجديد، والدولة فى حاجة بالفعل إلى مبلغ مليونين ونصف مليون طومان وهى فى أمس الحاجة إلى هذا المبلغ حتى أوائل العام الجديد، ولعلكم تدركون أن أولى الأمر فى الدولة – والحمد لله – هم أوسع أهالى إيران ثراء ومن اليسير على جماعة منهم دفع مبلغ المليونين والنصف من الطومانات لما لهم من هذه الثروة الطائلة التى جمعوها بطرق خاصة فى ظل الدولة، ويقدمون أضعاف هذا المبلغ حتى يصبح بمثابة قرض ولكن لا ينبغى أن يقروا بأى وجه قط الاستدانة من الخارج ولا يرضون عن ذلك.

مضى محمد على ميرزا إلى طهران :

أثناء ذلك اشتد المرض على مظفر الدين شاه، وهكذا شغل فكر محمد على ميرزا بأمور أخرى، وذلك لأن شعاع السلطنة كان يسعى ثانية فى أن تكون ولاية العهد له، وكان يبذل قصارى جهده فى هذا. وكان محمد على ميرزا يخشى أن يميل إليه زعماء الحرية ومع أنه كان شديد العداء للحكم النيابى، وكان يسعى خفية للإطاحة به فقد كان كما رأينا فى نزاع وصراع مع أهالى تبريز، إلا أنه كان يسعى فى الظاهر ليستميل زعماء الحرية فى طهران ويحجب عداءه للحكم النيابى، وكتب فى ذلك رسالة إلى المغفور له بهبهانى أرسلها ونشرها فى جريدة المجلس ونوردها فى هذا الموضع :

" بناء على ما سمعته من أنهم قد كتبوا رسالة من تبريز إلى الجناب العالى مفادها أن ولى العهد مخالف لرأى الأمة وأنه يرفض ذلك المجلس الذى أذن به الشاه – أرواحنا فداه– لعبيده، فإننى أولا أقسم بالله تعالى أن هذا الأمر مختلف ولا أساس له

من الصحة على الإطلاق وأدعو من الله تعالى أن تتقدم هذه الدولة وذلك الشعب وأن يرفع عنه هذا الذل. ثانيًا قسمًا برأس جدك أنه إذا ما أرسلت شخصًا إلى العتبات فلن يكون فى الخفاء، بل سيكون معلنًا واضحًا فلماذا أخالف هذه العقيدة ولا أرغب فى عمران البلاد ؟ ثالثًا إننى فى عجب من شخصكم، لمَ تنسبون إلىّ هذه النية والفكرة ؟ ولمَ تصدقون هذه الرسالة ؟ لعلكم لا تعلمون أولئك الأشخاص المغرضين، فمن السهل عليهم أن يقوموا بالعديد من هذه الإجراءات ضدى، إذن فلمَ وجب عليكم تصديقهم ؟ وأتمنى أن تخبر الغير بذلك حتى يعلموا بطلان هذه التهمة. وأنا فى انتظار الرد، ولا أريد أن أشق عليكم ".

ويتضح من هذه الرسالة إلى أى حد كان يعتريه الخوف، وإلى أى مدى كان يبدى تواضعه، وكان يطلب من بهبهانى الرد حتى يتحمس لمساندته. فى هذه الأيام ترددت على الألسنة فى طهران وغيرها من المدن معاداته للحكم النيابى، كذلك شاع مثل هذا الحديث فى المجلس. ويمكن التخمين بأن شعاع السلطنة وعماله هم الذين روجوا هذا الكلام فى حين أن شعاع السلطنة قد عرف بعدائه للحياة النيابية أكثر من هذا، ونتيجة للمظالم التى ارتكبها فى فارس فقد اعتبره الناس أكبر عدو لهم.

وعلى كل حال فإن هذه الرسالة من بدايتها تثبت كذب محمد على ميرزا ومع هذا فقد تعلل بها أشخاص كثيرون من قبيل التملق أو الجهل، ومنهم مدير جريدة الحبل المتين. وأعربوا عن ثنائهم عليها بما يثير العجب، وأظهروه بأنه الحامى الأوحد للحكم النيابى والأعجب من هذا كله كان حسن ظن السيدين به.

هذا مثال على ذكاء محمد على ميرزا، فمع كل هذا العداء الذى كان له تجاه الحكم النيابى كان يخدع أشخاصًا كبهبهانى وطباطبايى وجعلهما يؤيدانه.

كان صراع ولى العهد يتم فى الخفاء والأكثر من هذا أنه كان يتخذ طابعًا سياسيًا، ولا علم لدينا بهذا بما يكفى. وأيًا ما كان كان الظفر هذه المرة لمحمد على ميرزا. ولما تزايد مرض الشاه يومًا بعد يوم، وضعف الأمل فى شفائه، وبسبب سفره إلى أوربا استدعاه من تبريز حتى يمسك بزمام الأمور فى يديه.

وصلت هذه البرقية فى الثامن من شهر آذر (الثالث عشر من شهر شوال) وعجل محمد على ميرزا بالترحال وحل محله الأمير إمام قلى ميرزا، وفى يوم السبت الثانى عشر من شهر آذر سار من تبريز مع حاشيته، وأبدى الناس تأييدهم له وأغلقوا الأسواق فى ذلك اليوم، واحتشدوا للقائه فى الشوارع وحول المدينة.

وكان لرحلته هذه نتيجتان إحداهما نافعة والأخرى ضارة، أما نفعها فيتمثل فى أن تبريز تحررت، وتمكن المجاهدون من التعبير عن أفكارهم بحرية، وكذلك عن كيفية انتصار المجاهدين والتفكير فى أشياء أخرى. أما ضررها فهو أن طهران العاصمة ستصبح أسيرة لمفاسده.

منح الدستور :

لقد كتب الدستور كما أسلفنا، وأرسل إلى البلاط كى يذيله الشاه بتوقيعه، ولما كان رجال البلاط يحولون على الدوام دون تحقيق الحكم النيابى فإنهم احتفظوا بمسودته ولم يعيدوها إلى النواب ثانية. وفيما بعد، حينما رأوا إلحاح المجلس طلبوا التفاوض حول بعض البنود، وبخاصة ما يتعلق فيها بمجلس الشيوخ، وكانت رغبة رجال البلاط فى ذلك أن يجعلوا دار الشورى تحت سيطرة مجلس الشيوخ، وبهذا يكون ذلك المجلس أكثر أهمية وأدرك النواب نياتهم وكانوا يردون عليهم.

ظل التباحث على هذا النحو حتى يوم الاثنين الخامس والعشرين من شهر أذر (الأول من ذى القعدة) حيث وصل ولى العهد إلى طهران واستقبل استقبالاً حافلاً من قبل الأحرار وغيرهم، كما ذهب إليه بعض النواب من قبل المجلس للترحاب به، ولما كان الشاه قد أحله محله فى تلك الأيام الأولى فقد انزوى بنفسه، وكان محمد على ميرزا يرى أنه ما زال فى حاجة إلى تأييد بهبهايى وطباطبايى، وكان الحديث فيما يختص بالدستور لا يزال جاريًا. وقد أرسل محمد على ميرزا الحاج محتشم السلطنة ومشير الملك (ابن مشير الدولة الصدر الأعظم) من قبله إلى المجلس ليتباحثا فى بعض البنود، وتباحثا فى مختلف الأمور التى تتعلق بمجلس الشيوخ، وعلى أية حال فقد أنهيا ذلك الموضوع.

وفى يوم السبت الثامن من شهر دى (الرابع عشر من ذى القعدة) وقع عليها مظفر الدين شاه الذى كان يعيش أيامه الأخيرة، وتلا تلوه ولى العهد. وبذلك منح الدستور لجماهير إيران وأعرب الناس عن سرورهم به واختاروا يوم الثلاثاء لتقديم اللائحة إلى المجلس.

وفى ذلك اليوم اجتمع كبار العلماء وآخرون فى المجلس وملأت حشود المشاهدين جميع الأرجاء، وحمل مشير الدولة الصدر الأعظم وناصر الملك وزير المالية ومحتشم السلطنة ومشير الملك لائحة القانون واتجهوا بها إلى المجلس، واستقبلهم كل من كانوا بالمجلس ورحبوا بهم فى سعادة بالغة، وألقى السيد محمد تقى الهراتى – أحد النواب – بيانًا وأعرب الناس عن سعادتهم ورفعوا أصواتهم بالدعاء والتأييد، وكان النواب يتعانقون ويقبلون بعضهم البعض وبكى البعض من فرط الفرحة.

وفى تلك الليلة أقيم احتفال فى مدرسة المروى وأبرق المغفور له بهبهانى النبأ إلى جمعية تبريز وغيرها من المدن، وفى ليلة الغد أقاموا الاحتفالات والزينات مرة أخرى فى مدرسة سپهسالار.

وفى ذلك اليوم بالغوا فى تقييم مثل هذه الأشياء، وتعلق البسطاء من الناس بذلك أكثر مما ينبغى لسذاجتهم، لأن الدولة التى كانت قد عاشت قرونًا تحت نير الاستبداد وسيطرة الظالمين أصبح لها الآن قانون، ولن تقع ثانية تحت سيطرة الظالمين وأصحاب النزوات. وكل بند أعددناه فى الدستور كان سببًا لراحة شعب إيران ورقيه، ونحن لا نهتم كثيرًا بأنهم كانوا يعظمون مثل هذا القانون أو يعربون عن سرورهم به، أما ذكرنا لهذا لأنهم كانوا بسذاجتهم يعدون سَنَّ مثل هذا القانون بمثابة الحل لجميع مشاكلهم. وعلى سبيل المثال، إذا ما اشتكى شخص من عدم أمان البلاد أو اشتكى من سوء نيات رجال البلاط كان يرد عليه المستمع فى الحال : "سوف تصحح جميع هذه الأوضاع بسن القانون (الدستور) وسوف يلزم سيئو الطوية أولئك حدودهم". ولسذاجتهم لم يكونوا يعلمون أن تلك المشاكل والعراقيل التى يعانون منها بسبب تشتت الأفكار وفساد الضمائر وتعدى الأجانب، وكانوا يسعدون قلوبهم بمثل هذه الأشياء.

وكما ذكرنا سالفًا كانت المدارس فى البداية متفائلة إلى أبعد حد فكانوا يظنون أنه بمجرد أن يتخرج الشباب من تلك المدارس ستصبح إيران روضة، وبعد صدور الحكم النيابى كانوا ينشغلون فى كل فترة بشىء ما وقد انشغلوا فى تلك الأثناء بالدستور هذا وقد أعربوا عن فرط سرورهم لمنحه.

وكانت دار الشورى تزداد قوة وقيمة يومًا بعد يوم، ومما زاد الطريق إشراقًا صدور اللائحة الداخلية والدستور كما قرر أهالى تبريز وعقدوا العزم على أن يراجعوا إيرادات الدولة وأن يتباحثوا فى هذا الشأن.

رحيل النواب عن آذربايجان :

كما أسلفنا، تم انتخاب النواب فى تبريز، لكن لما كان العديد ممن انتخبوا لايبالون بمجتهد الإسلام وثقة الإسلام ولم يكن يعلم قبولهم أم لا، كذلك لم يكن يعلم من أين يدفعون نفقة السفر، لذا بقى الأمر كما هو عليه. وقد نبهوا إلى ذلك مرارًا من طهران كذلك ألح المجاهدون وقام المجلس بعدة مباحثات ثم عُرف أناس كثيرون بأنهم أصبحوا نوابًا.

ومضى إلى مصر كل من الحاج ميرزا ابراهيم آقا، آقا ميرزا فضل على، سيد حسن تقى زاده، مستشار الدولة، الحاج إمام الجمعة خويى، أحسن الدولة، هدايت الله ميرزا، ميرزا عبد الرحيم طالبوف، مير هاشم الدوتشى، الحاج محمد آقا الحريرى، الحاج ميرزا آقا بائع الفرش، شرف الدولة وتقى زاده وذلك قبل انتفاضة تبريز بعدة أيام، ولما علموا بانتخابهم اتجهوا مباشرة إلى طهران وكان مير هاشم فى طهران وأرسلوا بطاقة ترشيحه إلى مكتب البرق، وما ينبغى ذكره أن المجلس هو الذى اختاره وكان يريد أن يستميله. وكان طالبوف يعيش فى ولادى قوقاز واختاروه فقط لجهوده السابقة وكتاباته، لكنه رفض هذا حينذاك ولم يرض عن انتفاضة تبريز ولا عن جهود الإيرانيين، وكان هذا موقف العديد من الأشخاص الذين كانوا يجاهدون، وحينما يصلون إلى مكانة ما ينقلبون ويعرضون عن مواقفهم السابقة، وكان طالبوف من أولئك الأشخاص حيث أعلن عن استيائه من سير الأحداث فى ذلك الوقت، وقد نشرت له مقالة فى جريدة "انجمن" فى العدد الثانى لها وفيها يتملق محمد

علـى ميـرزا ولـى العهد ويقـول : " أرواحنـا فداه "، وهنـاك رسـالة أخـرى فـى العـدد الثالث والثلاثين من نفس الجريدة يقول فيها : " إيران الآن أسيرة ثور الاستبداد ذى القرنين، لكن إذا ما عجزت عن تصريف أمورها فيما بعد فسوف تبتلى بثور لـه ألف قرن ووقتها سيسخر المستبدون من خور عزائمنـا ويحوقل علينـا الأعداء فـى البلاد المجـاورة فـى سعادة، وأجهر بـالقول (إننـى أنظـر إلـى هذه المسألة علـى أنهـا مسألة عجيبة) وإلا فلتخبرونى عن أى تبريزى من قراجى داغى يثور لمنع أو إحراق نسخ جريدة مـلا نـصر الـدين بإيعاز من المتمردين ويطلب من الجمعيـة إذن الدخول لهـا، وكل من يهجو ولى النعمة مليكه ويقول ذلك أو يكتبـه فـأى حق لهذا الذى لا حميـة لـه كى يعد إيرانيًا حقًا !؟".

وكـان يستاء مـن حصـول الإيـرانيين علـى الحكم النيـابى بحجـة أنهـم إذا لـم يتمكنوا من أن يشقوا طريقهم فستفسد أمورهم، ولو يسأله شخص ؛ ماذا كـان ينبغـى ؟! فإنه يقول : لا ينبغى الأخذ بـالحكم النيابى. إذن لماذا كانت كتاباته ؟! ولـو كانـت إجابتـه : ينبغى الأخذ به ! إذن لماذا هذا الكلام الفاتر؟!

وحكاية ملا نـصر الـدين هـى أن تلك الجريدة قد بدأت فـى الظـهور فـى ذلك العام فى بلاد القوقاز، وكما سنذكر فيما بعد أنها كانت من الجرائد المفيدة، ويقـال إنهـم صـادروها بمكتب البريد طبقًا لأمر محمد علـى ميرزا ولـم يسمحوا لهـا بالوصـول إلـى الشعب، واشتكى المجاهدون من ذلك إلـى الجمعيـة وطـالبت الجمعيـة بـدورها من دار الشورى برقيًا كى يسمحوا لها بالدخول. واشتد هذا علـى السيد طـالبوف واتخذه دليلاً على أن الإيرانيين لم يكونوا جديرين بمنحهم الحكم النيـابى، حيث يذمون محمد علـى ميرزا الذى يعد ولـى نعمـة الإيرانيين؛ لذا فقد سب كل من تعرض إلـى محمد علـى ميـرزا بالقـدح فـى صـحيفة " مـلا نـصر الـدين "، أو أرسـل رسـالة إلـى كاتـب هـذه الصحيفة.

وقدر الناس جهوده فى ذلك وكان يأخذهم بتلك الملاحظات التافهة. والأسوأ من ذلك أن السيد طالبوف لم يحضر إلى طهران لنفس هذه الحجج، واعتزل فى الوقت الذى كان يستطيع فيه عالم محنك أن يقدم للناس كل ما فى مصلحتهم. والبرقية التى أرسلوها إليه من تبريز تضمن رده عليها قبوله العضوية شريطة أن يتجه إلى طهران فى شهر صفر (أى بعد ثلاثة أو أربعة أشهر) وفيما بعد عدل عن رأيه ولم يذهب. فهو من هذه الزمرة التى نطلق عليها " جماعة المعترضين " والذين سنذكرهم فيما بعد.

ومن الاثنى عشر الذين أحصيناهم كان عشرة منهم فقط فى آذربايجان وكان ينبغى أن يرحلوا ولم يكن مستعدًا للرحيل منهم سوى الحاج إمام الجمعة والحاج محمد آقا. ولم يكن ذلك من طبعهم ولم تنته أعمالهم. وكان ثمة سبعة فقط على أهبة الاستعداد للسفر. وتم اختيار يوم الثلاثاء السابع عشر من شهر دى يومًا لرحيلهم، ويجب أن يعتبر ذلك اليوم من أيام تبريز التى لا نظير لها. ولمعرفة شغف أهالى تبريز بالحركة وكيف كانوا يعظمون هذا الأمر ويسعون من أعماق قلوبهم لإنجاحه، ينبغى أن نبسط القول فى الحديث عن قصة هذا اليوم :

فى ذلك اليوم، لم يفتح الناس أسواقهم واحتشد الجميع فى الطريق الذى سيسلكه النواب وملئوا الطرقات بداية من الجمعية حتى حافة كوبرى آجى – الذى لاشك أنه يبعد أكثر من أربعة فراسخ – واجتمع العلماء والأحرار فى الجمعية، وملأ الجميع الغرف والأفنية ودخل النواب فى البداية وهلل الناس فى سعادة بالغة لاستقبالهم وهنا كان ينبغى أن تمنح بطاقات الترشيح واستهل ميرزا حسين الحديث، وكان ميرزا فضل على آقا وشرف الدولة قد كتبا شيئًا فيما يختص باهتمامهما بأمور الشعب وأمنياتهما للتضحية وبذلك الجهد فى سبيل الشعب وهذا ما قرأه ميرزا حسين. وارتفع صوت الجميع فى صيحة واحدة قائلين : "فلتمضوا فى حفظ الله وسوف

نؤيدكم بالنفس والنفيس " وأعطيت بطاقات الترشيح. وبعد التقاط بعض الصور حل موعد الرحيل وسار النواب والعلماء والرؤساء وبقية الناس حتى بلغوا مسجد مير خيز حيث كانت المركبات، وكان الناس يصيحون على طول الطريق ويعربون عن سعادتهم. وكانوا قد أقاموا منبرًا أمام مسجد أمير خيز، وجلس النواب على درجاته، ووقف الشيخ سليم أعلى المنبر ماسكًا فى يده المصحف وأراد أن يعقد عهدًا بين النواب والشعب. وفى البداية تعاهد الجميع على أن يسعوا جاهدين على الدوام فى سبيل تقدم أمور الشعب وأن يفكروا فى هذه المرة على الدوام فى نصر إيران وظفرها وأن تكون رغبتهم المحافظة على الحكم النيابى. ثم التفت إلى الناس وقال: "هؤلاء الفضلاء الذين يمثلونكم وهم يحملون أرواحهم على أكفهم واستودعوا أنفسهم لله، قولوا لهم : إلى أى حد سوف تكونون على أهبة الاستعداد للسعى ويكون هذا المصحف حكمًا بينكم وبينهم ؟. .." وقال الناس فى صوت واحد : " نحن على أهبة الاستعداد لمؤازرتكم بأرواحنا وأموالنا حتى آخر قطرة من دمائنا وليكن المصحف شاهدًا على كلامنا هذا ". وهكذا علت صيحاتهم وكأنما ترددت أصداؤها فى جميع أرجاء المدينة.

وبعد أداء اليمين ودعهم النواب وركبوا المركبات وساروا متجهين إلى جلفا ومنها إلى طهران عن طريق القوقاز وجيلان، واستقبلوا فى مدن القوقاز جميعها استقبالاً حافلاً. وفى باكو قام الحاج زين العابدين تقيوف باستضافتهم واحتفى بهم فضلاً عن الإيرانيين الذين كانوا فيها بأعداد وفيرة واستقبلوهم كذلك استقبالاً عظيمًا (وقدم طالبوف إلى باكو لاستقبالهم)، وأخذت صورة لثمانية منهم فى هذا المكان، لكنه عاد ثانية إلى ولاد يقوقاز ووعدهم بأن يتبعهم إلى طهران لكنه لم يف بوعده.

فرحة الإيرانيين فى القوقاز بالحكم النيابى :

إذا ما ذكر اسم القوقاز ينبغى أن نوضح تأثير الحركة المطالبة بالحكم النيابى فى الإيرانيين هناك :

كما أسلفنا، كان الإيرانيون كثيرين فى القوقاز، وفضلاً عن وجود التجار والحرفيين كانت هناك جماعة كبيرة تعمل فى مناجم البترول فى باكو، وكانوا يعيشون فى ذل وهوان ولم يستطيعوا البقاء فى بلدهم لعدم توفر العمل وزيادة الظلم، لذا لجئوا إلى البلاد الأجنبية واستسلموا لهذه الأعمال الشاقة، وكما أسلفنا فقد قتل الآلاف من هؤلاء الأبرياء فى قتال الأرمن والمسلمين وذهبت دماؤهم هدرًا. إلا أنهم كانوا أكثر إدراكًا لمضار ما تتسم به دولة إيران من ضعف.

وحينما وصلت الأنباء إليهم عن حركة الحكم النيابى وإقامة دار الشورى سروا أكثر من غيرهم، وتذكروا ديارهم وذويهم وتطلعوا إلى العودة. وكما ذكرنا فإنهم كانوا يستقبلون النواب بكل حماسة وترحيب.

وبلغ عدد عمال مناجم النفط فى صابو نجى وبالاخانى عشرة آلاف، وطالبوا من النواب أن يكرموا وفادتهم، وقبل النواب رغبتهم، ومضوا إلى هناك، وعادوا ثانية بعد الاحتفاء بهم وإقامة الولائم لهم.

وأرسل بعض المثقفين منهم رسائل إلى دار الشورى ملتمسين فيها إذا كان فى الإمكان انتخاب نواب ممثلين عنهم وإرسالهم إلى دار الشورى. وقبل الحركة النيابية مثلما كان للروس والأرمن والكرجيين وغيرهم من الطوائف أشخاص بارزون يحرصون على دوام العلاقة مع مواطنيهم الأصليين - فقد ظهر بين هؤلاء الإيرانيين طائفة تؤيد مجاهدى تبريز خفية وتتابع أحوالهم، ومن رواد هذه الطائفة : نريما نوف، سوجى ميرزا، ميرزا جعفر الزنجانى، الحاج محمد عمواغلى، محمد

تقى شيرين زاده السلماسى، الحاج خان نور الله خان اليكانى، الحاج محمد على خان، ميرزا أبو الحسن الطهرانى، أكبراسكويى، حسين سرابى، الحاج باقرخان الأرومى والحاج إسماعيل ميابى. وبعد الحكم النيابى ولكونهم رجالاً محنكين مطلعين ومدركين جيدًا أن الحكم النيابى الذى تم الحصول عليه فى إيران بسهولة لن يتقدم بنفس هذه السهولة وستكون الحاجة ماسة لبذل الجهد والمشقة، فعزموا على مظاهرة مواطنيهم وإرسال الرسل والتأييد إلى كل المدن.

وفى بادئ الأمر قدم إلى تبريز الحاج إسماعيل ثم تلاه الحاج محمد على خان والحاج خان وآخرون وعرفوا باسم مجاهدى القوفاز، وذلك لأنه حينما حضروا من القوقاز كانوا يرتدون الزى القوقازى لذا أطلق عليهم ذلك الاسم على الرغم من أنهم كانوا إيرانيين وزاد مقدمهم من شجاعة المطالبين بالحرية، ولما كانوا رجالاً محنكين وذوى رؤية وبصيرة كانوا يتقدمون فى كل أمر ويبصرون غيرهم إلى ما يسلكونه من طريق، وكان بعضهم يقوم بالخطابة ويجتهد لإيقاظ وعى الناس، مع هذا فقد نفرت جماعة من جرأتهم ورماهم رجال الدين بالإلحاد واستاءوا منهم، لكن الأحرار وفوهم قدرهم وأعربوا عن فرط سرورهم لمقدمهم.

وقد حذا على مسيو وأتباعه حذوهم وكونوا جماعة من المجاهدين فى تبريز وترجمت لائحتهم إلى الفارسية وقدمت إلى المجاهدين.

وعلى أية حال كان إيرانيو القوقاز يساعدون لتقدم الحكم النيابى وسوف نذكر أعمالهم هذه فى عدة مواضع. وفضلاً عن الإيرانيين لم يكف القوقازيون أنفسهم عن المشاركة والمساعدة، وكما أسلفنا كانت صحفهم تقدر حركة الإيرانيين، ومن تلك الصحف صحيفة " إرشاد " التى كان يحررها أحمد بيك آقا يوف وصحيفة " تازه حيات " لهاشم بيك وصحيفة " ملا نصر الدين " التى كان يحررها ميرزا جليل

وغيره من القوقازيين، وكانت صحفهم تتضمن كل ما يحدث في إيران ويعلقون عليها.

هذا وكان لصحفهم هذه العديد من القراء خاصة في آذربايجان ولا سيما صحيفة "ملا نصر الدين "؛ لأنها كانت تكتب بأسلوب هزلي وبلهجة تركية غاية في البساطة، كما كانت ذات صور كاريكاتورية لذا كان الإقبال على قراءتها كبيرًا. وفي الشهور الأولى للحركة حال محمد على ميرزا دون وصولها إلى الناس، لذا كان يصادرها في مكتب البرق، لكن الأحرار أعربوا عن استيائهم وطلبوا من الجمعية رفع ذلك الحظر وطلبت الجمعية برقيًا من دار الشورى رفع الحظر عنها وهذا هو الحادث الذي أورده طالبوف في رسالته وأبدى استياءه منه.

وصحيفة " ملا نصر الدين " من الصحف التي ينبغي أن يظل ذكرها عبر التاريخ، فكانت تتميز بشاعر مجيد ومصور مجيد وبعض الكتاب المهرة، وكانت تسوق النقد مساق الدعابة وكان كل ما ينشر من خلالها عميق الأثر فكثير من الأعمال السيئة سرعان ما تنتهي إذا ما نقدت بأسلوب التهكم والسخرية.

وكان شاعر جريدة " ملا نصر الدين " هو ميرزا على أكبر صابر الشيرواني الذي طبعت أشعاره في ديوان منفصل تحت عنوان " هوپ هوپ نامه" وانتشر في أماكن كثيرة.

وإحدى طرائف جريدة ملا نصر الدين فيما يختص بمجلس إيران أنها كتبت في أحد أعدادها : " إن معظم نواب المجلس في إيران من رجال الدين؛ لأن الجهل من شروط عضوية المجلس ".

وفى تبريز اعتبرها رجال الدين من الضلالات وكتبوا مكتوبًا بذلك ووقع عليه علماء النجف وطبعوه، وقاموا بتوزيعه لكن دون جدوى ولم يحل ذلك دون انتشار جريدة "ملا نصر الدين".

حرب الحيدرية والنعمتية فى أردبيل :

ونحن نتحدث عن انتفاضة تبريز، قلنا إن خبر الحكم النيابى قد أبلغ إلى جميع المدن، كما أن الانتفاضة قد انتشرت فى جميع الأرجاء، قل وجودها أو كثر، فقد ظهرت هذه الانتفاضة فى مدن آذربايجان بداية من خوى وأرومى ومراغه حتى أردبيل وغيرها من المدن، فقد أصدرت جمعية تبريز (مجلس الولاية) أمرًا إلى جميع المدن بضرورة إقامة مجالس محلية فى كل مدينة لتقوم بتدبير أمور المدينة على أن يرسل مندوب من كل مدينة إلى تبريز، وهكذا أنشئ فى كل مدينة من هذه المدن جمعية محلية، إلا أنهم لم يدركوا معنى الحكم النيابى فى معظم البلاد وحاروا فى معرفة ما ينبغى عمله وما لا ينبغى، لذا ظلوا عاجزين وقد تقدم ركب رجال الدين فى كل مكان لإنجاز الأعمال وفق رغباتهم وأفكارهم، وظنوا ذلك ميدانًا لتحقيق مآربهم لدرجة أنه لو وجد فى مدينة شخص أو أكثر ممن يدركون معنى الحكم النيابى فإنهم لم يلقوا السمع إليهم.

وفى مراغه، كان الحاج ميرزا حسن شكوهى يسعى فى هذا السبيل منذ أعوام وكانت له صلات بالصحف، وكتب ذات مرة فيما يختص بمجلس مراغه يقول: " وما أدركوا معنى الحكم النيابى وما فهموه، وحينما وصل كتيب الدستور إلى مراغه لم يفهموا معنى بنوده قط وأخذهم العجب من كل هذه الثورة حول البنود التى لا طائل منها ".

وقال أيضًا : " كأن الناس كانوا يعتقدون أن أعضاء المجلس سوف يصلون معهم صلاة الجماعة أو يعلمونهم المسائل الشرعية حيث كانوا أكثر اهتمامًا بالدين والشرع ".

أثناء ذلك حدث فى أردبيل حدث عجب وهو قيام الحرب بين الحيدرية والنعمتية بسبب إنشاء المجلس. ومما يؤسف له فى تاريخ إيران قصة انقسام الحيدرية والنعمتية ولا علم لنا من أين بدأت هذه الفُرقة ؟ وكيف بدأت ؟ ومن حيدر ومن نعمت؟ ومبلغ علمنا أن مدن إيران ابتليت منذ طويل زمان بمثل هذه الفرقة؛ حيث كان الناس فى كل مدينة ينقسمون إلى فريقين : أحدهما يتبع حيدر والآخر يتبع نعمت وكان كل فريق يبدى عداءه ومنافسته للفريق الآخر على الدوام فى كل الأمور وكانوا يتعاركون لأتفه الأسباب ويتحاربون. وكان هذا منذ عهد الصفويين وخفت حدته شيئًا فشيئًا حتى زال فى معظم المدن وظل فى بعض منها حتى عهد الحكم النيابى، حيث كان يسمع عن ذلك كل عدة أعوام خاصة فى شهر محرم حيث يعقدون الاجتماعات ويمثلون العروض ويجد الأوباش الفرصة ليعربوا عن حقدهم وأنانيتهم.

وكانت قزوين من هذه المدن، ففى العام الأول من الحكم النيابى، وبالتحديد فى العاشر من شهر محرم، تقاتلت مجموعتان خارج البوابة وقتل شخصان من الجانبين وبلغ عدد الجرحى ثلاثة وأربعين.

ومدينة أخرى هى شوشتر حيث ظلت على تلك الحال حتى ذلك الوقت، وفى عام ١٨٨٤م-١٣٠٢هـ.ق حيث ذهبت للمرة الأولى إلى خوزستان رأيت ذلك بنفسى، فالمدينة منقسمة إلى قسمين وكانوا يطلقون على قسم منها : بيت النعمتية وعلى الآخر بيت الحيدرية، وكان سكان كل قسم يفصلون أنفسهم عن الآخرين.

وكذلك كانت مدينة أردبيل حيث بقيت على هذه الحال حتى بداية الحكم النيابى وكان نتيجة ذلك أن أفضى الأمر إلى العراك والقتال بسبب إقامة المجلس، وكيفية ذلك أنه فى بداية الحكم النيابى كان ساعد الملك - حاكم أردبيل - من المقربين إلى محمد على ميرزا وكان رجلاً ظلومًا وضج الناس بالشكوى منه، وأرسلوا البرقيات فى ذلك إلى دار الشورى ومجلس الولاية بتبريز وألح المجلس فى وجوب عزله، وبعد ذلك أبرق ميرزا على أكبر المجتهد الكبير وطلب أن يقام مجلس للولاية وجمع الناس فى المسجد وقرأ عليهم البرقية وأسس مجلسًا بمساعدتهم. ولكن لما كان ميرزا على أكبر آقا من أتباع النعمتية، فقد نافسه الحيدريون وأقاموا مجلسًا آخر برئاسة الحاج ميرزا إبراهيم آقا ولجهلهما ظهر العداء بينهما. وكانوا يجتمعون فى المسجد ويتناولون طعام الغذاء هناك أيضًا ويعلنون عن تنافسهم. وفى النهاية أفضى الأمر إلى أن استدعى الحيدريون فرسان فولادلو واستدعى النعمتيون فرسان قوجه بكلو - وكلاهما من "الشاهسون"- وبنوا الاستحكامات فيما بينهم وأخذوا يطلقون الرصاص على بعضهم البعض وقتل وجرح العديد من الجانبين.

هذه هى المعلومات التى كانت تصل إلى تبريز، وتباحثوا فى المجلس كى يستدعوا ميرزا على أكبر آقا والحاج ميرزا إبراهيم إلى تبريز ثم اقترحوا أن يرحل الاثنان عن تبريز ويتجها إلى أردبيل.

"المقال الرابع"

ما المنازعات التى قامت ضد محمد على ميرزا ؟

يدور الحديث فى هذا المقال عن الأحداث التى وقعت فى العام الأول للحكم النيابى، منذ وفاة مظفـر الـدين شاه حتى مجىء الأتابك إلى إيران.

وفاة مظفر الدين شاه :

فى الوقت الذى كانوا يمهدون الطريق فيه للنواب فى تبريز معربين عن سعادتهم وسرورهم كان مظفر الدين شاه يقضى أيامه الأخيرة فى طهران، وكأنما أدرك أهالى تبريز هذا وكانوا على علم بأن محمد على ميرزا سرعان ما يعتلى العرش ثم يسعى لاقتلاع جذور أساس الحرية ويتغير الحال حتى وصول النواب إلى طهران، وسوف تمس الحاجة إلى السعى والتضحية بالأرواح للحفاظ على الحكم النيابى. وما كان إلا أن تعاهدوا فيما بينهم على التضحية فى هذا السبيل .

وفى ليلة الأربعاء الثامن عشر من شهر دى (الرابع والعشرون من ذى القعدة) وبعد مُضى ست ساعات من الليل، ودع مظفر الدين شاه الحياة وغسلوه وكفنوه فى نفس الليلة، وفى الغد حملوه وختموا القرآن عليه ابتداء من يوم الخميس ولمدة ثلاثة أيام فى تكية الدولة ثم لبضعة أيام أخرى فى مسجد الجمعة ومسجد سپهسالار، وأعلن النواب الحداد عليه ولم يجتمعوا طوال ثلاث جلسات وارتدوا ثياب الحداد فى المجلس. ويتمثل فضل هذا الملك فى مساندته للحكم النيابى؛ إذ كان يوقف رجال البلاط وغيرهم عند حدهم

بقدر طاقته واستطاعته. وقد وقع نبأ موته على المطالبين بالحكم النيابى فى تلك الأثناء وقعًا شديدًا لأنهم حرموا من مساندته لهم.

واعتلى محمد على ميرزا العرش بعده لكنه طالب بأن يتوج يوم الثامن والعشرين من شهر دى (الرابع من ذى الحجة)، وقد عرف أهل الخبرة عداءه للحكم النيابى وكانوا يخشون ذلك لكنه خدع الكثيرين منهم بنفاقه، وتحمسوا له.

فى نفس هذه الأيام دار حديث فى المجلس يفاد منه أن السيدين خدعا أكثر من غيرهما بريائه وكانا يحسنان الظن به. وكيفية ذلك أن المغفور له طباطبايى تحدث عن مجلس تبريز قائلاً : إنهم يشتكون مر الشكوى من مجلس تبريز وإن يكن الوضع هكذا فسوف تكون المملكة فى هرج ومرج، ولا يوجد إلا مجلس واحد للشورى ولا أعرف لمَ يقولون إن وضع تبريز هذا من أسباب الاضطراب ؟.." .

فقال سعد الدولة : " ينبغى التحلى بالصبر حتى يحضر نواب تبريز ويقروا كتابة بأن ما قاموا به مخالف للصواب".

فرد قائلاً : " إن تنتظروا حتى يأتوا فسيقع الهرج والمرج ".

فتحدث كل من تقى زاده والحاج محمد إسماعيل ورد كل منهم على حدة قائلاً : "هنا ليس مجلسًا، إنما هو جمعية للولاية من أجل التحقيق فى مظالم الناس ".

فأجاب طباطبايى: " إن الأمر أكبر من ذلك: إنهم أجبروا الحاج ميرزا حسن آقا ومنحهم أمواله ". ثم تكلم بعض النواب مرة أخرى، فقال بهبهانى: " إن الشاه يشكو مر الشكوى من وضع مجلس تبريز الذى هو من أسباب المشاكل ". وبعد عدة أحاديث تدخل طباطبايى قائلاً: "إننى أعلم حق العلم أنهم أرسلوا رسالة إلى نظام الملك بأننا سندفع لك ثلاثمائة طومان شهريًا فاحضر إن شئت، ولكن لا شأن لك بأى عمل ".

فقال بهبهانى: " نعم، إن هؤلاء يتسرعون وينبغى التباحث فى هذا الشأن، وحمدًا لله أن الشاه اليوم رءوف شفوق ".

ويفهم من هذا الكلام أن محمد على ميرزا رأى السيدين واشتكى لهما من مجلس تبريز ومما لاشك فيه أن رغبته فى ذلك أن يتم القضاء على ذلك المجلس بأيديهما وبذلك يطمئن قلبه. ولما كان يخطط فى ذلك الحين للإطاحة بالحكم النيابى لذا كان يرغب بداية فى القضاء على مجلس تبريز، ولحسن الحظ أن تحدث تقى زاده وغيره وخففوا من موقف طباطبايى.

ولم يكن السيدان على علم بخطته فقد حصلا على الحكم النيابى من مظفر الدين شاه بسهولة دون إراقة دماء وتحققت النتائج بفضل أسلوبهما الخاص، حيث قالا كلامًا وثبتا عليه وكانا يريدان أن يسلكا هذا الطريق دومًا، لذا لم يجدا الحاجة ماسة إلى حشد المؤيدين أو استخدام القوة وما قدرا مساعى تبريز الصائبة. وسوف نرى أنهما لم يكفا عن صنيعهما السيئ هذا أبدًا، وكثيرًا ما وقعا فى المشاكل بسبب هذا الأسلوب وفى كل مرة كانت تبريز فى عونهما وتحررهما من المآزق. وإحدى هذه المشاكل التى وقعت بعد ثلاثة أسابيع كانت بسبب هذا الحديث، وسوف نرى أنهما لم يكفا عن ذلك إلا بضغط من تبريز.

والاستيلاء على ممتلكات الحاج ميرزا حسن وإرسال الرسالة إلى نظام الملك كلاهما كان كذبًا. وحكاية المجتهد هذه هى أنه فى أواخر شهر آذر استدعى نواب الجمعية ذات يوم إلى داره ولما ذهبوا التفت إليهم قائلاً: " أذاعوا بين الناس أن المجتهد يسىء الظن بالحكم النيابى ولو كانوا يطلبون هذا فى أول الأمر فالوضع الآن يختلف، فقد جعلونى سيئ السمعة حيث جعلونى حارس المخزن الشرير، واليوم وقد ارتفع ثمن الغلال والناس فى تعب من أجل الحصول على الخبز وهم يصدقون هذا الكذب بسهولة، ولكى ينخفض سعر الخبز، ومن أجل إراحة الناس، أستودعكم زمام جميع ضياعى حتى تجمعوا قمحى وتبيعوه بما تشاءون من ثمن، وأنا أقوم بهذا الأمر حتى يعلم الناس أننى من مؤيدى الحكم النيابى". ولم يقبل النواب طلبه هذا وألح هو عليه وكتب المكتوب التالى وذيله بخاتمه :

" أنا الداعى من أجل إصلاح الشعب وتخفيض سعر القمح قدمت جميع ضياعى وأملاكى لتكون تحت تصرف أعضاء الجمعية المبجلين، وجعلتهم وكلاء مطلقين

لا يعزلون ويكون لهم مطلق الحرية فى التصرف فى جميع غلات ضياعى، وأن يبيعوها وقتما شاءوا بالسعر الذى يرونه، وأن يكون لهم تحديد أجور العمال وجميع النفقات التى يقرونها، والأمر موكول إليهم فى هذا وسوف أقره وأنا مطمئن إليهم واثق بهم فى كل ما يقترحونه ويعرضونه".

« بتاريخ الرابع عشر من ذى القعدة الحرام ١٣٢٤ هـ.ق»

(يناير سنة ١٩٠٧م)

ويمكننا أن نستنتج من سلوكه هذا أن المجتهد كان يتعاطف مع الشعب من أعماق قلبه وكان يواسيه فى هذه الفترة، لكن أعماله وسلوكياته الأخرى التى سوف نراها من بعد تحول دون تصديق هذا الظن. وينبغى القول إن الباعث على هذا إنما هو الخشية، لأنه فى ظل عدم اكتراث نظام الملك وتمرد أصحاب الضياع وغيرهم قل ورود الغلال إلى المدينة وشح الخبز آنذاك، واشتد وقع ذلك على الناس، وسخطوا على أصحاب الضياع، وأطلقوا ألسنتهم فى مذمتهم، وتردد بين المطالبين بالحرية أن يستولوا على مخازن أصحاب الضياع ويقوموا ببيع ما بها من غلال. وما قام به المجتهد إنما كان لحفظ ماء وجهه.

وأيًا ما كان فالعمل كان حسنًا، واختير الحاج ميرزا محمود رئيس التجار – والذى كان أحد نواب الجمعية – حتى يحضر غلاله إلى المدينة ويبيعها، وقد أحضر ثمانين حملاً وباعها، وبعد ذلك تنحى .

أما عن نظام الملك فقدم آذربايجان واليًا عليها بعد مضى محمد على ميرزا إلى طهران، واستقبله الأحرار وأعربوا عن تأييدهم له. لكنه لم ينجز عملاً ولم يصدر عنه سوى كراهيته للحرية. وحكاية إرسال الرسالة إليه كانت أكذوبة، وهذه الأكاذيب هو الذى افتراها وكتب بها إلى محمد على ميرزا وقد اختلق ذلك لاستيائه من الجمعية، وهو الذى أخبر السيدين بذلك.

ولما وصل العدد الثامن والعشرون من جريدة المجلس إلى تبريز وكان يتضمن أحاديث طباطبايى وغيره، أدرك نواب تبريز حقيقة الأمر وقاموا بحل بدلاً من سخطهم

واستيائهم، حيث نشروا مقالتين طويلتين فى جريدة المجلس وكشفوا النقاب عن حقيقة الأمور. وأبرق المجتهد نفسه إلى دار الشورى وأوضح القصة كما وقعت، وفى ذلك الوقت اتضح سوء نية محمد على ميرزا تجاه الحكم النيابى وانفضح عمله، وهكذا ضعف ظن السيدين به.

تتويج محمد على ميرزا وعدم اكتراثه بالمجلس :

توج محمد على ميرزا يوم السبت الثامن والعشرين من شهر دى (الرابع من ذى الحجة)، واستدعى جميع الوزراء والأعيان والسفراء والعلماء والقناصل، وطبقًا للمراسم التقليدية وضع مشير الدولة الأعظم التاج على رأسه وفى نفس الوقت بدأوا بعزف الموسيقى وإطلاق المدافع وزينوا طهران والمدن جميعها ثلاثة أيام، وفى تبريز، أقاموا الزينات خمسة أيام.

ووردت بعض الجمل فى كتاب " آبى " ينبغى ذكرها فى هذا المقام : "لما كان التاج كبيرًا ثقيلاً ناء رأسه تحت ثقله فما كان منه إلا أن اضطر لحمله بكلتا يديه، وبعد عدة دقائق رفع التاج ووضع بدلاً منه القلنسوة الإيرانية الرسمية وهى شعار الملك ".

ولم يحضر نواب المجلس هذه الجلسة وقد استدعى صنيع الدولة وسعد الدولة لتمثيل الأعيان، بينما لم يستدع أى شخص لتمثيل نواب المجلس، ومن ثم تكشف موقف محمد على ميرزا تجاه الحكم النيابى والمجلس.

ومن أقسم فى رسالته إلى المغفور له بهبهانى واعتبر نفسه ضمن المطالبين بالحرية تراجع الآن دفعة واحدة وأبدى عدم مبالاته، وذاع ذلك فى المجلس فى نفس اليوم وأبدى بعض النواب شكواهم وذكرت بعض الجمل ذات المعنى.

قال ميرزا طاهر : " السلطان هو سلطان الشعب، ويجب أن يتوج من قبل الشعب، والمجلس هو ممثل الشعب ". وقال ميرزا محمد بائع الكتب : " الآن بما أن هذا هو أول مجلس ينعقد إذا ما استطاع فليطالب بحقه وإلا فلن يستطيع بعد ذلك أن ينجز شيئًا".

ولم يكن فى الإمكان تحقيق أى نفع من هذه الشكوى ومن هذا الكلام المفيد، فقد أنجز محمد على ميرزا عمله وتخلص من خوفه الذى كان مستوليًا عليه لعدم القدرة على وصوله للتاج والعرش، وكان تفكيره آنذاك هو الإطاحة بالمجلس والحكم النيابى.

وقد تربى هذا الرجل على الأنانية ولم يعلم من الملك سوى المباهاة وإصدار الأوامر، والآن قد وصل إليه الملك وهو فى شرخ الشباب اشتد عليه أن يعترضه البعض من أفراد الشعب ويحدثونه عن أمور الدولة والمجتمع وما كان يرد على خاطره معنى الحكم النيابى وجدوى التعاون مع الشعب وغير هذا من الأشياء القيمة.

لذا كان ميله إلى جار الشمال كما أن وجود معلم مثل شابشال ومعاونيه من أمثال مفاخر الملك، ومفاخر الدولة، والأمير بهادر، وساعد الملك، والسيد محمد اليزدى، والحاج ميرزا أسد الله [1] وغيرهم حوله - قد زاد الأمر تعقيدًا ولم يسمح بالتفاهم فيما يخص الحكم النيابى والمجلس.

وكما قيل، كان كامران ميرزا والد زوجته من أعداء الحكم النيابى وهو الذى شجعه على

الإطاحة بالمجلس، وقد اشتد وقع سلوك المجلس الأخير ورفضه اتفاقية الاستدانة على جميع رجال البلاط وزاد من سخطهم وعدائهم.

وكان محمد على ميرزا مصممًا على الإطاحة بالمجلس ومع كل ذلك كان يريد أن يعبر عن عدم مبالاته به وألا يجيبه إلى مطلب، وألا يجيز أى قانون وضع أو دستور منح، وجعله جهازًا معطلاً، لذا كان الولاة فى كل مدينة يعلنون عداءهم للحكم النيابى ولا يسمحون لجموع الشعب بالثورة أو الانتفاضة وامتنعوا عن اختيار نائب لعضوية المجلس (هكذا فعل آصف الدولة فى خراسان آنذاك). أما فى تنكابن فإن الأمير أسعد بن

---

[1] أحد رجال الدين المخادعين فى مدينة تبريز وقد تقرب إلى محمد على ميرزا وحاشيته بطبعه كتاب الدعاء وما أشبه، ولما كان من أعداء الحكم النيابى طردوه من تبريز وكان عندئذ فى طهران، كذلك طردوا محمد السيد اليزدى من تبريز إلى طهران. (المؤلف).

سپهدار [1] قد اعتقل الشيخ محمد– أحد العلماء – بتهمة أنه كان يريد تأسيس جمعية لاختيار النواب. وضربوه بالعصى على قدميه، كما حلق ذقن أحد رجال الدين. وبحجة أننا مسلمون وأن الحكم النيابى لا يتفق والإسلام، اتخذوا الشرعية شعارًا وأغروا بعض رجال الدين بهذا الأمر مما أثار النزاع، وانتهى الأمر إلى تحديد مهمة المجلس فى سن القوانين فقط ولا شأن له بالاستدانة، وكانوا يريدون الاكتفاء بذلك الدستور الناقص الذى منح، وجعلوا ذلك وسيلة شرعية لنقض ما يصدره من قرارات.

وعن آصف الدولة ومنعه إقامة الجمعية أجاب وزير الداخلية قائلاً : "إن الناس يكثرون من الكلام ولا بد لهم من سند يطلعون من خلاله على حقيقة الأمر، فربما كانوا يريدون تشكيل مجلس يهتم بالهرج والمرج، لذا أقدم الحاكم على منعهم" ! وكان هذا الرد أفدح مما قام به آصف الدولة وكان يوضح جيدًا مدى عدم مبالاة الدولة بالمجلس، كما كتب إلى الصدر الأعظم مجيبًا عن سؤال خاص بابن سپهدار طباطبايى إلى الصدر الأعظم : " لم يكن الشيخ محمد على صواب فيما صنعه وقد وبخه الأمير أسعد".

وفى التاسع والعشرين من شهر دى، أى بعد التتويج بيوم واحد، شاع فى المجلس حديث فى هذا الخصوص ورفع النواب أصواتهم بالشكوى، وبعد ذلك بيومين، وفى جلسة أخرى، ترددت الشكوى ثانية، وفى تلك المرة تحدث البعض بعبارات شديدة اللهجة.

فقال الحاج سيد نصر الله : " إن المحيطين بالشاه هم أشخاص لا يرتضون وجود المجلس ولا رغبة لهم فى أن يكون هناك قانون " .

وقال الأستاذ حسن المعمار : " إن هؤلاء كانوا فى صدام وعراك لعدة أعوام ولن يقبلوا أبدًا أن يعارضهم أحد " .

وقال طباطبايى : " إذا كان هؤلاء يبغون ذلك المجلس فعلينا أن نقول: إن السلطنة مقترنة بالمجلس وهذا الملك هو ملك المجلس" .

---

[1] هو نفسه نصر السلطنة. (المؤلف).

ودار كلام على هذا النحو وامتنعوا عن ذكر ما خفى وكانوا يلقون بالذنب دومًا على عاتق الوزراء ورجال البلاط، وكانوا يوضحون أن الشاه نفسه كان متفقًا مع الشعب والمجلس، أما هؤلاء فهم الذين يبيتون الشر. والنتيجة التى كانوا يحصلونها من هذه الأحاديث هى الكتابة إلى الشاه وإطلاعه عليها مبينين سوء نيات الوزراء ويطلبون منه الحل، وكان الشاه يتصرف معهم برياء لكنهم كانوا يراعون جانبه ويراؤونه إما من منطلق الخوف أو من منطلق التدبر فى عواقب الأمور.

جهود المجلس للإطاحة بكل من نوس وبريم :

لكن المجلس أقدم فى تلك الأثناء على القيام بعمل آخر كانت نتيجته رفع الحجب حتى يصبح الأمر أكثر وضوحًا. وكما أسلفنا، حينما ذكرت قصة إنشاء المصرف الوطنى واستدانة الدولة أجاب أهالى تبريز قائلين : "يجب أن نتحدث بداية عن ميزانية الدولة وأن نوجد التوازن بين الدخل والخرج". وكانت هذه الملاحظة فى موضعها، لأنه بعد التأكد من ذلك عرفوا أن دخل الدولة فى العام يبلغ سبعة ملايين ونصف من الطومانات، أما نفقاتها فتزيد عن العشرة ملايين ونصف وبذلك يبلغ عجز الميزانية فى العام حوالى ثلاثة ملايين طومان وكان ينبغى تعويض ذلك عن طريق القروض. والآن إذا ما أسس البنك الوطنى ومنحت الدولة قرضًا قدره مليون طومان ستخلو خزانة الدولة بعد عدة أعوام ويستدينون ثانية. كما أن رجال البلاط فى تلك الآونة كانوا يفكرون فى هذا وكانوا مستائين من عدم قبول اتفاقية القرض، ورغبة فى الانتقام، أرادوا الضغط أكثر وأكثر على التجار وغيرهم فى تأسيس البنك الوطنى، وبذلك استحوذوا على رءوس أموالهم وأبطلوا كل مساعيهم. وقد تنبأ أهالى تبريز بهذا ونبهوا إليه. فأدرك أعضاء المجلس ذلك وجعلوا النظر فى أمر الميزانية أهم من أى أمر آخر وقاموا به.

ولكن كانت هناك مشكلتان فى ذلك الوقت، إحداهما : ضرورة استجواب الوزراء فيما يختص بدخل الدولة وخرجها فى الوقت الذى لم يكن الوزراء يحضرون إلى المجلس ولم يستطيعوا الإجابة على أسئلته حيث لم يرد شىء عن هذا فى الدستور. ومنذ فترة

استدعى سعد الدولة كلاً من وزير المالية ووزير الخارجية إلى المجلس ليستجوبهما، وكان يُذكِّر صنيع الدولة فى كل وقت بهذا الأمر فيكتب إلى البلاط دون جدوى. والمشكلة الأخرى : أن زمام الدخل كان فى يد مسيو نوس وغيره من البلجيك ولم يقدروا المجلس حق قدره ولم يكونوا مبالين به.

وكما أسلفنا كان نوس يجمع كثيرًا من الأمور فى يده ومنها إدارة الجمارك والبريد والبرق وصندوق المالية، والحقيقة أن أولئك البلجيك كانوا يعملون لحساب الغير، وقد تم عن طريقهم إنجاز الكثير، لذا أودعت العديد من مصادر الدخل تحت إمرتهم، ومن الواضح أنهم كانوا يسعون لتدمير أمور إيران وتجفيف ينابيع دخل الدولة حتى يزيدوا من احتياج الدولة للاستدانة من الأجانب ومن ثم يبدو ضعف البلاط القاجارى وعجزه فاستدعى بعض الأجانب وأسلم إليهم زمام الأمور المهمة فى الدولة. وعلى الرغم من أنهم كانوا يرون بأم أعينهم عداءهم وسوء نياتهم فإنهم لم يكترثوا بذلك ولم يفطنوا إليه.

وكما أسلفنا كان الاستياء من سوء مسلك البلجيكيين وخبث نياتهم أحد بواعث حركة طهران، وكان المجاهدون قاطبة يضمرون الحقد لهم، كذلك كان سعد الدولة، فمنذ تبوأ منصب وزير التجارة وهو يضيق بهم ذرعًا.

وكان المجلس على أهبة الاستعداد للنيل من نوس ورفاقه، والعمل على تقصير أيديهم بعيدًا عن أى عمل، وقد تولد عن هذا الحديث عن الميزانية، بيد أن البلجيكيين لم يكونوا فى غفلة من ذلك ولم يقفوا منه موقفًا سلبيًا. كما أن محمد على ميرزا – نتيجة ميله للجار الشمالى– لم يكف عن مساعدتهم كما لم يسمح لأحد بالتطاول عليهم.

وقدم ناصر الملك وزير المالية بعد استدعاء سعد الدولة له غير مرة إلى المجلس وسأله ميرزا أبو الحسن خان نائب فارس : "كم يبلغ مقدار العائد من إيرادات الجمرك ؟" فرد ناصر الملك قائلاً : " للجمرك وزير خاص يجب أن يسأل عن هذا الأمر وما نستطيع أن نتحدث عنه هو ما أوقفونا عليه ". فقال ميرزا أبو الحسن خان : " لِمَ يكون للجمرك وزير خاص ولا يكون تحت إدارة وزير المالية! فالشعب لا يطمئن قط لهذا الأمر". فلم

يرد ناصر الملك على مطلبه، وقال : " إننى مستعد للرد على الأمر الذى يخصنى". وكلما سأله سعد الدولة وغيره فى هذا الأمر تنصل من تبعته ولم يرد. حقيقة أن نوس كان مستقلاً فى عمله ولم يكترث بوزير المالية ولم يعره أى اهتمام، ولم يكن لناصر الملك فى وزارة المالية سوى الاسم فقط.

وزاد هذا الحديث فى المجلس الاستياء من البلجيكيين، كما أوضح قبح ما فعلوه سابقًا فى عهد عين الدولة، ولهذا كانوا يسألون مرارًا : "لمَ يسندون منصب الوزارة إلى رجل أجنبى؟" وكان ناصر الملك يرد قائلاً : "سجلوا ذلك واسألوا عنه الصدر الأعظم ". وهذا نفسه ما ينبغى أن يجتهدوا فيه حتى يطيحوا بأولئك الأشرار. وبعد المشاورات كتبوا رسالة من قبل المجلس إلى الصدر الأعظم لكى يعرف المجلس بالوزراء ويوضح مجال عمل كل منهم ومدى توفيقه فى ذلك، وكانوا يريدون من ذلك أمرين، أحدهما أن يعزلوا نوس من الوزارة، لأنه لن يستطيع تقديمه إلى المجلس. والأمر الآخر أن يقر باستجواب وزرائه أمام المجلس، وأن يحضروا كلما طلب إليهم المجلس المجىء.

ونتيجة لهذه الرسالة حضر إلى المجلس ثمانية من الوزراء (سوف تأتى أسماؤهم) وكان ذلك يوم الخميس العاشر من شهر بهمن (السادس عشر من ذى الحجة)، وقد وعد الصدر الأعظم بالحضور فى جلسة أخرى .

وتم استجواب الوزراء دون أن تتحقق النتيجة المرجوة، لأن الوزراء لم يقروا باستجواب المجلس لهم، وكانت حجتهم عدم وجود قانون ينص على ذلك. وعندما سألوا : "هل من وزير آخر عدا هؤلاء الثمانية؟.." أجاب وزير الداخلية قائلاً : "ينبغى أن يسأل الصدر الأعظم عن هذا الأمر". وسئل ناصر الملك بخصوص الجمرك " هل يتحمل مسئولية تلك الإدارة اليوم أم يتنصل من مسئوليتها كما كان الوضع سابقًا ؟ فرد قائلاً : "لا فرق بين اليوم والأمس فى هذا الأمر ". وانتهى المجلس على هذا النحو دون الوصول إلى نتيجة.

تقديم الوزراء إلى المجلس :

فى اليوم الثالث عشر من شهر بهمن (التاسع عشر من ذى الحجة) حينما عقد المجلس، قدم إلى هناك الحاج محتشم السلطنة من قبل الصدر الأعظم وأحضر معه لائحة مجلس الشيوخ واتفاقية امتياز المصرف الوطنى، وأوصل رسالة من الصدر الأعظم يعرف فيها بالوزراء ويوضح فيها عمل كل منهم على النحو التالى :

مشير السلطنة وزير العدل، ناصر الملك وزير المالية، علاء السلطنة وزير الخارجية، وزير أفخم وزير الداخلية، علاء الملك وزير العلوم، فخر الملك وزير التجارة، دبير الدولة وزير الجيش، مهندس الممالك وزير المعادن والطرق والشوارع.

وكما كتب : " هؤلاء هم المسئولون أمام الملك وإذا لزم الأمر فسوف يحضرون إلى المجلس بأنفسهم أو من ينوب عنهم ".

وتباحث النواب فى مضمون هذه الرسالة، وتناول الحديث عدة نقاط، فأولاً : أوردوا ذكر وزير الجيش، فمنذ أمد طويل كان كامران ميرزا وزيرًا للجيش وما زال حتى الآن وزيرًا للحربية لكنهم لم يقدموه إلى المجلس وعرفوا المجلس بغيره على أنه وزير الجيش. وثانيًا : ذكروا مسألة استجواب الوزراء أمام الشاه ومعنى ذلك هو عدم وجوب هذا الاستجواب أمام المجلس. فرد محتشم السلطنة قائلاً : " إنكم لم تسنوا قانونًا للوزراء حتى يكون الاستجواب فى المجلس مطابقًا له ". وكانت هذه حجته .

ثالثًا تساءلوا : " أثمَّة وزير غير هؤلاء ؟ " فأجاب : "هؤلاء هم الوزراء الذين يُستجوبون". فسأل مير هاشم الدونتشى : " هل هناك وزراء آخرون بعد ذلك ؟" فأجاب قائلاً : "الوزراء طائفتان، وزراء باللقب ووزراء بالعمل ". ودار حديث طويل وكلما سأله النواب أجاب محتشم السلطنة إجابة بلهاء.

وحقيقة الأمر أن محمد على ميرزا كان يحتقر المجلس، وكان يريد أن يحتفظ بمنصب وزارة الحربية لحميه دون أن يستطيع أحد أن يسأله عن هذا، كما يبقى مسيو نوس ومواطنيه فى مناصبهم التى كانت لهم دون أن يتمكن المجلس أو وزير المالية أن

يحاسبهم أو يسألهم. وبعد هذا كله طرح سلطة المجلس جانبًا ولم يضع الوزراء تحت سيطرته بينما يضع المجلس تحت قبضته هو. ومعنى ذلك هو القضاء على المجلس والإطاحة بالحكم النيابى، فكانت هناك الرغبة فى وجود المجلس لكن لسن القوانين ليس إلا، دون حول ولا قوة له. وكان محمد على ميرزا يستأنف بهذا ما كان قد طرحه أبوه. فكان المجلس يريد أن يكون الوزراء تحت سيطرته وأن يخلع نوس عن منصبه، فاحتال محمد على ميرزا ليجرده من سلطاته!!

والأعجب من هذا، لم يكن يدرك أعضاء المجلس معنى الحدث ومدى ضرره، وما كان منهم إلا أن اكتفوا بأحاديثهم المعبرة عن أهوائهم.

وبين هذه الأحاديث ما كان من سعد الدولة من حدة، فعندما قرأ محتشم السلطنة رسالة الصدر الأعظم ودار سؤال خاص بوزير الجيش وأجاب، وبدأ فى قراءة رسالة أخرى من الصدر الأعظم حول امتياز البنك الوطنى وكان يريد أن يوهم الحضور أن رسالة الصدر الأعظم شيء تافه ولا مجال للحديث عنها، وما ينبغى هو الحديث عن البنك الوطنى، احتد سعد الدولة، وقال : " لقد قدمتم اتفاقية الامتياز هذه وهذا السند وأوقعتم البلبلة لدينا، وتأتون فى الغد وتقولون اقترضنا مليون طومان ويجب أن يؤدى هذا الدين ".

وكان بعض النواب كصنيع الدولة وأقاربه مخبر الملك وحسين على خان يظهرون الميل للدولة، وكانوا يسعون لقبول تلك الرسالة كما كانت. فكان حسن على خان يقول : "حينما لا يقدمون نوس إليكم فهذا كاف، فأى شأن لكم إن كان هناك وزير آخر أم لا ؟ " كما قال مخبر الملك نفس الكلام، وأبدى تقى زاده وسعد الدولة وغيرهما الاعتراض لكن دون جدوى، وكان محتشم السلطنة يرد على الجميع قائلاً : " إنهم اكتفوا بهذا فيما يختص بنوس فليس له اسم الوزير". واقترح تقى زاده أنه فى رسالة الصدر الأعظم التى يقول فيها : " هؤلاء هم الوزراء " أن تضاف كلمة : "لا غير" ورفض محتشم السلطنة ذلك الاقتراح وكانت حجته " إن هذا الأمر الذى تقترحه سوف يحتاج إلى الإيضاح ".

وانتهت الجلسة عند هذا الحديث، وفى جلسة أخرى طالب أديب التجار - نائب أصفهان- أن يعاد الحديث ثانية فى هذا الخصوص، ولم يسر صنيع الدولة لذلك، وطلب أن تكون المناقشة فى لائحة مجلس الشيوخ. لكن النواب لم يلتزموا الصمت ودار الحديث طوعًا أو كرهًا وعم الاستياء. وغادر صنيع الدولة المجلس ومضى إلى حجرة أخرى كما خرج النواب، وبعد مدة عادوا، وقال صنيع الدولة : " إذا ما أردتم أن تكون للمجلس فائدة للشعب فينبغى الإقدام على العمل، ولا جدوى من المنازعات والمهاترات، هذه هى لائحة مجلس الشيوخ فلنبدأ أولاً ببحثها وتصويبها وبعد ذلك ينبغى أن يكون العمل على هذا النحو ". قال هذا وطرح لائحة مجلس الشيوخ للمناقشة وكف عن ذلك الحديث بغتة، كما سلم النواب بذلك .

على هذا النحو نفذ محمد على ميرزا خطته بلباقة، وعد رجال بلاطه هذا نصرًا، وما حدث أن الحركة المباغتة لتبريز أفسدت الأمر وغيرت من خطته. ولا نعلم حق العلم كيف نما ذلك إلى علم أهالى تبريز وكيف أدركوا دخيلة محمد على ميرزا والشيء الذى لم يعلموه فى طهران عن قرب كانوا يعلمونه فى تبريز عن بعد. وفى تلك الفترة لم يكن فى طهران من نواب آذربايجان سوى اثنين هما تقى زاده ومير هاشم، أما مير هاشم فسوء الظن به قائم، ولهذا يمكننا القول إن تقى زاده هو الذى أبلغ تبريز بهذه المعلومات، ولكن لمَ لم يقل ذلك فى المجلس ؟ ولمَ لم يوضح أن سلوك محمد على ميرزا هذا كان للإطاحة بالحكم النيابى حتى يعلم الناس ويثوروا ؟ وهذا ما لا نعرفه على الحقيقة.

ثورة شهر بهمن :

عم الهدوء تبريز بعد رحيل النواب، وحينما جاء نعى مظفر الدين شاه أظهروا الحزن وأبرقوا إلى دار الشورى، وفيما بعد، لما وصلت الأنباء تفيد بتتويج ابنه، أقاموا الزينات خمسة أيام دون أن يكون لديهم خبر بتلك الأحداث، ولكن حينما وصلتهم نسخة الدستور أدركوا أنه مبتور وتناولوه بالنقد، كما عمت القلاقل آذربايجان، وبخاصة حول بحيرة أرومية، ولم يكترث نظام الملك بذلك، وكان ذلك سببًا لسخطهم، كما كانت تصل

الأنباء من طهران تفيد بأن السيد محمد اليزدى وغيره من أعداء حركة الحرية، الذين طردوا من تبريز قد التفوا حول الشاه فى طهران، كما أن ساعد الملك – الذى عزل من منصبه نتيجة لشكوى أهالى أردبيل وما تبع ذلك من ضغط المجلس – قد عينه وزيرًا للمخزن فى طهران. وكان هذا كله سببًا للاستياء، لكنهم كانوا يلتزمون الصمت.

وفى يوم الثلاثاء الخامس عشر من شهر بهمن (الحادى والعشرون من ذى الحجة) وصلت تقارير من طهران تفيد بوقوع أحداث مؤلمة بسبب السلوك الشائن لابن سپهدار مع الشيخ محمد وغيره، وعدم اهتمام الشاه بأعضاء المجلس، وعدم دعوتهم لحضور حفل التتويج وإصراره على مراعاة جانب البلجيكيين وعدم استجواب الوزراء أمام المجلس وما شابه ذلك. وأثار هذا كله حماسة زعماء الحركة وعلموا حق العلم نية محمد على ميرزا من هذا السلوك وأدركوا ما خفى، فخرجوا عن صمتهم إزاء ذلك وأقدموا على العمل. وفى يوم الأربعاء الخامس عشر من شهر بهمن (الثانى والعشرون من ذى الحجة) دخلت طائفة من المجاهدين المجلس وتناقشوا مع النواب الذين كانوا هناك واحتدوا لعدم علمهم بمثل هذه الأحداث وعدم اكتراثهم، ورويدًا رويدًا وصلت الأنباء إلى النواب الحرفيين واجتمع الجميع فى الجمعية، كما سمع الناس عن حقيقة ما حدث وغلقوا الأسواق وحضروا هناك. وقرأ ميرزا جواد ناطق الرسائل وتحدث فى ذلك، فضج الناس وارتفع صياحهم ومنهم من كان ينتحب ويبكى ومنهم من أطلق لسانه باللعن والذم، وكان يُسمع اللغط والهمهمة من كل جانب كأن الناس قد فقدوا شيئًا عظيمًا وعيل صبرهم.

كما أحضروا العلماء ورجال الدين الواحد تلو الآخر، وحينما اجتمع الجميع حاول الوعاظ تهدئة الناس، وبعد التشاور فيما بينهم اقترحوا أن يجتمعوا فى الغد بمكتب البرق وأن يتباحث بعضهم فى كتابة برقية. وأرسلت برقية من قبل مجلس (تبريز) إلى بعض نواب المجلس، كما أبرق العلماء إلى السيدين، ونورد برقيتهم فيما يلى :

" إلى حضرات السادة حجج الإسلام دامت بركاتهم، وصلت اليوم بعض الرسائل من طهران إلى طائفة من أهالى تبريز فحواها أن الأعضاء المحترمين لدار الشورى الوطنى فى طهران متضايقون من عدم تقدم أمور الحكم النيابى، ولا يرون الشاه مستجيبًا،

وبذلك استاء أهالى تبريز وغلقوا الأسواق. وعندما عرفوا أن للدولة حكمًا نيابيًا وتمكنوا من ذلك أصبحت هذه الأخبار السيئة من أسباب استياء الناس جميعًا. وقد أطلع أعضاء الجمعية بتبريز أعضاء دار الشورى على أنه فى الغد (يوم الخميس) وبعد مضى أربع ساعات سيحضرون إلى مكتب البرق وتكون المخابرة حضوريًا، ونحن نتمنى أن يتشرف كذلك بالحضور حضرات حجج الإسلام فى الساعة المذكورة؛ حيث يحضر الداعون كذلك ونتشاور فى الأمر معًا ".

(جميع حجج إسلام تبريز)

وفى الغد (يوم الخميس) اجتمع العلماء ونواب الجمعية ورؤساء الحركة فى مكتب البرق، كذلك لم يفتح الناس الأسواق واحتشدوا فى فناء المكتب وما حوله ليطلعوا على جلية الأمر. وأثناء ذلك لم يكفوا عن الضجيج والصياح، وأحضر بعض المجاهدين مجموعة من الأطفال لقنوهم بعض العبارات المثيرة لينشدوها بالتركية.

وكان هذا كله لإثارة الناس والضغط عليهم، وكان المتحدثون يخطبون واحدًا تلو الآخر من أمثال المغفور له الشيخ سليم وميرزا حسين وميرزا جواد، وكانوا يحثون الناس على التزام الهدوء مع دوام إصرارهم وضغطهم، ولم تحدث مثل هذه الثورة والحركة فى تبريز بعد حادث الاعتصام هذا.

وبدأ التفاوض مع طهران، ومما يثير العجب أنهم كانوا جميعًا يبدون فتورًا وعدم مبالاة وكانوا يعتبرون تخوف تبريز وثورتها بلا داع ولا مجال له. ولما كانت مسودات بعض البرقيات لدينا فإننا نذكرها فى هذا الموضع :

(طهران)

" إلى حضرات السادة دام إجلالهم، جاءتنا برقية الجمعية المقدسة وحضرت على الفور إلى مكتب البرق وأبرقت، وطلبت أن يتشرف بالحضور جناب سعد الدولة المستطاب الأجل والسيد مرتضوى وجناب الحاج أمين الضرب، وقد حضر جناب السيد

حسن وحتى الآن لم يصل السادة، فما الغرض؟ ومثل هذا الفساد فى نظرى هو المانع لتقديم الهدف الأصلى وعائق لأمور الإصلاح المنشود".

(محمد إسماعيل، تقى زاده)

(**تبريز**)

" إن أولادك يتشكرون كثيرًا لما قمتم به من جهود ونحن نرجو فى العاجل أن تأمروا بقدوم جماعة من سادة دار الشورى، وقد قال السادة حجج الإسلام فى طهران إنهم سيحضرون إلى مكتب البرق، فلتتفضلوا بإطلاع السادة حجج الإسلام بذلك، والعلماء فى انتظار حضور السادة، والسبب الأساسى للفساد هو تراخى مجلس الشورى وعدم نجاح الأهداف التى قصدها النواب وبعض الأمور التى عرضت فى حضور الجميع".

(المجلس الوطنى)

(**طهران**)

" لقد حضر حضرة المستطاب حجة الإسلام والمسلمين السيد آقا محمد المجتهد دامت بركاته، كما حضر جناب الحاج السيد مرتضى آقا وسوف يأتى أعضاء آذربايجان المحترمون غدًا إلى الجمعية بعد الغروب بأربع ساعات، وقد أخبرت بعض أعضاء مجلس الشورى الموقرين بالحضور، فلتعرضوا ما يلزم عرضه من أمور ".

(محمد إسماعيل)

(**تبريز**)

" نرجو من السادة الذين حضروا إلى مكتب البرق أن يخبرونا بأسماء السادة الذين تفضلوا بالحضور حتى نعرفهم ".

(علماء وتجار المجلس الوطنى)

(**طهران**)

" السادة الذين تفضلوا بالحضور، هم: حضرات المستطابين حجج الإسلام آقا السيد عبد الله، وعبيد السيد آقاسى محمد المجتهد دامت بركاتهما، وجناب المستطاب الأجل سعد الدولة، وجناب الحاج السيد مرتضى، والحاج أمين الضرب، وجناب الحاج معين التجار، وجناب تقى زاده، وجناب مشار الملك نواب المعظم وأسد الله ميرزا ".

(محمد إسماعيل)

(**تبريز**)

" إن ما عرض هو ما قاله الشعب بالتمام، حيث غلقوا الأسواق بالأمس واجتمعوا بالجمعية المقدسة ويتكلمون بصراحة ويريدون الجواب واضحًا. أولاً : ما المانع فى عدم تقدم أمور وأوضاع مجلس الشورى وما السبب ؟ ثانيًا : فى حالة ما كان لدار الشورى الحق فى أن تعلم جميع الأمور وتتدخل فيها، فما السبب فى أن يكونوا على غير علم فى معظم الأمور كالتتويج وتعيين ولى العهد وعزل وتنصيب الحكام وإسناد أعمال مهمة إلى من لا جدارة لهم بمزاولتها، وليسوا مسئولين عن وزرائهم وعدم تنفيذ بعض بنود لائحة الدستور والتقصير فى بعض الأعمال وغير ذلك مما كان سببًا من أسباب يأس الشعب وثورته " .

(المجتهد وجناب الحاج ميرزا محسن آقا ثقة الإسلام

وشيخ الإسلام والعلماء والتجار وعامة الشعب)

(**طهران**)

" حضرات العلماء الأعلام وسائر السادة والتجار الحضور فى مكتب البرق يعرضون ما يلى: لقد استدعينا قليلاً من العلماء بصحبة السادة الحاج السيد مرتضى آقا

والحاج محمد إسماعيل آقا زاده زيد عزهما إلى مكتب البرق، وهناك مشقة فى استدعائكم مع العلم بأن ما كتبوه عنهم فى طهران هو كذب صراح والشاه خلد الله ملكه ودولته تباحث فيما يختص بالمجلس الوطنى وبذل عونه له وأقر رأيه، وما خطه ملك الملوك المبرور ألبسه الله حلل النور فيما يختص بالمجلس وسبل راحة العامة وذيله بتوقيعه، وهو يبذل غاية جهده فى عدل وإنصاف لتنظيم أمور المملكة والملك، وكل ما تتخيلونه لا وجه له والأفضل من هذا أن تمضوا لأعمالكم وتجارتكم ولا تقبلوا إفساد الولاية، ولتطمئنوا بأنه فى القريب العاجل سوف تتجلى آثار الرحمة والعناية الملكية وسوف ينعم عامة الشعب بالطمأنينة، ومجلس الشورى فى طهران ينعقد كل يوم بانتظام كى يباشر كافة المنتخبين النقد وتعديل الأمور العامة ".

(محمد بن صادق الحسينى الطباطبايى)

(**طهران**)

" أحيط العلماء الأعلام والسادة التجار المحترمين المنتظرين بمكتب البرق المبارك بأنه أخذًا بما جاء فى برقيتكم فإن قليلاً من العلماء بصحبة السادة الحاج أمين الضرب والحاج معين التجار وغيرهما قد حضروا إلى مكتب البرق، وما ذكره حضرة المستطاب حجة الإسلام آقا السيد محمد المجتهد الطباطبايى سلمه الله تعالى وما سمعتموه هو كذب صراح، وعبيد صاحب الجلالة يبذلون الجهد فى إنجاح كل أمور الشعب، كما أنه يبذل أقصى ما فى وسعه لإنجاح أمر المجلس الوطنى وقد تفضل بالتوقيع على اتفاقية البنك الوطنى منذ يومين، وإنما تم ذلك بناء على رغبة عامة التجار والأهالى فلا موضع لمثل هذه الأوهام، بل ينبغى أن يكون الناس جميعًا من الشاكرين. واليوم يساعد فى تعيين موظفى البنك الوطنى، ويحسن بعد ذلك أن تمضوا لشئونكم وتنتظروا ظهور آثار الرعاية التى يبذلها صاحب الجلالة لتنظيم أمور العامة ".

(الداعى عبد الله الموسوى البهبهانى)

مطالب أهالى تبريز السبعة :

يتضح من هذه البرقيات - كما أسلفنا - أنهم فى طهران لم يكونوا يدركون نية محمد على ميرزا ولم يعرفوا معنى مسلكه هذا مع المجلس. والأعجب من ذلك أن السيدين كانا يحسنان الظن به، وكان أهالى تبريز يقترحون سبعة مطالب تطلب بعون المجلس من الشاه، وفيما يلى ما كتبوه :

١- ينبغى على صاحب الجلالة أن يصدر أمرًا مكتوبًا لتهدئة العامة ويقر فيه بأن إيران ذات حكم نيابى كامل.

٢- لا يتجاوز عدد الوزراء المسئولين فعلاً ثمانية، وإذا مست الحاجة بعد ذلك لتشكيل وزارة سوف تشكل بعد توقيع المجلس.

٣- لا ينبغى تعيين وزير أجنبى من الآن فصاعدًا.

٤- تشكل فى كل الولايات والإيالات مجالس محلية بناء على علم مجلس الشورى الوطنى.

٥- لا ينبغى وجود وزراء فخريين ألبتة، أى لا ينبغى أن يحمل اسم الوزير سوى الثمانية وزراء المسئولين من قبل الدولة .

٦- ينبغى عزل مسيو نوس وبريم واعتقال لاروس رئيس جمرك تبريز فى التو.

٧- عزل ساعد الملك.

وتقبل الدولة الخمسة مطالب الأولى وتضمنها الدستور من أجل تدعيم الحكم النيابى وينبغى أن يعدوها صحيحة.

وكان كل مطلب من هذه المطالب يتضمن رغبة ما، الأولى هى الحيلولة دون التفكير فيما كان يكنه محمد على ميرزا للمجلس، حيث كان يرغب أن تكون مهمته سن القوانين ليس إلا، وألا يقدم الحكم النيابى للإيرانيين بمعناه الصحيح المتعارف عليه فى دول أوربا. والثانية هى من أجل تدعيم أمر الحكم النيابى والمجلس. والثالثة من أجل كف يد الأجانب وإبعادهم. والرابعة من أجل الحيلولة دون استبداد الحكام.

وهكذا كانوا يريدون أن يكون زمام الأمور فى جميع المدن فى أيدى الشعب حتى لا يتمكن الحكام من إفسادها بأمر من محمد على ميرزا. وقد نفذ أهالى تبريز هذا كما أقاموا مجلسًا وأرادوا أن يكون فى كل مدينة مجلس كذلك.

أما المطلبان السادس والسابع فقد جعلا من عزل نوس ومعاونه بريم أملاً من آمال الأحرار وكانوا يعدون بقاءهما فى منصبيهما عارًا وشنارًا بعد كل ما كان من سوء نيتهما، وكان اعتقال لاروس من أجل ما قام به سرقات وكان يخطط للفرار من إيران. أما ساعد الملك فكان كما عرفنا من قبل مبعدًا عن الجمعية، وبالتالى صعب على أهالى تبريز أن يظل فى منصبه.

وانتهى يوم الخميس بهذه البرقيات، واليوم جاءت من قزوين برقية إلى النواب السبعة بأن يسيروا من هناك إلى طهران، وفى طريق جيلان اعترضهم هطول الثلج وتأخروا، ثم وصلوا الآن إلى قزوين، بعد مضى شهر.

وكان آخر رد من طهران يقول حينما يصل نواب آذربايجان فى الغد، عليكم أن تصرحوا بمطالبكم فى حضورهم، ثم يتم الرد عليها حتى يتفرق الناس ويمضوا إلى ديارهم .

وفى يوم الجمعة اجتمع الزعماء ثانية فى مكتب البرق وتزاحم الناس فى فنائه وفى فناء دار المدفعية والذخيرة، وكانت طائفة تأتى وأخرى تعود ولم يترك الوعاظ الناس

دون عمل وكانوا يتحدثون إليهم. وفى تلك الأثناء لما أبدى البعض غضبه وثارت ثائرته نصحوهم فانتصحوا، وكانوا يحضون الناس على التزام الهدوء وعقد الأمل على الأئمة، كما تقدمت اليوم جماعات من تلاميذ المدارس وهم يترنمون بالأناشيد الحماسية .

ودامت الحال على ذلك المنوال إلى آخر وقت، ولما عيل صبر الناس، وكان واضحًا أنه إذا ما لم يصل رد مقنع فلن يتراجعوا، وأرسل المغفور له ثقة الإسلام برقية إلى الشاه وأوضح حقيقة الحال، ثم أرسل المجتهد كذلك برقية أخرى على نفس المنوال.

أما فى طهران فكانت هناك ثورة أخرى، وكما أسلفنا كان النواب السبعة على وشك الوصول اليوم إلى طهران فأسرع الناس لاستقبالهم أفواجًا أفواجًا، وأعربوا عن فرط سرورهم. ورأت طهران يومًا قل نظيره. ففضلاً عن صفة التمثيل كان يعد اسم آذربايجان اسمًا عزيزًا. كما كان عدم اهتمام الشاه بالمجلس وتسلط رجال البلاط سببًا لاستياء الجميع، وكان الناس يعتبرون وصول النواب السبعة فى هذا الوقت أمارة على انتصار المجلس. وقد اصطف الحرفيون مع رؤسائهم خارج البوابة وحينما وصل النواب ذبحوا بقرة تحت أقدامهم باسم شعب طهران. وقد سلك الحاج صادق مسلكًا جنونيًا من فرط سروره، حيث أحضر معه ولديه الحديثى الولادة ليقدمهما قربانًا تحت أقدام نواب آذربايجان، فقال السيد ميرزا فضل على : " ينبغى أن نكون نحن قربانًا لهذين الحدثين، إنهما منا، ونحن نبذل الجهود من أجلهما ".

وطالب الناس أن يجتمع النواب جميعهم فى موضع واحد لتظهر حقيقة العمل، ودعا الحاج محمد إسماعيل الجميع إلى داره ولكن فرصة النقاش والتفاوض كانت جد قليلة؛ لأنهم فى ذلك اليوم استدعوا النواب من تبريز إلى مكتب البرق وبعد مقدم صنيع الدولة وسعد الدولة وبعض رؤساء المجلس الذين تم التباحث معهم اتجهوا نحو المكتب وظلوا هناك حتى الغروب .

انكشاف نيات محمد علی ميرزا :

من ناحية أخرى انعقدت جلسة ليلاً فى دار مشير الدولة - الصدر الأعظم - حيث تم التباحث فيها حول مطالب تبريز السبعة فى حضور صنيع الدولة وسعد الدولة والحاج معين ومرتضوى وأمين الضرب والحاج محمد إسماعيل، وأرسل مشير الدولة واستدعى النواب الذين حضروا توًا، ومضى هؤلاء النواب من مكتب البرق إلى هناك.

وبدأ الحوار وكان سعد الدولة يتكلم بالنيابة عن أهالى تبريز ويوضح مطالبهم. وتحدث مشير الدولة قائلاً : " إن ترغب الدولة فى أن يكون لها ألف وزير فعلاقتكم بالوزراء الذين قدمتهم الدولة إليكم فقط، وأى شأن لكم بعدد الوزراء الذى تحدده الدولة؟" فقال سعد الدولة :

" فى دولة تتمتع بالحكم النيابى ينبغى وجود وزراء مسئولين ولا ينبغى وجود أى وزير فخرى دون الوزراء المعينين، ألسنا فى دولة ذات حكم نيابى ؟! ألم تمنحنا الدولة الحكم النيابى؟! " فرد مشير الدولة : " كلا، لسنا دولة ذات حكم نيابى، ولم تمنحكم الدولة إياه، والمجلس الذى لديكم هو لسن القوانين ". فالتفت سعد الدولة إلى الآخرين قائلاً : " سمعتم أيها السادة ماذا يقول؟ وفى هذه الحال فنحن لسنا مكلفين إلا بما تكلفنا به الأمة. ولهذا لم يعد لوجودنا فى هذا الاجتماع أى جدوى، فهيا بنا نمضى. فنهض الحاج أمين الضرب، وقال : " إن الدولة لا تستطيع أن تقول إنها لم تمنحنا الحكم النيابى، وإذا لم يكن حكمنا نيابيًا فلِمَ كانت الولايات تبعث بمندوبيها؟ إننا نعرف معنى الحكم النيابى، وما لدينا من حقوق لن يستطيع شخص أن يسلبنا إياها إلا بإراقة دماء الشعب ... " ثم قام مستشار الدولة وتحدث إلى أن قال فى نهاية حديثه : " إذا ما نكلت الدولة بنا وكانت ترغب فى خديعة الشعب فليست مهمتنا سوى أن نطلع المجتمعين والمنتظرين فى مكتب البرق، واسمحوا لى أن نمضى ونسمح لهؤلاء المنتظرين بالانصراف ". قال هذا ونهض الجميع

ليخرجوا. فقال مشير الدولة : " لا تغضبوا، اجلسوا واكتبوا ما تبغونه وفى الغد أعرضه على الشاه ". فرد سعد الدولة قائلاً : " ما لدينا لا نستطيع أن نطلبه من الدولة ثانية فهدفنا هو تصحيح القانون حتى يزال ما فيه من قصور ". فقال مشير الدولة : " أى قصور هذا؟!" قال : " استجواب الوزراء وتحديد عددهم وإقصاء الزائدين منهم أمثال نوس وبريم ". قال هذا وأخذ فى إحصاء مساوئ نوس : فقال مشير الدولة : " كل هذا صحيح، لكن الدولة مضطرة أن تحفظ لنوس منصبه الذى فيه ". فرد سعد الدولة قائلاً : " لكن الشعب غير مضطر لأن يقبل من ساعت نياتهم ".

تمت المناقشة على هذا النحو، وقد احتد سعد الدولة بينما كان الآخرون يظهرون تأييدهم له، وأما مشير الدولة فكان يحاول إبداء اللين. وفى النهاية اقترح أنه فى الغد يطلعون النواب الآخرين ويعقدون المجلس فى غير موعد انعقاده، وكتبوا رسالة برغبتهم هذه وأرسلوها إلى الصدر الأعظم ليعرضها على الشاه ويتلقى الرد، وبذلك انتهت الجلسة.

وينبغى علينا أن نمعن النظر جيدًا فى بعض جمل مشير الدولة فكانت عبارة عن أفكار محمد على ميرزا تجرى على لسان الصدر الأعظم. "لم تمنحكم الدولة الحكم النيابى، والمجلس الذى لديكم إنما هو لسن القوانين ليس إلا ". وما كتب فى رسالته إلى المجلس بشأن استجواب الوزراء وبعض الأمور الأخرى يوضح فيها ذلك المعنى، لكن أعضاء المجلس لم يتفهموا ذلك، وكما رأينا كانوا يتناقشون حول ذلك بفتور كما كان البعض يبدى تأييده للدولة.

وقد جهر بالقول فيما يختص بنوس قائلاً : " إن الدولة مضطرة أن تبقيه فى منصبه". لمَ كانت الدولة مضطرة لذلك ؟! لأن نوس وأعوانه كانوا يعملون لمنفعة الروس، وكانوا يراعونهم بحجة أن الجمرك كان رهنًا لديهم وينبغى أن يكون فى يد شخص يعرفونه ويطمئنون إليه، ولم يكن فى استطاعة محمد على ميرزا أن يتصرف تصرفًا

ضدهم وهذا يوضح مدى ما وصلت إليه الدولة من الضعف والعجز، ومع هذا كله كان – الملك – يعامل الشعب باستعلاء وصلافة. فالشعب الذى كان يقدم على العمل من أعماق قلبه وكان يأمل مساعدته وتأييده وأن يشد من أزره أمام الأجانب، فى مقابل هذا كله كان يتصرف بصلافة وتصدر عنه كل هذه المساوئ .

وفى يوم السبت التاسع عشر من شهر بهمن (السادس والعشرون من ذى الحجة) انعقد المجلس إلى ما بعد الظهر فى حجرة خفية وحضر كذلك نواب تبريز. وقد أعد تقى زاده والحاج أمين الضرب مذكرة بخصوص جوانب القصور فى الدستور قرأوها وبعد التباحث والتفكر رأوا أن الحاجة ماسة لحديث طويل فى هذا الصدد ولا مجال هناك لذلك ورأوا من الأفضل أن يكتفوا بنفس مطالب تبريز، فكتبوها وأرسلوها إلى الصدر الأعظم، بوساطة الحاج مخبر السلطنة على أن يحصل على الرد من الشاه بعد أربع ساعات ويرسله. و عندما لم يصل الرد اختاروا سبعة من النواب وبعثوا بهم إلى الصدر الأعظم ولكن دون فائدة، حيث كان محمد على ميرزا يبادر بالاعتراض دون وجل أو خوف. وظل المجلس منعقدًا إلى المساء أملاً فى وصول الرد.

وساهم أهالى طهران اليوم فى الانتفاضة، وفضلاً عن انتفاضة تبريز فقد نبهت المشاورات التى تمت البارحة مع الصدر الأعظم الجميع فاحتشدت أفواج كثيرة منهم فى فناء المجلس وما حوله وأيدوا مطالب أهالى تبريز، وكانوا يريدون أن يغلقوا الأسواق كذلك هنا لكن المجلس لم يقبل ذلك وحال دون وقوعه .

ولذلك قام الشغب واللغط اليوم فى تبريز واجتمع الناس فى بعض المساجد، فضلاً عن مكتب البرق وما حوله وأيدوا المجاهدين .

وفضلاً عن المدينة، أظهرت باسمنج وشبستر تعاطفهما تليفونيًا، ولما كانوا يطلعون على أحداث طهران ساعة بساعة برقيًا، انزعجوا بشدة من اعتراض محمد على

ميرزا وقررت طائفة منهم أن يقدموا على خطوة أخرى للضغط عليه، وهى أن يستولوا على إدارات البريد والتلغراف وصندوق المالية ومخزن السلاح ولا يسمحوا لموظفى الدولة بالعمل. لكن ذوى الفكر الثاقب لم يستحسنوا هذا واكتفوا فقط بالاستيلاء على مكتب البرق وعدم السماح بإرسال برقيات أخرى.

كما اصطف تلاميذ المدارس وجعلوا ينشدون الأناشيد، ولم يسع أن يبين هؤلاء الثائرون مما أرادوا إلا الخير، وجمعوا الإعانات للمدارس ووزعوها .

وقصة الرسول المبعوث من قبل محمد على ميرزا إلى العتبات – وهذا خبر تردد على الألسنة منذ فترة طويلة – أكدت صحة هذه الأحداث. وكان أن كتب العلماء برقية كى ترسل إلى علماء النجف، ولما كان سوء الظن بمكاتب البرق فى إيران قائمًا فقد وجهوا شخصًا حتى يرسلها عن طريق مكتب برق إرس بالقوقاز ونشرت هذه البرقية فى الصحف، وكذا رد علماء النجف عليها ولا مجال لإيرادها هنا .

خضوع محمد على ميرزا للمطالب :

انعقد المجلس ثانية فى صباح يوم السبت، وكانت الجلسة سرية كذلك، ولكن لما كان أهالى طهران محتشدين فى الفناء وما حوله وعيل صبرهم لم يكترثوا بسرية الجلسة ودخلوا وأيدوا النواب فى ثورتهم وحماسهم. وكان الجميع من نواب المجلس وغيرهم يأملون رد البلاط. وكانوا يرسلون رسولاً منهم إلى مشير الدولة يسألونه. وعند الظهيرة، عندما كان السيدان وغيرهما يريدون الانصراف إلى ديارهم، لم يسمح لهم أعضاء المجلس وطلبوا منهم البقاء، ومن هذا يتضح أن الخوف كان يعتريهم.

وبعد الظهيرة، حضر الحاج مخبر السلطنة ومعه رسالة من مشير الدولة يخبرهم فيها أن مندوبًا عُين للتباحث مع أعضاء المجلس. ثم شرعوا فى التفاوض. ولم يكن نائب

الدولة يقبل الحكم النيابى حيث كان يقول : " إن هذا القول خاطئ ". وأوضح حديثه قائلاً : " لا تطلبوا هذا واطلبوا ما شئتم سواه ! " فرد نواب المجلس ردودًا شديدة اللهجة.

ثم ذهب ليأتى برد آخر وعندما حل المساء جاء بالرسالة التالية : "إن الشاه أمر بعزل مسيو نوس وبريم رغم كل المحظورات وسيحيل كلمة "مشروطة" إلى كلمة "مشروعة" فنحن دولة إسلامية والسلطنة يجب أن تكون شرعية". واضطرب أعضاء المجلس ثانية ورفعوا أصواتهم باللغط وردوا فى صراحة قائلين : " إننا لن نقبل اسمًا آخر سوى المشروطة ".

وفى تبريز أغلقوا الأسواق فى ذلك اليوم، واجتمع الناس فى مكتب البرق وما حوله، ووقع الشغب ثانية وأغلقت كذلك مكاتب المالية وعطلت إدارات الجوازات عن العمل واستولوا على مخزن الذخيرة. وفى ذلك اليوم قدم نظام الملك الوالى إلى مكتب البرق خوفًا مما قد يحدث وفى نفس اليوم كان تلاميذ المدارس فى حركة دائبة.

وفى اللحظات الأخيرة عندما لم تصل من طهران سوى برقيات يائسة، أعربت جماعة منهم عن عدم قدرتها على الصبر أكثر من هذا، فوقف المغفور له الشيخ سليم أمام النافذة وحاول استرضاءهم ؛ قائلاً : "إن شاء الله يصل الجواب غدًا، وإذا لا قدر الله لم يتحقق هدفنا، فسنقول الكلمة التى نريدها ".

ومضت خمس ساعات من ليلة الإثنين حتى وصلت من طهران برقية النواب فيما يختص بعزل نوس وبريم وهدأ الناس قليلاً وتفرقوا .

وفى يوم الإثنين الحادى والعشرين من شهر بهمن (السابع والعشرون من ذى الحجة) انعقد المجلس ثانية مع الصباح وجاء حاجى مخبر السلطنة مرة أخرى، وفى هذه المرة استهل حديثه قائلاً : " كنت بالأمس مأمورًا بالحديث، وأنا اليوم مأمور بالاستماع، ولكننى أريد أن أعرض رأيى آملاً الخير، إنه ليس من المصلحة أن تكون دولة إيران

محكومة حكمًا دستوريًا، لأنه فى دولة تحكم بالحكم النيابى لا بد أن يكون كل شيء فيها حرًا حتى فى الأديان، وعددهم - أى غير المسلمين - قليل بيننا ونحن لا نعرفهم، وهم سيحتجون الآن بأنه ينبغى لنا التمتع بالحرية ولا ينبغى أن يكون هناك مانع أمامنا فى أى وقت، ومضرة هذا ستعود على الإسلام". لقد قيلت له هذه الآراء ليأتى ويتحدث بها وربما جعل النواب حياله منقسمين لكن الجميع أعرب عن عدم رضائه كالسيدين والعلماء وغيرهم، وألحُّوا على مطالبهم وعاد حاجى مخبر السلطنة ليحضر ردًا جديدًا.

وفى هذا اليوم أيضًا احتشد أهالى طهران فى قصر بهارستان وعبروا عن ثورتهم وسخطهم، وزاد غضب الناس فى تبريز، وشاع أنهم استولوا على بيت السلاح وأخرجوا البنادق ووزعوها على المجاهدين. وحاول الوعاظ تهدئة الناس ثانية، وقدم تلاميذ المدارس ولما لم يكن فى الفناء موضع لهم اصطفوا فوق الأسطح وجعلوا ينشدون:

آه أيها الأحرار ويلاه من يد الاستبداد

لقد وضعت فى مهب الرياح ديارنا التى يرجع عهدها إلى آلاف السنين

من يولد منذ ولادته حرًا

كيف يسلم نفسه ليد الاستبداد ؟

فى كل لحظة ترتفع تلك الصيحة من كل جانب

فآه أيها الأحرار وويلاه من يد الاستبداد

لقد أجرت فى الرياح ديارنا التى يرجع عهدها إلى آلاف السنين

وفى اللحظات الأخيرة وصلت برقية من النواب حاولت تهدئتهم وفيها : "إن كل شعب إيران يضم صوته إلى صوتكم، ونحن فى المجلس منذ الصباح وإن شاء الله سوف تعرف النتيجة بعد مضى ساعتين من الليل ونستحلفكم بأغلظ الأيمان أن تهدئوا ثائرة

الأهالى ". مضى اليوم على هذا النحو، وكان هؤلاء فى دار الشورى وأولئك فى مكتب البرق يتطلعون فى شوق إلى رد البلاط. أثناء ذلك كان بعض الأخيار يسعون للوساطة وكان منهم عضد الملك القاجارى فكان يمضى فى رفقة الحاج مخبر السلطنة إلى البلاط ويسعى لمنع محمد على ميرزا.

وكان محمد على ميرزا يرى نفسه فى ضيق وحرج ولم يكن يستطيع أن يخضع أو يقر بالحكم النيابى هذا، وكان الرد يحمل نيتين ولكن لما كان ضغط تبريز يزداد ساعة بعد ساعة اضطر أن يرد ويخضع لمطالب الشعب وأصدر الفرمان كارهًا أو طائعًا .

ومضت ساعة ونصف من ليلة الثلاثاء وأحضر الحاج مخبر السلطنة الفرمان إلى المجلس وأعرب الناس – الذين بلغوا الآلاف فى صحن قصر بهارستان وحجراته – عن فرط سرورهم. ولما وقف حاجى مخبر السلطنة أمام السيدين وغيرهما من العلماء وتلاه، علت الصيحات من كل جانب فى الداخل والخارج بحياة الحكم النيابى وأعرب الناس عن فرط سعادتهم ورضاهم. وفى نفس الليلة أبرقت دار الشورى بهذه الأنباء إلى تبريز وغيرها من المدن. وفى الغد اجتمع الناس فى تبريز فى مكتب البرق ثانية وطالبوا ببعض المطالب، ولم يقبلوا فتح الأسواق، لكن الزعماء أجابوهم لما طلبوا، وبهذا ذهب الجميع إلى الأسواق ونورد فى هذا الموضع برقية دار الشورى التى تتضمن كذلك أمر الشاه :

" إلى حضرات السادة حجج الإسلام فى آذربايجان أدام الله توفيقهم، وإلى الجمعية الوطنية المبجلة، بحمد الله ومنه وتوفيقه، وبفضل أبناء الوطن، وبخاصة أهالى آذربايجان الغيورين، تم استكمال ما نقص من الدستور وتدعيم الحكم النيابى لفظًا ومعنى بأمر من الملك، وعلى المجلس أن يقول لأبناء الوطن قاطبة اليوم أكملت لكم دينكم، وسوف نخبركم بالأمر الملكى فيما يلى :

جناب الأشرف الصدر الأعظم، لقد صرحنا من قبل بأن نياتنا المقدسة تتعقد على تنفيذ بنود الدستور الذى ورثناه عن الملك المغفور له أنار الله برهانه بصورة أكثر مما يتوقعه الشعب ومن البديهى أنه منذ ذلك اليوم الذى أصدر فيه الشاه المبرور أنار الله برهانه الأمر بتأسيس مجلس الشورى الوطنى فقد عدت دولة إيران فى عداد دول الحكم النيابى ذات السلطة الدستورية. ومما يلاحظ أن الدولة كانت فى حاجة إلى قوانين من أجل تنظيم شئون الوزارات والدوائر الحكومية والمجالس البلدية، على أن يكون ذلك مطابقًا للشرع المحمدى (صلى الله عليه وعلى آله)، والآن وضع موضع التنفيذ. فبلغوا أمرنا هذا إلى جناب السادة حجج الإسلام سلمهم الله تعالى وإلى مجلس الشورى الوطنى ".

(٢٧ ذى الحجة ١٣٢٤ هـ.ق – فبراير ١٩٠٧م مجلس الشورى الوطنى)

أول طائفة انفصلت عن الشعب :

وهكذا هدأت الانتفاضة بعد مضى ستة أيام، أما نتائجها فهى :

أولاً : تدعيم الحكم النيابى وسد كل الثغرات فيه.

ثانياً : إدراك القصور فى الدستور، والبدء فى كتابة المتمم له.

ثالثاً : عزل مسيو نوس من منصبه حيث كان شوكة فى أعين الإيرانيين.

رابعاً : أدرك محمد على ميرزا أن معارضه ليس طهران إنما هو تبريز، وإذا ما كان يريد الإطاحة بالحكم النيابى فينبغى عليه أولاً أن يلتمس الوسيلة لذلك. وسوف نرى كيف فكر بخصوص هذه المدينة.

لتدوين المتمم للدستور اختاروا من قبل المجلس سعد الدولة وتقى زاده ومشار الملك والحاج أمين الضرب والحاج السيد نصر الله ومستشار الدولة، وسوف نشاهد نتائج ذلك. أما عن نوس وبريم فلم يقبلا أن يرحلا بسهولة وما كانا يصدقان أن حال إيران أصبح غير الحال وأن هناك قوة ظهرت فى الأفق هى قوة المطالبين بالحرية لا تسمح

بوجود المسيئين. وحينما عزلا تولى بدلاً من نوس بلجيكى يدعى (كينه) وكان مديرًا للجمارك تحت رئاسة نوس وكان يسلك نفس مسلكه. وقد امتنع نوس عن تقديم حساباته ويقال إنه أقدم على جمع الوثائق التى كانت تدينه فى إداراته وأحرقها. كما أن لاروس – الذى أراد أهالى تبريز سجنه ووافق الشاه على ذلك – لم يسجن وإنما رحل عن إيران.

وكان هذا كله سببًا للحديث مرة ثانية عن نوس والبلجيكيين فى المجلس وتم التحقيق فى ذلك مع وزير المالية، كما أرسل مجلس تبريز برقية ثانية موجهًا فيها اللوم الشديد لدار الشورى وهذا ما جعل قوة المجلس تزداد أمام البلاط من ناحية، ومن ناحية أخرى زادت قيمته أمام الناس، فكانوا يرون بأم أعينهم جهازًا لم يتخيلوه من قبل. وعلى الرغم من هذا عندما حل شهر المحرم ١٣٢٥ هـ.ق (فبراير ١٩٠٧م) وأقيمت التعزية جريًا على المعتاد من كل عام، قام البعض فى طهران بذم الحكم النيابى والمجلس، وكان منهم السيد أكبر شاه الذى كان يضمر الكراهية للسيدين منذ زمن طويل، وقد تجرأ فى هذا الوقت وجعل يشدد من تطاوله على المجلس والحكم النيابى .

وقد كان – كما أسلفنا – من مؤيدى مساعى السيدين، حيث رافقهما فى الرحيل إلى عبد العظيم، وفى الشهر الذى مكثوا فيه هناك، كان يصعد المنبر فى كل يوم مع الحاج الشيخ محمد ويلهب حماسة الناس، لكنه بعد العودة من عبد العظيم أبدى استياءه وانفصل تدريجيًّا عن السيدين بحجة أن النقود التى منحت إليه كانت قليلة حيث وصل إليه خمسة وعشرين طومان فقط من كل النقود التى أرسلت للسيدين، فأطلق للسانه العنان بالسباب والشكوى. وفى هذه المرة انضم إلى الحاج ميرزا أبى القاسم إمام الجمعة، وفى محرم (١٣٢٤هـ.ق – ١٩٠٦م) كان يصعد المنبر ولم يكف عن سب السيدين ولعنهما، ولما كان السيدان وأتباعهما يمتنعون عن تقديم الشاى إلى الناس فى مجالس الروضة بحجة أن السكر والشاى من السلع الأجنبية التى ينبغى الإقلال من تناولها، فقد أغلظ فى

توجيه اللوم لهم من فوق المنبر قائلاً : " كم أعجب لقوم يصنعون الأَرْدِيَــة المزركــشة الفاخرة لبناتهم وعرائسهم، ويتضايقون من تقديم الشاى فى عزاء سبط الرسول".

وبعد منح الحكم النيابى وعلو مكانة السيدين وخضوع إمام الجمعة وغيره، لــزم هو كذلك الصمت وعقد لسانه. ولكن لما بلغ محمد على ميرزا سدة الحكم وأبدى العــداء للحكم النيابى، صار هذا سببًا لتجرؤ أكبر شاه وأمثاله.

ومع أن محمد على ميرزا استسلم للأمر وما عاد يبدى فى تلك الفترة إلا تضامنه مع المجلس إلا أن الجميع كان يعلم دخيلته، ولما حل شهر محرم وراجت ســوق رجــال الدين لم يستطيعوا أن يكفوا عن السباب واللعن وبخاصة فى أى مكان يمتلكه أحد أعــداء الحكم النيابى حيث كان ذلك يشجعهم على الإكثار من ذمهم وسبابهم.

وفى يوم الثلاثاء التاسع والعشرين من شهر بهمن (السادس من شهر المحــرم) انطلق لسان أكبر شاه يذم المجلس وذلك فى منزل ابن السيد على أكبر تفريشى، فرد أحد السادة من أسفل المنبر وحاول منع ذلك وقد عاونه البعض فيما فعل. ومن ناحية أخــرى قام الشيخ زين الدين الزنجانى بدافع من أكبر شاه والطلبة الموالين له؛ حيث اتهموا ذلــك السيد بأنه من أنصار الحكم النيابى، وحضرت طائفة من طلبة مدرسة الحاج أبى الحــسن لتأييده ونشب العراك بينهم. وتجمع الطلبة المطالبين بالحكم النيــابى وانطلقــوا إلــى دار بهبهانى وطباطبايى وطالبوا بالإنصاف. وكتب السيدان بما وقع إلى الشاه وألحــا عليــه، ونتيجة ذلك أمر الشاه أن يطردوا الشيخ زين الدين من طهران وألا يعتلى سيد أكبر شــاه وغيره – ممن شاركوا فى السباب والطعن – المنبر.

ولما رأى كل من الشيخ زين الدين وأتباعه وسيد محمد تفرشى والسيد أكبر شاه وصدر المحققين وبعض الطلبة ذلك فإذا بهم يلجأون إلى عبدالعظيم، وقــد بلــغ عــددهم

– كما قيل – سبعين أو ثمانين شخصًا. وكان هؤلاء أول جماعة تنفصل عن الشعب، ولما وصلت أنباء ما فعلوه إلى المدن، عم السخط والاستياء جموع الأحرار.

وحتى ذلك الوقت لم يكن قد تم نسيان مساوئ الاستبداد حينذاك، كما أن الانتفاضة التى هزت القلوب لم تكن قد ضعفت بعد، لذا لم يعد هؤلاء من الفضلاء ولم يكن لهم عذر فى الانفصال عن الشعب، وبالتالى لم يلق الناس إلى ذلك بالاً .

و لم يكترث محمد على ميرزا – الذى كان يسعى وراء إثارة خواطر أعداء المجلس – لأمرهم وترتب على ذلك أنهم ندموا على ما كان منهم ثلاثة أسابيع أو ما يقرب وكتبوا رسالة بتوقيع أكبر شاه وصدر المحققين إلى المجلس وفيها أقسموا جهد أيمانهم أنهم لم يكنوا العداء لمجلس الشورى الإسلامى منذ البداية، كما لا يكنون ذلك الآن، وأعربوا عن استيائهم لما قاموا به ودار حديث فى المجلس، وتحدث السيدان وغيرهما وقبلوا منهم العذر وكانوا يأملون فى أن يحضر البعض ليعيدوهم فى جمع إلى طهران لكن أملهم خاب، فعادوا فرادى متفرقين.

أهم إنجازات دار الشورى :

فى تلك الأثناء كانت دار الشورى تقوم ببعض الإنجازات ذات الأهمية فقد وصلت الانتفاضة إلى كل الأرجاء، وبدأ الصراع فى جميع مدن إيران بين القديم والحديث، والاستبداد والحكم النيابى، والجور والعدل، وعم الانقسام جميع الأرجاء ونشب الصراع وثارت الفتن، وكان المجلس يراقب هذا كله عن بعد ويبذل يد العون لمؤيدى الحرية، وكانت جمعية تبريز تتحمل عهدة ذلك فى بعض الجهات .

وفى خراسان عُزل آصف الدولة من الولاية لأنه قـام بالحيلولـة دون تـشكيل الجمعية وقدم طهران صاغرًا ذليلاً، ولم يكتف المجلس بهذا الحد بل ذكر قصة بيع بنات القوتشى ودار الحديث عن هذا مرارًا .

وأبرق الإيرانيون فى عشق آباد إلى المجلس يقولون : " نحن نرى بـأم أعيننـا الأطفال القوتشيين يباعون إلى التركمان فى عشق آباد كالخراف وسائر الأنعـام ولـيس هناك من منصف ". وعندما تليت هذه البرقية فى المجلس لم يتمالك كثيـر مـن النـواب أنفسهم من فرط البكاء، وفى جلسة السادس من شهر اسفند (الثالث عشر من محرم) قـدم ميرزا محمود بائع الكتب تفاصيل كثيرة عن هذا الموضوع، وذكر قصتين، إحداهما عندما كان الناس فى خراسان يأكلون الجراد فى العام الماضى، وأرسلوا إلى الـشاه وطـالبوه بالإنصاف، فقال الشاه ينبغى أن يُرسل أحد للتحقيق فى هذا، لكن عين الدولة لـم يـصغْ لهذا، وضغط آصف الدولة وموظفوه وطالبوا الناس بدفع الضرائب مما اضطر الناس لبيع بناتهم اللاتى اشتراهن الأتراك.

والقصة الثانية أن القائد المفخم بجنوردى كان مرشحًا من قبل الدولة لصد عادية التركمان، وكان يتقاضى الأموال فى كل عام نظير القيام بهذا العمل، لكن آصف الدولـة قطع المال عنه كما أثار التركمان فأغاروا على أراضى القوتشيين، وبعد إشـاعة القتـل والنهب أسروا ما يقرب من ستين من الفتيات والنساء وحملوهن معهم وباعوهن فى عشق آباد.

وبعد سرد هذه الحكايات، ألح المجلس على ضرورة التحقيق مع آصف الدولـة ومحاكمته. وكان ابن سپهدار يسلك نفس ذلك السلوك المشين فى تنكابن فعزلوه من هناك. وفى قزوين انتخب نائبان للمجلس، ولكن لما وقع الانقسام بينهما تجمعت طائفة بـضريح

الأمير حسين وقاموا بثورة فحاولوا تهدئتها وإيقافها وأرسل المجلس برقية وأخمد الفتنة، ثم قدم النائبان الشيخ حسين الشهيدى وميرزا حسين الطبيب إلى طهران وواصلا عملهما.

وفى الرشت أقيم مجلسٌ لكن طائفة من المسيئين أبدت عداءها، وأثاروا الفتن وكانوا قد أقاموا مجلسًا آخر وأبدى سپهدار الحاكم هناك تأييده له. ومع هذا فقد أعرب مجلس تبريز ودار الشورى برقيًا عن مد يد العون لمجلس الأحرار وتم النصر للأحرار هناك بعد صراع دام طويلاً.

وظل السلطان – الذى كان يحكم أصفهان وما حولها فى عهد ناصر الدين شاه وأقام هناك عدة قصور واشترى ضياعًا وتوغل توغلاً عميقًا – ثار أهالى أصفهان عليه بتحريض من آقا نجفى وغيره وطالبوا بعزله، ولما لم تقبل طهران مطالبهم غلقوا الأسواق وقاموا بالضغط عليها. ولما رأى المجلس أن سقوط مثل هذا النوع من الحكام ذوى النفوذ سيكون فى مصلحة الحكم النيابى أيدوهم فى ذلك، وكانت النتيجة عزل ظل السلطان من هناك.

وفى كرمانشاهان جاشت ضغائن قديمة بسبب إقامة المجالس ووقعت فتنة عظيمة حيث نشب العراك ووقع بعض القتلى وسعى المجلس لقمع تلك الفتن هناك لكنه لم يستطع. ودام النزاع والاضطراب بينهم طويلاً.

ثارت هذه الفتن نتيجة لانتفاضة الحكم النيابى وكما أسلفنا كان الصراع قائمًا بين القديم والحديث، وواقع الحال أن الجهل والأحقاد القديمة ظهرا كذلك، وهذا الصراع كان لا بد وأن يفضى بصنيع الدولة إلى أن يجأر بالشكوى، ويقول : " فيما عدا أهالى آذربايجان الذين انتخبوا وكلاءهم على نحو صحيح وأرسلوهم بكل احترام، فإن جميع الولايات لم يفهموا المطلوب منهم، بل برزت فى ذلك أهدافهم السابقة كما حدث فى قزوين وكرمانشاه وغيرهما ". وهذا ما وقع فى شهر اسفند، وفى الأيام الأخيرة من هذا الشهر

أنجز المجلس أمرًا آخر له عظيم الأهمية، فكما أوردنا سابقًا كان هناك عجز فى ميزانية الدولة السنوية قدره ثلاثة ملايين طومان وكان ينبغى سد هذا العجز، وكان المجلس قد انتخب لجنة لهذا الغرض وكان من أعضائها وثوق الدولة. وفكروا لحل هذا الأمر فى شيئين، أولهما أن يزيدوا الدخل. والآخر أن يقللوا الخرج، وفكروا فى عدة أمور لزيادة الدخل، منها :

(١) تحصيل زيادة " تفاوت العمل " وكيفية ذلك أن الدولة فرضت الضرائب على القرى وغيرها وكانت لها سجلها الخاص. إلا أن حكام الأقاليم زادوا على تلك الضرائب بمرور الوقت وأصدروا سجلاً آخر خاصًا بهم وعند جمع الحكام للضرائب كانوا يحصلونها من الناس حسب ما أصدروا من سجلات خاصة بهم، وإذا ما دفعوها إلى الدولة كان ذلك طبقًا للسجل الخاص بالدولة. وتلك الزيادة بين السجلين والتى أطلقت عليها اسم " تفاوت العمل "قسموها قسمين، قسم يقدم إلى الصدر الأعظم وغيره على سبيل الهبة. وأما القسم الآخر فلهم. وكانت هذه الزيادة عالية فى بعض الأقاليم، فعلى سبيل المثال، كانت الضرائب المفروضة من قبل الدولة فى كرمان ٤٤٠٠٠ طومان وكانت الضرائب التى حصلها الحكام ١٧٠,٠٠٠ طومان واقترحت اللجنة أن تدخل كل هذه الزيادة فى حساب الدولة .

(٢) القضاء على الإقطاعيات، فقد منحت العديد من الأراضى كإقطاعيات حيث كان بعض الأشخاص من رجال البلاط وقادة الجيش ومن أشبههم يحصلون من الدولة على راتب سنوى أو شهرى وبدلاً من أن تدفع لهم الدولة مرة واحدة كانت تعهد إليهم بضرائب قرية ليحصلوها من سكان القرية. ولما كان هذا الإقطاع يستمر فترة طويلة، فقد كانوا يعتبرون تلك القرى ملكًا لهم وهنا يظهر الفرق الكبير لأن معظم القرى كانت تزداد عمرانًا بمرور الوقت وبالتالى كانت الضرائب تتضاعف عليها إلا أن هذه الزيادة كان يتقاضها أصحاب الإقطاعيات، واقترحت اللجنة أن يقضى

على الإقطاعيات دفعة واحدة وأن تدخل جميع هذه الضرائب فى حساب الدولة، وأن يقدم لهؤلاء الأشخاص المرتب سنويًا أو شهريًا من الصندوق.

(٣) القضاء على التسعيرة، فكان جزء من ضرائب القرى يدفع فى صورة غلة ترسل إلى مخازن الدولة سنويًا لكن حدث منذ عدة سنوات أن دفع ثمنها إلى الدولة وهنا يظهر الفرق الكبير أيضًا لأن هؤلاء الذين كانوا يقدمون الغلة إلى الدولة منذ فترة طويلة كانوا يقترحون سعرًا قليلاً للغلة حتى يدفعوا ثمنًا بخسًا فى حين أن ثمن الغلة قد تزايد خمسة أو ستة أضعاف.

تم التباحث فى النقاط الثلاث خلال عدة جلسات فى المجلس، وبدأ البعض فى توجيه النقد والتجريح، وأعربوا عن عدم رضاهم، وعندما انتهى النقاش اتضحت المسائل ووافق الجميع. لكن هذا الأمر أعقبته نتيجة أخرى وهى أن طائفة من المتطفلين انفصلت عن الشعب؛ لأن جميع أصحاب الضياع والإقطاعيين والحكام تأذوا من تلك المقترحات. وسوف نرى أى عداء وأية ضغائن ولدتها تلك المقترحات !!

أول وزارة قانونية :

كان هناك حدث آخر فى تلك الأيام وهو استقالة مشير الدولة الصدر الأعظم، ولا يعلم لماذا قدم الاستقالة وهل أرادها هو دون رغبة محمد على ميرزا ؟ وبعد استقالته تكونت وزارة مطابقة لما كان يريده المجلس وعلى ما ألح عليه مجلس تبريز بحيث تكون جميع أعمال وإدارات الدولة مقسمة إلى ثمانية أقسام وشكلوا ثمانى وزارات، ومنحت إدارات البرق والجوازات وصندوق الخزانة التى تم سحبها من نوس إلى وزارة أخرى، وتم اختيار ثمانية وزراء. ولما كان من الواجب تقديمهم إلى المجلس وأن يتعهد كل منهم بالمثول للاستجواب أمامه فإنه فى يوم الخميس التاسع والعشرين من شهر اسفند (السادس

من صفر عام ١٣٢٥ هـ.ق- مارس ١٩٠٧م) قدموا إلى المجلس، ولما لم يكـــن الــصدر الأعظم أو رئيس الوزراء حاضرًا قدمهم وزير الداخلية على النحو التالى :

نائب السلطنة وزير الحربية، فرمان فرما وزير العدل، عـــلاء الـــسلطنة وزيـــر الخارجية، وزير أفخم وزير الداخلية، ناصر الملك وزير المالية، مخبر الـــسلطنة وزيـــر العلوم والمعارف، مهندس الممالك وزير الفوائد العامة، ووزير همايون وزير التجارة.

وكما قيل فقد كان وزير الحربية مريضًا ولم يستطع حضور المجلس لذا تقدم دبير الدولة على أنه مساعده الخاص. وحقيقة الأمر أن نائب السلطنة كان يريد ألا يخلى يـــده من وزارة الحربية فكان يعتبر المجىء إلى المجلس شيئًا تافهًا، وبهذه الحجة يبسط يده.

قال وزير الداخلية : "إن الهدف هو أن يتم التغيير فى هيئة الـــوزراء والحكومـــة وينبغى تقديمهم للمجلس وليعلم الشعب كله اليوم أن الدولة والشعب شىء واحـــد وينبغـــى التكاتف فيما بينهما وأن يعملا حتى تعمر البلاد".

ونيابة عن المجلس قدم المغفور له بهبهانى الشكر، وقال : "كما أقْسم النواب ينبغى أن يُقْسم كذلك الوزراء". فرد وزير الداخلية - الذى كان يحل محل رئـــيس الـــوزراء - قائلاً: " غدًا يوم الجمعة، وهو أول العام وإن شاء الله يتم الاجتماع بعد غد ونؤدى القـــسم فى حضرة صاحب الجلالة وفى حضور حجج الإسلام ".

فقال وزير العدل : " ليس ثمة يوم عظيم البركة مثل يومنا هذا فالجميع مـــستعدون للتضحية بالروح والمال من أجل رقى البلاد، ولا بد لنا نحن الحضور أن نقسم ولا نـــأبى ذلك ".

سُر النواب والمشاهدون سرورًا لا مزيد عليه، لكن هذه الأقوال من قبل الـــوزراء وتلك البشرى بالقسم لم يكن إلا نوعًا من الكذب والبهتان. وكان محمد على ميرزا يكـــن العداء للحكم النيابى. وواقع الحال أنه كان يقوم ببعض الأعمال فى الخفاء إلا أنـــه كـــان

يظهر غير ذلك. وفى نفس هذه الأيام تباحث مع ميرزا على أصغر خان الأتابك الذى كان فى أوربا واستدعاه إلى إيران وأسند إليه زمام الأمر، وكم كـــان عمـــر هـــذه الـــوزارة قصيراً!!!

وتساءلوا عن الإدارات التابعة لكل وزير وعملها فأورد وزير الداخليـــة الجـــدول التالى :

وزارة العدل : تختص بإدارة المحاكمات الداخلية.

وزارة الخارجية : تختص بإدارة التشريعات، وإدارة الجوازات، وإدارة المحاكمات الخارجية، والإدارة السياسية وإدارة القنصليات .

وزارة الداخليـة : تختص بإدارة الولايات، وإدارة البرق، وإدارة البريـــد، وإدارة الشرطة، وإدارة السجون، وإدارة البلدية، وإدارة البوليس وحرس الحدود وإدارة الحفـــاظ على الصحة.

وزارة المالية : تختص بـــإدارة الـــضرائب، وإدارة الجمـــارك، وإدارة الأمـــلاك الحكومية، وإدارة سك العملة، وإدارة الوظائف وإدارة التفتيش على المحاسبات .

وزارة الحربيـة : تختص بإدارة المخازن، وإدارة الذخيرة، وإدارة السلاح، وإدارة المصانع الحربية، وإدارة أركان الحرب، وإدارة المحاسبات العسكرية، وإدارة المدفعيـــة، وإدارة الفرسان، وإدارة المشاة، وإدارة المحاكمات العسكرية وإدارة البحرية.

وزارة العلوم : تختص بإدارة المدارس، وإدارة الأوقـــاف، وإدارة المطبوعـــات، وإدارة الحفريات والمتاحف، وإدارة المطابع الحكومية وإدارة الآثار القديمة.

وزارة المنافع العامة : تختص بإدارة الطرق والشوارع، وإدارة المنـــاجم، وإدارة تمهيد الطرق والسكك الحديدة والغابات.

وزارة التجارة : تختص بإدارة التجارة، وإدارة المحاكمات الخاصة التجارية الداخلية، وإدارة الفلاحة وإدارة الصناعة.

وكانت هذه هى أول وزارة قانونية تقدم إلى المجلس، وأحد الأحداث التى وقعت فى تلك الفترة فى طهران أن الحاج الشيخ فضل الله اتهم طالبوف بالإلحاد بسبب بعض ما كتبه فى كتاب مسالك المحسنين، ونشر هذا فى الصحف وكتب مقالاً فى صحيفة الحبل المتين بخصوص ذلك ولعل ما حدث كان سببًا دفع بطالبوف إلى عدم الذهاب إلى طهران !!

بعض أحداث تبريز :

أثناء ذلك، وفى نهاية العام حدث فى تبريز بعض الأمور. وكما ذكرنا، كانت قلة الخبز سببًا للأزمة. وعندما خفضت الجمعية ثمنه إلى ثمانية عباسى اشتد وقع ذلك على الخبازين وكانوا يسعون لإفساد الأمور. لذا فإن أصحاب الضِّياع الذين كانوا لا يوافقون على الحكم النيابى فى قرارة أنفسهم كانوا يمتنعون عن بيع الغلة، وطلب المجلس من نظام الملك أن يضغط عليهم ويحثهم على بيعه، وأبدى نظام الملك الموافقة على ذلك، بيد أنه لم يسع فى الخفاء إلا لإفساد الأمور. وتجمع بعض الأحرار فى الجمعية وطالبوا أن يؤذن لهم ليتولوا هم الأمر، لكن الجمعية اعتبرت ذلك سببًا لنشوب الفتن وحالت دون وقوعه.

وفى الثلاثين من شهر بهمن (السابع من محرم) عاد مير هاشم الدوتشى من طهران، وكما أسلفنا، كانوا قد طردوه من تبريز ثم اختارته جمعية الولاية عضوًا من أعضاء آذربايجان الاثنى عشر إرضاء لأهالى الدوتشى وتقديرًا لجهودهم، وأرسلت بطاقة ترشيحه برقيًا. وكان مير هاشم يذهب إلى المجلس طوال عدة أيام كى يشارك فى المداولات، ولكن لا يعلم لماذا اعتزل. وكما أسلفنا، عاد إلى تبريز وليست لدينا معلومات صحيحة فى هذا الصدد، وربما كان راغبًا فى العودة إلى تبريز وقبلت الجمعية ذلك

إرضاء لأهالى الدوتشى، وسرت بعودته، وكانت تعقد الأمل على أن ميـر هاشـم نـسى الماضى وسوف يقدم على التعاون بقلب شغوف. وعلى هذا الأمل فإنه بعد ذلك بعدة أيـام توجه بعض أعضاء الجمعية إلى داره وأخذوه وأحضروه إلى الجمعية بكل إكرام وإعظام وجعلوه أحد النواب.

كما أن نائبين من أعضاء المجلس، وهما الحاج إمام الجمعة خويى والحاج محمـد آقاى الحريرى كانا قد تخلفا عن الذهاب، فقاما فى يوم الأربعاء السابع من شـهر أسـفند (الثانى من محرم) بإغلاق الأسواق، فأرسل فى استدعائهما، فتحرك كلاهما عن طريـق القوقاز كذلك. وفى ليلة الإثنين الثانى عشر من شهر أسفند (التاسع عشر من محرم) وقع حادث عجيب وهو أن الحاج ميرزا حسن الميلانى - أحد نواب الجمعية - قد تم إطـلاق الرصاص عليه فى الطريق وقت خروجه من الجمعية متجهًا إلى داره برفقة أحد الخـدم، فاخترقت الرصاصة كتفه وخرجت من فمه وفر الجانى ولم يتعرفوا عليه وحملوا الحـاج ميرزا حسن إلى داره وظل طريح الفراش فترة حتى تحسنت حالته. وقد أطالوا البحـث عن الجانى دون العثور عليه. ولما كان الحاج ميرزا حسن تاجرًا مُسالمًا لا أعداء له، كان الشك فى أعداء الحكم النيابى حيث قاموا بهذا العمل على سبيل الانتقام أو للإرهاب.

وذكرنا من قبل أن مسيو نوس قد سيطر عليه الغضب ولم يقدم حـساباته، ولمـا كانت إدارات الجمارك والبريد فى يد البلجيك، فقد غيروا معاملتهم مع مرءوسـيهم مـن المسلمين، كما أعلنوا سخطهم ولم يكفوا عن السب والقحة، هذا فما كان من الجمعيـة إلا أن أبرقت إلى دار الشورى ببرقية مطولة مرة ثانية وأبدت استياءها من ضعف وخنـوع النواب أمام الوزراء والبلجيكيين (وأسلفنا أن هذه الشدة كانت بالغة الأثر فما قررت وزارة على النحو الذى كان يريده المجلس كما ضغطوا على نوس كى يقدم حـساباته) كمـا أن موظفى الجمرك والبريد فى تبريز أخذوا يتمردون على رؤسائهم الأوربيين وسحبوا أيديهم من العمل وقالوا لن ننجز أى عمل ما دامت الإدارات لم تسحب من يد الأوربيين وأيدتهم

الجمعية وأبرقت إلى دار الشورى واستاء الجميع من بذاءة لسان البلجيكيين، وكثيرًا ما شكوا فى الجمعية من سلوكهم، وطالبت الجمعية بأنه كما رحل نوس ينبغى أن يرحل كذلك غيره من البلجيكيين. وكان ذلك يزيد من أهمية ثورة موظفى الجمرك والبريد وفضلاً عن البرقيات التى أبرقت إلى دار الشورى ونواب آذربايجان الذين كانوا هناك، أرسل الحاج ميرزا حسن المجتهد وثقة الإسلام والحاج ميرزا محسن برقية إلى الشاه وطالبوا بعزل البلجيكيين. لكن هذه المساعى لم تثمر عن أية نتيجة، وحتى لا يطول هذا التذمر، أقبلوا على كف أيدى البلجيكيين عن العمل دفعة واحدة وهكذا أثمرت جهود الجمعية عن نتيجة مهمة وهى أنهم أرضوا رؤساء الجمرك والبريد فى تبريز وقد كانوا من الموظفين الثائرين، كما بشروهم بعمل أفضل وأقاموهم على العمل ثانية .

وعمل آخر من أعمال الجمعية تم فى هذه الأيام وهو تشكيل محكمة الاستئناف، فكما أسلفنا، إنه فى بادئ الأمر كانت الجمعية تقوم بالتحقيق ونشر العدل ثم شكلت المحكمة بعد ذلك، والآن ظهرت محكمة الاستئناف أو المحكمة العليا، علمًا بأنه لم يكن قد سن قانون بعد للقضاء ولم يصل من طهران إذن بهذا، ولكن لما كانت حاجة الناس ماسة لذلك أقدمت الجمعية على هذه الخطوة.

أول ربيع للحرية :

أثناء ذلك حل شهر فروردين (١٢٨٦ هـ.ش – ١٩٠٧م) وبدأ فصل الربيع وكان هذا بالنسبة للإيرانيين هو أول ربيع فى عهد الحرية كما كان من أسعد أوقاتهم. وبذل جمع كبير من الناس كل جهد بقلوب مفعمة بالأمان والآمال فى سبيل رقى البلاد، وكان الجميع يعمل من الشيخ والشاب، والثرى ورقيق الحال ورجل الدين والعامى، حتى ضعفت الأهواء والضغائن وغلبت على الجميع الرغبة فى تقدم الدولة وشعبها.

وحدث فى تبريز فى هذا الربيع عمل عظيم وهو التدريب العسكرى والرماية، وقد بدأ هذا الأمر فى فصل الشتاء إلا أن ازدهاره كان فى الربيع.

وكما أسلفنا، وعلى مدار عدة شهور، كانت الأسواق تغلق فى أيام الجمع بأمر من الجمعية وكان الناس يجتمعون فى ثلاثة مساجد وكان ثلاثة من الخطباء – وهم : الشيخ سليم وميرزا جواد وميرزا حسين – كل منهم يعتلى منبرًا فى أحد هذه المساجد ويخطب فى الناس، وكان التوفيق حليفهم وبخاصة ميرزا حسين الذى صار له عظيم النفوذ، وكان ذلك الرجل يتلو الشعر الحماسى بصوت جهورى باللغتين الفارسية والتركية، ويتحدث بأحاديث مؤثرة تهز القلوب هزًا، واتجه الناس إليه. وكان مسجد ميرزا مهدى يغص بالناس رغم سعته، حتى إن الناس كانوا يقفون فى الطرقات.

وظل هؤلاء الثلاثة يزاولون المهمة فترة طويلة، إلى أن قام بهذا العمل من بعدهم المغفور لهما ميرزا على ويجويه اى والحاج الشيخ على أصغر ليلاوايى، وصار كلاهما من وعاظ الحكم النيابى. كما أننى أتذكر أيضًا الشيخ محمد الذى كان يصعد إلى المنبر ويتحدث عن الحكم النيابى وعن الحرية، إلا أنه لم يكن فى مستواهما ولم يكن مشهورًا مثلهما، فقد كانا يتحدثان عن القانون والمساواة والتضامن وما شابه ذلك، ويبشرون الناس بالمستقبل، وكثيرًا ما كانا يستشهدان بالآيات القرآنية والأحاديث النبوية ملتمسين منها الدليل على ما يقولان. مع أنهما كانا لا يدركان معنى الحكم النيابى ونتائجه على النحو الذى كان يعرفه به الأوربيون ولم يكن لهما علم بالسياسة أو بالعلاقات مع الجيران. ولكن كثيرًا ما تحدثا عن عجز الدولة، كما ذكرا هزيمة فتح على شاه والتنازل عن القوقاز وما أشبه ذلك من أخبار وكانا يحمسان القلوب بذلك، كما حثا الناس على حمل البنادق وتعليم الرماية والقتال، وكانت هذه رغبة الأئمة جميعهم، ولما تحمس الناس ونهضوا جميعًا على أمل الجهاد والتضحية بالروح فى سبيل البلاد كانوا ينتفضون كلما تحدث الخطباء فى هذا

الصدد، واشترى عدد كبير من أهالى السوق وغيرهم البنادق والرصاص، وكانوا يجتمعون أيام الجمع خارج المدينة ويتدربون على الرماية أو الفروسية.

لقد شرعوا فى ذلك منذ الشتاء ولكن حينما حل الربيع، زاد نشاطهم وسعيهم وقللوا كثيرًا من التنزه والتسلية، وزادوا من هذا العمل.

و "هكماوار" - التى كانت محل إقامة أسرتنا - كانت إحدى متنزهات تبريز، وفى الربيع حيث الخضرة وارتداء الأشجار المورقة حلة بيضاء من زهر اللوز، واخضرار الأرض على امتدادها وامتلاء الجو بعبق الزهر والنور، كان سكان المدينة فى الأعوام السابقة يتجهون فى الربيع إلى هناك فى مجموعات وينتشرون فى الحدائق وهم يلهون ويمرحون، وكانت الجلبة ترتفع من كل الأرجاء، وأثناء ذلك كان سعاة البلاط وخدمه ينتشرون هنا وهناك يسكرون ويعربدون ويثيرون الضوضاء والجلبة، لكن فى هذا الربيع أذكر جيدًا أنه لم يُشاهد فى هذه الحدائق سوى مجموعات قليلة، وإذا ما اقتربنا منهم وأصغينا إليهم نجدهم جميعًا يتحدثون عن البلاد وتقدمها، ولا وجود لخدم ولا وجود لمن يسرف فى شرب الخمر.

ومن ناحية أخرى، كان الناس يجتمعون فى مجموعات أيام الجمع خارج پل آجى حيث الصحراء والفيافى راكبين أو سائرين، وكان الفرسان يتدربون على الفروسية ويتدرب المشاة على الرماية. وفضلاً عن الكبار، فقد أعدوا البنادق الخشبية للأطفال الذين كانوا يجتمعون فى ركن ويتعلمون الرماية.

كانت هذه هى الخطوة الأولى وبعدها سلكوا طريقًا أفضل حيث كانت تقوم طائفة بالتدريب على القتال فى ضاحية ما برئاسة أحد القادة، وكان الشاب والشيخ والثرى ورقيق الحال يصطفون ويدقون الأرض بأقدامهم على صوت (واحد اثنين). وكان رجال الدين والسادة يحملون البنادق على أكتافهم مع ما كان لهم من عمائم وثياب طويلة

ويتدربون كغيرهم. وعلى هذا النحو كان فى كل ركن ثكنة وكانوا يعدون أدوات الموسيقى وغيرها من الأدوات كما ارتدت بعض الجماعات ثيابًا موحدة، ولفرط حماسهم لم يكتفوا فقط بأيام الجُمع بل عزموا على القيام بنفس العمل فى سائر الأيام. وفى كل يوم يغلقون الأسواق، وكان بائعو القماش وبائعو السكر والصفارون والسماسرة والتجار وغيرهم يسرعون إلى ديارهم ويغيرون ثيابهم ويحملون البنادق ويتجهون إلى ثكنة حيهم ويقومون هناك بالتدريب مع غيرهم. ومع نهاية كل يوم تعلو أصوات الطبول والنفير وإيقاع الخطوة العسكرية. وعظم أمرهم يومًا بعد يوم وتبدل حال المدينة دفعة واحدة وكان حديث الجميع يدور حول شراء البنادق والتدريب العسكرى والاستعداد للقتال والتضحية بالروح. وإذا ما عبرت الأزقة والحوارى كنت تسمع الأطفال يرددون هذا الشعر :

لتحيا الحكومة النيابية، ولتزهر ورودها

ولتحيا الأمة الإيرانية، ولتهنأ

بلغت أنباء هذه الانتفاضة وما صاحبها من حديث عن البلاد والحفاظ عليها مختلف الأنحاء، وكانت هذه الأمانى تعم جميع الأرجاء دون إحراز نتيجة مؤكدة سوى فى تبريز، وأقل منها فى الرشت، ولهذا قام أبو السادات الكربلائى ومعتضد العلماء نامانى فى طهران بارتداء سود الثياب وحملا البنادق على كتفيهما وقاما بالتدريب العسكرى وانضمت إليهما جماعة، ولكن قد فتر الحماس بعد فترة، وذلك لأن الأئمة لم يؤيدوا ذلك ولم يتحمسوا له، كما لم يسمع أن المجلس قد بارك هذا الأمر، أضف إلى ذلك أن السيدين اعتبراه سببًا لنشوب الفتنة.

ولكن فى تبريز، ففضلاً عن أن معظم الناس كانوا يبغون ذلك من أعماق قلوبهم، واتجه كثيرون إليه وكلهم أمل، كما أبدى الأئمة تأييدهم، والأكثر من ذلك تولوا حراسة "المعسكر السرى" وهذا دليل على حكمتهم حيث إن توزيع معدات الحرب بين الناس يمكن

أن يثير المخاوف. ولكى يحولوا دون وقوع الفتنة وإراقة الدماء وينجزوا العمل على خير وجه كان ذلك المجلس السرى يبدى جدارته فى تنفيذ ذلك.

وكان هذا المجلس يسعى لإيجاد طائفة من المحاربين تحت اسم "مجاهد ". وللحقيقة كان يعد جيشًا من بين أفراد الشعب وجعل وسيلته إلى ذلك شراء البنادق والتدريب على الرماية مستعينًا فى ذلك بالخطباء وغيرهم، حيث لم يكفوا عن التأييد والمساندة .

تقدم الحكم النيابى فى مدن آذربايجان :

على هذا النحو حل ربيع تاريخى عظيم، وما كان يظهر من محمد على ميرزا من بعض المساوئ واضطراب الأمن فى كثير من الأرجاء كانت الدولة تقف للحيلولة دون ذلك. ومن ناحية أخرى شاع فى نفس هذه الأيام القول بعودة ميرزا على أصغر خان الأتابك بعد أن استدعاه محمد على ميرزا. وكان يفهم من ذلك كله عدم رضا محمد على ميرزا عن الحكم النيابى، ولا شك أن ذلك كان سببًا للخوف والخشية، ومع هذا انقضى عهد سعيد مشرق وظهرت الانتفاضة فى جميع أنحاء البلاد، وكان الناس جميعًا يسعون للخير يحدوهم الأمل والحماس، ولم يحدث حتى الآن صراع أو انقسام بينهم، وفضلاً عن المدن الكبيرة، كانت الانتفاضة والحركة قد انتشرت فى البلدان الصغيرة .

ففى آذربايجان ظهرت الانتفاضة فى جميع المدن كخوى وأرومى وأردبيل وساوجبلاغ وسلماس ومراغه وماكو وبناب وغيرها من المناطق، ولما ظهر فى بعض منها الصراع والنزاع نتيجة للجهل بمفهوم الحكم النيابى أو بسبب الضغائن والأحقاد القديمة رأت جمعية الولاية أنه من الأفضل أن توجه بالمبعوثين إلى هناك لتستقر الأوضاع فيها. وفى أردبيل ذكرنا أن الحيدريين والنعمتيين أقام كل جانب منهما جمعية خاصة، ووقع بينهما عراك وسلب ونهب، ورحلت الجمعية الحاج إسماعيل آقا أمير خيزى مع شخصين آخرين، ولما بلغوا أردبيل ألغيت الجمعيتان بمعاونة تقى خان رشيد الملك

الحاكم هناك وشكلوا جمعية أخرى، والأشخاص الستة الذين اختيروا للنيابة، هم : الحاج ميرزا فخر الدين شيخ الإسلام، الحاج ميرزا إبراهيم، الحاج ميرزا يعقوب، الحاج محمد حسين، ميرزا إبراهيم أرباب وآقا عبد الخالق. وضرب رشيد الملك أولئك الزعماء الذين كانوا سببًا فى هذا الصراع بالعصى وطردهم من المدينة. وعلى هذا النحو كانت حركة أردبيل. وفى مراغه أقاموا جمعية، وعم السخط قليلاً، وأرسل مجلس الولاية الشيخ إسماعيل الهشترودى إلى هناك فأطاح بالمجلس السابق وأقام مجلسًا آخر وكان من بين من اختيروا ميرزا محمد حسن المقدس ومير آقا صدر السادات، وكان المغفور له المقدس من رجال الدين الورعين الغيورين يسعى بقلب شغوف لتقدم الحكم النيابى. وكما أسلفنا كان الحاج ميرزا شكوهى من الأحرار المستنيرين هنا.

وفى بناب ظهر السخط بين الجمعية وسيف العلماء وسعى الهشترودى للقضاء على ذلك، وكان الحاج سيف الله (أحد التجار) من المطالبين بالحكم النيابى هناك.

والأعظم من هذا كله كانت فتنة ماكو. وهنا تحرك الناس أيضًا فى انتفاضة وكانوا يأملون الجهاد، ولكن إقبال السلطنة الذى كان هو وآباؤه يحكمون منذ زمن طويل وقد تأصلوا هناك لم يقبل هذا وكان يحول دون فتح الجمعية، وكان ابن اخته عزت الله خان يبدى ميله للمطالبين بالحكم النيابى ويظهر عداءه لخاله، ومع هذا كله لم يتقدم بالمساعدة فى إقامة الجمعية واضطروا لطلب الحل من جمعية الولاية.

وأرسلت جمعية الولاية ميرزا جواد ناطق إلى هناك ودخل خوى فى البداية، ومكث بضعة أيام هناك فى دار الحاج ميرزا على أصغر آقا أحد التجار المؤيدين للحكم النيابى، وجعل يتحدث كثيرًا عن الجمعية وغيرها ثم اتجه إلى ماكو. ولما كان إقبال السلطنة مقيمًا فى إحدى القرى على بعد عدة فراسخ من المدينة ذهب لزيارته واعتذر إقبال السلطنة قائلاً : "هنا حدود ثلاث دول، وأنا ملتزم بتوفير الراحة والأمن بالمنطقة، وإذا ما أقيمت

الجمعية سيتمرد الناس وسينفرط زمام الأمور". ورد عليه ناطق وأبعده عن التفكيـــر فـــى قتال الناس ومعاداتهم ثم اتجه من هناك إلى ماكو وأقام مجلسًا بمعونة الأحرار لكننا سوف نرى ما أعقب ذلك من أحداث مؤسفة.

عداء المجتهد للحكم النيابى :

على هذا النحو كان مجلس الولاية يسعى لتقدم الحكم النيابى فى جميع الأرجـــاء، لكن فى أواخر شهر فروردين نشبت فتنة ذات جذور فى تبريز نفسها وهى عداء الحـــاج ميرزا حسن المجتهد وبعض نواب مجلس الولاية للحكم النيابى، وأفضى هذا الأمر إلـــى طرد المجتهد من المدينة ومع أن هذه الفتنة انتهت بانتصار الأحرار إلا أنه قـــد أعقبتهـــا أحداث جسيمة وأوجدت أول تصدع فى بناء التضامن بين الشعب.

وينبغى القول : إن حركة الحكم النيابى قامت بغتة فى إيران، وشارك فيها جميـــع أفراد الشعب من العلماء والعامة والأثرياء والفقراء، إلا أن هذه الطوائف لم تكن متساوية فى غُنْمها وغُرْمها وكان ينبغى أن يحدث الانفصال بينهم فى موضع ما، وإذا كانوا متفقين فى التطلع إلى فائدته والحفاظ عليه فلم يكن فى مقدورهم الاتفاق على الوسيلة والطريقة.

ورجال الدين الذين تدخلوا فى الحكم النيابى لم يكن كثير منهم (ولـــيس جمـــيعهم) يدرك مفهوم الحكم النيابى، وكانوا يظنون أنه حينما يسحب زمام الأمور من يـــد الـــبلاط سوف يودع فى أيديهم على التو، لكنهم رأوا عكس ذلك رويدًا رويدًا .

وفى تبريز ظهر المجاهدون كقوة منفصلة وزاولوا الأعمال بأنفسهم فاشتد وقع ذلك عليهم، لذا فإن الأثرياء وأصحاب الضياع لم يلتفتوا إلى من هم تحت إمـــرتهم ولا إلـــى مواجهتهم. وأثارت حفيظتهم أعمال المجلس الأخيرة كالقضاء على الإقطاع والتسعيرة وما أشبه ذلك، وكان أن فترت همة الطائفتين واضطروا لأن يتنحوا عـــن مـــساندة الـــشعب.

والمجتهد - الذى كانت له المكانة بين رجال الدين كما كان ضمن أصحاب الضياع - فترت همته أكثر من سواه وقام بالانفصال قبل غيره. وطبقًا لما وصل إلينا من أخبار كان بينه وبين نظام الملك اتفاق بالقضاء على الجمعية، ولجرأة المجتهد كان يعتبر مثل هذا الأمر أمرًا سهلاً، وما حدث أن : قراچمن (أو كما يسمونها حديثًا سياه چمن) كانت قرية كبيرة تقع على أول الطريق إلى طهران وهى تقع على بعد ما يقرب من سبعة عشر فرسخًا من تبريز، وكان الناس هناك يتناقشون مع الحاج محمد على مالك القرية أو مستأجرها، وكان المجتهد يؤيده ويوصى به نظام الملك الذى كان يتحين هذه الفرصة، فأرسل نصر السلطان حاكم ميانج ومعه مائة فارس ومائة من المشاة إلى قراچمن واستولوا عليها، وما كانوا يعرفون حدًا للجور والعدوان. وقيل إن ثلاثة من الأطفال ماتوا رعبًا واقترب الموت من بعض النسوة، ثم أضرموا النار فى بعض الديار. ولما هربت جماعة من أهالى قراچمن إلى قرية أرومدل تعقبوهم وأعملوا فيهم القتل هناك .

وحينما وصلت تلك الأنباء إلى تبريز استاء الجميع، وفى مساء يوم الجمعة الثانى والعشرين من شهر فروردين (الثامن والعشرون من صفر) اجتمعت طائفة من الطلبة وأهالى قراچمن وغيرهم فى فناء الجمعية وطالبوا بالإنصاف وهم ينوحون، وارتفع الضجيج، ومع هذا فقد كانت الجمعية خالية، ولم يكن هناك سوى بعض الحرفيين، فما كان منهم إلا أن تفرقوا فى ذلك اليوم ومضوا إلى حال سبيلهم !!

وفى غد السبت اجتمعوا فى فناء الجمعية، ولما وصلت رسالة من أهالى قراچمن تطلب الإنصاف تلوها وبكى البعض تأثرًا بها، ولم يحضر معظم نواب الجمعية. حقيقة أنهم كانوا لا يريدون الاهتمام بالحدث ويقضون عليه بعدم المبالاة وكان بعض زعماء الحرفيين يقولون : "أرسلنا ثلاثة مبعوثين إلى القرية حتى يحققوا فى الحادث ويطلعونا على حقيقة الحال". واعترض المغفور له الشيخ سليم قائلاً : " أية حاجة ماسة إلى التحقيق فى حادث له مثل هذا الوضوح ؟! وما ينبغى عمله هو أن يلقوا القبض على الحاج محمد

على الذى كان أساس هذا الضرر وأن يزجوا به فى السجن، وأن يُسأل نظام الملك لمَ أمر بمثل هذه المذبحة وهذا السلب والنهب؟!" .

وترتب على ذلك أن اختاروا ثلاثة أعضاء أرسلوهم إلى نظام الملك، وفى اللحظات الأخيرة وقد اجتمع الناس ثانية بالجمعية، عادوا وعرضوا الآتى : " كان نظام الملك يقول بداية إن ما يقولونه كذب صراح وإن الفرسان لم يقوموا بالسلب والنهب وما قتلوا أحدًا ". ولما ضغطنا عليه رد قائلاً : " إن الحاكم الشرعى لكم هو حاجى ميرزا حسن آقا الذى هو صاحب الحكم النافذ، وقد حكم فنفذت أمره ". كما قالوا إن نظام الملك كان قد أمر باعتقال الحاج محمد على والزج به فى السجن، لكنه لما علم بذلك تعلق بأذيال الفرار واعتصم فى دار الحاج ميرزا حسن.

واتخذ الأمر لونًا آخر من هذه الأخبار وتعقب الناس الحقيقة وعلموا أن المجتهد بدأ يظن ظن السوء بالحكم النيابى، واستقر رأيهم على أن يغلقوا الأسواق من الغد ويجتمعوا فى المجلس ليجدوا حلاً لهذا الأمر.

وفى غد الأحد أغلقوا الأسواق واجتمعوا فى المجلس وصرحوا قائلين: " ينبغى أن يأتى المجتهد ويذكر فى حضرة الأئمة لماذا قام بما قام به؟".

وكما أسلفنا كان كثير من النواب يتعاطفون مع المجتهد، لذا كانوا يسعون لإسكات الناس لكنهم لم يلزموا الصمت. أثناء ذلك طلبوا من الشيخ سليم أن يحاول إسكات الناس، ولما كان الشيخ مؤيدًا لرغبة الناس لم يرتض هذا، وسبه النواب ولم يحترموه، فاستاء الشيخ من ذلك وغادر الجمعية.

ولأول مرة يظهر فى مجلس تبريز سوء نية، إذ كان النواب يخرجون الناس من المجلس وأرسلوهم لفتح الأسواق ولكن الناس اعترضوا وخاصة المظلومين منهم، ولما رأوا سوء السلوك من نواب المجلس اجتمعوا هذه المرة فى مسجد الجمعة وقاموا

بالصراخ والعويل، ومن بين شكواهم سوء المعاملة التى كانت من المجلس تجـاه الـشيخ سليم.

من ناحية أخرى، فإن نواب الجمعية - الذين ساءت نياتهم - عندما اطلعوا علـى جلية الأمر، أرسلوا البعض وفرقوا الناس من المسجد، ولإرضائهم اقترحوا أن يختـاروا أربعة من الأئمة ويرسلوهم إلى قراچمن للتحقيق والمساءلة، ولإخفاء معالم الحـدث لـم تنشر صحيفة الجمعية إلا خبرًا مختصرًا ولم ترفع النقاب عما صنع المجتهد وأعوانه .

الانقسام بين المجلس والمجاهدين :

كان الظن أن الأمر قد انتهى عند هذا الحد. لكن من ساءت طويتهم لـم يخلـصوا النية، ففى اليوم نفسه تحدثوا فى المجلس عن ضرورة طرد الشيخ سـليم مـن المدينـة، فتأييده للشعب والاعتراض الذى أبداه فيما يختص بأحداث قراچمن كان شديد الوقع عليهم وقالوا : " إن فضيلة الشيخ كان سببًا للفتن فى المدينة كل يوم، وينبغى إقصاؤه منها ". ولم يكتف البعض بهذا وطالبوا أيضًا بطرد آقا ميرزا على ويجويه وغيره. ويبدو واضحًا أن أيدى المجتهد ونظام الملك كانت وراء ذلك .

وأرسل الشيخ سليم نفسه رسالة قال فيها : عندما اختاروه للنيابة فى دار الـشورى لم يسمح الناس له بالذهاب، والآن يجب أن يعطوه بطاقة ترشيح ويرسلوه إلى طهـران. وقد سر النواب الذين ساءت نياتهم بهذه الرسالة ورأوا فيها طريقًا أفضل لطـرد الـشيخ، واقترحوا أن يقدموا إليه بطاقة الترشيح وأن يرسلوه، وبهذا الاقتراح أنهوا الجلسة.

لكن المجاهدين والشعب المطالب بالحرية استاءوا من ذلـك واعتبـروا تـصرف الجمعية هذا نتيجة لسوء نياتهم بعض النواب. فى بادئ الأمر كان حسن الظن بكل شخص من الأئمة وأصحاب النفوذ قائمًا، وكانوا بذلك يحرزون السبق والتقدم. ولكن فى غضون

الشهور الستة وصل الأمر إلى حد أنهم لم يكونوا يهتمون بهـذا أو بـذاك ولـم يعـودوا ينخدعون باسم الجمعية، وأدركوا أين يوجد النفع أو الضرر. وهكذا لم يخضعوا لاقتـراح الجمعية، وفى الأربعاء السابع والعشرين من شهر فروردين (الثالث مـن ربيـع الأول) مضت جماعات إلى دار الشيخ سليم ومير هاشم وغيرهما وأحضروهم فى إجلال إلـى مسجد الجمعة، وبصفتهم من أرسوا أساس الحكم النيابى أعلنوا عـن تـضامنهم معهـم، وعاهد كل منهم الآخر بالسعى والفداء. وعلى هذا النحو رفعوا النقاب عن سخطهم مـن تصرف الجمعية وسلوكها. وعلى هذا ظهر الانقسام بينهم وبين الجمعية (أو بعبارة أصح مع النواب الذين ساءت نياتهم). وهذا الأمر كان له أهمية كبيرة فى تقدم الشعب؛ لأنه كان يوضح أنه مثلما تخلص جمع كبير من الناس من تحت وطأة رجال البلاط، فإنهم كـانوا يبغون التحرر كذلك من وطأة رجال الدين.

فتحوا الأسواق يومى الخميس والجمعة وساد الهدوء فى الظاهر، لكن فى الخفـاء كان الاستعداد للفتنة ماثلاً، حيث كان المجتهد وعماله يدبرون لشىء ما، حيث لم يتغاضَ المجتهد عن أحقاده التى تولدت عن عجزه فى طرد ثلاثة وعاظ من المدينة.

ومن ناحية أخرى، ففى هذه الأيام نفسها وصلت صحيفة المجلس وبعض الرسـائل من طهران تفيد بإلغاء " الإقطاعيات " و " التسعيرة "، ولهـذا تـضايق بعـض النـواب أصحاب الضياع فى الجمعية من الحكم النيابى، وكان من بينهم الحاج نظام الدولة وبصير السلطنة وملك التجار، كما غضب كذلك أصحاب الضياع الآخرون.

وفى يوم السبت علم أن الحاج ميرزا حسن جمع حاملى البنادق فى داره، ومـضى أشخاص كثيرون إلى هناك، لذا استدعى نواب الجمعية ورؤساء الحرفيين كذلك إلـى دار الحاج ملك التجار، وكان البعض يعلمون حقيقة الأمر وبعضهم لا علم لهم بشىء، وحينما اجتمعوا هناك تحدث الحاج ملك التجار قائلاً : " ينبغى أن نمضى إلى دار المجتهد وتنعقد

الجلسة هناك". وتوجس بعض رؤساء الحرفيين وعادوا أدراجهم من منتصف الطريق لكن الباقين رافقوا الحاج نظام الدولة والحاج ملك التجار، ودخلوا دار المجتهد وهنا كان البهو مملوءًا بالناس وكانت جماعة من حملة البنادق الذين جاء بهم المجتهد من بين أتباعه ومن القرويين يقفون فى الفناء أمام نافذة الحجرة، وقد ظهر المجتهد بين أتباعه وأعوانه من المزارعين وجعل يتحدث ثم التفت إلى الحاج نظام الدولة والحاج مهدى آقا، وقال : "أنتما رئيسا الجمعية وزعيماها ولى بعض المطالب أريد أن أعرضها عليكما ". فأجابا عليه قائلين : " تفضل ". فتحدث المجتهد، وفى النهاية طالب بطرد الشيخ سليم وميرزا على الواعظ وغيرهما (لم يذكر أسماءهم). وبعد حديثه وقف إسماعيل خان – وهو من أتباعه ومن حملة بنادقه – جانب نافذة البهو وقال بصوت جهورى : " يا جناب السيد إن سلمان عقد السيف وحده على ردائه وتقدم ليكون فى عون الشريعة، ولكن نحن اليوم مائة رجل وكلنا عقدنا السيوف فوق أرديتنا" [1]. قال هذا ورفع بندقيته وعرضها على حملة البنادق الآخرين ثم صاح بصوت أقوى قائلاً : " نحن على أهبة الاستعداد وفى إمكاننا أن نجتز رأس من تريدون اجتزاز رأسه ونأتيكم بها". فوافقه الحاضرون قائلين : " حيثما وجدناهم قتلناهم". واستمر فى ترديد مثل هذا الكلام وكانت رغبته إثارة حملة البنادق وغيرهم.

وكان يحضر فى هذه الجلسة بعض المجاهدين فضلاً عن رؤساء الحرفيين حيث سمعوا عن اجتماع الجلسة وقدموا للتباحث والتشاور، وكان الجميع يعلمون أن إسماعيل خان يلقى إليهم السمع، ولكونهم فقراء وقلة فلم يستطيعوا الرد إلا أن السيد كريم الذى كان فى عداد رؤساء المجاهدين لم يملك أن يصمت ونهض والتفت إلى إسماعيل خان قائلاً : "لمَ عويلك ونواحك هذا؟! إن الشعب لم يخف من مدافع وبنادق الدولة ونال حقوقه وأنت

---

[1] هذه قصة فحواها أن الإمام على بن أبى طالب حين قام مطالبًا بالخلافة تقلد سلمان فقط من بين أتباعه السيف على ردائه وخاف الآخرون وجعلوا السيوف تحت ثيابهم. (المؤلف).

تريد الآن أن ترعب الناس ببعض حملة البنادق ؟!.. أتريد إثارة الفتنة ؟ لا وجه للصياح والعويل، الزم الصبر وكل ما حكم به السادة سيكون موضع التنفيذ ".

وكان لشجاعته هذه أهميتها وقللت من حدة من ساعت نياتهم، ولما اطلع رؤساء الحرفيين والمجاهدون على بواطن الأمور ولم يروا مجالاً للرد أو الاعتراض خرجوا من الجلسة واحدًا واحدًا، وألح المجتهد على طلبه، وفى النهاية كتب أمرًا باسم الجمعية في شأن طرد هؤلاء الأربعة وختم بخاتم الجمعية، واستدعوا رفيع الدولة بيجلر بيجي إلى هناك وسلموه الأمر على أن يطرد هؤلاء الأربعة قبل غروب الشمس .

وعلى هذا النحو أنهوا الجلسة، ولما كان الأمر برغبة المجتهد وفي داره وباسم الجمعية لذا كانوا يعدون نظام الملك مؤيدًا لهم وما كان ظنهم إلا الظفر بتحقيق ما يريدون. ولكن فى الخارج فبمجرد أن أذيعت هذه الأنباء اضطرب حال الأحرار وقاموا بالانتفاضة والشغب، وفى فترة قصيرة أغلقوا الأسواق واتجهوا نحو الجمعية وحينما وجدوها خالية أرسلوا فى التو بعض من يحضرون الأئمة (الذين لم يتراجعوا حتى الآن عن الحكم النيابى)، وكذلك للبحث عن النواب الذين عرفوا بتأييدهم له. وجمعوا رؤساء الحرفيين الواحد تلو الآخر، وكما قيل أرسل بيجلر بيجى الفراشين إلى دار ميرزا على حتى يخرجوه على الفور فاتجهت جماعة إلى هناك وأخرجت الفراشين من الدار. لذا حينما اجتمع النواب قاموا باستجوابهم : " لماذا توقعون خارج الجمعية على أمر بطرد بعض الأشخاص نزولاً على رغبة هذا أو ذاك ؟ وقالوا : " إن الجمعية موئل الشعب وإذا كانت هناك الرغبة فى طرد شخص من المدينة ينبغى أن يوضحوا جرمه هنا، وبعد ذلك يطردونه، وهؤلاء الذين أمرتم بطردهم أى ذنب بدر منهم ".

وعجز النواب عن الجواب، وقالوا : " لقد اضطررنا إلى القيام بذلك". قالوا : "إذن فلترسلوا الآن واستعيدوا تلك الرسالة التى كتبت ظلمًا وبهتانًا". قالوا هذا وألحوا عليه

فمضى بعض النواب والأئمة إلى بيجلر بيجى وطلبوا استعادة الرسـالة، ولكنـه رفـض وحمل الرسالة وسلمها إلى حاجى ميرزا حسن. فتجمهر الناس حتى يـستعيدوا الرسـالة، ولكنه لم يسلمها لهم نتيجة بعض الضغوط !!

أثناء ذلك وقع الشغب داخل الجمعية وخارجها وأخذوا فى ذم المجتهد وأعوانه ومن بينهم حاجى نظام الدولة وبصير السلطنة وحاجى ملك التجار، ولما لـم يحـصلوا علـى الرسالة حتى غروب الشمس نتيجة لضغوط المجتهد، قالوا : " إن هؤلاء أعـداء الـشعب وينبغى أن يغادروا المدينة، ولو لم يغادر المجتهد المدينة هذه الليلة سنخرجه نحن فى الغد " واقترحوا أن يأتوا فى الغد ومعهم البنادق ومعدات القتال وهكذا انقضى ذلك اليـوم ثـم تفرقوا !!

طرد المجتهد من المدينة :

جاءت الأنباء ليلاً أن المجتهد مزق هذه الرسالة وطرحها بعيدًا، لكن النـاس لـم يكتفوا بهذا واقترحوا أن يحضروا إلى الجمعية من كل صوب جماعات جماعات !! وكان العديد منهم يحملون البنادق والمسدسات، وكانت تعد هذه أول ثورة مـصحوبة بمعـدات القتال. كما اجتمع الأئمة الواحد تلو الآخر ووقع الشغب والضجيج والذم ثانيـة وأرسـلوا بعض الأشخاص إلى المجتهد ثانية، وسلموه رسالة بأن يرحل عن المدينة هو وابنه الأكبر حاجى ميرزا مسعود دون إراقة دماء.

لم يكن المجتهد يصدق أن الناس سوف ينفضون عنه دفعة واحدة لذا لـم يرحـل سريعًا، ولكن من ناحية أخرى كان الناس يضغطون بشدة واليوم حمل ثلاثة مـن رجـال الدين البنادق فى الشوارع وعزموا على أن يقاتلوه ما لم يرحـل. ولـم يكـن يظـن أن الإيرانيين الذين عاشوا أعوامًا مديدة تحت سيطرة رجال الدين وهم يؤمنون بأنهم خلفـاء الأئمة ونواب الله على أرضه أن يتجرءوا على القيام بمثل هذا العمل ! وسر هذا الأمـر

الارتباط الشديد من قبل الناس بالحكم النيابى، والتقدم الذى أحرزوه فى معرفة ما يضرهم وما ينفعهم، وسوء السمعة التى كانت للحاج ميرزا حسن فيما يتعلق بالتخزين، وكان جمع كبير من الناس يعرفونه على أنه رجل يحب العظمة والجاه، ورغم هذا كله كانت قلـوب كثيرة، وبخاصة العوام السذج، ترهبه وتخشاه. وسوف نرى أنهم أظهروا كذلك نفـورهم من الحكم النيابى فى هذه الفترة.

وإذا ما كان المجتهد قد صمد للقتال ولم يرحل فقد يرجع ذلـك لأن؛ مجموعـات كثيرة التفت حوله وأبدت ميلاً إليه، ولكن حتى ذلك اليوم لم ينشب قتال فى تبريز وكـان الناس جميعًا يخشون ذكر اسم القتال وسفك الدماء، ومع هذا وقعت فى نفـسه الخـشية، واتجه للرحيل وخرج من داره ومعه أبناؤه وأتباعه ومعظمهم من رجال الدين والسادات، ولكن حينما بلغ ششكلان صعد المنبر وجعل يذم الحكم النيابى ويستميل الناس إلى جانبـه بكلامه. وما أن طاف هذا بسمع المجاهدين فى الجمعية حتى عزمـوا علـى أن يـذهبوا ويرحلوه بالقوة، ومضى منهم ألفان أو ثلاثة آلاف دفعة واحدة فى ثورة عارمـة وحـال حاجى الشيخ على أصغر ليلاوايى والشيخ إسماعيل الهشترودى وغيرهما بينهم وأعادوهم بعد إلحاح. وللحيلولة دون الصدام أرسلوا بعض الأئمة ثانية حتى مضوا وأبعـدوه عـن ششكلان .

وعلى هذا النحو طردوه من المدينة وأرسلوا البرقية التالية إلى طهـران لإخبـار نواب دار الشورى :

" طهران، إلى السادة نواب آذربايجان المحترمين أدام الله بقاءهم، أنتم تعلمون حق العلم أن بعضهم سعوا إلى إيجاد الوقيعة لأغراض شخصية، والهدف هو إهمال القـوانين العادلة للحكم النيابى، وكانوا دومًا يحولون دون تحقيق المقصود ومنهم الحاج ميرزا حسن آقاى المجتهد، وكل ما استطاعه فى هذه الفترة هو الإقدام على إجراءات تفسد هذا الهدف

المقدس. ولما اجتمع عامة العلماء والشعب قدموا إلى المدينة لإخماد الفتنة وتحقيق صلاح عامة الشعب وهذا ما نعرضه على سيادتكم ".

«عامة شعب تبريز والعلماء أعضاء المجلس الوطنى»

لم يستحسنوا هذا فى طهران وبخاصة السيدين اللذين استاءا من ذلك، وفى اللحظات الأخيرة وصلت برقية منهما إلى تبريز بأن يسترضوا المجتهد بكل وسيلة ويعيدوه إلى المدينة. وكان واضحًا أن المجاهدين وهم فى غضبتهم الشديدة هذه لن يقروا هذا الأمر أبدًا .

وفى غد الإثنين الأول من شهر اردى بهشت (الثامن من ربيع الأول) اجتمع رواد الحرية وبعض الأئمة فى الجمعية وتناقشوا فيما يتعلق بالنواب، الذين ساءت نياتهم واقترحوا أن يعدوهم خارجين عن الجمعية ويتم اختيار نواب آخرين بدلاً من الحاج ميرزا حسن وغيره.

وعلم اليوم أن الحاج ميرزا محسن وآقا ميرزا صادق والحاج السيد أحمد خسروشاهى قد رحلوا عن المدينة، كما رحل كذلك ثقة الإسلام، كذلك لم يبق فى المدينة فى ذلك اليوم كل من الحاج نظام الدولة وبصير السلطنة والحاج ملك التجار وآقا موسى مرتضوى حيث غادروها.

وتم النقاش فى الجمعية واقترحوا أن يعيدوا العلماء ووجهوا ببعض الأشخاص لإرجاعهم، لكنهم لم يكترثوا بالآخرين.

وكما أسلفنا كانت هذه الثورة مفاجئة وكانت هى نفسها نتيجة لتقدم الحكم النيابى. ونتيجة لتقدم الحكم النيابى كانوا يفصلون بين المنفعة العامة للشعب وضرره وبين مصالح رجال الدين وأصحاب الضياع خاصة فى تبريز، حيث كانت ثورة الأحرار أكثر فاعلية منها فى أى مكان آخر.

والآن ينبغى على رجال الدين إما أن يعلنوا الحرية ويتضامنوا مع الشعب وإما أن يتنحوا عن المطالبة بالحكم النيابى وأن يرعوا مصالحهم الخاصة. وقد اختار المجتهد وغيره هذا المطلب الثانى. وكما رأينا أن ميرزا صادق وغيره قد انصرفوا عن الشعب فى هذا الحدث وغادروا المدينة. ولم يظهروا مواساتهم للحاج ميرزا حسن، وقد عادى آقا ميرزا صادق الحاج ميرزا حسن ونافسه أعوامًا طوالاً وكفر كل منهم الآخر ودام هذا العداء واضحًا بينهما إلى وقتنا هذا.

وهذا الانصراف ومغادرة المدينة ما كان إلا للتنحى عن الحكم النيابى والعودة إلى أسلوب رجال الدين القديم. هذا وعلى الرغم من أن الجمعية أرسلت البعض فى إثرهم حتى يعيدوهم إلى المدينة بكل احترام وتحت الحراسة المشددة، فإن قلوبهم لم تصف تجاه الحكم النيابى، وفى هذه الفترة نفسها غيروا من مسلكهم وأظهروا العداء فى السر والعلن.

نعم كان لا يزال فى هذه الآونة كثير من الأئمة مع الأحرار، وكما رأينا أنهم شاركوا فى هذا الحدث أكثر مما شارك غيرهم. كما أن الحاج ميرزا أبا الحسن انكجى الذى يعد من المجتهدين (المجتهد الأعلى) بقى مع الأحرار، وبعد رحيل المجتهد واعتزال الآخرين انفتح المجال أمامه. وواقع الحال لم يكن لهؤلاء نشاط لفترة محدودة، كما أن هؤلاء الأئمة تنحوا الواحد تلو الآخر رويدًا رويدًا ولم يبق بين المطالبين بالحكم النيابى سوى الذين غضوا الطرف تمامًا عن رجال الدين وانضموا دفعة واحدة إلى الأحرار. كما أن الحاج ميرزا أبا الحسن مع كثرة ما فعل وحقق من الشهرة فى ظل تأييده للأحرار لم يستطع أن يكف عن حرفته الأولى واعتزل هو الآخر بعد فترة. وسوف نرى بعد أعوام عدة أى عداء عظيم أبداه تجاه الحكم النيابى بل وتجاه الدولة.

وكان ثقة الإسلام هو الوحيد من كبار رجال الدين فى تبريز الذى ظل على تضامنه مع الحكم النيابى، ومع أن هذا الرجل لم يبد كثيرًا من الحماس والحمية لكنه ظل

على تأييده وشغفه بازدهار الدولة والشعب. أما عن مغادرته للمدينة فكان هناك باعث آخر لهذا الحدث، ولما كانت هناك المنافسة والشحناء بين أسرته وأسرة المجتهد إلا أنه أبدى مواساته له فى هذا الوقت لعقد ألسنة السوء. كان هذا من قبل رجال الدين الذين كانوا يتنحون عن الحكم النيابى على هذا النحو، وقد بدأ هذا الأمر من تبريز ثم ظهر بعد ذلك فى طهران وغيرها. أما من ناحية الأحرار فكانوا هم كذلك يحررون أنفسهم من نير رجال الدين، وقد اتخذت الحركة منذ ذلك الحين وصاعدًا طابعًا آخر، لأنه كما سبق القول لما كان رواد الحركة من رجال الدين كان الحديث يدور لزمن طويل حول الشريعة وشيوعها، وكان حشد كبير من الناس يظنون أن هذا هو ما كان مرغوبًا فيه .

ثم انتشر الحديث بعد ذلك رويدًا رويدًا عن الدولة والشعب والوطنية وما شابه ذلك، وتعودت الآذان سماع ذلك وبهذا ظهرت أهداف جديدة وصار الأحرار حائرين بين هذا وذاك، وعدم الانسجام هذا فى الرغبة بينهم أوقع الفرقة بين الأحرار ورجال الدين، والآن حيث حدث هذا الأمر كان من نتائجه أن يكف الأحرار عن ذكر الشريعة وشيوعها ولم يحتاجوا إلى استفتاء من رجال الدين للقيام بأى عمل.

وكان هذا أيضًا أمرًا واجبًا ولا بأس به. وواقع الحال أن الأحرار لم يسلكوا طريقًا واضحًا فى هدفهم نحو سعيهم لتقدم الدولة والشعب، وكانوا يتبعون أوربا فى كل خطوة يخطونها قائلين : " ينبغى أن يكون لنا ما لأوربا فى كل شيء ". وكان هذا هو شعار أعمالهم.

ولو كان هذا من قبيل البصيرة فقد كان له بعض الضرر، وللأسف لم يكن هذا كذلك، وكانوا يكتبون فى الصحف أخبارًا منقولة عن الكتب الأوربية والجرائد سواء فهموها أو لم يفهموها. وكل من سافر إلى أوربا وعاد بفكرة عن الأوربيين قدمها كهدية

لشعبه، وقد أوجد هذا اضطرابًا عظيمًا فى العمل، وتولد عنه ما يعرف " بالتفرنج "، وهذا له قصة منفصلة!!

بداية قصة ماكو :

فى هذه الفترة ظهرت الفتنة فى ماكو أيضًا ووقع الأمر على النحو التالى :

عندما أقيمت الجمعية هنا بيد ناطق وأعرب عزت الله خان سالار مكرم عن تأييده للحكم النيابى ازدادت الفتن والاضطرابات يومًا بعد يوم، وظهرت الاضطرابات فى جميع القرى. وسمع سكان القرى اسم الحكم النيابى وظنوا معناه الشغب والعناد فما كان إلا أن أرخوا الزمام ورفعوا الأعلام على المساجد فى كثير من القرى، واجتمعوا هناك وقاموا بالثورة والشغب تجت عنوان " لقد أصبحنا نحكم حكمًا نيابيًا " وانتهى الأمر فى النهاية إلى أنهم اتفقوا على عدم الترحيب ببقاء إقبال السلطنة فى باكو وأخرجوه منها عنوة مع ثلاثة آخرين، ولم يعترض إقبال السلطنة وترك نساءه وأتباعه فى القلعة وعبر الحدود ومضى إلى القوقاز، من ناحية أخرى فإن سالار مكرم سيطر هو وبعض رؤساء الحركة على زمام الأمور، أو بمعنى أصح على موجة الاضطرابات حيث قاموا بالتعبير عن أنفسهم بالتظاهر .

وعقد الأكراد – ومعظمهم من اللصوص والقتلة – الجلسات فى قراهم ودون أن يدركوا مفهوم الحكم النيابى، ودون أن يغيروا من سلوكهم أخذوا يتباهون بحديثهم عن المطالبة بالحكم النيابى والتعاون والاتحاد وكانوا يرسلون البرقيات إلى تبريز وغيرها. وقد حدث هذا فى كثير من الأماكن، فبمجرد أن يعقدوا جلسة اجتمع فيها خمسون شخصًا أو مائة وتداولوا الحديث فى أى شىء، وكانوا يسمون ذلك تضامنًا وتعاونًا. كما كانوا يبرقون إلى المدن جميعها إذا ما دار حديث فى جهة من الجهات حول حمل البنادق والتدريب على القتال. واتخذوا هذا ذريعة للكتابة إلى الصحف "فى تلك الجهة يوجد

خمسون ألف جندى على أهبة الاستعداد " وكما فى آذربايجان يحدث هذا المسلك فى ماكو أيضًا، ولتقديم مثال لهذا اللغو والهراء نورد فى هذا الموضع الرسالة التى كتبوها إلى جريدة الجمعية وتم طبعها ونشرها :

" الحمد لله أن ساد النظام الآن فى خوى وسلماس ومناطق ماكو، كما أن أهالى ماكو كافة طالبوا بالحكم النيابى واقتلعوا من الجذور دوحة قوى الاستبداد المتمثلة فى إقبال السلطنة وأصحاب النفوذ فى ماكو والسادة الأواجيق، وبناء على قرار الآلاف من حملة البنادق فى ماكو والأواجيق وضواحيهما فهم مجهزون بسلاحهم بحيث إن كل من قال كلامًا يعترض فيه على الحكم النيابى قطعوا دابره، وقد رفع جناب عزت الله خان سالار راية الحكم النيابى، واتفق كافة أهالى منطقة ماكو على الاتحاد وهم عبارة عن ألف وخمسمائة قرية وصغير والأكراد والعشائر الجلالية وغيرهم. واستحلف السيد عزت الله خان سالار جميع الناس هناك سواء فى ذلك الأعلى أو الأدنى والرئيس أو المرءوس على كلام الله المجيد أولاً : على ألا يخونوا السالار. وثانيًا : ألا يألوا جهدًا فى تضحيتهم بالروح والمال فى سبيل الحكم النيابى وازدهاره، وثالثًا : أقسموا على عدم خيانة الشعب وألا يقصروا فى سبيل الحفاظ على مال وروح كل فرد منهم. وحتى هذا الوقت لم يكن شعب ماكو سواء منهم العجم أو الأكراد والعشائر قد رأى مثل هذا الأمن ولا تلك الطمأنينة فبلغوا جناب الشيخ سليم السلام وقولوا له طالما ساء المستبدون لا قدر الله كى يفسدوا أمر الحكم النيابى ويوقعوا النفاق بين أفراد الشعب فوجب أولاً قتل جميع أهالى ماكو والمطالبين بالحرية فيها وبعدها يحصلون على هدفهم وإلا فإن أهل ماكو مستعدون حتى آخر نفس لإنجاح هذا الأمر المقدس، وسوف لا يسمحون للظالمين أن يحملوا رقاب الشعب أعمالهم المنحوسة. وهذا كله من أنفاس جناب آقا ميرزا جواد القدسية وبركة جناب سالار مكرم العالية حيث ارتقت ماكو بتلك السرعة ونالت حقوقها " .

وفى تبريز كان نائب ماكو يمتدح دائمًا عزت خان بما له من حمية ورجولة ويدعو له. وبعد رحيل إقبال السلطنة ظل المكان هناك دون حاكم ولذا فقد كان سالار مكرم يريد الحكم لنفسه، ولكن نائب ماكو قد ألح فى تبريز، كذلك فعل نواب مجلس ماكو فى مكتب البرق التابع لمنطقة خوى على أن يمنح الحكم لعزت الله خان كما أرسل هو كذلك البرقيات إلى مجلس الولاية مبديًا تضامنه مع الحكم النيابى ومطالبًا بالدستور .

وطلبت جمعية الولاية من نظام الملك غير مرة أن يرسل حاكمًا لماكو، ولما كان نظام الملك لم يلق بالاً إلى المطالب الأخرى فإنه لم يهتم كذلك بهذا المطلب. ووقع حدث بسبب هذا على النحو التالى، حيث أرسل البعض ثانية إلى نظام الملك ذات يوم لنفس السبب وحينما عادوا قالوا : إن نظام الملك يقول : " ينبغى طلب الأمر من طهران ". وكانت جماعة من الناس تجتمع فى فناء الجمعية جريًا على المعتاد كل يوم، ولما ترامى هذا إلى مسمعهم اضطربوا وقالوا : " ما فائدة الوالى إذن ؟ إذا كان الوالى يطلب من طهران الإذن لكل عمل فما فائدته " ؟ كانوا يقولون مثل هذا الكلام وحاول نواب الجمعية منعهم وهدأوا من روعهم لكن نظام الملك حينما سمع ذلك غضب واتجه نحو باسمنج بحجة أنه راحل عن آذربايجان، وظل هناك يومين حتى ذهب بعض المبعوثين من قبل الجمعية وأعادوه.

كان هذا فى منتصف شهر ارد يبهشت وانقضى أمر ماكو على هذا النحو من الجلبة والفوضى حتى ترامى إلى السمع أن المطالبين بالحكم النيابى هناك – أو على الأصح المشاغبين – طردوا عزت الله خان وأرسلوه إلى خاله. وسوف نرى ماذا حدث فى أعقاب ذلك الحدث.

عودة الأتابك إلى إيران :

فى تلك الآونة التى كانت تقع فيها هذه الأحداث فى آذربايجان كانت دار الشورى

فى طهران تقوم بسن القوانين وتدوين المتمم للدستور والحيلولة دون وقوع مفاسد من قبل محمد على ميرزا، كما استقر أمر المصرف الوطنى، وطبقًا للائحة كان ينبغى أن يقرض الدولة خمس رأس ماله، وبناء على إخطار من دار الشورى دفعوا خمسة وستين ألف طومان لأفراد الجيش وغيرهم.

أثناء ذلك شاع حديث عن قدوم ميرزا على أصغر خان الأتابك، وكان محمد على ميرزا قد استدعاه، ولم يكن أحد يعلم حتى الآن ماذا سيفعل بعد مقدمه، ولكن لما كان الأتابك لم يبد تعاطفًا مع الشعب وقت صدارته العظمى سواء أيام حكم ناصر الدين شاه أو فى عهد مظفر الدين شاه، وكثيرًا ما أعرب عن سوء نيته، وكان الإيرانيون جميعًا يعتقدون أنه ميال للجار الشمالى؛ لذا فإن محمد على ميرزا الذى استدعاه كان لا يعتقد فى سوء نيته تجاه الحكم النيابى والحرية، ومن هذا المنطلق لم يتوقع الناس من مجيئه إلا الإطاحة بدار الشورى.

وللحق فإن محمد على ميرزا لم ير نتيجة لمساعيه الخاصة، لذا كان يريد الإفادة من ذكاء الأتابك وسداد رأيه حتى يطيح بجهاز الحكم النيابى بمعونة منه .

وذات مرة دار حديث فى المجلس فى جلسة السادس عشر من شهر فروردين (الثانى والعشرين من صفر)، اقترح فيها أحد النواب (لعله تقى زاده) أن يسن المجلس قانونًا بأن من أساءوا إلى الدولة لا ينبغى أن يتولوا العمل فيها، وأبدى حدة فى الحديث هذه المرة.

ومرة أخرى فى الجلسة الثالث والعشرين من شهر فروردين (التاسع والعشرين من صفر) حينما دار الحديث عن سوء نية الوزراء تردد اسم الأتابك وأطلق أحد نواب آذربايجان (يقال إنه تقى زاده أيضًا) عليه اسم بائع إيران، واحتد فى الحديث بسبب مجيئه إيران، وضمت طائفة من النواب أصواتهم إلى صوته. وتحدث أيضًا المغفور له

طباطبايى، وقال : "بعد دخول ميرزا على أصغر خان هذه البلاد ينبغى القول على إيران السلام".

وكانت بعض الصحف الأوربية تبدى التشاؤم. وقد ترجمت صحيفة "الحبل المتين" الصادرة فى كلكتة مقالاً عن صحيفة "هيرالد" الإنجليزية تعبر فيه عن تشاؤمها الشديد. لكن محمد على ميرزا والأتابك لم يكترثا بعدم الرضا الذى ظهر، كما لم يقدر الأتابك حركة الشعب حق قدرها وكان يعد الأحرار صغارًا إزاء حنكته وبراعته وتجاربه، التى تمرس بها طوال ثلاثين عامًا .

وعُلم بعد ذلك أن له كثيرًا من المؤيدين فى إيران وفى المجلس نفسه وقد قويت شوكته بهم. ومع هذا كان ينتهز الفرص على النحو التالى : "فقد رأى ميرزا ملكم خان الذى كانت له مكانته بين المطالبين بالحكم النيابى وكان حينذاك شيخًا هرمًا ويعيش فى أوربا بعيدًا عن إيران فخدعه وأخذ رسالة منه إلى سعد الدولة.

كذلك رأى طالبوف الذى كان من بين المطالبين بالحرية ومن المبجلين لكنه أبدى فتوره تجاههم، وحصل منه أيضًا على كارت توصية لسعد الدولة" [1].

هكذا يبدو أنه ندم على ما كان منه من أفعال فى فترات صدارته العظمى، وفى ذلك اليوم لم يكن فى استطاعته أن يفعل سوى ذلك، لكنه الآن بعدما انتفض الشعب وتبدل الحال والزمان كان يريد أن يقوم ببعض الأعمال الحسنة بدلاً من أعماله السيئة وأن يسعى لإنجاح الأمور. وكان ميرزا ملكم خان يكتب فى رسالته : " إن أمين السلطان هذا ليس أمين السلطان السابق، ويجب تهنئة إيران على الفائدة المرجوة من وراء تجاربه العديدة التى حصلها ". ولما كان سعد الدولة فى هذه الأونة رفيع المكانة بين المطالبين بالحكم النيابى وكان مسموع القول فى المجلس فقد كان يسعى بهذه الرسائل أن يجعله من أتباعه

---

[1] هذه المعلومات مأخوذة عن مقال كتب فى مجلة الاستبداد بشأن سعد الدولة. (المؤلف).

المقربين له.

وبناء على ما خطط فقد غادر أوربا متجهًا إلى إيران فى شهر فروردين فاستقبل استقبالاً حافلاً فى الأراضى الروسية، ولكن فى الوقت نفسه وقعت حادثة فى باكو كان ينبغى أن تجعله يندم على قدومه. وما حدث هو أن مجاهدى القوقاز الذين كانوا يرقبون طريقه وكانوا يأملون مجيئه ظنوا أن من يسمى عباس خان العائد من أوربا مع اثنين من رفقائه هو الأتابك فأطلقوا عليه عدة رصاصات، فخر قتيلاً .

أما الأتابك فقد عبر بحر الخزر على سفينة روسية مدرعة، وفى الثلاثين من شهر فروردين وصل إلى ميناء انزلى حيث استراح وهناك كانت السفينة الملكية تنتظر مجيئه، كما كان القوزاق والفرسان مصطفين للحراسة على القنطرة. وقد اجتمع مجاهدو أنزلى على أمل منعه. وحينما ظهرت السفينة أسرعت السفينة الملكية لاستقباله وأخذوا الأتابك من السفينة الروسية وانتحوا به جانبًا. أما المجاهدون فقد تجمهروا أول الطريق وأحدثوا ضجيجًا فاستل القوزاق والفرسان السيوف وأرادوا أن يفرقوهم لكنهم عجزوا عن ذلك؛ إذ كانت الغلبة للمجاهدين ولم يفسحوا الطريق فعاد الأتابك ثانية إلى السفينة الملكية وبقى فيها.

تراخى المجلس :

كان من الواجب أن يصل الأمر من طهران، فمن ناحية أبرق سپهدار حاكم جيلان إلى البلاط بكيفية ما حدث، ومن ناحية أخرى أطلعت جمعية الرشت المجلس واستدعت كلاً من مستشار الدولة وتقى زاده وميرزا فضل على ووكيل التجار (أحد نواب جيلان) برقيًا.

وعقدت جلسة اليوم فى البلاط بحضور محمد على ميرزا، وكان السيدان والحاج

الشيخ فضل الله حاضرين كذلك، وكان يقال إن الوزراء سيؤدون القسم ولكن أثناء الحديث وصلت برقية جيلان، فلم تنجز هذه المهمة. وأرسل الشاه نفسه برقية كما أبرق العلماء امتثالاً لرغبته ولكن دون جدوى، إذ لم يكترث المجاهدون. أما فى المجلس ففى جلسة اليوم نفسه أعيد النقاش ثانية ولم يمض أولئك النواب الأربعة إلى مكتب البرق بل ناقشوا الأمر فى الجلسة. وكان حال المجلس اليوم مختلفًا عما كان عليه من قبل، فقد اتضح أن مؤيدى الأتابك قد اجتهدوا كثيرًا فى تلك الأيام. ومع هذا فقد أبدى نائب آذربايجان (تقى زاده) تشاؤمه وعدم رضاه ولكن دون حدة، ولم يؤيده معظم الحاضرين، بل أيدته قلة منهم فقط.

وقال أحدهم : " إذا ما أردنا أن نطرد من البلاد جميع أولئك الأشخاص لخيانتهم السابقة لن يبقى لنا عشرة آخرون ". وقال كذلك : " لن يخشى الشعب مجىء هذا الشخص ". وذكر آخر قصة مطولة فحواها إنه فى الشهور الثمانية الماضية وقبل أن ينعقد المجلس شاهد أمين السلطان فى أوربا، وتحدث معه. وكان أمين السلطان يبدى عدم رضاه عن أعماله السابقة. وكان يقول: " سوف يقول التاريخ كلمته فيما بعد ويوضح ما إذا كان فى قدرتى أن أقوم بغير ما قمت به ". وكان يقول كذلك: " ينبغى الآن أن تكون إيران نيابية شرعية ". وقال آخر : " قبل يومين فقط كنت ضمن أولئك الأشخاص القائلين بأنه لا ينبغى أن يأتى أمين السلطان إلى هذه المملكة. لكنى فكرت البارحة ورأيت أنه إذا كان الأمر كذلك، فينبغى أن يرحل الجميع من هذه المملكة، وهذا لن يكون !! "وتحدث آخر وقال فى نهاية حديثه : "إن الأهالى لا يحولون دون مقدمه فالقصاص قبل الإدانة ليس صحيحًا".

وكان واضحًا أن هذه الانتفاضة وتلك الحركة التى ظهرت من النواب مع بداية افتتاح المجلس كانت خاصة بتحقيق مصالحهم لذا فترت قوتها الآن، والمجلس الذى أبدى ثباته فى حديثه عن الاستدانة من الدولتين وأيضًا فى حادث استجواب الوزراء يظهر الآن

مثل هذا التراخى، وكانت طائفة من النواب تؤيد مجىء مثل من ساءت نيته هذا إلى إيران فقط باسم الصداقة مع أمين السلطان أو نتيجة لرغبة كانت فى نفس كل منهما. وكانوا يقدمون مثل هذه الحجج الواهية إزاء هذا الأمر المخيف. وفى نفس هذه الأيام كان الحديث دائرًا فى المجلس عن ضرورة استدعاء عين الدولة إلى طهران ومعاقبته. ولكنهم الآن يغضون الطرف عن الأتابك وأعماله.

وبعد المداولة اقترحوا أن يردوا على لسان النواب الأربعة برقيًا من الرشت : "ليس ثمة ردع ولا منع من قبل مجلس الشورى الوطنى المبجل فيما يختص بمقدم أمين السلطان. ومما لاشك فيه أن الأهالى هناك وبخاصة أعضاء الجمعية يبذلون المساعى الجميلة للحيلولة دون الشغب" .

وبعد وصول هذه البرقية نفض مجاهدو جيلان أيديهم من منعه وقدم الأتابك إلى الرشت برفقة القوزاق والفرسان واتجه من هناك نحو طهران. أثناء ذلك لم يكف أتباعه عن العمل حيث أذاعوا أن الأتابك اشترط على محمد على ميرزا أن يكف يده عن معاداته للمجلس وللحكم النيابى وأن يبدى تأييده وتعاونه. وبهذه الشروط عاد إلى إيران.

وفى تلك الأيام التى وصل فيها إلى طهران ومضى إلى محمد على ميرزا أذاعوا كلامًا عما دار بينهما فقالوا : " إن الأتابك قال لمحمد على ميرزا : " لقد عانى حكماء أوربا أعوامًا طوالاً وقد فكروا فى الحكم النيابى على أنه حدود معروفة بين الشعب والدولة وإن لم يكن الحكم النيابى فى مصلحة الغير فكل قانون فيه لصالح الشاه نفسه، وهذا القانون وذلك الدستور الذى منحه الشاه السابق إلى شعب إيران عرف فى جميع عواصم أوربا وعرفوا إيران بناء على ذلك، وينبغى الآن أن تمحى عيوبه وتسعى لتقدمه وإذا ما قالوا إنه فى الإمكان هدم صرح الحكم النيابى فقد خانوا الدولة وجلالة الملك ".

وهذا كله كان خداعًا ولإخماد غضب الأحرار. ولهذا كان ينبغى عزل الوزير

الأفخم وإسناد زمام الدولة إلى الأتابك. ومما يثير الدهشة أن المجلس فعل هذا وأسبغ على ما يقوم به محمد على ميرزا الصبغة القانونية.

وكما أسلفنا، فإن وزارة الوزير الأفخم – وهى أول وزارة قانونية – كانت تسلك مسلكًا سيئًا بالرغم من جميع الآمال التى قدمتها للمجلس، فقد أبدى الوزراء عدم اكتراثهم بالمجلس ولم ينفذوا قوانينه ولم يردوا على رسائله. هذا وكانت الشكوى والمذمة فى المجلس دومًا وعلى الأخص على وزير الخارجية الذى لم يرد على رسالة أرسلها له المجلس طوال خمسة عشر يومًا وكانت بخصوص حادث وقع فى آذربايجان، وبعد ذلك قدم ردًا غير لائق وأعربوا جميعًا عن عدم رضاهم عنه.

وفى جلسة التاسع من أرديبهشت (السادس عشر من ربيع الأول) لما كانت الشكوى ثانية من الوزراء، قال صنيع الدولة رئيس المجلس : " بناءً على الدستور الموجود معنا اليوم لا نستطيع إلا أن نقول للوزراء إن ثبوت التقصير على أى منكم سيكون سببًا فى طلب عزله.

ونتيجة لهذا الاقتراح دار النقاش وأراد النواب أن يدلوا بأصواتهم فيما يختص بعلاء السلطنة وزير الخارجية، واعترض صنيع الدولة وقال: "لما كان الحديث بداية عن وزير الداخلية فينبغى أن يتم التصويت أولاً بشأن الرغبة فى عزله ". وتناقشوا حول هذا الأمر وصوت النواب على عزل الوزير الأفخم وزير الداخلية – الذى كان فى نفس الوقت رئيسًا للوزراء – وبهذا انتهت الجلسة ولم يناقش أمر وزير الخارجية مرة أخرى. وهكذا اتضح أن المجلس فقد وقاره، والأكثر من هذا كله أنه كان يعمل وفق رغبة الأتابك.

إدارة الأتابك :

بهذا أسقط محمد على ميرزا رئيس الوزراء الوزير الأفخم وشكل وزارة جديدة تولى فيها الأتابك وزارة الداخلية ورئاستها، وكان من المفروض أن يمثلوا أمام المجلس

يوم الإثنين الثالث عشر من أرديبهشت (العشرين من ربيع الأول) ولكن من أجل استمالة النواب، وحتى لا يتم النقاش أو الصراع فى ذلك اليوم، عقدوا يوم الخميس جلسة خاصة بدون شهود، وقدم الحاج مخبر السلطنة من قبل الدولة وتحدث قائلاً : " يجب أن يظل ذلك اليوم الذى أحضرت فيه الأمر بقيام الحكم النيابى ماثلاً فى خواطركم ". قالوا : " نعم إنه ماثل !!" قال : " فى ذلك اليوم حملت كلمة الحكم النيابى ولكنى اليوم أبشر بمفهومها، وأنتم تعلمون أن الوزراء الثمانية كانوا مسئولين باللفظ فقط ولا أعلم أى سبب لهذا! لعلكم تعلمون أنهم كانوا مسئولين لكنهم لم يفوا بما تعهدوا به... ولكن فى هذه الأيام حدثت بعض الإجراءات. وأنا بصفتى وزيرًا للعلوم فى استطاعتى القول إنه ابتداء من يوم السبت العشرين من هذا الشهر سنحضر نحن الثمانية وزراء ونتعهد بالمسئولية لفظًا ومعنى، وسوف يكون مسلكنا فى جميع الأعمال مماثلاً لسلوك وزراء الدول النيابية. والآن أقرأ هنا وثيقة الاتحاد التى كتبت فى حضور الملك صاحب الجلالة ووقع عليها أحد عشر شخصًا، ومنهم الثمانية وزراء المسئولين ".

بعد ذلك أخرج وثيقة أقسم فيها الوزراء بشرفهم وعفتهم وأشهدوا الله على أنه من الآن فصاعدًا يكون تعاونهم دومًا مع المجلس وأن يقتلعوا شأفة الفساد من الدولة وألا يضنوا بأموالهم وأملاكهم فى هذا السبيل. "وقد كتب الشاه أيضًا فى أحد الهوامش : "فلتمضوا كما كتبتم فى متن الرسالة ووقعتم عليها، ولتهيئوا أسباب السعادة للدولة والشعب متفقين متحدين ". ولم يمثل هذا الكلام فى تلك الرسالة شيئًا، فلم يؤثر على السامعين ولم يتحمسوا له، ومع هذا كله عبر بعض النواب عن سوء ظنهم، وكانوا يقولون : " لقد خدعنا البلاط حتى الآن غير مرة وخشيتنا أن تكون هذه المرة كمثيلاتها ". وساق الحاج مخبر السلطنة حديثًا مطولاً أثار به الحماس، فكان يقول : " قبل ذلك اليوم لم يكن صاحب الجلالة الملك راضيًا، وكان يخطط دومًا لإفساد هذا الأمر المقدس. هذا الرجل جاء به صاحب الجلالة الملك أملاً فى أن ينجز له شيئًا، ولكن الله أرسله كى لا يحقق ظنون

صاحب الجلالة، بل إنه طهر فكر الشاه من الخطأ، وأعد الشاه نفسه كي يعمل وفق ما يريد المجلس وإن شاء الله سترون آثاره" ... وألزم هذا الحديث الجميع الصمت كما خدع الأتابك الحاج مخبر السلطنة بذكائه وفصاحة لسانه.

وفى يوم السبت، قدم الأتابك ومعه سبعة وزراء إلى المجلس، وفى البداية تحدث الأتابك مستخدمًا خداعه ولسانه المعسول قائلاً : "إن الشاه، عكس ما كان الظن به، مؤيد للدستور والحكم النيابى. ونحن الوزراء قد اتفقنا أيضًا على أن نؤازر المجلس والشعب وأن ننجز الأعمال. وعندما وصلت طهران سألنى الشاه عن الحياة النيابية فى الدول الأوربية، فقلت ينبغى تضامن الدولة والشعب معًا حتى تنجز الأعمال ". ثم قال : " اليوم تنتظر جميع الدول ما سوف نفعل، وجميع جرائد أوربا لم تكن تكتب خبرًا عن إيران فى كل شهر قبل الآن، لكنها الآن تكتب عمودًا يوميًا عن أوضاعنا اليومية فى حين أن صاحب الجلالة يسعى بميله المبارك إلى تقدم هذا الأساس فلا موضع للتباطؤ والتراخى ثانية ولا سبيل أمامنا إلا التقدم لإنجاز الأمور".

وأثنى أعضاء المجلس على ذلك فى فتور ثم قدم الأتابك الوزراء وهم نفس الوزراء السبعة السابقين دون أن يكون الوزير الأفخم ضمنهم ! على هذا النحو انتهت الجلسة وأمسك الأتابك بزمام الأمور فى إيران وأبرق إلى جميع الجهات مطلعًا إياهم على إدارته وعلى تأييده الذى أبداه للحكم النيابى وللمجلس وعلى أمانيه الطيبة.

وكانوا فى تبريز أقل ثقة بمسلكه هذا وكذلك فى غيرها من المدن، وأنا شخصيًا أتذكر هذا الحادث، فعندما ذهبت ذات يوم فى تبريز إلى فناء الجمعية، وكالمعتاد دومًا رأيت جماعة تقف هناك، وفى نافذة القاعة يقف أحد المجاهدين القوقازيين (الذى عرفته عن بعد وهو مشهدى إسماعيل) وكان يتحدث إليهم، ولما أصغيت إليه وجدته يذكر الأتابك ومقدمه ويقول : " قدم هذا الوزير صاحب التصرفات الغابرة، وينبغى أن نرهب جانبه ".

ثم قص خبرًا مجمله أن صرافًا كان له قرد يتخذه حارسًا لدكانه وكان يمضى هو للقيام بأعماله، وذات يوم كان الصراف قد مضى لعمله ووصل لص أمام الدكان ولما رأى القرد والنقود أراد أن يحتال ويسرق النقود، ولما كان يعرف أن القرد يحب التقليد ويؤدى كل عمل يقوم به أى شخص أمامه. فجعل يلاعبه فحينًا يمط شفتيه وحينًا يرفع يديه وأخذ يقوم ببعض الألعاب وكان القرد يقلد كل ما كان يفعله. وفى النهاية وضع اللص كلتا يديه على عينيه ولما فعل القرد ذلك انتهز اللص الفرصة وسرق كمية من النقود وفر هاربًا ولما فتح القرد عينيه رأى أنه ذهب ومعه النقود. وأثناء ذلك عاد الصراف ولما عرف حقيقة ما حدث ضرب القرد عدة ضربات بالعصا، ومنذ ذلك الحين تعلم القرد، ومن ذلك الوقت وما بعده كان يفتح عينيه عن آخرهما بيديه كلما كان يرى لصًا. واستنتج من هذه القصة شيئًا وقال : " وينبغى علينا نحن كذلك الآن أن نفتح أعيننا أكثر من ذى قبل إلى أبعد حد". أما عن أعمال الأتابك فسوف نوردها فى مقال منفصل، فعهده عهد منفصل فى تاريخ الحكم النيابى لأنه فضلاً عن الأتابك وحيله الماهرة التى أثارت متاعب جديدة للمجلس والأحرار وكادت أن تلوى يد الجميع وتقضى على نفوذهم فى هذا الوقت تبدل - الوضع بالنسبة لحركة الحرية وأصبح الحال غير الحال.

فأى شعب ينتفض جدير بأن يغير أوضاعه المتلاحقة. وفى ذلك الوقت وقد مضى على بداية الحكم النيابى أكثر من تسعة أشهر حدثت تغيرات متلاحقة فى المجتمع والآن لابد من إيجاد طريق للعمل، لأنه كما رأينا، ضعفت الثورة والحمية التى كانت موجودة مع بداية الحركة ومنذ ذلك الحين وضحت ثغرات فى نوعية الأحرار هذا من ناحية، ومن ناحية أخرى لم يعد هناك وفاق بين رجال الدين والأثرياء، وبدأ الانقسام. وهذا كله بصفة عامة يمثل دورًا جديدًا فى تاريخ الحكم النيابى سوف نتحدث عنه فى مقال آخر.

"المقال الخامس"

بحث فى أحوال الشعب

يدور الحديث فى هذا المقال عن مــدى تــأثير الحركة النيابية فى مدن إيــران، كــذلك عــن المدارس والصحف التى تم تأسيسها فى الشهور الأولى للحركة .

أحد عيوب الحركة النيابية :

حتى هذا الحد جرى قلمنا بسرد أحداث تسعة شهور متعاقبة للحركة النيابية، ولكن فى هذا المقام (أى فى نهاية هذا الجزء) ينبغى أن نتوقف عن مواصلة التاريخ ونكف عن المضى قدمًا ونقول ما لم نقله من قبل وننظر نظرة فاحصة فى أوضاع الأهالى. لقد رأينا أن قلة هى التى أوجدت الحركة المطالبة بالحكم النيابى، ولم تكن الأغلبية الساحقة من الجماهير تدرك شيئًا عن مفهومها، ومن البين أنهم لم يكونوا راغبين فيه لذا كان الرواد أيضًا على عدة طوائف : طائفة المجددين الذين شاهدوا أوربا أو سمعوا عنها وكانوا يريدون حكمًا نيابيًا على غرار ما كان فى أوربا، وواضح أن حد علمهم بأوربا وبمفهوم الحكم النيابى والقانون كان على تفاوت، ولم يكن لكثير منهم إلا معلومات مشوشة.

والطائفة الأخرى أكبر من الطائفة السالف ذكرها وهى طائفة رجال الدين الذين أخذوا على عاتقهم مسئولية الريادة وكانوا ينقسمون هم كذلك إلى جماعتين : " الأولى تتكون من المغفور له بهبهانى وطباطبايى وأتباعهما وآخوند الخراسانى

والحاج طهرانى والحاج الشيخ المازندرانى وأتباعهم. وكانوا يتعاطفون مع الدولة ويرونها على شفا الهاوية فى يد البلاط القاجارى المستبد. وللحيلولة دون حدوث ذلك كانوا يعتبرون الحكم النيابى ومجلس الشورى أمرًا واجبًا، بيد أنهم لم يكونوا على علم بمفهوم الحكم النيابى على نحو ما رأوه وأدركوه بعد ذلك ولم يطالبوا به على غرار ما كان فى أوربا، وبخاصة أنهم كانوا بعيدين عن الممارسة السياسية وكيفية تقدم الشعب وما شابه ذلك من أفكار وتصرفات.

والجماعة الأخرى لم يكن لها أى علم بمفهوم الحكم النيابى، ولم تربطهم رابطة بالبلاد ولا بأهلها، وكان دخولهم فى مضمار المطالبين بالحكم النيابى رغبة منهم فى رواج الشريعة وازدهار نفوذهم. وسوف نرى أنهم أوجدوا من بعد عنوان "الشريعة " واعتزلوا المطالبين بالحرية عاجلاً أو آجلاً!!

كان هذا هو حال الرواد. وقد تبعهم عدد غفير من الناس وهم فى جهل بالحكم النيابى ومعناه، وإنما قاموا بالثورة والانتفاضة فقط متابعة منهم للرواد .

وفى بداية الحركة لزم وجود من يقف من الناس موقف المرشد والمعلم؛ ليعلموا الجميع معنى الحياة النيابية بالنسبة للشعب وللدولة وكيفية التقدم على النحو الذى توفر للأوربيين وليحثوهم على القيام بأعمال تعود بالنفع.

لم يكن من الواجب أن نتوقع من رواد الحكم النيابى أن يخلصوا الناس من جميع المشاكل (من تفرق فى المذاهب والأفكار ومن دنس الطباع) هذا ما لم يقدروا عليه فإن لم يقوموا بمثل هذا الأمر فلا سبيل للأسف. ولكن مما يؤسف له حقًا أنهم مع تلك الانتفاضة، التى عرفوا الناس بها على أنها المطالبة بالحرية لم ينصبوا من أنفسهم معلمين لها ذات مرة، ولم يوضحوا للناس المعنى الصحيح للحكم النيابى والمجلس والقانون، ولم يفتحوا لهم طريقًا لمسعاهم ولم يظهروا لهم أملاً .

وفى التسعة شهور هذه من بداية الحركة كان المجال مهيأ للقيام بمثل هذا

الصنيع، ولو ظهر المرشدون فى هذه الشهور على النحو الذى كنا نأمله فى طهران عاصمة الدولة، وفى مقر دار الشورى وعلموا الناس كما ينبغى بالقول والكتابة لكان مستقبل الحركة غير ما كان، وسوف نذكر ذلك فيما بعد. وهذه الثورة وتلك الانتفاضة التى ملكت الناس جميعًا، لو تزودت بمعلومات مفيدة بشأن حياة الشعوب والسياسة وما شابه ذلك من مجالات ما كان لها أن تخمد سريعًا، وما انتشر الحقد تجاه الحكم النيابى والحرية بخدعة من خدع رجال الدين وغيرهم.

وعدم وجود مثل أولئك المرشدين لم يكن عقبة فى تقدم الشعب فقط، بل عاد عليهم كذلك ببعض الأضرار. وفى جهات كثيرة كسوا الحركة ثوب الفوضى والفتنة. وما فعله السيدان وأتباعهما كان ذا قيمة عظيمة وينبغى أن تكون أسماؤهم فى التاريخ موضع إجلال وإعظام على الدوام، ولكن كان ينبغى عليهم فى عملهم هذا أن يعقدوا العزم على هداية الجماهير، والعجيب أنهم لم يفكروا فى هذا الأمر واكتفوا فقط بصدور الأمر بالحكم النيابى وفتح دار الشورى وسن الدستور، ولم يجدوا الحاجة ماسة للقيام بأى عمل آخر.

وهذا نفسه خطأ منهم، فقد أثاروا ثائرة الناس وبلبلوا خواطرهم لكنهم لم يكشفوا عن طريق للتقدم والجهاد فيه. وكانت عاقبة هذا الأمر أن بقى زمام الأمور فى يد رجال الدين وقارئ الروضة حتى زمن بعيد فى جميع الجهات، ولم يروا أن الحكم النيابى موائم لتطلعاتهم فى رواج الشريعة، وكانوا يستشهدون بالقرآن الكريم والأحاديث النبوية الشريفة ويتلون الروضة فى جلساتهم دومًا ولم يكن جمع كبير من الناس يفهم من الحركة غير هذا. وسوف نورد خبر حاجى الشيخ فضل الله النورى واقتراحاته المقدمة إلى المجلس.

وكان الناس فى حيرة من هذه الأعمال إلى وقت متأخر، وثاروا واستعدوا للجهاد ولكن مع هذا كله داوموا على ذلك. ومن بعد تناثرت أخبار أخرى على التدريج. وتلك الطائفة من الرواد الذين كانوا يريدون الحكم النيابى على غرار ما كان فى أوربا، حينًا يسوقون الحديث عن الوطنية والفداء، وحينًا يوردون اسم

المصانع والآلات، وحينًا يتحدثون عن عمران البلاد ومد خطوط السكك الحديدية وما أشبه ذلك .

وترتب على ذلك أن حار الناس فى أمرهم، ورويدًا رويدًا ظهرت الفرقة بين النمطين المختلفين فى التفكير، ولما لم ير رجال الدين مصلحتهم فى التضامن مع الحكم النيابى ووجب انفصالهم تبعتهم طائفة كبيرة، وهذه الطائفة التى صمدت لم تجد ثانية طريقًا للسعى والتقدم أمامها وظلت فى حيرتها. وطائفة المجددين هذه لم تستطع هداية الناس وكانوا يقولون لهم : " ينبغى أن نحب وطننا وأن نبذل الروح فى سبيله وأن نتعاون ونتكاتف فيما بيننا ويجب علينا أن نتلقى العلم .. " كانوا يقولون هذا ويستثيرون الناس دون أن يعلموهم المعنى الصحيح للوطنية والفداء والتعاون، ودون أن يكشفوا لهم الطريق لذلك، وتولى الناس بأنفسهم فهم ذلك وعرفوا الطريق إليه وكل منهم كان يضيف معنى جديدًا وفق هواه ومفهومه، كما كان يقوم بما يقوم به من أعمال من منطلق أهوائه. ولم تكن جماعة من الأحرار يعرفون إلا مذمة محمد على ميرزا أو الشكوى والنحيب من أعماله الاستبدادية. وكان أكثر الناس مذمة له ونقدًا يعتقدون أن هذا أدل دليل على مطالبته بالحرية، ولم يكن كثير منهم يعلم مفهوم الاتحاد إلا على أنه يعنى عقد الجلسات وإقامة الجمعيات. على أن يكون هذا كله باسم الوطن. ولكن لم يكن هناك واحد من الألف يعرف المعنى الصحيح له. وكانت الأغلبية الساحقة لا تعرف عن الوطن إلا أنه الأرض والجبل والصحراء وكانوا يتغنون بأشعار فى وصف مائه وهوائه باسم الوطنية وكانوا يعبرون شعرًا عن حبهم الذى يشبه اللغو والهراء.

أوجه التغييرات فى المدن :

من أعجب العواقب لهذا التيه والانفصال والانقسام الذى ظهر فى بعض المدن أن الجميع لم يسلكوا طريقا واحدًا. وكما أسلفنا أنهم أثاروا الخواطر وأفقدوهم راحتهم ورغبوا إليهم العمل، وسواء رغبوا أو أجبروا فإن اختلافهم فى مجال

الإدراك وكم المعلومات، وكذلك تباينهم بين ثبات أو خور، وأيضًا وجود الرواد أو انعدامهم، كل هذا جعل لكل مدينة وضعًا خاصًا بها، وهكذا اتخذت الحركة والجهاد ألوانًا متباينة فى كل منها.

فعلى سبيل المثال فى تبريز لما كانت الأفكار أسمى والمعلومات عن مفهوم الحكم النيابى والقانون أغزر والعزائم أكثر ثباتًا، كما أن الرواد كانوا يشاركون فى هذا السبيل ويسعون بشغف بالغ، لذا وجدت الحركة والجهاد قدمًا ثابتة، وأُنجزت مهام جسام كظهور جماعات من المجاهدين وتأسيس المدارس وما أشبه ذلك.

وكما رأينا فى تلك الشهور التسعة أن تبريز حاربت الاستبداد مرارًا وكانت لها الغلبة دومًا. وكانوا فى تبريز يفهمون كل شىء بمعناه الصحيح ويخطون خطواتهم فى كل عمل بشغف بالغ. وما ذكرناه من نقد هذه المدينة للدستور وقيامها بإحصاء عيوبه وصمودها لازدهاره هو أفضل مثال يعبر عن حسن فهم أهالى تبريز ومساعيهم الحميدة.

وكما ذكرنا، كانت فى هذه المدينة نقيصة واحدة وهى عدم وجود علماء مؤيدين للسيدين، لأنه كما رأينا أن كبار رجال الدين هنا ولوا وجوههم عن الحكم النيابى أكثر من غيرهم وأظهروا جميعًا العداء باستثناء ثقة الإسلام الذى صمد على موقفه. وإذا كانت تبريز تتباهى بكل شىء إلا أنها لم تستطع أن تتباهى بهذا، وواقع الحال هنا أن عددًا كبيرًا من صغار رجال الدين (من الأئمة والوعاظ) أبدوا تضامنهم مع الحرية وثبتوا حتى النهاية وقدم بعضهم تضحيات جمة وتحققت لهم الشهرة.

وفضلاً عن أولئك الذين ذكرناهم ينبغى لنا إيراد بعض الأسماء الأخرى كالحاج شيخ المحققين والشيخ سليمان ميرزا إسماعيل النوبرى، والشيخ محمد

خيابانى وضياء العلماء وملا حمزة وملا غفار، وجميعهم شاركوا فى المطالبة بالحكم النيابى.

والحاج شيخ المحققين هو نجل نظام العلماء، حصل العلم فى النجف وكان ضمن المجتهدين. وكان الشيخ سليمان إمامًا فى حى " جوست دوزان" وكان شيخًا غيورًا. وكان نوبرى وخيابانى قد انخرطا حديثًا فى سلك رجال الدين. أما ضياء العلماء فكان ينحدر من أسرة ثرية وهو شاب غزير العلم، ففضلاً عن تحصيله دروس الدين كان يتعلم اللغات الأوربية. وكان ملا حمزة من قراء الروضة ويعد من رؤساء حى خيابان، وفى ذلك الحى كان له كثير من الأتباع، وكان من المؤيدين. وكان كذلك ملا غفار من قراء الروضة.

ومن مدن آذربايجان خوى وسلماس وأرومى، وكل منها تبعت تبريز على قدر نصيبها، وقد تغلغلت فيهم الانتفاضة. وفى خوى، فضلاً عن الأحرار هناك – الذين كانوا يسعون من منطلق تعاطفهم مع الدولة والشعب – قدم من القوقاز ميرزا جعفر الزنجانى برفقة بعض المجاهدين إلى هناك، وكان يسعى لإيجاد جماعة من المجاهدين. وفى سلماس أقيمت الجمعية وكان الحاج الإمام رئيسها ويقوم بتدبير شئونها وكان يسعى سعيًا حميدًا فى هذا المجال. وكان المغفور له ميرزا سعيد من المجاهدين هناك، أحيانًا كان يعيش فى إسطنبول وأحيانًا فى تبريز وحينًا آخر فى سلماس وكان شابا كله غيرة وشهامة. وفى أرومى، فضلاً عن الآخرين كان هناك المغفور له ميرزا محمود سلماس وهو أحد مشاهير العلماء وكان يسعى معه ويسانده مشهدى باقر الذى قدم معه من القوقاز لتجنيد المجاهدين. وبرغم مشاكل الحدود هذه التى سنوردها بعد ذلك كان ازدهار الحركة هنا يأخذ طريقه. أما مراغه وأردبيل وغيرهما فقد تخلفت فى منتصف الطريق ولم تستطع أى منها مواصلة الطريق. وماكو التى كانت تظهر كل هذه الفوضى وتلك المهاترات لم

تتمكن من القيام بأى عمل، وسوف نرى عاقبة هذا التظاهر.

ومن المدن الأخرى التى كانت قريبة من تبريز نجد الرشت وانزلى وقزوين، وظهرت فى الرشت كثير من الاضطرابات فى بداية الحدث ولكن سرعان ما زالت، وحدثت حركة هناك وجهاد، وسوف نرى أنه فى الأحداث المقبلة كانت جيلان تبدى مؤازرتها لآذربايجان على الدوام ، ولم يشاهد فى قزوين كثير من الجلبة والشغب لكننا سوف نرى من خلال الأحداث المقبلة أن الحركة اتخذت لها طريقًا هناك.

لكننا من ناحية أخرى نجد أن الحركة فى طهران وغيرها من المدن اتخذت طابعًا آخر وصدرت عن الناس تظاهرات ومشاغبات بدلاً من الجهاد، وذلك فى ظل خور العزائم وقلة المعلومات وعدم وجود رواد متحمسين، ومع ذلك تقدمت الانتفاضة فى طهران، وإن لم تستطع رعايتها. وكان أهالى طهران يتظاهرون بغيرتهم لخور عزائمهم ولم تكن الحركة هنا سوى تظاهر ومراءاة.

وفى بداية الحركة وبعد منح الأمر بالحكم النيابى بفترة قصيرة شاعت هنا المنشورات السرية شيوعًا لا حد له وكان يقوم بذلك مئات الأشخاص وما كانوا يعلمونه من صحيح وغير صحيح دونوه على الورق ووزعوه. وكان كثير منهم يضمرون الحقد على رواد الحركة من أمثال السيدين وغيرهما وأطلقوا ألسنتهم بذمهم أو محاولة السيطرة عليهم. والحكم النيابى الذى كان شيئًا مستحدثًا وافدًا من أوربا كان الواجب على كل شخص أن يعرفه ويدرك مفهومه، ولكن بدلاً من ذلك كان الجميع يعلمون أو يقدمون معنى مختلفًا عن الآخر فيما يختص بالحكم النيابى أو القانون. وكان هذا مما يثير العجب.

بعد ذلك اختفت كتابة المنشورات السرية تدريجيًا وجاء الدور هذه المرة على

الجمعيات، وفى البداية كانوا يؤسسون الجمعيات تحت اسم "الأمر بالمعروف ". وهناك جمعية أسسها الحاج السيد محمد على همت آبادى، كما شكل ميرزا عبد الرحيم إلهى جمعية أخرى، كذلك فعل الآخرون. وكانت جمعية همت آبادى إذا رأت محتسيًا للخمر أو حالقًا للحيته أمرته بالأمر بالمعروف وانتهى الأمر إلى أن دار الحديث فى دار الشورى عن هذه الجمعيات وأصدر المجلس أمرًا بإغلاق جمعية همت آبادى. وبدأت فى الظهور جمعيات من نوعية أخرى كجمعية الشيرازيين والقاجاريين والعراق العجمى والجمعية الفاطمية وغيرها من هذه النوعية، بحيث كانت تقيم كل طائفة جمعية خاصة بها. وكان الحكم النيابى يعمل من أجل القضاء على مثل هذا الانقسام والانفصال وقد اتخذوا هذا حجة لخداع الناس. والأعجب من هذا أن هذا النوع من الجمعيات التى أوجدوها كانوا يعدونها أمرًا عظيمًا، وكتبوا لائحة مطولة وأرسلوها إلى المجلس قائلين فيها : " هكذا اتفقنا واتحدنا وسوف نسعى .. " وحينًا كانت تقرأ هذه اللائحة فى المجلس، و كانوا يعتبرون إقامة الجلسات واجتماع عشرة أو عشرين شخصًا وحديثهم فى مواضيع شتى نوعًا من الاتحاد والتعاون.

ولما كان شراء البنادق وتدريب الجند أمرًا ليس هينًا فإنه لم يزدهر هنا؛ حيث لم يدرك الناس قدره ولم يحث عليه الرواد، ولكن حل محل ذلك أن تنتشر الأنباء عن إحدى الجمعيات بأن تجمع بها عشر أو عشرون من هنا أو هناك وهم يحملون البنادق القديمة على أكتافهم، ثم يصطفون حيث تلتقط لهم الصور ولم يحرموا أنفسهم من مثل هذا الاستعراض.

كان هذا هو حال طهران، أما فى المدن الأخرى فكانت الصراعات فيها والاضطرابات أكثر من غيرها، والشىء الذى شاع حديثًا وكأن الناس كانوا يعدونه من نتائج المطالبة بالحكم النيابى هو التجمع فى مكتب البرق والإبراق المتواصل

إلى طهران ودار الشورى وغيرهما، وأفضى الأمر إلى أن أعربت دار الشورى عن استيائها من مسلك الناس هذا، وكثيرًا ما دار حديث فى المجلس فى هذا الشأن. وفى إحدى جرائد طهران (جريدة بلديه) كتبت قطعة فى تلك الفترة بشأن أصفهان، ولما كانت أفضل مثال لمظاهر بعض المدن التى لا طائل تحتها ودليلاً على هوس رجال الدين نوردها فى هذا المقام :

" منذ بضعة أيام تفضل بالحضور جناب السيد ثقة الإسلام وجناب السيد الحاج آقا نور الله، وعند مدخل المجلس ذهبا للتمشية فوجدا واحدًا من السادة المحترمين قد غلبه النوم وكان لحضرة الحجة عجل الله فرجه هذا الجواب، حيث قال : " اى بنى، هل لك أن تعاون أعضاء المجلس النيابى "؟ فما كان من ذلك السيد النائم أن قال : " وفقًا للقرار المذكور فإن سبعمائة من الشباب الراشدين قيدوا أسماءهم على أن يلبسوا ثيابًا خاصة عليها شارة المجلس ليكونوا جند الفداء للمجلس، وبالفعل أعدوا الشارات وكتبوا عليها بناءً على قرار المجلس " جندى المجلس الفدائى " وعينوا رئيسًا على كل خمسين منهم وكتبوا على شارته البيت التالى :

فداء للمجلس الوطنى وحكم نور الله

قول أشهد أن لا إله إلا الله "

زيادة المدارس :

جدير بنا أن نذكر فى هذا المقام بعض ما يختص بالمدارس والجرائد. وقد ذكرنا أنهما كانا من الاتجاهات الأوربية الوافدة على إيران قبل الحكم النيابى، وكان لهما الرواج، ومن الواضح أنهما ازدادا رواجًا بعد الحكم النيابى، وزاد اهتمام الناس بالمدارس، وقد قيل إنه منذ ذلك الوقت بدأ الحديث عن تعليم البنات

وفتح المدارس لهن، ونظرًا لعدم وقوع الفرقة بينهم حتى الآن كانت الثورة من أجل المطالبة بالحكم النيابى فى أوج قوتها فقلما وجد شخص يعادى تلك النزعة.

وفضلاً عن المدن الكبرى أقيمت المدارس فى المدن الصغرى كمراغه ومرند ومثيلاتهما، وفى قاين - إحدى القرى الصغيرة النائية - أسس شوكت الملك - الحاكم هناك - مدرسة عظيمة واستدعى لها المعلمين من طهران.

وفى تبريز نشبت ثورة عظيمة بخصوص هذا، وكان زعماء الحرية يعدون أن أحد مساعيهم الواجبة عليهم هو تأسيس المدارس، وبخاصة أنه قبل الحكم النيابى لم يعد هنا سوى مدرسة - أو مدرستين - ولم يكن لها ازدهار.

وعلى الرغم من أن أحد التبريزيين روج لانتشار المدارس بيد أن نصيب تبريز منها كان ضئيلاً، وبعد الحكم النيابى سعوا لزيادتها. وفى معظم الأحياء كان بعض المشاهير والأثرياء فى تبريز يتعهدون بجمع المال من أنفسهم ومن غيرهم لإقامة مدارس فى الأحياء، وكانوا يدفعون الرواتب الشهرية للمعلمين، وكذلك يلتزمون ببقية المصروفات وكانوا يقدمون أوجه الرعاية والاهتمام بها، وبذلك تأسست عدة مدارس واجتمع فى كل منها عدد غفير من التلاميذ.

وكما ذكرنا أن الناس بالغوا بسبب سذاجتهم فى الاهتمام بها وفى تقديرها، وعقدوا الآمال الواهية على تعليم الشباب. وكانوا فى نهاية العام الدراسى يقيمون الحفلات العظيمة فى كل مدرسة ويدعون إليها عددًا كبيرًا من زعماء الحرية ورؤساء الإدارات وغيرهم، ويجمعون الأموال من الحضور إعانة منهم وذلك بعد تقديم العروض والأناشيد والموسيقى وما أشبهها.

وكان الناس يقدمون الأموال عن طيب خاطر، وكثيرًا ما جمع فى حفل واحد نفقات سنة كاملة لإحدى المدارس. وكنت حاضرًا ذات يوم فى إحدى الجلسات

ودفع في ساعة واحدة ألف ومائتا طومان.

وينبغي أن يؤخذ دفع الأموال هذا على أنه مثال طيب لشغف النـــاس برقـــي المجتمع وازدهار الدولة. وفي تبريز كان كثير من الأثرياء وعلى الأخص التجـــار قد اعتبروا أنفسهم مدينين وعليهم أن يوفوا ديونهم بالتعاون مع هذه المدارس وهذه النوعيات من المؤسسات، لذلك بادروا بتقديم الأموال والتبرعات. وكان المغفور له الحاج الشيخ على أكبر الأهرابي أحد الأشخاص السباقين إلى ذلك علـــى الـــدوام، وهذا الرجل الفاضل موفور العقل والحكمة نادرًا ما توقف عن تقديم الأموال فـــي هذا المجال.

وقد ذكرنا تجار آذربايجان كثيرًا في هذا التاريخ؛ حيث كـــانوا أكثـــر مـــن غيرهم سعيًا لازدهار الحكم النيابي، لأنهم كانوا يساهمون بالمال والجهد والتضحية في ذلك المجال. وفي هذه الأيام الأولى عبر البعض منهم عن عظيم قدراته، فكانوا حريصين على حضور الاجتماعات حيث يتبادلون الأفكار والآراء، وعندما مَـــسَّت الحاجة لدفع الأموال لم يضنوا، وإذا ما عرضت مشكلة هبـــوا لإغـــلاق الأســـواق والإسراع إلى الجمعية. وتعاونهم هذا مع المجاهدين وغيرهم كان يزيد من ثبـــاتهم وصلابتهم. وفضلاً عمن ذكرناه ينبغي أن نذكر في هذا المقام اســـم المغفـــور لـــه محمد بالا، وكان هذا الرجل شقيق آقا الشيخ سليمان وكان تاجرًا مشهورًا، كما كان هو وأبناؤه وذوو قرباه في عداد الأحرار، وسوف نرى ما تحملوا في هذا الـــسبيل من مشاق وأضرار.

صحف تبريز:

أما عن الصحافة فقد ارتقت هي الأخرى بعد الحكم النيابي وظهرت بعـــض الجرائد الجيدة. ونحن هنا بصدد ذكر الجرائد التي ظهرت فـــي التـــسعة شـــهور

الأولى، ونسوق الحديث منفصلاً عن كل منها سواء فى تبريز أو فى طهران.

وكما ذكرنا أنه بعد منح الحكم النيابى ظهرت أول جريدة فى تبريز. ومجاهدو تبريز الذين أقاموا الجمعية أصدروا كذلك جريدة لنشر منجزات الجمعية، وقد أطلق عليها "الجريدة الوطنية" لفترة طويلة ثم صدرت بعد ذلك باسم " جريدة الجمعية ". وكان ميرزا على أكبر خان (من أسرة وكيلى) يكتب فى هذه الجريدة، وعلى الرغم من أنها لم تنشر إلا أعمال الجمعية وأحداث آذربايجان، وكانت تكتب بلغة سهلة وتطبع على الحجر بيد أنها كانت من أعظم الصحف فائدة فى تلك الآونة. وقد نقلنا عنها كثيرًا من المعلومات فى هذا التاريخ.

ويكفى شاهدًا على بساطة هذه الجريدة وطهر دخيلة محررها أنه حينما ولى المجتهد وجهه عن الحكم النيابى هو وبعض نواب جمعية الولاية ووقعت أثناء ذلك حادثة قراچمن، وكما ذكرنا كان هؤلاء النواب يؤيدون مجتهدًا وكانوا يرغبون فى أن يقللوا من حجم الحادث، وتحت عنوان أننا أرسلنا أربعة مبعوثين حتى يحققوا فى الحادث، ففى قراچمن نفسها كانوا يسدلون الستار عليها وأصدروا أوامرهم كذلك إلى ميرزا على أكبر خان بأن يسدل الستار هو الآخر. واضطر أن يتصرف طبق أمرهم، لكنه لم يستطع أن يخفى استياءه. وفى أحد الأعداد استهل مقالاً على النحو التالى : " أيها القلم حتام تبقى أسيرًا مكبلاً بالأغلال والسلاسل؟! وحتام يبقى اللسان المبارك مختومًا بخاتم الجور؟! " ثم أبدى الأحرار صمودهم أمام المجتهد وجماعة النواب تلك، وكانت لهم الغلبة، وقاموا بالتحقيق فى هذا وكتب ذلك ببساطة كما يلى :

" وبعد ذلك أوقفونى أنا مدير جريدة الجمعية موقف المحاكمة قائلين: قد عيناك من قبل العامة وجعلناك فى هذه الإدارة والجمعية، حتى تدرج ما وقع بدون

مداهنة أو ملاحظة وكان من الواجب أن تسدل الستار عن هذه الأحداث فى الجريدة حتى نعرف فى كل يوم من المفسد والمغرض وراء هذه الاتفاقات المعدة، ويكون لدينا علم بتحركات الظالم والخائن، وليس لكى نملأ وجه الصحف وظهرها بألقاب تافهة كحضرة المستطاب وجناب المستطاب ونتستر عما اقترفه الظالمون من ظلم وعن المستبدين والمحتكرين".

واضطررت أن أعرض بعض الأسانيد والوثائق الباطلة رعاية لهذه القيود. ومع تلك المشقة التى كابدها جناب آقا الشيخ سليم وغيره فى هذا الأمر المقدس، فإن المستبدين أخرجوهم بإشارة واحدة ولم يتم التحقيق وإحقاق الحق. وتحدثت فى الصحيفة مرات عديدة عن القيود المفروضة على القلم دون أن يهتم أحد بذلك. إننى أهاب المحاكمة اليوم وكم كنت مكبلاً بقيود التهديد والاستبداد ... فقالوا لقد كنت محقًا (وعفا الله عما سلف).

ولكن بعد ذلك إذا ما وجدنا فى تصرفكم أدنى أثر لِلَمْز أو مداهنة، وتسترت على تحركات الأفراد الشخصية فلن يعفى عنك ثانية وسوف تقف موقف المؤاخذة".

ومن صحف هذا العصر صحيفة أخرى ذات شأن فى تبريز وهى صحيفة "آذربايجان"، وقد كتبت بأسلوب فكاهى شبيه بجريدة (ملا نصر الدين) فى بلاد القوقاز وحوت صورًا هزلية (كاريكاتورية) ويمكن القول إنها كانت أفضل جريدة من هذا النوع بعد جريدة " ملا نصر الدين ".

وأسس هذه الصحيفة آقاى بلورى أحد تجار تبريز الأحرار، وتولى تحريرها ميرزا على قلى صفروف الذى أوردنا اسمه من قبل. وكان لمحمد على ميرزا فى فترة ولايته مطبعة فى تبريز، ولما أراد أن يمضى إلى طهران باعها واشتراها حاجى ميرزا آقا. وهذه الجريدة التى صدرت عامًا واحدًا كانت تطبع فى تلك المطبعة. وكما هو واضح من صورها كان لها مصور بارع.

كما صدرت بعض الصحف الأخرى كصحيفة " اميد "، و" آزاد " و"اتحاد

ملى" إلا أن كلاً منها احتجبت عن الصدور بعد أن صدرت منهـا عـدة أعـداد. وميرزا سيد حسين خان صاحب جريدة " عدالت " التى ظلت تـصدر حتـى بعـد الحكم النيابى ببضعة شهور، أصدر أيضًا جريدة صغيرة باللغـة التركيـة باسـم "أناديلى" - أى اللغة الأم - وسرعان ما احتجبت كذلك. هذه هى صـحف تبريـز، وقد وجدت صحيفة أخرى جيدة فى تلك الآونة كانت تصدر فـى أروميـة باسـم "فرياد" وكان صاحبها ميرزا حبيب الله آقا زاده ومحررها ميـرزا محمـود غنـى زاده.

ملا نصر الدين وآذربايجان :

كما أسلفنا كانت جريدة " آذربايجان " تتبع نفس أسلوب جريدة مـلا نـصر الدين، كما كانت بينهما بعض المنافسات الهزلية، وأحيانًا كان جواب الواحدة علـى الأخرى شعرًا، ولما قدم ميرزا على أصغر خان الأتابك إلى إيران وأبدى المجلس فتوره فيما يتعلق به، اتخذت جريدة " ملا نصر الدين" هذا حافزًا وأوردت بعـض الأبيات (من شعر صابر) فى مذمة الإيرانيين معبرة فيها عن أن ثورة إيران ليست إلا حركة تافهة حمقاء. وهذه بعض الأبيات التى أوردتها :

- يا أله .. لنرى ماذا حدث لادعاءاتك يا ولدى؟!
- إن شكواك وأناتك قد ملأتا الأرض والسماء .
- ماذا جرى؟ هل اقتنعت بخطئك فخففت ما كنت تؤديه؟
- قل لى الآن : هل الكلام المعارض كان لى أم لغيرى؟!
- ألم تقل ذات مرة. احتضن أهل المجلس؟
- إن الأتابك لا يفدى الروح لرضاك.
- ماذا جرى؟ سرعان ما انتهى كل من كان يعمل بالمجلس.

- فياترى هل كنت أنا الذى أغلقت الباب القديم بكعب الحذاء أم غيرى؟

وبعدما قتل الأتابك استغلت صحيفة " آذربايجان " هذا وردت ببعض الأبيات باللغة التركية وهذه بعض الأبيات عنها :

- والآن ترى أن ادعاءاتنا كلها كانت فى محلها.
- لقد استجاب الرب دعاءنا تو ما رآها.
- وبكمال اللطف أعطانا مطلبنا ومدعانا .
- والآن لمَ مات الملا عمو؟
- هل حدث ذلك منى أم من غيرى؟
- قلت لأهل المجلس: تلزمكم الغيرة والهمة.
- اترك أنت ظلك جانبًا وانظر ماذا تصنع السماء.
- لم أقل إن للأتابك ريشة على رأسه.
- والآن، لمَ مات الملا عمو؟
- فهل حدث ذلك منى أم من غيرى؟!
- إن صوت الوطن قد هز روحى وزلزلها .
- وفجأة بلغ الأذن صوت قاصد حلو الكلام.
- إنكم قد لمتم الأتابك وأجهرتم صيحاتكم.
- ومن نشوتها سكت صوته ورقد.
- هل حدث ذلك منى أم من غيرى؟

فردت جريدة " ملا نصر الدين " ثانية على هذا ببعض الأبيات ومنها :

- لقد تكبر واغتر ولم يتمكن من الحكم .
- فلا تنخدع كثيرًا .
- واغضض من صوتك ولا تكن كالصغار.
- وقبل أن تصلح رأسك وأذنك.
- لا تتحرك كثيرًا ولا تتظاهر .
- ولا تستمع يا بنى دون استشارة واستعلام .
- كى لا يكون الخطأ خطأك!
- إن لم ينتظم العمل .. هل يكون له رونق؟
- وقبل بزوغ الصبح هل يأتى النهار؟
- مع تفتح وردة هل يأتى فصل الربيع؟
- لا تسمع يا بنى دون استشارة واستعلام.
- كى لا يكون الخطأ خطأك!
- إنكم قتلتم الأتابك، وأنا لا أقر هذا الأمر .
- هل للأتابك ذنب! إن لم يكن له عمل لاقتنع.
- اننى لا أقتنع حتى يتجدد الباب القديم ويصبح حديثًا .
- لا تستمع يا بنى دون استشارة واستعلام.
- كى لا يكون الخطأ خطأك.
- فلنسلم أن الأتابك قد قتل.
- هل لديكم المدفع والبندقية؟
- هل لديكم أسطول فى البحر العميق حيث تجرى الحروب؟!
- هناك طاسة للحمام القديم، فأين عدتكم الحديثة؟
- لا تستمع يا بنى دون استشارة واستعلام

- كى لا يكون الخطأ خطأك!!
- حدثنى عن الوزارة، هل كونت وزارتكم المالية؟
- هل قطعت الأيادى الطويلة لذوى القلنسوة الفرو؟
- هل اختلطت مع بعضها ودفنت؟
- هل وصلت السكة الحديدية إلى بلدكم وسويت طرقها؟
- لا تستمع يا بنى، دون استشارة واستعلام.
- حتى لا يكون الخطأ، خطأك!!

فردت " آذربايجان " قائلة :

- تعالوا لنكن منفتحى العقل .
- هل يمكن لمن يقصد مدينة الرى .
- أن يقطع الطريق إليها ويطويه فى لحظة؟
- إن التُرك يقولون : " يواش، يواش ".
- والعرب ": شوى، شوى"!
- إن لم تكن عندك الطاقة، لا تستمتع ولا تستعلم، فاصبر.
- هناك كثيرون بعيدون عن الوطن.
- إنهم ينظرون إلينا وينادون بصوت خانق .
- والذين ضربوا الباب القديم بكعب الحذاء .
- يطلبون العودة فى كل لحظة .
- دون أن يروا دوران الزمان .
- قد خدعوا بعزهم الفرات.
- إن لم تكن عندك يا بنى الطاقة.
- لا تستمع ولا تستعلم، فاصبر!!

وأشعار " آذربايجان " هذه عرفت في تبريز وترددت على ألسنة الأطفال في الشوارع، وقد نُظمت أشعار أخرى من هذا القبيل. ولاشك أن ما تضمنته هذه الأشعار من ثورة وحماس كان له تقدير عظيم .

صحف طهران :

أما في طهران فقد كانت جريدة " المجلس " هي أول جريدة بعد الحكم النيابي، وكما ذكرنا، كان امتيازها باسم آقا ميرزا محسن ورئاستها لميرزا محمد صادق طباطبايي، وكانت تطبع بالفاخر من الورق والحروف الجيدة، كما كانت تعد من الجرائد ذات القيمة. وقلما وجدت في الجرائد الأخرى مقالات على نفس المستوى الذى كانت عليه مقالات هذه الجريدة، وقد نقلنا عنها معلومات كثيرة. ومن الأخبار التي وردت عن هذه الجريدة أنها حينما كانت تنشر أقوال النواب في المجلس كانت تذكر اسم كل نائب من البداية إلى النهاية، ويقال إنها انقطعت فيما بعد عن ذكر الأسماء بناء على رغبة النواب أنفسهم، وكانت تورد كل مقال باسم أحد الوكلاء، لكن الناس انتقدوا ذلك ، وأرسلوا من تبريز وغيرها يطلبون إليها أن تعود سيرتها الأولى في أسلوب كتابتها، وهذا دليل على تعلق الشعب بما يدور في دار الشورى من أحاديث واهتمامهم بمحاسن ومساوئ النواب .

وبعد جريدة " المجلس " ظهرت جرائد عديدة، مثل : "وطن"، "نداى وطن"، "كليد سياسى"، "كشكول"، "تمدن"، "نداى إسلام"، "بلديه"، "صبح صادق"، "حى على الفلاح"، "صراط المستقيم"، "كوكب درى"، "نوروز"، "الجمال"، "الجناب"، "محاكمات"، "ترقى"، "فوايد عامه"، "حيات"، "جامجم"، "خرم عراق عجم"، "زبان ملت"، "آدميت"، "حلم آموز"، "تدين"،

"اتحاد"، "روح القدس" و"مجلة استبداد" والعديد من هذه النوعية .

هذه هى الجرائد التى ظهرت فى الشهور التسعة الأولى أو بعد ذلك بقليل، وواضح أن هناك جرائد أخرى تلتها، وقد عفا الزمن على الرسائل السرية وانتهى أمرها، وهنا اشتدت الرغبة هذه المرة إلى إصدار الصحف. ويمكن القول إن الرغبة ازدادت فى هذا الأمر خلال ربيع وصيف عام ١٢٨٦ق – ١٩٠٧م؛ حيث اندفعت مجموعات كثيرة محمومة إلى إصدار الصحف.

وهذا الأمر هو مثال آخر لحال شعب طهران، ويبين مدى أثر الحركة النيابية فيها، ويمكننا أن نقدم تحقيقًا آخر فى هذا المجال.

وهذه الجرائد نعرف أسماء بعض محرريها، فكان محرر جريدة " نداى وطن " مجد الإسلام كرمانى الذى ذكرناه سالفًا وكان هذا الرجل سيئ السمعة ثم زادت سمعته سوءًا، ويتضح من جريدته – على الرغم من تزويقها الخارجى – أنها لم تكتب إلا للتكسب. وكان محرر جريدة " تمدن " مدبر الممالك وكما يتضح من جرائده أنه كان مطلعًا على أحوال أوربا وسياسة الدول العظمى، وعلى الرغم مما كان لها من قيمة فى تلك الآونة، فلم تكن جريدته ذات نفع عام واضح، ثم صار بعد ذلك من مؤيدى ظل السلطان ومن عملائه. وكان يحرر جريدة " العراق العجمى " أديب الممالك وكانت ميزته الوحيدة هى البراعة فى الحديث. وكان فخر الإسلام يحرر جريدة " تدين " وكان من الآشوريين فى " أروميه " (ولد فى أمريكا) ثم أسلم وقدم إلى طهران، وكان يعد من أتباع المغفور له طباطبايى، وبأمر منه كان يكتب عن الأديان ويناقش القساوسة وغيرهم من أصحاب المذاهب

المختلفة، وكانت جريدته تهتم أكثر من غيرها بالحركات المذهبية وسوف نُعرف جيدًا من بعد بسلطان العلماء الخراسانى محرر جريدة " روح القدس". أما الجرائد الأخرى فلا علم لنا بمحرريها أو أنهم لايستحقون الذكر، ومعظمها بلا رصيد. وكان بعض العاملين فيها إذا ما التقوا بشخص قالوا له : " ما تريده تنشره الجريدة، فأى شيء تريدون نشره "؟

وهذا دليل على أنه لم يفكر قط ولا يعلم هو نفسه ما سيكتب بل إنه لا يعلم لماذا يحررون الجريدة. وعلى هذا النحو صنعوا ما صنعوا.

والبعض منها يتضح من عناوينها أى وضع كان لها وما كانت خلفية هذه الأسماء كجريدة " حى على الفلاح "، " صراط المستقيم "، "حلم آموز"، " الجناب " و " كليد سياسى ". ومن الجرائد ما يستحق النظر فيه حيث نشرت من أجل إيقاظ الوعى لدى الناس وتعليمهم ما لم يكونوا يعلمونه. وكان كل شخص يسعى للكتابة فى هذه المعلومات القديمة، وعن فلسفة الكلام، ويريد أن يوضح الحكم النيابى بالأدلة الفلسفية ويستدل على كلامه هذا بأقوال الصوفية ويورد الشعر المثنوى. وآخر يدخل من طريق القرآن الكريم والحديث ويجعل من الحكم النيابى قوة إسلامية .

وحقيقة الأمر أن كلاً منهم لم يكن لديه أى رصيد من المعرفة ولم يروا الحاجة ماسة للتعلم. والحكم النيابى الذى كان مستحدثًا وافدًا من أوربا كان ينبغى أن يتتبع الجميع أسسه لوقت طويل، إلا أنهم لم يروا الحاجة ماسة لذلك، بل اكتفوا بسماع اسمه وكل منهم أضاف إليه أى معنى يتفق وفكره، وأسرعوا فى دفع كل ما فى جعبتهم من علوم. ولما تقدمت حركة الحكم النيابى وجاءت بمطلع حياة جديدة كان ينبغى أن تنتشر نوعًا من

المعلومات الحديثة فيما يختص بقيمة الحياة وكيفية الاهتمام بالدولة ودور الناس، والتعرف بالحدود التى كانت بينهم وبين الدولة، وأن تعلم للناس هذا وأن تقضى كذلك على المعلومات القديمة التى لا طائل تحتها فى فروع الفلسفة والتصوف وما أشبه. لكنهم لم يعطوا الفرصة لذلك، وكانوا يسعون لإفراغ الحكم النيابى من مضمونه الصحيح، حيث كان كل واحد يضفى على الحكم النيابى معنى آخر حسب هواه، وعلى هذا النحو جعلوا منه شيئًا عديم الفائدة .

وإذا ما زدت ذلك إيضاحًا قلت إنهم بدلاً من أن يسيروا على منوال الحكم النيابى كانوا يجتهدون فى أن يجعلوه تابعًا لسلوك حياتهم وأوضاعهم.

ومما يثير العجب انتشار الجمل المحلقة فى الهواء فى الصحف جميعها، فعلى سبيل المثال، إذا أراد شخص أن يكتب اليوم مقالاً فى مدح العلم كان يقول: " إن العلم هو الذى جعل صفحة أوربا جنة الله فى أرضه، إن العلم هو الذى أوصل الأمم المتمدينة إلى السيادة والسعادة، إن العلم هو الذى جعل اليابان ضمن الدول العظمى .. " وكان يورد عشرين أو ثلاثين جملة متتالية على هذا النحو. وفى الغد يريد أن يمتدح الأخلاق، فيورد نفس هذه الجمل عن الأخلاق. وبعد غد يأتى الدور على مدح المدنية فيوردها كذلك.

وكان هذا هو أسلوب الكتابة لأعوام طوال وكانت الجرائد العظيمة أيضًا تتبع هذا الأسلوب كجريدة " الحبل المتين " و " المجلس " وغيرهما. ولولا الخوف من أن يطول الحديث لكان فى استطاعتنا أن نورد فى هذا

المقام بعض النماذج مما جاءت به هذه الجرائد.

هذا وذكرنا أن العديد منهم لم يكن يعرف وسيلة فى طريق المطالبة بالحرية سوى الشكوى والنواح من البلاط ومذمة الشاه وبطانته، وكانوا يدركون أنهم كلما ازدادوا نحيبًا ومذمة زادت مطالبتهم بالحرية. هذا وكانت بعض الصحف تبدى حدتها قدر استطاعتها (ومنها جريدة "روح القدس" التى سنتحدث عنها بعد ذلك).

وباستثناء جرائد " نداى وطن " و" تمدن " و "صبح صادق " لم يكن لباقى الصحف الثبات والدوام، فقد احتجبت كل منها بعد صدور عشرة أو عشرين عددًا منها. كما لم تدم كذلك جريدة " صبح صادق " طويلاً، أما الدوام فكان من نصيب جريدتى " تمدن " ونداى وطن " حيث استمرتا حتى زمن قصف المجلس بالمدافع.

صحيفتان أخريان :

فى نهاية التسعة شهور الأولى ظهر اسمان عظيمان بين الجرائد الأخرى فى طهران هما " الحبل المتين " و " صور إسرافيل ". وقد أسس جريدة " الحبل المتين " السيد حسن كاشانى أخو مؤيد الإسلام، وكانت تعد فرعًا من جريدة الحبل المتين الصادرة فى كلكتة، ولما كانت هى أول جريدة يومية فى إيران كانت تطبع على ورق جيد وبحروف جيدة، وكان كاتب المقالات فيها آنذاك هو الشيخ يحيى الكاشانى وهو كاتب مجيد، وكانت تقدم معلومات أكثر من غيرها؛ لذا أصبحت لها القيمة بين الناس وظلت فى ازدهار حتى قصف المجلس بالمدافع .

وكانت جريدة " الحبل المتين " تصدر أسبوعيًا فى كلكتة ولكن يبدو أنه لم يكن لها فى تلك الآونة قيمتها السابقة، وذلك لظهور جرائد أخرى آنذاك، وقلت حاجة الناس إلى قراءتها خاصة أنه كان يستلزم لوصولها إلى طهران أكبر من شهر فتقل قيمة ما يكتب فيها. كما أنهم أسسوا فرعًا لها فى طهران .

وفيما يختص باتفاق إنجلترا وروسيا الذى سنذكره فيما بعد وكذلك ما كتب من مقالات ذات قيمة فى هذه الجريدة عن بعض الأحداث الأخرى، يمكننا القول إن السيد حسن - بعد تلك المساوئ التى ارتكبها ضد الحكم النيابى، وذلك العداء الذى أبداه ضد مساعى السيدين فى ظل تأييده لعين الدولة - قام فى هذه الفترة ببعض المحاسن ورأب الصدع على هذا النحو.

أما عن " صور إسرافيل " فقد أسسها ميرزا قاسم خان التبريزى وميرزا جهانگيرخان الشيرازى، وكان ميرزا على أكبر خان القزوينى (دهخدا) أحد محرريها. وكانت هذه الجريدة تطبع أيضًا على ورق فاخر وبحروف جيدة، كما كان محرروها ذوى فكر ورأى، وواصلت الصدور حتى قصف المجلس بالمدافع.

وكان يُكتب فى هذه الجريدة مقالٌ هزلى تحت عنوان " چرند وپرند " (بمعنى الهراء) وكان يحرره دهخدا، لذا كانت " صور إسرافيل " تماثل جريدتى " ملا نصر لدين " و "آذربايجان " وكان القراء يقبلون أكثر على قراءة هذا المقال الذى كان الباعث على رواج الجريدة أكثر من غيره.

ومعظم جرائد طهران كان يعيبها أنها كانت عديمة التأثير في الناس، ولم توائم الثورة التي قامت بها الجماهير. فقد انتفض الشعب تحت اسم المطالبة بالحكم النيابي والقانون وامتلأت القلوب بالأماني والحمية. ومن ناحية أخرى كان يحدث كل عدة أيام حادث آخر يحرك الانتفاضة في الناس، والآن كان ينبغي وجود جريدة تقف موقف المعلم من الناس وتذكر الأفكار الخاصة لتوضح مفهوم الحكم النيابي والقانون وتقدم معلومات ذات قيمة عن كيفية أوضاع الشعوب وسياسة الدول وما أشبه ذلك وتبدي تعاونها ومساندتها لثورة الناس والتأثير عليهم وتعبر عن سعادتها في الفرح وعن حزنها في الكرب، ولم تستطع جريدة واحدة من تلك الجرائد أن تفعل شيئًا من هذا، ولما كانت رغبتها ماثلة في حب الظهور أكثر من أي شيء آخر لم تعرض إلا كتابات جافة عن الفلسفة والتصوف والحديث. والشعر الذي هو بضاعة إيران لم يستخدموه مرة بلغة سلسة مبسطة لإثارة حمية الناس، وأحيانًا إذا ما نظم الشعر فلم يكن هناك وجود إلا للقصائد التركية والغزليات الهندية، وكان الاهتمام فيها قبل كل شيء بصحة القافية والإكثار من الجناس والترصيع.

وتلك الأشعار التركمانية العامية الواردة في جريدتي " ملا نصر الدين" و" آذربايجان " والتي أوردنا منهما بعض النماذج، لم ترد في صحف طهران. وجريدة " صور إسرافيل " كانت مستقلة في هذا المجال وكانت إلى حد ما أقرب إلى التعبير عن رغبات الناس وآمالهم، وقد تدخلت في الأحداث وكانت تنشر المقالات. وكان كذلك الحديث في المقال المعروف باسم " چرند وپرند " معظمه خاص بذكر هذه الأحداث، وعلى سبيل المثال أنه في نفس هذه الأيام شح الخبز في طهران وكذلك في تبريز

وعانى الناس كثيرًا من ذلك، وانتهز بائعو الخبز الفرصة وكانوا يخلطون الدقيق بالتراب. " ونشرت صور إسرافيل " مقالاً في باب " چرند وپرند " بشأن هذا.

وقد تباحث المجلس مرارًا – كما ذكرنا من قبل – عن بيع بنات القوتشى، وكانت دار الشورى تسعى لإعادة هؤلاء البنات، واستدعى إلى طهران آصف الدولة حاكم خراسان – والذى يقع على عاتقه مسئولية هذا الجرم – وحققت دار الشورى معه وحاكمته وكانت تتابع القصة بشدة. وعلى وجه الإجمال كانت عودة بنات القوتشى أحد أهداف الأحرار وكتبت صور إسرافيل مقالاً فى هذا الشأن على شكل الرواية، ونظمت شعرًا بسيطًا مؤثرًا على لسان البنات :

نحن فى السابعة عشرة والثمانية عشرة والتاسعة عشرة والعشرين .. يا ألله إن أحدًا لا يفكر فينا.

وكما ذكرنا كانت حركة الحكم النيابى فى بداية قيامها مطبوعة بطابع المطالبة بالشريعة أكثر من أى شىء آخر ثم اتخذت تدريجيًا لون الوطنية وطابعها. وهذان اللونان وضحا كذلك فى الصحف، وكان لجريدة "صور إسرافيل " الخطوة الأولى لهذا الطابع الجديد ونشر محرروها معلومات جيدة عن تاريخ أوربا ودولها، وظهر العداء لهذا الفكر المستحدث إلى حد أن المغفور له طباطبايى أبدى استياءه من ذلك، واستصدر أمرًا من وزير العلوم للحيلولة دون صدورها، لكنهم منحوا الطريق لها مرة أخرى، وظلت " صور إسرافيل " تصدر حتى قصف دار الشورى بالمدافع.

وسوف نورد سيرة ميرزا جهانگيرخان وغيره من الكتاب فيما بعد.

وفى الشهور التسعة الأولى لم يظهر سوى جريدتين فى تبريز وطهران، الأولى جريدة " فروردين " فى أروميه وقد ذكرناها من قبل، والثانية جريدة " جهاد أكبر " فى أصفهان، والتى يجب أن نورد لها ذكرًا بعد ذلك. وعلى حد علمنا لم تصدر أى جريدة أخرى فى هذه الشهور التسعة فى المدن الأخرى كشيراز وهمدان ومشهد والرشت وغيرها.

المؤلف فى سطور:

أحمد كسروى تبريزى

ولد عام ١٨٩٠ م فى محلة هكماوار بمدينة تبريز بإيران، اشتغل بالمحاماة وتقلد بعض المناصب فى السلك القضائى ونظرا لآرائه الجريئة بشأن فساد المجتمع والانسياق وراء بعض المعتقدات المذهبية الخاطئة تم اغتياله عام ١٩٤٦م على يد أحد قادة منظمة فدائيان خلق.

المؤلفات :

١- النجمة الدرية، وهو كتاب فى الصرف والنحو العربى.

٢- تاريخ آذربايجان (باللغة العربية).

٣- تاريخ طبرستان (باللغة الفارسية).

٤- تاريخ پانصد ساله ى خوزستان (باللغة الفارسية).

٥- آذرى يازبان باستان آذربايگان (باللغة الفارسية).

٦- نامه هاى شهرها وديه هاى ايران (باللغة الفارسية).

٧- الطريقة (باللغتين العربية والفارسية).

٨- التشيع والشيعة (باللغة العربية).

المترجم فى سطور:

أ. د/ هويدا عزت محمد أحمد

أستاذ ورئيس قسم اللغات الشرقية بكلية الآداب – جامعة المنوفية.

المؤلفات :

١- العلاقات الإيرانية الألمانية فى العصر الحديث وأثرها على الأدب الفارسى، المكتب المصرى لتوزيع المطبوعات، القاهرة ١٩٩٨م.

٢- المسرح الإيرانى فى الربع الأول من القرن العشرين، مجلة كلية الآداب، جامعة المنوفية (٣٥)، ١٩٩٨م.

٣- اتجاهات فى إصلاح اللغة الفارسية فى القرن العشرين، القاهرة ١٩٩٩م.

٤- صورة المرأة فى الأدب الفارسى الحديث والمعاصر، القاهرة ٢٠٠٠م.

٥- رواية "لا تتسنى" لمريم جعفرى، دراسة نقدية تحليلية مع الترجمة، المجلس الأعلى للثقافة، (٤٥٦)، ٢٠٠٢م.

٦- منطق الطير لفريد الدين العطار وتوارى الظلال فى الشمس لباربرا فرشيموت، دراسة مقارنة، ندوة كلية الآداب، جامعة عين شمس، أبريل ٢٠٠٢م.

٧- يهود إيران منذ أقدم العصور حتى الآن، ترجمة عن الفارسية، مؤتمر كلية الآداب، جامعة المنصورة، مارس ٢٠٠٤م.

٨- الثورة الإسلامية فى إيران، الأسباب والمقدمات، دراسة تحليلية مع الترجمة، المجلس الأعلى للثقافة (٧٢٩)، ٢٠٠٤م.

٩- صورة مصر فى الأدب الفارسى الحديث والمعاصر، ندوة الترجمة بالمجلس الأعلى للثقافة، ٢٠٠٥م.

١٠- البنية الفنية فى المجموعة القصصية "امرأة فى مهب الريح"، القاهرة ٢٠٠٥م.

١١- فاطمة الزهراء، ترجمة إلى العربية للدكتور على شريعتى، القاهرة٢٠٠٦م.

١٢- رواية "سأطفئ المصابيح" لزويا بيرزاد، دراسة فى الفضاء الروائى، القاهرة ٢٠٠٦م.

١٣- أشعار نسيم الشمال، دراسة فى الشكل والمضمون والمستوى اللغوى، القاهرة ٢٠٠٧م.

١٤- العلاقات الإيرانية الإنجليزية فى القرن العشرين، القاهرة ٢٠٠٨م.

١٥- على شريعتى، مناضلاً سياسيًا، مفكرًا اجتماعيًا، شاعرًا، القاهرة ٢٠٠٨م.

المراجع فى سطور:

أ. د/ بديع محمد جمعة

أستاذ اللغة الفارسية وآدابها بكلية الآداب جامعة عين شمس.

عضو المجالس القومية والمستشار بالمركز القومى للترجمة.

المؤلفات :

١- ترجمة منطق الطير لفريد الدين العطار.

٢- پروين اعتصامى، صوت المرأة الشرقية فى إيران.

٣- دراسات فى الأدب المقارن.

٤- من روائع الأدب الفارسى.

٥- من قضايا الشعر الفارسى الحديث.

٦- الشاه عباس الكبير.

٧- قواعد اللغة الفارسية.

٨- فينوس وأدونيس .

٩- من وهى الشرق (مجموعة مقالات).

التصحيح اللغوى: سلمـــان حســـن
الإشـــراف الفنـــى: حسن كامــــل